محمد أبو الغار

يهود مصر

من الازدهار إلى الشتات



دار الهلال



صورة الغلاف الفوتوغرافية لبيت عائلة يهودية بجوار معبد (بن عيزرا) بمصر القديمة.

إهداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

يهود مصر
من الازدهار إلى الشتات

محمد أبو الغار

الغلاف بريشه :
إيهاب شاكر

إهــــداء

إلى الوطنيين المصريين من كل الأديان

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور رفعت السعيد الذى أعارنى كتاب (الصحافة الصهيونية فى مصر) بقلم عواطف عبد الرحمن وكتاب (يهودى فى القاهرة) بقلم شحاتة هارون وقدمنى إلى الأساتذة: يوسف درويش وألبيرأرييه ويوسف حزان وهنرى كوهين, لإجراء حوارات معهم, والأستاذ يوسف (سوسو) حزان على إهدائى المرجع الكبير (اليهود المصريون فى فرنسا) (بالفرنسية) ومجموعة صور قديمة تخص اليهود المصريين, والأستاذ ألبير أوديز على إهدائى كتابه (أمثال مصرية بقلم يهودى مصرى) (بالفرنسية), والدكتور أسامة شوقى على إعارتى رواية (أدا أهارونى) (بالإنجليزية), والأستاذ أحمد فؤاد الذى أعارنى كتاب (الولد الذى ولد مرتين) بقلم فيكتور سميخ, وكتاب (العودة إلى الإسكندرية) بقلم روبير داسا, والأستاذ طلعت بدراوى الذى أعارنى كتاب (اليهود القراءون) (بالإنجليزية), وقدمنى إلى الأستاذ سام حكيم.

وأشكر الأستاذ كريم همام الذى أعارنى كتاب (القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبدالناصر), والأستاذ فيكتور سلامة الذى ترجم لى كتاب ألبير أوديز من الفرنسية إلى الإنجليزية، والدكتور هانى سكر الذى قدمنى للسيدة مادا ماير, والأستاذ زهير الفار الذى قدمنى للسيدة ميشيل, والأستاذ محمد الجندى الذى قدمنى للسيدة ديدار فوزى روسانو, والدكتور فؤاد عبد الستار الذى قدمنى للسيدة آنى كرم, والدكتور أحمد مرسى على تسهيل مهمة الإطلاع على الصحف والمجلات اليهودية فى دار الكتب والوثائق القومية، و للدكتور عبادة كحيلة الذى راجع أصول الكتاب.

و للجميع خالص شكرى و تقديرى.

مقدمة

منذ بدايات الوعي أفكر دائما في مصر وشعبها وتاريخها ومستقبلها, ويشغل بالي دائماً تاريخ الأقليات فيها. ومنذ سنوات طوال شغلتنى فكرة المواطنة, ويرتبط ذلك في ذهني دائماً بمفهوم المواطنة عند اليهود المصريين، فمنذ طفولتي كان اليهود المصريون يحتلون حيزاً كبيراً من تفكيري, فحين كان عمري ثمانى سنوات أعلنت حرب فلسطين الأولي عام ١٩٤٨, ومازلت أذكر أن أنوار منزلنا كانت تطفأ بسبب الغارات الجوية، وأتذكر صورة كبيرة أشارت إليها أمي في الصفحة الأولي من جريدة مصرية لبيت متهدم بسبب قنبلة ألقيت عليه من طائرة إسرائيلية، ولم أكن قد تعلمت القراءة بعد. وفي عام ١٩٥٦ عندما كنت طالباً في كلية العلوم أدرس فى السنة الإعدادية للطب حدث العدوان الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي علي مصر. وفي تلك الفترة حدثني والدي كثيراً عن اليهود المصريين الذين زاملهم في الدراسة والعمل، ومنهم رئيسه لفترة طويلة في البنك مسيو بتشوتو, وهو من عائلة سكندرية يهودية قديمة وشهيرة, وكان دائماً يذكر عنه كفاءته وأمانته.

وفي السنة التالية لعدوان ١٩٥٦ حدثت الهجرة الكبري لليهود المصريين, وأثار ذلك الكثير من الأحاديث ذات الشجون مع أبي الذي كان أول من أفهمني أن اليهود المصريين ليسوا طائفة واحدة متجانسة، وإنما هم مجموعة من الطوائف بينهم اختلافات كبيرة جدا وتوحدهم فقط الديانة اليهودية.

وبعد ذلك استمر الصراع العربي الإسرائيلي, وأصبحت مصر تلعب دوراً محورياً فيه حتي توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وما زال الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي مستمراً.

طوال تلك السنوات كنت أفكر في اليهود المصريين, وكان السؤال الذي يشغلني هل كانوا مصريين فعلا؟ وإذا كانوا كذلك فلماذا تركوا الوطن؟ هل تركوه طواعية أم تحت الضغط عليهم للرحيل؟ وهل حدث هذا الضغط من مصر حكومة؟ أم شعبا؟ أم من إسرائيل؟ أم من الصهيونية العالمية؟ أم لم يكن هناك ضغط أصلاً وهم الذين فضلوا

الرحيل ؟ .

شجعني علي ذلك أنه لا توجد دراسات مصرية عما حدث لليهود المصريين في المهجر أياً كان مكان انتقالهم, وماذا قالوا عن مصر؟ وماذا كان شعورهم نحوها ؟ وهل اختلف هذا الشعور في مختلف الفترات الزمنية اللاحقة ؟ وماذا يذكرون عنها ؟ هل يشتموننا ؟ هل يكرهوننا ؟ هل يحبوننا ويحملون في قلوبهم ذكريات جميلة عن حياتهم في مصر؟ كل هذه الأسئلة لم أقرأ إجابة عنها في الدراسات العربية وسوف أحاول أن أجيب عنها في هذا الكتاب .

وعندما اتخذت قراري ببدء الدراسة كنت أعلم أن الأمر سوف يستغرق وقتاً طويلاً ومجهوداً كبيراً, وبعد بحث سريع وجدت أن مكتبتي بها الكثير من المراجع المصرية اللازمة, واستكملت الباقي من المكتبات العامة وبعض الأصدقاء, أما المراجع الأجنبية فكان الحصول عليها أكثر صعوبة ، فكتاب جويل بنيين عن (اليهود المصريين) استطعت شراءه من مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعد فترة انتظار دامت عدة أسابيع, وبنيين باحث أكاديمي متميز يعمل فى جامعة بيركلي بكاليفورنيا بالولايات المتحدة ، وكتابه دراسة جادة محايدة ومتمكنة، وقد أفادتني كثيراً. أما كتاب كرامر عن (اليهود المصريين), وهو أطروحة الدكتوراه المقدمة منها إلي جامعة همبرج في ألمانيا فيعد أهم الدراسات وأعمقها عن اليهود المصريين, لكنها تتوقف عند فترة الخمسينات الحرجة, وكذلك كتاب إسحاق شامير السفير الإسرائيلي الأسبق في القاهرة ، فقد كان الحصول عليهما غاية في الصعوبة ، لأنهما كانا قد نفدا منذ سنوات ولم يعد طبعهما, وقد حصلت عليهما عن طريق الإنترنت تحت موقع الكتب المستعملة من مكتبة بارنزونوبلز, وهذه الكتب الثلاثة تعد من أهم المراجع لهذا البحث, وتتميز بالدقة الشديدة وتوخي مصادر البحث والحياد والأمانة في عرض الموضوعات, ويختلف كتاب شامير في جزئية مهمة، هي أنه مقسم إلي موضوعات كتب كلا منها مؤلف مختلف .

أما بقية المراجع الإنجليزية المهمة فقد بحثت عنها في المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة في نيويورك ، وحصلت على الكتب الفرنسية من

مجموعة اليهود الشيوعيين المصريين في باريس، وساعدني بعض الأصدقاء في ترجمتها. وبعد أن قرأت هذه المراجع جميعاً قمت بعمل ملخصات لكل ما رأيته لازماً لهذا العمل، و قمت بعدة زيارات إلي دار الكتب والوثائق القومية، وصورت عدداً كبيراً من صفحات الصحف والمجلات اليهودية التي كانت تصدر في مصر للاستعانه بها, ثم طلبت من بعض الأصدقاء أن يساعدوني في تنظيم لقاءات مع اليهود المصريين، وقابلت اثني عشر يهودياً مصرياً يقيمون في جنيف وباريس وفلوريدا, بالإضافة إلي المقيمين في مصر, وطرحت عليهم الأسئلة نفسها, وسجلت الإجابات وعرضتها في أحد فصول الكتاب، وكانت المقابلة تستغرق بين ساعة وثلاث ساعات.

ثم أجريت بحثاً علي شبكة الإنترنت لزيارة مواقع لليهود المصريين, ولخصت ما نشرته هذه المواقع في أحد فصول الكتاب, وقد حاولت عن طريق الإنترنت الحصول علي معلومات عن مؤتمر تم عقده عن اليهود المصريين في يناير ٢٠٠٤ في إسرائيل، لكن للأسف لم يرد علي المنظمون، وحاولت الاتصال عن طريق الإنترنت ببعض اليهود المصريين الذين يعيشون في إسرائيل، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل لأنهم لم يرغبوا في الرد علي.

وأخيراً وقبل أن يخرج الكتاب في صورته النهائية أصابتني الحيرة، فأنا فى الأساس باحث أكاديمي في الطب وأعرف جيداً كيفية كتابة البحث العلمى، وكيفية الإشارة إلي المراجع والهوامش، ولكننى في هذا الكتاب قررت أن أتوجه إلي القارئ العادي المهتم بتاريخ الوطن، لذا وضعت المراجع كلها في جزء منفصل في نهاية الكتاب, وحاولت بقدر الإمكان تبسيط المادة التاريخية مع عدم الإخلال بالمادة العلمية.

تبقي نقطتان: الأولي أنني لاحظت أنه عند ذكر اليهود في أي شيء تطفو علي السطح كلمة العداء للسامية، وأنا بوصفى مصريا أود أن أقول إنني لا أقبل من الذين اخترعوا العداء للسامية في أوروبا, وطبقوه خلال قرون طويلة بلا هوادة وبكل عنف، أن يعطونا دروساً نحن الساميين في هذا الموضوع ، لأن آباءنا وأجدادنا قد رحبوا باليهود الهاربين من العداء للسامية فسكنوا وعملوا في مصر بكل حرية, وكانوا

جزءاً مهما من المجتمع المصرى، حتي حدثت التغيرات السياسية التي أدت إلي هجرة اليهود من مصر, والغرض من هذا الكتاب شرحها بكل أمانة علمية.

أما النقطة الأخيرة فإنني أعتقد أن من واجب كل من الدارس والقارئ أن يراعي عند تقييم الأحداث والكتابات والمواقف السياسية التاريخية الزمن الذي حدثت فيه هذه الأمور، ففى أوائل القرن العشرين علي سبيل المثال كانت مصر ملاذاً لليهود الهاربين من صعود النازية, ورحبت بهم الحكومة والشعب، واشترك المصريون مع اليهود في أعمال ومشروعات كثيرة، لذا حين نقرأ الآن مقالة لكاتب يهودي فى نهاية العشرينات من القرن العشرين في جريدة مصرية فإنه يجب ألا نحكم عليه بما نشعر به الآن تجاه ما يواجهه الفلسطينسون من عنف و قهر، وإنما يجب أن نقرأه بروح ذلك الوقت, وإذا كانت الحكومة المصرية قد وافقت علي إصدار عشرات الصحف اليهودية فى الثلاثينات من القرن العشرين فلا يعني ذلك أن تلك الحكومة كانت خائنة أو متخلفة أو قاصرة في التفكير. وأعتقد أن قراءة التاريخ بفكر الزمن الحالى ومعلوماته، سوف تؤدي إلي خلل في تقييم المواقف و القرارات التي اتخذت في ذلك الوقت. و الأمر نفسه ينطبق علي طه حسين الذي رأس في الأربعينات تحرير مجلة مصرية أدبية مهمة وهي الكاتب المصري وكان أصحابها سبعة شركاء كلهم من اليهود بقيادة عائلة هراري، ونحن إذا نظرنا إلي هذا الأمر بعين القرن الواحد والعشرين و فكره ربما يصعق البعض من موقف طه حسين, ولكن بفكر الأربعينات الليبرالي, مع اعتبار وضع اليهود المصريين بوصفهم مواطنيين، فإن الأمر يعد طبيعياً.

هذه الدراسة استغرقت الأوقات التي استطعت استخلاصها من وقت البحوث العلمية وممارسة مهنة الطب خلال عامين, وأرجو أن أكون قد وفقت في الإجابة علي أسئلة كثيرة لم تجد بعد جواباً عن اليهود المصريين.

اليهود المصريون
مذاهبهم الدينية وأصولهم العرقية

يعيش اليهود فى مصر منذ زمن سحيق ، وحسب ما هو مسجل فى الكتب السماوية فإن اليهود طردوا من مصر فى تاريخ غير محدد, لكنه يزيد علي ألف عام قبل الميلاد, وتحفل التوراة وقصص اليهود وصلواتهم وحفلات طهور أولادهم وحفلات بلوغهم – وهى طقوس مهمة عند اليهود – بأغانٍ وقراءات يذكر فيها اسم مصر في العديد من المرات، وأذكر أننى كنت فى زيارة لصديقي د. فؤاد عبد الستار فى شمال ولاية نيويورك ، واصطحبنى لحفل بلوغ ابن أحد زملائه من الأطباء اليهود, وكان حفلا عظيماً حضره عدد كبير من الناس، وبعد نهاية الحفل الذي تغلب عليه الصفة الدينية بالإضافة إلى الصفة الاحتفالية، اصطف الجميع للأكل وتناول الشراب ، إلا أن أكثر ما لفت نظرى الأوراق التى وضعت على جميع المقاعد فى المحفل اليهودى لقراءتها بالإنجليزية فى معظم الوقت, باستثناء عبارات قليلة بالعبرية. وقد تكرر أثناء الاحتفال اسم (مصر) مرات عديدة فى كل القراءات والأناشيد التى استمرت نحو ساعتين، وأخذت أتصفح هذه الأوراق وهالنى الأهمية البالغة لمصر عند اليهود, وأعتقد أن اسم (مصر) استمر يلعب دوراً محورياً فى تفكير اليهود وتاريخهم الديني, ولم ولن يمحوه الزمن.

وبعيداً عن الحوادث التاريخية المذكورة مرات عديدة فى الكتب الدينية، فإن علم التاريخ الحديث يشير إلي أن لليهود تواجدا دائما فى مصر منذ القرن التاسع الميلادى، وقد ازدهر هذا التواجد فى بعض العصور, وتقلص فى عصور أخرى حسب تغير الأحوال السياسية للحكام.

● يقول بنيين «إن الجالية اليهودية المصرية تكونت عبر مراحل تاريخية طويلة، فقد عاشت في مصر أعداد كبيرة من اليهود قبل دخول الإسلام فيها, وزاد العدد عبر مراحل كثيرة حتى وصل إلى نحو ٧٥ ألف يهودى أو أكثر من ذلك قبل عام ١٩٤٨، حين أعلنت دولة إسرائيل».

الطوائف الدينيه لليهود المصريين

إنقسم اليهود فى مصر إلى طائفتين حسب الانتماء الدينى ، كبراهما هى طائفة

● رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة بركلى بكالفورنيا

اليهود الربانيين وكانت تمثل أغلبية اليهود المصريين. وطائفة الربانيين ينتمى إليها معظم اليهود فى العالم, وهم يؤمنون بالأسفار التسعة والثلاثين من التوراة (العهد القديم) بالإضافة إلى التلمود الذى يشرح أبحاث أحبار اليهود فى شئون العقيدة والقانون والتاريخ الدينى, وقد أباحوا تأويل نصوص التوراة وهم يؤمنون بالبعث للصالحين منهم, وكذلك يؤمنون بالمسيح المخلص الذى سوف يأتى آخر الزمان لينقذ الناس ويدخلهم فى ديانة النبى موسى. وتقويم الربانيين يعتمد على طريقة الحساب, وليس على التقويم الفلكى. وحيث إن طائفة الربانيين كانت تكون الأغلبية العظمى من اليهود المصريين, وكانت هى الطائفة التى ينطوى تحت لوائها معظم أغنياء اليهود, لذا فإن معظم المعابد اليهودية الكبيرة كانت تابعة لليهود الربانيين, ومعظم العلاقات الاقتصادية والصناعية والسياسية لليهود كانت تقوم بها طائفة الربانيين. وكان لكل طائفة من اليهود الحاخام الخاص بها والمعابد اليهودية الخاصة بها . ومن المعروف أن تقسيم اليهود حسب الطائفة الدينية شيء مختلف تماماً عن تقسيم اليهود المصريين حسب أصولهم وتوقيت هجرتهم لمصر.

طائفة اليهود القرائين

لعل أهم طائفة يهودية دينية تختص بها مصر هى طائفة اليهود القرائين، وهى طائفة أصغر حجماً وأقل نفوذاً من الربانيين, وهى أيضاً طائفة صغيرة بين يهود العالم, وهناك اختلافات عقائدية جوهرية بينهم وبين اليهود الربانيين, لأنهم يؤمنون فقط بالتوراة (العهد القديم) ولايؤمنون بالتلمود مصدرا من مصادر الديانة والتعاليم اليهودية، و التلمود هو الكتاب الذى ينظم الحياة اليوميه لليهود بناء على تعاليم أحبار اليهود، ويمكن مقارنة التلمود مع الفارق بأحاديث رسول الإسلام صلى الله عليه و سلم, ويمكن تشبيه اليهود القرائين بجماعة من المسلمين يؤمنون بالقرآن لكنهم لا يؤمنون بالحديث.

هذه الطائفة قديمة جداً، وهناك اعتقاد بأنها نشأت فى القرن الثامن الميلادى على يدي مؤسسها عنان, وهو يهودى عراقى عاش فى أرض بين النهرين. وعاش بعض القرائين فى مدينة الفسطاط التى أصبحت جزءاً من القاهرة بعد ذلك. ويعتقد مراد فرج- وهو محام شهير وشاعر ومثقف من اليهود القرائين -أنهم افترقوا عن الربانيين

قبل ميلاد المسيح، واتبعوا السنة القمرية فى حساب التقويم مثل المسلمين, مما أدى إلى الاختلاف بينهم وبين الربانيين حتى فى تواريخ الأعياد. ويقول مراد القدسى فى مرجعه المهم "اليهود القرائيين فى مصر" الذى نشره بالإنجليزية فى الولايات المتحده إن وجود وثيقة مختومة من عمرو بن العاص عام ٦٤١م تأمر زعماء الجالية اليهودية فى مصر بعدم التدخل في شؤون طائفة القرائين، تعنى أن تاريخ القرائين يرجع إلى ما قبل عنان الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى.

وتعد طائفة القرائين أقدم جالية يهودية فى مصر، فهى موجودة منذ أكثر من ألف سنة، ويتميز القراءون بأنهم يتكلمون العربية بلهجة مصرية سليمة ويكتبونها، ويتحدثون بها فى أعمالهم وفى منازلهم ، ويعدون أنفسهم أولاد بلد. ويقال إن عمرو بن العاص أعطاهم قطعة أرض فى البساتين بعد دخول مصر, وأعفاهم من الجزية. ومعظم القرائين كان يتمتع بالجنسية المصرية.

وكانت العلاقات تاريخياً متوترة بين اليهود القرائين واليهود الربانيين الذين كانوا يمثلون أغلبية اليهود المصريين, وذلك منذ عصر الحاخام سعديا الفيومى فى القرن التاسع الميلادى الذى نظر إلي ديانة القرائين علي أنها هرطقة، وبالرغم من أن طائفة اليهود القرائين كانت أحوالها الاقتصادية ممتازة تاريخياً, وكانت أعدادها كبيرة, إلا أن الجالية تقلصت وأصبحت جزءاً صغيراً مقارنة بالربانيين, وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٨ نحو ٥ آلاف نسمة. وكانت لتوانيا فى شمالي أوروبا هى المكان الذى استوطن فيه اليهود القراءون هرباً من الإمبراطورية الروسية، ولم يطبق عليهم قانون ضعف الضريبة الذى تَقَرّرَ على اليهود فى الإمبراطورية الروسية بوصفهم مارقين على الديانة اليهودية وليسوا يهوداً, وفى عام ١٩٣٩ اعتبرت وزارة الداخلية الألمانية أن طائفة القرائين من غير اليهود, وبالتالى تفادوا الوقوع تحت وطأة الاضطهاد النازى.

وبالرغم من هذه الخلافات فى تعريف طائفة القرائين فى أوروبا, إلا أنهم فى مصر كانوا يعدون يهوداً. وبالرغم من أن حاخام القرائين منع التزاوج من اليهود الربانيين، إلا أن أحد الزعماء المدنيين لطائفة القرائيين – وهو المحامى و الشاعر الشهير مراد فرج– وتلاميذه و حوارييه قد شجعوا على التزوج من اليهود الربانيين و التقارب معهم, وهو ما حدث بالفعل فى القرن العشرين. وكانوا يسكنون (حارة اليهود), وهي حى

كامل من شوارع كثيرة تنقسم إلى جزأين، حارة اليهود القرائيين وحارة اليهود الربانيين، وكانوا يعملون فى المهن نفسها وكانت علاقاتهم متداخلة.

● وتقول كرامر «إن اليهودية عند القرائين فيها مؤثرات إسلامية، حيث أن هذه الطائفة نشأت فى بغداد علي يد عنان بن داود إبان مرحلة مهمة من مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية، وقد عدوا متطرفين لأنهم يقرأون النصوص الأصلية فقط، لذا أطلق عليهم القراءون، وقد درسوا علم الاجتهاد فى الإسلام وطبقوه على التوراة، وكذلك اتفقوا على مبدأ إجماع الأئمة فى التفسير، فضلا عن علم المنطق، وأتفقوا على مبادئ عامة تحكمهم بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر، وكانت هناك خلافات أخرى بينهم وبين الربانيين مثل اختلاف طرق الذبح، وكذلك اختلاف طقوس الحياة يوم السبت. و كانوا أيضاً مهتمين بالروحانيات وتحديد العلاقة بينهم وبين الديانات الأخرى، و حرموا التزاوج من خارج الطائفة، ولديهم تقويم يهودى مختلف، وكانوا في أعيادهم و طريقة صلاتهم و تزيينهم لمعابدهم يقعون تحت تأثير إسلامى كبير، فهم مثلاً يخلعون أحذيتهم قبل دخول المعابد ويسجدون أثناء الصلاة ، وبذا تختلف هذه الطائفة فى الكثير من طقوسها عن طائفة الربانيين».

فى خلال القرن السابع عشر فى روسيا معقل اليهود القرائين تم إعلان الإنفصال التام عن اليهود الربانين، و نشأت الطائفة فى مصر فى عصر الدولة الطولونية، ثم الدولة الفاطمية وتقاربوا وتباعدوا مع بقية الجالية اليهودية فى أزمنة مختلفة، خاصة بعد أن تعرضوا لهجمة ضارية من الفيلسوف ورجل الدين اليهودى الشهير موسى بن ميمون.

كان عدد القرائين فى مصر نحو خمسة آلاف عام ١٩٤٨، إلا أن بعض المؤرخين يعتقدون أن العدد الحقيقى ربما يكون أكبر من ذلك، وكان معظمهمً يعيش فى القاهرة فى عطفة اليهود القرائين، وهى على حدود حارة اليهود الأصلية. وكان معظمهم من الفقراء الذين يشتغلون عمالاً وصنايعية فى صياغة الذهب والفضة وصناعة العطور والصرافة والتجارة وأيضاً قومسيونجية. وانتقل من تحسنت أحواله المالية بعد الحرب الأولى ليعيش فى العباسية والخرنفش، وكانوا على عكس بقية اليهود يرسلون أولادهم إلى المدارس المصرية، كما كان القادرون يرسلون أولادهم إلى المدارس الإنجليزية.

● **رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة هامبورج بالمانيا**

وظهرت بعض العائلات الغنية نسبياً مثل مسعودة وليشع وليفى وكوهين ومرزوق وصالح والطويل والمنجوبى وعبد الواحد. وكان القراءون يعيشون حياة المصريين, يتكلمون العربية, لكن نساءهم لم يكن محجبات مثل المصريات المسلمات، بل بالعكس كُنَّ يُظهرن جمالهن، وقد سجل المؤرخ والصحفى رودلف ناسو عام ١٩٠٤ خمسا وعشرين حالة من تعدد الزوجات بين القرائين, وكانت أسماء أولادهم: إبراهيم – زكى – يوسف – مراد – صالح – عبد الواحد, وهى أسماء عربية وتوراتية, وكانت أغلبية القرائين تحمل الجنسية المصرية فقط. وفى الأربعينات من القرن العشرين بدأت تزيد حالات الزواج بينهم وبين بقية اليهود, وباستثناء المحامى مراد فرج كان القراءون يبتعدون عن بقية اليهود ولا يختلطون معهم. وكانت علاقتهم باليهود الربانيين محدودة ببعض المؤسسات الخيرية والمدارس.

وفى مقالة طويلة عن ميراث البنت عند الإسرائيليين نشرتها مجلة الكليم (مجلة اليهود القرائين) وكتبها مراد فرج يقول فيها «إن البنت يحجبها أخوها فلا ترث معه شيئاً وهو يرث كل التركة حسب الشريعة اليهودية. و يذهب بعض المجتهدين إلى أن تأخذ البنت عُشر التركة تستعين به عند الزواج, وإذا كان هناك أكثر من بنت فلا أكثر من العُشر لهن جميعاً». وعلى ثلاث صفحات كاملة من المجلة يشرح مراد فرج آيات التوراة التى تفصل نظام ميراث البنت.

تكون المجلس الأعلى للقرائين عام ١٩٠١، وسيطرت عليه بعض العائلات الغنية نسبياً, حتى بدأ الشباب يتمردون عليه, وأقاموا فى العشرينات اتحاد اليهود القرائين بمصر، و كان مهتما بالخدمات الأجتماعية والثقافية, وحاولوا القيام ببعض الإصلاحات الدينية, و قد عبر هذا الاتجاهعن نفسه في بعض المجلات مثل "الاتحاد اليهودى" فى العشرينات, و"الشبان" فى الثلاثينات, و"الكليم" التى ظهرت فى الثلاثينات واستمرت حتى الخمسينات وكانت مجلة نصف أسبوعية. وقد أصدر القراءون جريدتهم "الكليم" عام ١٩٣٧. وقد استمرت فى الظهور حتى عام ١٩٥٦. وساهمت فى نشر ثقافه اليهود القرائين, وكانت مهتمة بالأمور الوطنية المصرية وانصهار طائفتهم ضمن النسيج المصرى، فأمين ليشع فى مقاله الافتتاحى ينتقد حاخام القرائين, لأنه لم يذهب لتهنئة شيخ الأزهر الجديد عام ١٩٤٦. وطالب بأن تشترك الطائفة فى الأعياد والمناسبات القومية المصرية، وكان كثيراً ما يظهر على غلاف "الكليم" صور كاريكاتيرية

لابن البلد رمز الشخصية المصرية، وأبو يعقوب رمز الشخصية اليهودية في إطار فكاهي، وكانت مدارسهم تعلم بالعربية، وكثيراً ما كانوا ينشرون الأزجال ، وكان مراد فرج يكتب الشعر بالعامية والفصحى، وكان يحاول تقليد أحمد شوقي. كما كان رئيس تحرير "الكليم" يوسف كمال، وهو ابن الملحن الكبير داود حسني الذي توفي عام ١٩٣٧, وكان القراءون يرتدون الملابس البلدية أو الإفرنجية مع الطربوش حسب طبقتهم مثلهم مثل باقي المصريين تماماً. يقول مراد القدسي في كتابه الذي رصد فيه تاريخ القرائين وحياتهم وعلاقتهم بالأقباط والمسلمين: كان هناك نوع من التنافس في العمل أدى إلى توتر العلاقات بين اليهود القرائين والأقباط. ويقول: الأقباط كانوا يشتغلون كتبة حسابات وماسكي دفاتر عند التجار القرائين، وقد أخذوا منهم منشآتهم بعد هجرتهم. وفي هذا الكتاب يؤرخ مراد القدسي للعائلات القرائية، ويعرض مجموعة نادرة من الصور لهم، إلا أن الكتاب لا يتعرض لمشاكل الطائفة بالتفصيل في السنوات الحاسمة قبل الهجرة.

ولم يكن القراءون مهتمين بالصهيونية، وباءت محاولات المنظمات الصهيونية في تجنيدهم بالفشل، وكان مراد فرج ينادي بالتقارب مع اليهود الربانيين الذين كانوا يعدون أكثر تقدماً وتحرراً، وقد هاجر بضع مئات من الشباب القرائين إلى إسرائيل ضد رغبة الحاخام ونصيحته، وكان من ضمن القلة التي انضمت إلى الفكرة الصهيونية موسى مرزوق الذي أعدم في حادثة سوزانا وأخوه يوسف مرزوق، ونظراً لكونه طبيباً فقد كان خارج إطار الجماعة، وانضم إلى مجموعة من اليهود الربانيين، لذلك أمكنه أن يصبح صهيونياً. وبالرغم من أن مراد فرج في كتاباته الأولى كان متعاطفاً ومؤيداً لإنشاء وطن قومي في فلسطين، إلا أنه لم يرتبط بأي منظمة صهيونية.

الطوائف اليهودية في مصر

بعيداً عن الطوائف الدينية ينقسم اليهود حسب أصولهم العرقية والإثنية إلى اليهود الشرقيين الذين قطنوا بلاد الشرق لفترات طويلة، ويدخل في جملتهم اليهود الذين طردوا من أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر واستوطنوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ومنها مصر، وهؤلاء يطلق عليهم اليهود السفارديم، وهناك طائفة اليهود الأشكيناز، وهم اليهود الذين قدموا إلى مصر والشرق عموماً من شرقي أوروبا.

وعند الحديث عن طائفة السفارديم ، سوف أقسمها إلى جزأين ، الأول سوف أطلق عليه (اليهود المصريون الأصليون)، وهم الذين عاشوا في مصر على نحو متصل قروناً طويلة. و الجزء الثاني هم (اليهود السفارديم) الذين هاجروا إلى مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

اليهود المصريون الأصليون

ونأتي للسؤال المهم: من هم اليهود المصريون الأصليون؟ والإجابة ليست صعبة كما يظن بعض المؤرخين، فهم اليهود الذين عاشوا على أرض مصر أجيالاً متعددة، تكلموا بلغتها وتشربوا عاداتها وتسموا بأسماء أبنائها ونالهم من الأذى ما نال المصريين وتحسنت أحوالهم كلما عم رخاء نسبي في مصر ، هؤلاء هم اليهود المصريون، وقد أخذت بهذا التعريف الذي لا يخضع لقانون علمي واضح ومحدد، لأنني أرى أن اليهود القرائين وبعض اليهود الربانيين عاشوا في مصر قروناً طويلة جداً، وكانوا يتكلمون العربية مثل كل المصريين، ومنهم الفقراء ومتوسطو الحال وبعض الأغنياء، وقد خرج منهم العمال والحرفيون والبائعون المتجولون وأصحاب المحلات في الأزهر – الذين كانوا يلبسون الجلباب البلدي والطربوش – والفنيون في الصاغة، ومنهم الملحنون والموسيقيون والمغنون والصحفيون والشعراء والزجالون والممثلون والأطباء والمحاسبون، وقد تكلموا العربية فقط، إلا من حصل منهم على قدر من التعليم مثلهم مثل باقي المصريين تماما. لذا فإن طائفة القرائين تعد مصرية صميمة، لكنها تدين بالديانة اليهودية، و كانت هذه الطائفة أقل الطوائف تعاطفا مع الصهيونية، باستثناء أفراد قلائل اختلطت عندهم مبادئ الصهيونية بالديانة اليهودية، لكن الأغلبية منهم لم تبتعد عن شعورها بالمصرية باستثناءات نادرة.

وتقدر كرامر عدد اليهود المصريين الأصليين الذي عاشوا في مصر قروناً طويلة بنحو١٠ آلاف، أي نحو ١٥٪ فقط من الجالية اليهودية، وعاش معظمهم في حارة اليهود وبعض مدن وسط الدلتا. وكان معظم أفراد هذه الجالية الأصلية يشتغلون عمالا حرفيين، وكانوا في الأغلب من الفقراء. والكثير منهم كان بدون عمل مستمر، وكان البعض يعيش على معونات الأثرياء من الجالية أو المؤسسات الخيرية، كما كان بعضهم شحاذين. وكان اليهود المصريون الأصليون لا يختلفون في شيء عن عامة الشعب

المصرى، لا فى اللغة ولا الشكل ولا المظهر, ولم تكن لغتهم العربية تحمل أية لكنة أولهجة مختلفة, وكانوا أولاد بلد حقاً. لكن يبدو أنه لم يكن يوجد اختلاط اجتماعى كبير بينهم وبين المسلمين والأقباط خارج نطاق العمل, وعاشوا فى حارة اليهود التى لم تكن بأى حال جيتو مثلما حدث فى أوروبا الشرقية, لكنهم كانوا فى الكثير من الأحيان يرسلون أولادهم إلى المدارس اليهودية الممولة من أغنياء اليهود. و لم تكن حارة اليهود حكراً على اليهود، بل كان يسكنها المسلمون والأقباط. ولم يكن يهود الحارة – وهم المصريون الأصليون – ممثلين بأى وضع فى الطائفة اليهودية أو قيادتها فى مصر ولم يكونوا أيضاً ممثلين فى أى مجلس محلى. و قد تم تهميشهم بواسطة أغنياء الطائفة من اليهود الذين وفدوا حديثاً على مصر.

أما يهود الدلتا فقد كانوا ممثلين, ولهم مكانة فى المجتمع المحلى, برغم أعدادهم القليلة, وكانت أماكن سكناهم تسمى فى هذه القرى و المدن تل اليهود أو خوخة اليهود.

وجدير بالذكر أنه كان هناك تقارب بين الجماعة اليهودية المصرية الحقيقية و مجموعة أخرى من مهاجرى المغرب وعدن كانوا أيضاً فقراء، وعاشوا فى السواحل التى هبطوا عليها مثل السويس وبورسعيد والإسكندرية، واستطاع اليهود المهاجرون من هذه المجموعة من الفقراء الأميين الجهلة فى خلال جيل واحد أو اثنين التحول من مجموعة شرقية التفكير والتكوين إلى مجموعة مماثلة لليهود الكوزموبوليتان, فتركوا اللغة العربية والثقافة العربية جانباً وانطلقوا مع اللغات والثقافات الغربية.

سكان حارة اليهود

● يقول جاك حسون المثقف والكاتب اليهودى السكندرى الذى ترجع أصوله لأجيال طويلة من قرية خلوة الغلبان بجوار المنصورة إن اليهود المصريين يتكونون من عالمين مختلفين، فلدينا مثال عديل اليهودى الشحاذ بجوار حلبة سباق الخيل فى الإسكندرية الذى يقول للناس صائحا «انظروا إلى جلبابى, إننى مصرى، انظروا إلى جاكتتى إننى خواجة». وهناك على الناحية الأخرى أعداد من اليهود من خريجى المدارس الأجنبية الذين أسسوا أعمالا ناجحة فى مصر، وتوصلوا إلى علاقات متينة مع رجال الأعمال فى الغرب, وأصبحوا يعيشون حياة أوروبية تماماً داخل المجتمع المصرى, وهذا الجانب من حياة اليهود فى مصر هو الذى تم توثيقه فى الصحف

● انظر المراجع الاجنبية

الأجنبية، وكذلك تاريخ البنوك والمصارف والشركات فى الإسكندرية، وهو الذى كتبت عنه الروايات والقصص, وربما الأفلام, أما الجانب الآخر من الحياة اليهودية فهو الأحياء اليهودية القديمة التى أطلق عليها حارة اليهود فى القاهرة، وسوق السمك فى الإسكندرية، وخوخات اليهود فى المحلة الكبرى، ودرب اليهود فى المنصورة، وقد تم أيضاً تصوير هذه الأحياء اليهودية فى كتابات، مثل وصف نورى فرحي للحى اليهودى فى الإسكندرية, و وصفه سوق السمك القديم وحُقّ الجعان وحُقّ النجار وحُقّ الحنبقى التى يزيد عمر كل منها على مائتين وخمسين عاماً ، وكان السكان من الفقراء فى هذه الأحياء يستفيدون من المؤسسات الخيرية اليهودية، مثل مؤسسة إدمون هرارى فى القاهرة, وكانوا يرسلون أطفالهم إلى مدارس الجالية فى القاهرة والإسكندرية، وكان معظمهم يتعلمون حتى يصبحوا عمالا مهرة أو أصحاب محلات صغيرة أو بائعين متجولين, وكانت هذه الطائفة تكون نحو ٣٠-٤٠٪ من حجم الجالية اليهودية, وكانت مندمجة - بوصفها جزءا أصيلا - فى المجتمع المصرى وكان ملبسهم ومأكلهم ومشربهم مشابها لبقية المصريين, باستثناء أنهم كانوا محافظين على استمرار الجالية اليهودية نسيجا منفصلا فى مصر, و كان أحد أمثلته النتيجة التى تحفظ التقويم والأعياد بالشهور اليهودية، وكانت تقاليدهم الدينية مختلفة عن اليهود الذى تغربوا مع الأوروبيين, فكانوا يحتفلون بليلة التوحيد فى أول نيسان فى المعبد, حيث يبدأون بقراءة الآيات الدينية، ويصلون، والغناء يصدح بالمزامير اليهودية على أنغام الموسيقى الشرقية، وكان الشعر يُقرأ ويغنى بالعربية مترجماً, وفى منتصف الليل يقرأ أكبر الموجودين سدر التوحيد لعبادة الله بالعربية، وكان يحتوى على عدد كبير من المترادفات الإسلامية، وكان يبدأ بقول (بسم الله الرحمن الرحيم) مثل المسلمين، ويقرأ تسعة وتسعين اسماً هي أسماء الله الحسنى, وكانت دعواتهم من التوراة مشابهة للدعوات التى يقولها المسلمون. وكانوا يذكرون إبراهيم الخليل وهارون و موسى عليهم السلام, وكانت كلمات الصلوات تملأ القلب والروح بالرهبة والخوف, وربما تعود هذه الصلوات المخيفة إلى عصر ناجيد إبراهيم نجل ابن ميمون. وكان شهر نيسان (سبتمبر) شهر ذكرى الخروج من مصر, يقول حاخام اليهود: «إن النجاة من مصر أعلنت فى أول نيسان، وكذلك نجاة بني إسرائيل سوف تأتى أيضاً من مصر فى أول نيسان».

وكانوا يحافظون على صيام شوبايين, وهو صيام يومى الاثنين والخميس لمدة ستة أسابيع, وفى السنة الكبيسة تزداد مدة الصيام إلى ثمانية أسابيع. ويعلن بدء الصيام ونهايته في المعبد اليهودى القديم فى حارة اليهود, وتتم قراءة خمسة عشر جزءاً من كتاب دينى مرتين حتى يقتلوا الشيطان. وبعد الصلوات يتم ذبح عجل - تشتريه الجماعة اليهودية- داخل المعبد, ثم تتم قراءة بعض كلمات موسى.

أما البيوريم فهو عيد دينى فولكلورى يلبس اليهود فيه ملابس جديدة ذات ألوان زاهية، احتفالاً بإنقاذ اليهود من الحاكم العثماني أحمد باشا عام ١٥٢٤ ميلادية, وكانت الاحتفالات تقرأ بالعربية و العبرية. ومن الأحتفالات رحلة دينية إلى معبد المحلة، وكذلك مولد أبي حصيرة فى دميتوه قرب دمنهور. هذه أعياد حارة اليهود، علي حين كان اليهود الأغنياء يحضرون الأعياد ذاتها فى المعابد اليهودية الفاخرة، حيث غناء الكورال وعزف الموسيقى الكلاسيكية، بحيث يبدو الاحتفال اليهودى مشابهاً للاحتفال الكاثوليكى.

والسؤال المهم كما يقول جاك حسون: ما هى علاقة هؤلاء اليهود بأولئك اليهود؟، يعنى علاقة يهود الحارة باليهود الخواجات الذين يسافرون إلى باريس ولندن, وبعضهم حصل على البكوية أو الباشوية، على حين كان يهود الحارة يلبسون القفطان والجلابية ويأكلون الفول والملوخية والقلقاس، ولذا لا يمكن تصنيف اليهود المصريين بوصفهم وحدة واحدة أو نسيج واحد, لأن ذلك مخالف للحقيقة والواقع و التاريخ، فهم مجموعات مختلفة تماماً فى الثقافة والانتماء والحالة الاقتصادية واللغات التى يتحدثونها.

خلوة الغلبان

تقابل إبراهيم أصلان الروائى والكاتب المصرى المعروف ضمن مجموعة كبيرة من الأدباء المصريين مع جاك حسون اليهودى الشيوعى المصرى الذى ترك مصر عندما كان عمره ستة عشر عاماً إلى باريس, وسأل حسون أصلان: (إنت منين) فأجاب: من الكيت كات, وعندئذ قال: حسون أنا من خلوة الغلبان وهى قرية قريبة من المنصورة, وقال حسون لأصلان إن أباه طلب منه عندما يموت أن ينثر حفنة من تراب مصر على قبره, إلا أن حسون لم تتح له الفرصة لأن يفعل ذلك لأبيه، لكن أتيحت لأمه, فقد زار مصر قبل وفاتها وأحضر تراباً مصرياً نثره على قبرها بعد الوفاة.

وعندما زار حسون مصر ، ذهب بعد أربعين عاماً إلى خلوة الغلبان, ووجد البيت الذى عاش فيه عندما كان طفلا, ورأى قضبان النافذة التى كان يطل من ورائها مشاهداً أباه متجهاً إلى المحطة صباح كل يوم, فقد كان يعمل كمساريا للقطار. وقال حسون لأصلان: مصر جميلة، وقد أفسدت إسرائيل كل شيء. وتوفى جاك حسون بالسرطان فى باريس عام ,١٩٩٩

كان جاك حسون أحد كبار الإخصائيين النفسيين فى فرنسا, وقد ولد فى الإسكندرية عام ١٩٣٦، واستقر فى فرنسا بعد هجرته من مصر عام . ١٩٥٤ وقد زار مصر مرات عديدة, وكان مهتماً بإنقاذ المقابر اليهودية فى البساتين, وكان معروفاً عنه أنه متفتح الفكر ووا ع بحركة التاريخ, وعندما زار حارة اليهود ومعبد ابن ميمون عام ١٩٨٣ شعر بسعادة بالغة حين رأى اللافتة التى كُتب عليها عطفة "حسون" ما زالت كما هى فى المكان نفسه, حيث كان بيت جده أكبر بيت فى هذه العطفة الصغيرة.

ويقول محمود عبد الظاهر: إن حارة اليهود لم تكن حارة بالمعنى الحرفى, فهى فى الحقيقة حي كامل فيه شوارع و حوارى كثيرة متصلة ببعضها البعض، وتقع فى وسط القاهرة بين القاهرة الإسلامية والقاهرة الخديوية وكان يسكن في الحارة أعدادٌ كبيرة من المسلمين والأقباط, وكان سكانها من اليهود مرتبطين بأمرين, أولهما الدخل المحدود, والثانى القرب من مصادر الرزق بالنسبة للحرفيين فى الصاغة وغيرها, أما من تحسنت أحواله المادية فقد كان يهجر الحارة إلى عابدين أو باب اللوق أو باب الشعرية أوالجمالية أوالأزبكية أوالدرب الأحمر, ومن ترتفع أحوالة المادية أكثر كان ينتقل إلى العباسية ومصر الجديدة, أما من انضم إلى الأغنياء فكان سكنه الزمالك أو جاردن سيتى, ولم تكن الحارة –كما هو واضح– مكاناً إجبارياً ملزماً لسكن اليهود فى أى زمان من التاريخ الحديث لمصر, لذا فإنها لم تكن جيتو يهوديا مماثلا للجيتو فى أوروبا الشرقية الذى ألزم اليهود بالسكن فيه. وفى الإسكندرية عاش اليهود فى مختلف الأحياء حسب وضعهم الاقتصادى, إلا أن فقراءهم كانوا يسكنون ما يعرف باسم سوق السمك.

يهود الإسكندرية

يقول جاك حسون إنه كانت هناك جالية يهودية فى الإسكندرية منذ نشأة هذه

المدينة و كان عدد يهود الإسكندرية فى القرن التاسع عشر نحو أربعة آلاف يهودى ووصل هذا العدد إلى ١٨ ألفا فى أوائل القرن العشرين, وارتفع إليأربعين ألفا عام ١٩٤٨. وكانت الهجرة من اليونان وتركيا وسوريا ولبنان وفلسطين والمغرب، وكذلك إيطاليا وفرنسا.

وفى نهاية القرن التاسع عشر هاجر إلى الإسكندرية عدة آلاف من اليهود الروس، مثل عائلة هانو وبعد ذلك هاجرت مجموعة أخرى عند قيام الثورة البلشفية, وفى أوائل الثلاثينات هاجرت مجموعة من يهود سالونيكى والنمسا والمجر وبولندا إلى مصر هرباً من صعود النازية فى ألمانيا.

يقول حسون: «إن نصف يهود الإسكندرية كانوا من اليهود المصريين, والنصف الآخر ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام, أولهما من اللادينو من سكان البحر الأبيض المتوسط الذين هاجروا من أسبانيا, والثلث الثانى من يهود إيطاليا وشرقي أوروبا, والثلث الثالث من يهود المغرب والشرق الأوسط الذين يتكلمون بالعربية».

كان المستوى الاجتماعى لليهود من جميع الأجناس ممثلا فى جميع الطبقات, فمنهم الفقراء والأغنياء. أما طبقة كبار الأغنياء فكان منهم الأجانب والمصريون، حتى لو كانوا يحملون جوازات سفر أجنبية. وكان معظم اليهود من أصحاب المهن أو التجارة البسيطة أو المتوسطة، قال جاك حسون: إن معظم اليهود كانوا من صغار البورجوازيين.

ونقلاً عن جاك حسون ألقى الصحفى والكاتب نورى فرحى فى أوائل القرن العشرين محاضرة عن يهود الإسكندرية، وحكى عن المصريين من اليهود الذين تركوا رشيد و إدكو إلى الإسكندرية، واستوطنوا سوق السمك القديمة، و تكلم عن البؤس الشديد الذي عانى منه اليهود في حوش الجعان و حوش النجار و حوش الحنبقي.

و قد أنشأ أغنياء اليهود في الإسكندرية مؤسسات اجتماعية لمساعدة الفقراء، مثل المستشفى الإسرائيلي، و المدارس اليهودية التي سهلت حصول اليهود على البكالوريا الفرنسية، و كذلك دار لليتامى، و لكن الفقر و البطالة أثرا على جزء من الطائفة اليهودية التي تظاهر شبابها العاطلون أما دار الطائفة في الإسكندرية بعد الحرب العالمية الأولى، احتجاجا على عدم مساعدتهم.

يقول حسون: «إنه حين انتقل البارون يعقوب منشه ذو الأصول النمساوية من القاهرة إلى الإسكندرية حاول أن يقوم بتغريب الجالية اليهودية هناك, لكن كانت هناك مقاومة انتهت برفض الجالية تكوين جالية يهودية أخرى يرأسها منشه, بل ورفضوا أن يقوم بدفن الموتى من أتباعه في مدافن اليهود بالإسكندرية، فطلب من الحكومة قطعة أرض لتكون مدفنا له ولأتباعه, وحصل عليها وأصبح اسمها مدافن منشه, ثم أصبح اسمها بعد ذلك مقابر اليهود رقم ٢. بالرغم من اتفاق الجاليتين اليهودتين بعد ذلك بسبع سنوات على أن يرأس الجالية الموحدة مناصفة أجنيون المصرى ومنشه النمساوى».

وسرعان ما بدأ التحول نحو الحياة الأوروبية واللغات الأجنبية بين الغالبية من يهود الإسكندرية، وحتى المعدمون الذين يسكنون حوش الجعان، انتقلوا تدريجياً إلى نوع من التعليم والحياة الأوروبية، وبذلك اختلفوا إلى حد كبير عن يهود القاهرة والدلتا الذين كان الكثيرون منهم يعيشون ويفكرون مثل بقية المصريين.

وبعد ذلك أصبح يهود الإسكندرية ينتمون إلى الجزء الأعلى من الطبقة الوسطى، علي حين كان هناك كبار أصحاب المتاجر مثل شيكوريل وشملا وهانو, وكبار رجال البنوك مثل موصيرى وكوربيل, وكبار أصحاب الأراضى والمبانى مثل سموحة وتوريل وساش, ورجال الصناعة مثل سالتيل وورولو وهيرلينج وسوارس, ومجموعة من كبار الأطباء والمهندسين والصحفيين والمثقفين وأساتذة الجامعات والمعماريين، مثل لوريا الذى صمم مسجد رمضان يوسف الشهير بالإبراهيمية. وكان اليهود مشاركين فى الجمعيات الثقافية والعلمية والنوادى, والكثيرون منهم ضمن أعضاء مجالس إدارتها, وكانت هناك أعداد كبيرة من المؤسسات الخيرية والمدارس المختلفة التابعة للجمعيات اليهودية، كما كان في الإسكندرية ثمانية معابد يهودية كبيرة.

اليهود السفارديم

حسب التعريف المتداول فإن اليهود السفارديم هم اليهود ذوو الأصل الأسبانى الذين طردوا فى نهاية القرن الخامس عشر من أسبانيا. وفى هذا الكتاب أردت أن أوضح أن المقصود باليهود السفارديم اليهود المنتشرون فى حوض البحر الأبيض المتوسط الذين تجنسوا بجنسيات أوروبية, أو أصبحوا من رعايا الدولة العثمانية بعد

طردهم من أسبانيا, وعاشوا فترات طويلة فى هذه البلاد قبل هجرتهم إلى مصر, لينضموا إلى اليهود المصريين الأصليين الذين هم -أيضاً- من السفارديم, لكنهم من أصول شرقية قديمة.

ويهذا أصبح اليهود السفارديم يجمعون بين فئات وثقافات مختلفة, وأوضاع اجتماعية واقتصادية متباينة للغاية. وكانت الهجرات من اليهود السفارديم و هم الذين قدموا إلى مصر فى القرن التاسع عشر يحملون تعليماً وثقافة وخبرة بالتجارة واتصالات دولية أكبر وأقوى بكثير من خبرات اليهود المصريين, فسرعان ما أصبحوا قيادة الطائفة فى مصر, وكونوا ثروات طائلة فى فترات قصيرة، و أصبحالكثيرون منهم أطباء ومهندسين ومحامين, وأغلبهم عدوا أوربيين في الثقافة و التوجه, بالرغم من أنهم يهود سفارديم شرقيين; لأنهم كانوا مختلفين تماماً عن يهود مصر الأصليين (يهود الحارة). وكانت معرفتهم باللغات الأجنبية عاملاً فى نجاحهم.

وطائفة اليهود السفارديم تشبه (الفسيفساء) الموزايك، و تضم طبقة من الأغنياء الذين حضروا إلى مصر منذ مدة طويلة قد ترجع إلى عصر محمد على و حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر, و استثمر جزء كبير منهم أمواله فى مصر، واستخدم صلاته بالغرب فى طبع مشروعاته الزراعية أو الصناعية فى مصر بالطابع الأوروبى المتقدم, واستخدم طرقا حديثة في الإدارة حققت نجاحات كبيرة، و قد اندمجت هذه الطبقة تماماً فى طبقة الباشاوات وكبار ملاك الأراضى ورجال الأعمال الوطنيين المصريين, وكانوا شركاء لهم فى كثير من الأعمال, وكانت حياتهم مماثلة للشريحة العليا من الطبقة البرجوازية فى أوروبا, وهو نمط الحياة الذى حاول قطاع الرأسمالية المصرية الناشئة أن يندمج فيه. وأعتقد أن جانبا كبيرا من يهود هذه الطبقة كانوا يحبون مصر, لأنها أعطتهم الأمان والحب و التقدير وتحقيق مكانة فى المجتمع وفى جمع المال، و هو ما كان من الصعب تحقيقه فى شمالي حوض البحر الأبيض فى وسط المنافسة الأوروبية، وكان من المستحيل أن يتحقق لهم هذا النجاح الاقتصادى الكبير إلا بهذا الهامش الواسع من الحرية الذى فاق الحرية التي كانت ممنوحة لأقرانهم المصريين. وبالرغم من أنهم كانوا يساعدون أقرانهم من اليهود الذين عذبوا أو طردوا من أوروبا، وكانوا يتعاطفون بطريقة أو بأخرى مع الحلم بالوطن اليهودى, إلا أنهم كانوا يعرفون بوضوح ويعون أن إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين يتعارض مع

مصالحهم الشخصية، لأنه لم يكن ممكناً أن تستمر مكانتهم المتميزة فى مصر فى ظل إنشاء دولة إسرائيل, لذا كان معظم يهود هذه الطبقة يعدون مصر مكانهم المفضل ، وحتى نهاية الثلاثينات لم يكن هناك أى هاجس أو قلق بينهم وبين معظم المصريين من الأقباط و المسلمين. وكانت الصدمة شديدة للمصريين عندما علموا بعنف المستوطنين اليهود فى معاملة العرب الفلسطينيين وطردهم من ديارهم, و قد اجتاحت المظاهرات فلسطين، وانتقلت منها إلى القاهرة و مدن عربية أخرى فى النصف الثانى من ثلاثينات القرن العشرين، و التى بدأت تدق أول مسمار حقيقى فى نعش علاقة اليهود بالشعب المصرى, وتزامن ذلك مع ظهور قوتين جديدتين فى المجتمع المصرى هما الإخوان المسلمون ومصر الفتاة, و قد أظهرت كلا القوتين عداءاً شديداً, ليس فقط للصهيونية، وإنما لليهود بصفه عامة, واليهود المصريين بصفة خاصة، وبالرغم من أن تأثير هاتين القوتين لم يكن كبيراً فى ذلك الوقت مقارنة بالحزب الليبرالى الكبير (الوفد) إلا أن صوتهما كان زاعقاً، كما كانت أفعال الصهاينة فى فلسطين رهيبة, لذا صادف موقفهما صدى كبيراً فى الشارع المصرى، لكنه لم يصل إلى حد الكراهية العنيفة أو العدوان، وخاصة أن هذه الجالية لم تكن محصورة فى جيتو، وإنما كانت تعيش فى مختلف أحياء القاهرة, كل حسب مستواه الاجتماعى.

أما الطبقة الوسطى من السفارديم فكانت أيضاً داخل المجتمع المصرى تعمل فى القطاع الخاص، حيث يمتلكون محلات ومصانع وورشا صغيرة, وكانوا يعملون موظفين فى الشركات والبنوك. و كانت لهذه الطبقة تطلعات كثيرة, ونظراً لاحتكاكها المباشر بالشعب المصرى كانت أول من شعر بتأثير ما يحدث فى فلسطين على مشاعر الشعب المصرى, و كما كانت هذه الطبقة أول من اتصلت بها وتلاعبت بعواطفها المنظمات الصهيونية فى فلسطين و المنظمات المصرية الصهيونية من اليهود الأشكيناز. وكانت هناك نسبة لا بأس بها من هذه الطبقة تريد الانسلاخ من مصريتها, فكانت تحاول دائماً الالتصاق بالغرب، وكان تعليمها فى المدارس الإسرائيلية الفرنسية أحد عوامل جذب هذا القطاع من اليهود المصريين للفكر الصهيونى, حيث كان هناك عدد من المدرسين فى هذه المدارس من منظرى الفكر الصهيونى, و الفكر الاشتراكى فى الوقت نفسه.

ويقول بنيين: «حين طرد اليهود من أسبانيا وانتشروا فى حوض البحر الأبيض

المتوسط كانت لهم محطات مهمة انطلقوا منها إلى بلاد أخرى ، مثل المغرب وجنوب إيطاليا وإستنانبول، وكانت لغة هؤلاء السفارديم هى الادينو, وهى لغة أسبانية قديمة فيها كلمات عبرية، إلا أن السفارديم تحدثوا أيضاً بلغة البلاد التى استوطنوها, فالكثير منهم تكلم الإيطالية أو التركية أو العربية, وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ازدهرت اللغة الفرنسية بين اليهود عن طريق المدارس اليهودية الإسرائيلية "اليانس" التى انتشرت فى حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق هيئة مركزية فرنسية، وأصبحت اللغة الفرنسية اللغة الأولى لكثير من يهود السفارديم, بالإضافة إلى لغة البلد الذي يقطنونه، وبدأت اللادينو تنقرض تدريجياً. وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر هاجر إلى مصر مجموعة من يهود حلب ودمشق وإستانبول والقدس.

ويمثل اليهود السفارديم أغلبية اليهود الذين هاجروا إلى مصر على مراحل متعددة منذ القرن الخامس عشر، لكن الهجرة زادت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين, مع الازدهار الاقتصادى للأجانب فى مصر, نتيجة افتتاح قناة السويس واكتشاف أهمية وضع مصر الجغرافى, وأيضاً بسبب القوانين التى ميزت الأجانب عن المصريين، وأعطتهم فرصا فى الرزق والكسب أكثر من المصريين, مع معاملتهم بنظام قضائى يعطيهم مميزات كثيرة تسهل حياتهم وتمنع عقابهم. وهكذا كون الكثير من اليهود السفارديم ثروات هائلة وأصبحوا من كبار الأغنياء, وزاولوا أنشطة اقتصادية متعددة، وكانت لهم معابدهم ومستشفياتهم ومدارسهم ومؤسساتهم الخيرية.

اليهود الأشكيناز

بدأت هجرة اليهود الأشكيناز إلى مصر منذ القرن السابع عشر, وكانت هجرة بسيطة من جنوبي روسيا, وفى أواخر القرن التاسع عشر حدثت موجة أخرى من الهجرة من روسيا وبولندا من فقراء الشباب, ثم حدثت هجرة مؤقتة من فلسطين عام ١٩١٤ سوف نتحدث عنها بالتفصيل لأهميتها. وبالرغم من ذلك كون اليهود الأشكيناز ٨٪ فقط من اليهود المصريين، كان عددهم نحو خمسة آلاف نسمة فى أعلى تعداد لليهود المصريين, و كان يسكن معظمهم درب البرابرة، ويتكلم البيديش وهى لغة يهودية قديمة كان يهود شرقي أوروبا يتحدثونها حتى الخمسينات من القرن العشرين, وقد

أصدروا صحيفة باليديش استمرت فترة قصيرة فى أول القرن العشرين, وأنشأوا مسرحاً باليديش فى أربعينات القرن العشرين, وكان لهم برنامج فى الإذاعة المصرية بلغتهم. وعند وصولهم إلى مصر اشتغلوا في مصانع لف السجائر، ثم عملوا خياطين وصانعي ومصلحي أحذية, وكذلك عملوا فى صناعة الذهب والفضة.

و كان اليهود الأشكيناز لا يعرفون العربية ولا يريدون أن يعرفوها, وهؤلاء نتاج الاضطهاد الأوروبى الذى أدى إلى توحش الفكر الصهيونى, ومعظم هذه الطائفة جاءت إلى مصر لتعيش وتعمل بصفة مؤقتة, وعينها وقلبها على فلسطين, ولم تشعر أبداً بانتمائها إلى مصر, أو حتى بالامتنان لهذا الوطن الذى استضافهم, وكانت هذه الطائفة هى التى كونت فى السنوات الأولى لهجرتها خلايا صهيونية فى مصر, وهى التى كانت على اتصال دائم بالمستوطنين اليهود فى فلسطين, وهى التى ألبت وشجعت وحرضت الطوائف الأخرى من اليهود على نسيان مستقبلهم فى مصر و التفكير فقط فى اسرائيل, وهى التى ساهمت فى العمليات التخريبية وآوت الصهاينة الإرهابيين القادمين من فلسطين.

وكثير من اليهود الأشكيناز وفدوا إلي مصر أثناء الحرب العالمية الأولى, وفى فترة ما بين الحربين العالميتين حين بدأ تعاظم القوى النازية و الفاشية في شرق و وسط أوروبا، و معظمهم حصل على وظائف في الشركات الأجنبية في مصر، و الكثيرون منهم لم يتعلموا العربية و لم يختلطوا بالمصريين. و ضمن هؤلاء الأشكيناز مجموعة آمنت بالماركسية أخذوا على أنفسهم نشر الشيوعية و كونوا بعض خلاياها في مصر، و هذا موضوع سوف نتناوله بالتفصيل في فصل عن اليهود و الشيوعية. و من الغريب أن الأشكيناز كانوا أكثر وعيا بأهمية الحصول على الجنسية المصرية، فحصل الكثيرون منهم عليها بسهولة، على عكس كثير من السفارديم الذين أقاموا في مصر لعدة أجيال، و لم يرغبوا في الحصول على الجنسية المصرية.

الهجرة المؤقتة ليهود فلسطين إلي مصر

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى قامت السلطات العثمانية في فلسطين بترحيل نحو خمسة آلاف صهيوني إلى مصر، و يحكي هذه الواقعة داود يوديلوفلتشى الذي كان أحد اليهود الفلسطينيين، لكنه لم يأت مرحلاً إلى مصر ضمن هذه المجموعة, ولم يكن

أيضاً من اليهود المصريين، لكنه كان يعمل بصفة مؤقتة في مصر، لذا كان له وضع جيد ومميز بين الطرفين.

و عندما وصلت هذه المجموعة من اليهود الروس والبولنديين من فلسطين إلى الإسكندرية على ظهر المراكب، قال سوارس رئيس الجالية اليهودية فى الإسكندرية: «إن جالية من ألفي يهودى فى الإسكندرية لا تستطيع أن تعول ١٢ ألف مهاجر قدموا إلى مصر فجأة ، وقال إن الحل هو التفاهم مع سلطان مصر السلطان حسين كامل الذى كان على علاقة جيدة باليهود»، وقام سوارس بالضغط على القنصليات الأجنبية فى الإسكندرية لتلعب دوراً فى حماية ومساعدة اليهود, وبالفعلً تكونت هيئة من محافظ الإسكندرية وعمدتها وعدد من الأعضاء, وبعد تكوين هذه الهيئة هاجمت الصحف المصرية اليهود المصريين, لأنهم لم يقوموا بالرعاية والضيافة الكافية لليهود الصهاينة القادمين من فلسطين, ونجحت خطة سوارس فى أن يقنع الحكومات المصرية والأجنبية بحل المشكلة، وكان اليهود القادمين حانقين على اليهود المحليين الذين وصفوا بأنهم لم يقوموا بواجب الضيافة كما يجب, وقد تم وضع اليهود المهجرين فى معسكرات مزدحمة و عاشوا حياة بسيطة تعسة.

وقد أنشأت الجالية اليهودية المصرية مدارس لأطفالهم المهاجرين بعد أن تركوا مدارسهم فى القدس عام ١٩١٥ . واستقبلت الأطفال -أيضاً- فى مدارس هذه الجالية اليهودية بالإسكندرية. كما أنشأت مدارس للأطفال فى معسكر القبارى بالورديان, وكان عدد التلاميذ يتعدى الألف تلميذ. وكانت لغة التدريس هى العبرية، وكانت الإنجليزية والعربية لغتين أجنبيتين إضافيتين، واستمرت هذه المدارس مفتوحة لمدة ثلاث سنوات حتى عام ١٩١٨. حين عاد اليهود إلى القدس مرة أخرى, وساهم فى توفير الأموال اللازمة للمهاجرين يهود القاهرة وإنجلترا و الولايات المتحدة، بالإضافة إلى الحكومة المصرية.

وكان اليهود المصريون يعاملون اليهود القادمين من فلسطين بكثير من الحذر و القلق، لأنهم لاحظوا أن هؤلاء اليهود من الصهاينة مختلفين عنهم, فهم لا يفكرون كثيراً فى الدين, وإنما يفكرون فى القومية اليهودية و اللغة العبرية، الأمر الذى لم يكن له أهمية عند اليهود المصريين, فقد كانوا مختلفين تماماً وشديدى التدين والمحافظة على

الطقوس الدينية ولم يهتموا على الإطلاق بدارسة اللغة العبرية إلا بإستثناءات نادرة، والكثيرون منهم فى تلك المرحلة التاريخية كانوا يعدون مصر هي وطنهم, واعترض زعماء الجالية اليهودية المصرية على إهمال تدريس الديانة اليهودية فى مدارس المهاجرين، و الاعتماد على تدريس الأفكار الحرة، والسماح بالتفكير والمناقشة، وليس الحفظ، وقالوا «إن اليهودية بهذه الطريقة من التعليم سوف تفقد قيمتها، واليهود لابد أن يدرسوا تفاصيل الديانة اليهودية ويلتزموا بتعاليمها».

الفارق هنا واضح, فهؤلاء يهود يعيشون فى مصر ويريدون أن يتعلم أولادهم الدين اليهودى واللغات الأوروبية، ليشقوا طريقهم فى الحياة، أما اليهود الأشكيناز من الروس والبولنديين القادمين من فلسطين، فهم رأس الصهيونية وقلبها النابض الذى كان يعمل علي تكوين الدولة العبرية, فهم يريدون تعليم أولادهم العبرية لغة قومية، أما الديانة اليهودية فهى شىء ثانوى بالنسبة لهم.

ونعتقد أن طريقة التعليم فى النظام الصهيونى كانت متقدمة على النظام التقليدى, واستطاعت أن تخلق جيلاً من الصهاينة الذين يتكلمون لغة واحدة, بالرغم من أصولهم العرقية المتباينة، وقد غرست فيهم الفكرة الصهيونية باعتبارها مبدأ التزموا به وحاربوا من أجله, ويبدو أن هذا النظام من التعليم استمر فى إسرائيل وخلق أجيالاً من المتعلمين الذين عرفوا كيف يفكرون ويناقشون ويقتنعون ويقنعون ويحاربون إيماناً بالفكرة، مهما كانت هذه الفكرة عدوانية عنصرية وشرسة. أما نحن فقد اكتفينا بالتعليم التقليدى الذى قد يساعد الطالب على التوظف بعد التخرج, لكنه لا يتعلم كيف يناقش ويفكر ويحاور.

و الغريب أن المعسكرات المؤقتة لليهود القادمين من فلسطين لم تكن تسع أكثر من ٥ آلاف شخص, والباقى إما هربوا إلى ربوع مصر أوعادوا إلى فلسطين أو وجدوا ملجأ لهم بطرقهم الخاصة. وقد ذكر دافيد بن جوريون المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل فى مذكراته الكثير عن هذه المجموعة المهاجرة إلى مصر, ويبدو أنه حضر معهم، أو على الأقل قام بزيارتهم لتفقد أحوالهم, وقد نشر المهاجرون إلى مصر خلال إقامتهم القصيرة عدداً واحداً من مجلة أطلقوا عليها اسم (فى الأرض الأجنبية) صدرت عام ١٩١٧, وكان رأى اليهود المهاجرين فى اليهود المصريين أنهم كسالى ومحافظون

للغاية, ولم يتعرضوا لأى متاعب فى الحرب, وكان يجب على هؤلاء الأغنياء مساعدة اليهود فى البلاد الأخرى الذين أضيروا بسبب الحرب, خاصة يهود فلسطين, واتهموهم بأنهم لم يتحركوا لمساعدتهم مادياً أو معنوياً ، ووصفوا اليهود المصريين بأنهم ليسوا مهتمين بأمر إنشاء دولة إسرائيلية, رغم أنهم سمعوا عن مجهودات لإحياء اللغة العبرية ومشروعات أخرى فى فلسطين, وبالرغم من أن هذه الأفكار وصلت إليهم إلا أنها لم تصل إلى قلوبهم. وقال يهود فلسطين إن اليهود المصريين يفضلون الحياه فى الدياسبورا (الشتات) مع الشعب المصرى ولا يريدون دولة لإسرائيل.

يقول الكاتب أرونوفيتش «إن المهاجرين فشلوا فى التأثير على اليهود المصريين لأسباب عدة منها أنهم لم يعيشوا فى مصر إلا فترة بسيطة أقصاها ثلاث سنوات، وأنهم كانوا يعتمدون فى معيشتهم على مساعدة اليهود المصريين, فلم يكن هناك مجال واسع للضغط عليهم, وحتى المدرسة العبرية التى أنشأوها فى الإسكندرية تحولت إلى مدرسة لتدريس كل اللغات», وقال «إن اليهود المصريين كانوا محافظين بشدة على التقاليد والاهتمام بالعبادات والاحتفالات الدينية، على حين لم يهتم المهاجرون بذلك, ولم يثق اليهود المصريون فيمن ترك دينه، لذا كان المشروع الصهيونى الذى بدأ عام ١٨٨٠ بتهجير اليهود وإنشاء المستوطنات وتنظيم الحلقات الصهيونية ضعيف التأثير فى مصر, ولم ينجح أبداً وسط اليهود المصريين الذين رفضوا بالإجماع تقريباً أية هجرة إلى فلسطين فى تلك المرحلة.»

وأعتقد أن تلك المرحلة التاريخية المهمة تبين بوضوح أن الصهيونية الأوروبية الشرقية التى هاجرت إلى فلسطين هى التى أنشأت المستعمرات وأقامت فى المستقبل دولة إسرائيل ، ولم يكن يخطر على بال اليهود المصريين بأى حال من الأحوال أن يهاجروا إلى الحرب والقتال والحياة فى المستوطنات ويتركوا الحياة المريحة والوضع المتميز لهم فى مصر. ولم يكن الأمر مرتبطاً فقط بالحياة المتميزة فى مصر, فقد كانت الفكرة الصهيونية الواضحة وضوح الشمس فى الفكر الأوروبى وبين الزعماء الأوائل للصهيونية مرتبطة بالمجتمع المدني العلمانى الذى تلعب فيه القومية الدور الرئيسى، ويلعب الدين فيه دوراهامشيا غير موجود بين المصريين، فلم يكن معظم الصهاينة متدينين ولا مهتمين بالدين ولا بتعاليم العبادة، وتوجد نسبه كبيرة منهم ملحده، لاتؤمن بالأديان السماوية, وكان الكثيرون منهم ماركسيين, وكان الهدف تكوين الدولة بالقوة

وإحياء اللغة والتراث التاريخى لليهود بوصفه قومية وليس دينا، علي حين كان اليهود المصريون يدعون الله أن يتقبل دعواتهم وصلواتهم، وكانت طريقة الخلاص من أية مشاكل هى طريق الإيمان, وكانت الاحتفالات والأدعية والموالد المرتبطة بالدين تعد فولكلوراً مكملاً للدين, وفى هذا الأمر يشبه اليهود المصريين إلى حد كبير غالبية المسلمين والأقباط الذين يعدون الدين اتصالا روحيا بينهم وبين ربهم، ويرحبون بالاحتفالات الدينية أو شبه الدينية والمواسم، كعاشوراء عند الشيعة والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج والنصف من شعبان والأعياد وصيام يومي الاثنين والخميس والستة أيام من شوال والموالد والزار عند السنة وماشابه ذلك, والاهتمام بالتمائم والأحجبة والموالد حول الأديرة فى ذكرى القديسين الأقباط, لذا كان هناك تشابه كبير بين الاحتفالات الدينية وطرق العبادة بين اليهود المصريين و المسلمين والأقباط المصريين.

أما الجيل الثانى من الأشكيناز فالتحق الجامعة المصرية وقاموا بوظائف معينة وخاصة فى الطب, والقليل منهم كون ثروات كبيرة، لكن الأغلبية كانت من الفقراء و من متوسطى الحال. وكانت الجالية الكبيرة من اليهود السفارديم على علاقة سيئة بهم، بسبب تصرفات الأشكيناز التى أساءت إلى سمعة اليهود المصريين بدخولهم فى تجارة الممنوعات و تهريبها وفتح بيوت الدعارة واستيراد المومسات من اليونان و الشام وتشغيل بعض اليهوديات للعمل فى بيوت الدعارة, وكان اليهود السفارديم يطلقون عليهم الأشرار, وكانوا يعتقدون أنهم يفتقدون القيم الأخلاقية، وقد نشرت بعض مقالات فى صحف اليهود السفارديم تهاجم الأشكيناز بعنف.

ويبدو أن العلاقات المتوترة بين السفارديم والأشكيناز التى كانت موجودة فى مصر قد ازدادت توتراً داخل إسرائيل بعد هجرة بعض اليهود المصريين السفارديم إلى إسرائيل, فازداد التوتر داخل إسرائيل بين الطائفتين، خاصة بعد أن أصبح الأشكيناز هم أصحاب السلطة، وكان أغنياء السفارديم فى القرن العشرين يتكلمون ثلاث أو أربع لغات, وكانوا مندمجين مع علية القوم من الجاليات الأجنبية, وكذلك الباشوات المصريين، وكانت لهم نظرة متعالية على اليهود الأشكيناز ، وكان الأشكيناز رغم كونهم فقراء ينظرون إلى السفارديم علي أنهم شرقيون متخلفون.

وتنقل كرامر عن أحد الصحفيين الأشكيناز – الذى وصفته بأنه طويل اللسان – فى

مقالة نشرت عام ١٩٠٤ بالإنجليزية يقول فيها: «إن اليهود السفارديم و الشرقيين عموماً يماثلون المصريين فى طريقة تفكيرهم وأخلاقهم وعاداتهم التى لم تتغير فى جوهرها, فالدماء الشرقية تجرى فى عروقهم, لكن عليها طبقة رقيقة من الثقافة الكاذبة المتشبهة بالأوروبية, و طريقة تفكيرهم عربية وليست يهودية, وأخلاقهم وعاداتهم شرقية، ومعرفتهم واهتمامهم بالأحوال الاجتماعية والوطنية معدوم (يقصد الوطنية الإسرائيلية). وبين الأغنياء من اليهود المصريين الشرقيين يتوارى الجهل خلف غلالة رقيقة من ثقافة فرنسية مزيفة، و يحاولون التظاهر بها ليخففوا ضعف ثقافتهم وأفكارهم. وعلى حين أنهم غارقون فى الأموال فإن فقراءهم محاصرون فى الجيتو الذى يعيشون فيه, وهم طيبون, لكنهم مقهورون ومهملون بدون تنمية للذكاء أو تعليم تقدمى أو حتى أى طموح, ويقال إن هؤلاء السفارديم جميعاً متدينون للغاية ويؤمنون بالخرافات ذات الأصل الدينى».

ونعتقد من ناحيتنا أن هذه المقالة المهمة من أحد اليهود الأشكيناز المقهورين القادمين من جيتو روسيا وبولندا ورومانيا إلى مصر, حيث نعموا بالحرية وأخذوا يمرحون ويتعلمون ويكسبون ويشتمون مصر ويشتمون يهودها الأصليين ويحرضونهم ويتهمونهم بأنهم عديمى الوطنية، ويقصدون بذلك الوطنية تجاه الوطن القومى فى إسرائيل, وهذه المقالة المبكرة جدا توضح أنه مهما ادعى المؤرخون غير ذلك فإن تأثير اليهود الأشكيناز على طريقة تفكير اليهود السفارديم – بمختلف أنواعهم – كانت مبكرة و قوية و منظمة، و أنهم لاقوا في مراحل مختلفة بعد ذلك العون الشديد من الصهيونية العالمية التي ضغطت على يهود مصر و فصلتهم عن أرضهم و عن شعبهم، و لم يكن ذلك التأثير سياسيا فقط، بل كان ثقافيا أيضا، فقد ابتعدوا بالتدريج عن اللغة العربية و الثقافة المصرية و انفصل اليهود ككل باستثناء اليهود المصريين الأصليين و القرائين عن المجتمع المصري، و أصبح وضعهم مثل وضع الأقليات الأجنبية كاليونانية و الإيطالية و غير ذلك.

الصراعات الداخلية بين طوائف اليهود في مصر

كانت طائفة القرائين– كما سبق أن ذكرنا– مختلفه تماماً عن طائفة الربانيين, وكانت العلاقات بينهما يشوبها التوتر فى أوقات, والتفاهم فى أوقات أخرى، وبالرغم

من الاختلاف المذهبى والفكرى الكبير بينهما، إلا أن العدد الصغير لطائفة القرائين قلل فرص الزواج من داخلها وأتاح الزواج بين الطائفتين تفاهماً أكثر.

يقول محمود عبد الظاهر: «إن علاقة السفارديم بالأشكيناز كان يشوبها بعض التوتر منذ القرن التاسع عشر، حيث رفضت قيادة طائفة السفارديم إقامة طائفة أشكنازية منفصلة، كما رفضتها الحكومة المصرية فى منتصف القرن التاسع عشر، ورفضها بعد ذلك اللورد كرومر فى نهاية القرن، وكانت الحكومة المصرية لا تتدخل فى الشئون الداخلية للطائفة، وكما ـكر لانداو فإن الحكومة رفضت إقالة موسى قطاوى رئيس الطائفة بناء على طلب مدير مدارس اليانس الإسرائيلية الفرنسية بدعوى إخلاله بواجباته فى رعاية الطائفة، وتركت اليهود يحلون مشاكلهم الداخلية بأنفسهم». وحدثت محاولة أخرى لتقليص سلطة رئاسة الطائفة وبالذات عائلة قطاوى، لكنها باءت بالفشل لعدم اهتمام الحكومة بالتدخل فى شئون الطائفة، ولأن نفوذ عائلة قطاوى السياسى و المالى استطاع أن يواجه تيارا قويا من الجالية اليهودية، منهم أعضاء مجلس إدارة الطائفة. وبالرغم من عدم تدخل الحكومة فى الشئون الداخلية للطائفة، إلا أن الحكومات المتعاقبة كانت ترغب فى وجود طائفة واحدة لليهود، حتى يمكن التفاهم معها فى حالة حدوث مشاكل، وكان ذلك أحد الأسباب التى أدت إلى رفض طلب الأشكيناز تكوين جالية خاصة بهم. وختاماً لهذا الفصل أعتقد- على عكس الكثير من المؤرخين المصريين المحترمين مثل د.عبده قاسم و د.محمود سعيد عبد الظاهر وغيرهما- أن معظم اليهود المصريين- بالرغم من تعاطفهم مع اليهود الأوروبيين المضطهدين وفكرة الوطن القومى لليهود - لم يكونوا يؤمنون بأن الصهيونية تشكل حلما حقيقيا لليهود المصريين، بل كان بعضهم يعمل ضدها أحياناً، لأنه كان يعى بوضوح أن نمو الصهيونية وتغلغلها فى فلسطين وإمتداد نشاطها إلى مصر يشكل بداية النهاية للوجود اليهودى المصرى، وكان للجالية اليهودية المصرية نفوذ قوى ووضع اقتصادى ممتاز مقارنة بالمصريين عموماً، ولم تتعرض لأى اضطهاد أو تخويف أو شعور شعبى ضدها، ولم يكن أحداً من أفراد الجالية اليهودية يتصور أن الوطن القومى لليهود سوف يصبح دولة كبيرة وغنية وقوية، لذا لم يكن اليهود المصريون يريدون المخاطرة بشىء فى علم الغيب، على حين أنهم فى مصر فى وضع متميز مقارنة باليهود فى مختلف أنحاء العالم، وإستمر الأمر كذلك حتى منتصف الأربعينات ، حين اشتدت قبضة اليهود

● يهود مصر - دراسة فى الموقف السياسى ١٨٩٧ - ١٩٤٨ محمود سعيد عبدالظاهر
● تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية ١٥١٧ - ١٩١٤ تحرير يعقوب لاندو

المستوطنين على فلسطين, وحين أثاروا الذعر والهلع فى أوساط الفلسطينيين. وتدريجيا- كما سوف يتضح من سيرة اليهود المصريين فى هذا الكتاب- انضم عدد أكبر من اليهود لفكرة الصهيونية, وكان ذلك طواعية أو إجباراً، بسبب الضغط الصهيونى العنيف من ناحية، والضغط الشعبى المصرى من ناحية أخرى بعد قيام دولة إسرائيل. وبدأ انهيار كتلة اليهود المصريين وهجرتهم النهائية من مصر, وهو ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل فى الفصول القادمة.

اليهود والاقتصاد المصري

لعب اليهود دوراً مهما فى مصر الحديثة التى يمكن أن يعد قدوم الحملة الفرنسية نقطة بداية لها ، وكانت دعوة نابليون اليهود إلى الوقوف فى صفه ومساعدته وما أبداه من تعاطف مع فكرة إعطاء وطن قومى لليهود, أول بادرة فى هذا الاتجاه من قوة أوروبية كبرى، و ظهرت الفكره قبل الدعوة الصهيونية بمدة طويلة. وأثناء حكم محمد على حدث انفتاح كبير فى مصر على الأوروبيين والأرمن ومختلف الجنسيات الأجنبية, وقد بدأ اليهود حينئذ يأخذون وضعاً متميزاً, ووصل عددهم لما يقرب من تسعة آلاف يهودى فى عهده, وبدأت الجالية اليهودية تتبوأ إلى مناصب مهمة، وكان أهم هؤلاء اليهود يعقوب مؤسس عائلة قطاوى الشهيرة، وقد تولى منصب رئيس الصرافين و جامعى الضرائب وعدة مناصب توازى منصب وزير الخزانة الآن, وذلك فى الفترة الأولى لتأسيس حكم عائلة محمد على، وخلال خمسة عشر عاماً ارتفع سكان مصر ليصلوا إلى ٩٧٣٤٠٠٠ نسمة عام ١٨٩٧، وارتفع عدد اليهود بينهم إلى ٢٥٢٠٠ نسمة, معظمهم فى القاهرة والإسكندرية، و الباقون فى المحلة والمنصورة وطنطا, وقد زاد عدد اليهود فى العقدين التاليين بسبب الهجرة من أقطار الدولة العثمانية إلى مصر.

وفى تعداد عام ١٩٢٧ أصبح عدد اليهود ٦٣ . ٥٥٠ نسمة ثم أصبح ٦٥ . ٦٤١ فى تعداد عام . ١٩٤٧ وهو آخر تعداد قبل هجرة اليهود النهائية من مصر خلال العقد التالى. ومن المعروف أن هناك مصادر تقدر العدد بأكبر من ذلك ليصل إلي نحو ٧٥ ألفا أو أكثر من ذلك, حيث إن الكثيرين منهم لم يسجلوا أنفسهم فى التعداد.

يقول محمود عبد الظاهر: «إن اليهود حتى غير المتمتعين منهم بالجنسية المصرية حرصوا على إعادة استثمار رؤوس أموالهم فى مصر, مستفيدين من مناخ التسامح,

ولعبوا دوراً فى إنتاج رأس المال الوطنى, لكن لصالحهم الشخصى ، وقد نتج عن ذلك تملك اليهود ثلث الشركات المسجلة فى مصلحة الشركات فى ظل الاقتصاد الحر والمفتوح في فترة ما قبل الثورة الذى كان يتيح حرية التملك. والمعروف أن بقية الشركات كان يملك معظمها الأجانب من غير المصريين واستثمروا أموالهم فيها, لأن فرصة الربح الكبير كانت متاحة، بالإضافة إلى الفساد الذى ساعدهم على تكديس الثروات، وقانون الامتيازات الأجنبية الذى أعفاهم من الضرائب, ولم يحدث تهريب للأموال إلى الخارج إلا فى النصف الثانى من الأربعينات، حين أدرك جميع الأجانب واليهود أن الوضع لا يمكن أن يستمر بهذا الشكل, وأن المصريين لابد أن يأخذوا نصيبهم من ثروة بلدهم, فبدأوا فى تهريب أموالهم وتصفية شركاتهم».

كان الكثير من المؤرخين فى الفترة الناصرية يهاجمون بضراوة فكرة سيطرة رأس المال الأجنبى بصفة عامة واليهودى بصفة خاصة على الاقتصاد المصرى, وكان الشعب المصرى كله سعيداً بعودة الحق إلى أصحابه, لأن السيطرة الاقتصادية الأجنبية كانت ساحقة، لكننا لو نظرنا إلى وضعنا الحالى لوجدنا أن الموقف يحاكى الموقف فى الأربعينات, فها هى الشركات المصرية الناجحة كلها مملوكة للأجانب, و أصبح رأس المال الأجنبى حاليا يسيطر فعلاً على مصر والمصريين, و ضمنه رأس المال الإسرائيلى, و أضحت سيطرة بعض الدول الأجنبية التى تبدى روح العداء لمصر واضحة, وبعضها قد يضمر أفكاراً تؤدى إلى تدمير الاقتصاد المصرى، على حين كان النشاط الرأسمالى السابق للثورة يلعب فيه المصريون- حتى لو كانوا يهوداً- دوراً كبيراً. ولقد كانت الدعوة إلى تمصير الاقتصاد المصرى قوية جداً منذ بداية الأربعينات, وتحققت إلى حد كبير خلال حقبة الخمسينات والستينات.

يقول بنيين: «إن أهم عوامل قلق الوطنيين المصريين من معاهدة السلام مع إسرائيل والبدء فى التبادل التجارى و الصناعى معها هو الخوف من سيطرة الاقتصاد الإسرائيلى المتقدم والوثيق الصلة بالاقتصاد الغربى على الاقتصاد المصرى الأقل تقدماً, ويمكن بسهولة المقارنة بما كان يحدث خلال سبعين عاماً من الاحتلال البريطانى، حين سيطر رأس المال الأجنبى واليهودى على الاقتصاد المصرى, وما حدث بعد تطبيق سياسة الانفتاح السداح مداح, والتى تزامنت مع فساد عارم وانعدام للشفافية بدأ فى عصر السادات واستمر حتى اليوم. وأدت سياسة الانفتاح إلى

مشاكل اقتصادية ضخمة، وإلى نهب ثروات الشعب المصرى وتهريب أموال البنوك- وهى أموال المصريين - إلى الخارج، وسيطرة رأس المال الأجنبى على مقدرات الأمور فى مصر مرة أخرى.

● كتب أنس مصطفى كامل فى (الأهرام الاقتصادى) سلسلة من المقالات عن الرأسمالية اليهودية والاقتصاد المصرى، قال عنها الكاتب «إنها تحكمت بالتعاون مع الاستعمار فى الاقتصاد المصرى، وإن معظم اليهود من كبار الرأسماليين لم يكونوا من اليهود المصريين أصلاً» .

وفى تقدير أنس كامل أن اليهود والإمبريالية العالمية تحالفوا لإضعاف الجانب الاقتصادى و السياسى المصرى، وعدهم المؤلف شيئاً واحداً، لكن بنيين يعتقد أن أنس كامل يضخم الدور اليهودى فى الاقتصاد المصرى، والذى كان باعتراف الجميع أكبر بكثير جداً من نسبة اليهود إلى عدد السكان، لكنه مع ذلك لم يكن ذلك المسيطر بهذه الصورة، ويلخص بنيين أيضاً رسالة دكتوراه لنبيل سيد أحمد الذى أجرى بحثاً دقيقاً ومستفيضاً فى ملفات مصلحة الشركات ، وقال نبيل إن اليهود المصريين تمتعوا بحرية تامة وحياة اقتصادية مريحة، ولم يتعرضوا لأى اضطهاد أو سوء معاملة حتى عام ١٩٤٨،

ويعترض بنيين على مقولة نبيل سيد أحمد «إن رجال الأعمال اليهود المصريين ساهموا فى بناء دولة إسرائيل على أرض الوطن الفلسطينى». ويعتقد بنيين - ويؤيده فى ذلك الكثيرون - أن إسرائيل قامت على أكتاف اليهود الأشكيناز الأوروبيين، ولم تقم على مجهودات اليهود السفارديم من بلاد الشرق، و منها مصر، وقد شكل السفارديم من البلاد العربية كتلة بشرية ساعدت فى رفع أعداد القوى العاملة و أفراد الجيش بعد تكوين إسرائيل وليس قبلها، لكن مساهمتهم فى الاقتصاد الإسرائيلى كانت محدودة ويضرب مثلاً بشركة المحاريث و الهندسة التى شارك فيها كورييل الأب وقطاوى وموصيرى، وكانت شركة إقتصادية مصرية ناجحة ومهمة للاقتصاد الصناعى والزراعى المصرى أولاً وأخيراً. وكان رأى● سهام نصار وعواطف عبد الرحمن وأنس مصطفى ونبيل سيد أحمد الباحثين فى هذا المجال، أن الاقتصاد كان يمكن أن يقوم فقط على أيدى رجال الأعمال من البورجوازية المصرية بعد القضاء على الإقطاع،

● كامل أنيس مصطفى - تاريخ الرأسمالية اليهودية فى مصر الاهرام الاقتصادى - عدد ٢٣ مارس- ٤ مايو ١٩٨١

● موقف الصحافة المصرية من الصهيونية ١٨٩٧-١٩١٧ سهام نصار الهيئة المصرية للكتاب - سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٣ .

● الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ - ١٩٥٤ - عواطف عبدالرحمن - دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠ .

ويقول كثير من الناصريين ورواقد كثيرة من الوطنيين المصريين إن التحالف بين الإقطاع ورأس المال الغربي لم يدفع بالصناعة إلى الأمام، لذا كان طلعت حرب في تحرير الاقتصاد المصري مثالاً مهماً. ويعتقد بنيين أن هذه المجموعة من الباحثين وضعت اليهود المصريين والأجانب المتمصرين من الاقتصاديين في سلة واحدة غرضها السيطرة على الاقتصاد لمصلحتها وضد مصلحة الوطن.

الاستعمار الاقتصادي

يقول بنيين «إن معظم اليهود المصريين الأصليين في القرن التاسع عشر كانوا فقراء مثل بقية المصريين من مسلمين وأقباط، لكن كانت هناك موجة هجرة من اليهود السفارديم من حوض البحر الأبيض المتوسط الذين يعرفون الفرنسية، و تعلمها أولادهم في المدارس الفرنسية، ثم أعطوهم الخبرة بالتجارة والعلاقات الوثيقة مع العالم الخارجي، وبذا تراكمت الخبرات التي هيأت لهم التفوق في فنون التجارة وأعمال المصارف على أقرانهم من المصريين المسلمين والأقباط». وصارت لهم أيضاً علاقات وطيدة مع البيوت التجارية الأجنبية, وحمل الكثيرون منهم جوازات سفر أجنبية أعطتهم مميزات كبيرة في التجارة الدولية.

على أن تحكم الكثيرين من اليهود في نسبة كبيرة من الاقتصاد المصري – حسب رأي بنيين – لايعني أنهم كانوا متواطئين مع الصهيونية العالمية, بل بالعكس، فهو يعتقد أن اليهود الأغنياء من أصحاب الأعمال في مصر كانوا يرفضون الصهيونية بشدة.

●ويعتقد عاصم الدسوقي أن ملاك الأراضي من الإقطاعيين المصريين مسلمين و أقباطا هم الذين بدأوا الصناعة في مصر، و هم الذين ساهموا في بنك مصر، و أن اهتمام اليهود الأكبر كان بالتجارة، و أن إلغاء المميزات الممنوحة للأجانب عام ١٩٣٧ أدى إلى تمصير كثير من الأعمال لتصبح مصرية، و يعتبر روبرت فيتاليس أن طلعت حرب لم تكن عنده خطة لمحاربة الاقتصاد الأوروبي في مصر, بل كانت خطته تقوم على التعاون معهم, كما هو واضح في مشاركته لشركات أجنبية أوروبية. ويعتقد أيضاً أن الكثير من المتمصرين الأجانب تعاونوا مع رجال الصناعة والتجارة المصريين مثل أحمد عبود باشا.

● نحو فهم طريق مصر الاقتصادي والاجتماعي – عاصم الدسوقي – دار الكتاب الجامعي ١٩٨١.

قصة اليهود مع الصناعة المصرية

يعتقد موريس مزراحي «أن اليهود لعبوا دوراً مهما في تنمية الاقتصاد المصرى»، وذكر عدد الشركات التى أنشأها اليهود المصريون فى الفصل الذى كتبه فى كتاب شامير السفير السابق لإسرائيل فى القاهرة ، فقال «إن شيكوريل أسس سلسلة متاجر شيكوريل وأريكو ، وساهمت العائلة فى تأسيس بنك مصر»، وكان شيكوريل عضواً فى مجلس إدارته، و عضواً فى الوفد المصرى الذى توجه إلى السودان لتنمية العلاقات التجارية بين مصر والسودان، وكان شيكوريل الأب رئيساً للغرفة التجارية المصرية وقاضيا فى المحكمة المختلطة، وكان شيكوريل الابن آخر رئيس للجالية اليهودية فى مصر قبل انقراضها .

وأنشأ سوارس بنكاً، وقام بإصلاح آلاف الأفدنة وزراعتها وبيعها للفلاحين. كما أنشأ أول خط مواصلات داخل القاهرة، وقد سمى أحد ميادين القاهرة المهمة باسمه، لكنه تغير عام ١٩٢٢ إلى ميدان مصطفى كامل، وكانت أول شخصية مشهورة من عائلة قطاوى تعود إلى القرن السابع عشر هو يوسف ابن إسحق قطاوى، وقد ألف كتاباً من جزأين عن تاريخ الأسبان، وتاريخ مصر بالعبرية من القرن السادس حتى القرن السابع عشر. وابنه يعقوب قطاوى كان صراف عباس حلمي الأول، واستمر فى الوظيفة نفسها فى عهدي سعيد وإسماعيل، وفى الجيل التالى يأتى موسى قطاوى باشا الذى كان صاحب بنك ورئيساً لعدد من الشركات، وقام بتأسيس خط سكة حديد أسوان وشرق الدلتا وشركة ترام وسط القاهرة، وقام ابنه يوسف بتأسيس شركة السكر فى كوم أمبو، وأصلح ١٢ألف فدان، و كان من المساهمين فى تأسيس بنك مصر. كما كان عضواً فى الجمعية التشريعية عام ١٩١٥ ، وانتخب عن دائرة كوم أمبو فى البرلمان الأول بعد ثورة ١٩١٩ ، وذلك عام ١٩٢٤ ، وعين وزيراً للمالية عام ١٩٢٥ ، وفى العام نفسه اضطر يوسف قطاوى إلى الاستقالة من وزارة أحمد زيور، بسبب إرساله برقية تهنئة بعيد الفطر إلى صديقه سعد زغلول، الأمر الذى أغضب الملك، فآثر قطاوى الاستقالة والاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الملك وسعد زغلول.

ثم أصبح قطاوى وزيراً للمواصلات عام ١٩٢٧ ، ثم عضواً فى مجلس الشيوخ حتى وفاته، وخلفه أصلان قطاوى مديرا للمشروعات الكثيرة للعائلة، وخلف والده عضواً فى

مجلس الشيوخ.

كانت عائلة منشه من أصل نمساوى، عاشت فى الإسكندرية وحضر عميدها إلى مصر أثناء إفتتاح قناة السويس، وبدأ حياته صرافا فى الجيزة ثم اشترك فى مشروعات كثيرة.

وكانت عائلة موصيرى الشديدة الثراء هى التى أنشأت بنك موصيرى الذى كان متخصصاً فى الإقراض الزراعى الصناعى. وأنشأت عائلة رولو من الإسكندرية بنك التعمير وسكة حديد حلوان، وأصبح عميدها مديراً عاماً لبنك مصر. وكانت توجد عائلات كثيرة يهودية غنية أخرى مثل عائلات إدا وهرارى وبوليتى وغيرها.

ومن هذا يتضح أن اليهود المصريين أخذوا الفرصة الكاملة فى العمل بحرية فى الاقتصاد المصرى ، وصحيح أنهم أقاموا مشروعات ناجحة، إلا أنهم حققوا أرباحاً طائلة رفعتهم من مصريين فقراء أو متوسطى الحال إلى أكبر أغنياء الوطن, ومع ذلك لم يندمجوا مع المصريين ويذوبوا فيهم كما ذابت أجناس كثيرة عاشت فى مصر.

وفى أربعينيات القرن العشرين مع تغير الظروف فى فلسطين، وتغير القوانين فى مصر التى أصبحت تساوي بين الجميع، و تعطى الأفضلية فى الوظائف للمصريين, فقد انخفضت الشركات المصرية فى البورصة- والتى كان لليهود حق إدارتها- إلى نحو ١٥٪ عام ١٩٤٣ ثم إلى ٩,٦٪ عام ١٩٥١ والكثير من الشركات فى مصر كان يملكها ويديرها الكثير من الأرمن والإيطاليين واليونانيين والسوريين والمصريين من المسلمين والأقباط و اليهود، لكن تمثيل اليهود فى الشركات كان بالطبع أكبر كثيراً من نسبة عددهم فى السكان, وواضح من دراسة تاريخ الشركات فى مصر أن الكثير من المصريين مسلمين وأقباطا تعاونوا مع اليهود المصريين بوصفهم رجال أعمال مثل بقية المصريين.

أصول البورجوازية اليهودية في مصر

يعتقد بنيين أنه منذ عهد الإمبراطورية العثمانية اعتمد رجال الأعمال الفرنسيون على اليهود المحليين فى المشاركة فى إدارة أعمالهم, وقد حصل الكثير منهم على الجنسية الفرنسية, وبعد فترة أصبح معظمهم من رجال الأعمال المرموقين, وكان يوسف قطاوى باشا رئيساً لطائفة السفارديم فى فترة ما بين الحربين العالميتين, وبعد

أن درس الهندسة أقام مشروعاً ضخماً ومهما لزراعة القصب وصناعة السكر في كوم أمبو، وكان شريكاً في كثير من المشاريع الأخرى مع عائلة سوارس.

وقد بدأ طلعت حرب عميد الاقتصاديين المصريين عمله في الدائرة السنية ثم في دائرة أعمال قطاوى وسوارس، ثم مديراً لمشروع كوم أمبو، واحتفظ طلعت حرب بعلاقته الوثيقة معهما بعد أن أصبح عضواً في اللجنة التقديرية للغرفة التجارية مع يوسف شيكوريل ويوسف قطاوى، وعندما أنشأ طلعت حرب عام ١٩٢٠ بنك مصر شاركه يوسف قطاوى وأصبح نائباً للرئيس. يقول قطاوى باشا: «إن أصوله المصرية ترجع إلى القرن الثامن الميلادى، وتحت قيادته كان مجلس طائفة السفارديم يتخذ موقفاً مناهضاً للصهيونية». وقد كانت علاقة قطاوى باشا بالقصر وثيقة وحصل على الباشاوية، وكان عضواً في مجلس النواب وفى اللجنة التى كتبت مشروع دستور ١٩٢٣، وكان وزيراً وصديقاً لسعد زغلول، وعين في مجلس الشيوخ عام ١٩٢٧، وكانت زوجته (اليس سوارس) هى أشبين زواج الملكة نازلى من الملك فؤاد، والملكة فريدة من الملك فاروق.

ولم يكن قطاوى وفدياً، لكنه حافظ على صلة شخصية مع زعماء حزب الأغلبية، وكان توجهه الأساسي الاقتصاد. ونشأ ابناه أصلان بك ورينيه بك مرتبطين بمصر والعائلة المالكة، وقد استمر ابناه عضوين في مجلسي النواب و الشيوخ حتى عام ١٩٥٣، وطالب ابنه الذى خلف والده في رئاسة الطائفة اليهود المصريين بالاندماج في الوطن الأم مصر، ووزع منشوراً قال فيه «إن مصر هى بلدنا والعربية هى لغتنا، وطالب اليهود بالأشتراك في الحياة السياسية و الثقافية المصرية، وكان رينيه قطاوى من أشد المناهضين للصهيونية، وقد شاركت عائلة قطاوى عائلات مصرية كثيرة في مشروعات اقتصادية».

مثال آخر هو ميرنو شيكوريل الذى هاجر من أزمير في منتصف القرن التاسع عشر، واشترك مع طلعت حرب في مشروعاته، واشترك في عضوية المجلس الأعلى لأصحاب الأعمال. أما سلفاتور شيكوريل فقد كان كابتن فريق الشيش المصرى في أولمبياد ١٩٢٨، وساهم بنشاط كبير في جالية السفارديم، ولم يكن مهتماً بأمور الصهيونية، وأسس سلسلة محلات شيكوريل وأريكو، التي كانت أكبر وأهم المحلات

المصرية للملابس، وهاجرت العائلة إلي فرنسا عام ١٩٥٧، ونظراً للموقف الاجتماعى والاقتصادى الكبير لهذه الطبقة اليهودية لم تغادر مصر إلا بعد أن أصبح استمرارها مستحيلاً بعد عدوان ١٩٥٦.

الحاله الاقتصادية والاجتماعية لليهود المصريين

منذ بدء حكم إسماعيل، وخلال الفترة الأولى من الاحتلال البريطانى، كان القانون اضحاً فى إعطاء مميزات للأجانب فى مصر، وقد أدى ذلك إلى تحسين أوضاعهم وفرصهم فى العمل والربح مقارنة بالمصريين.

ومنذ ظهور القطن المصرى طويل التيلة عام ١٨٢٠، وازدهار زراعة قصب السكر، والتصدير الزراعى لكلا المنتجين ظهرت الحاجة إلى وسطاء يعرفون اللغات الأجنبية ولهم اتصالات لتسهيل التعامل، وقد استفادت الجاليات الأجنبية كلها من ذلك، وضمنها الجالية اليهودية التى كان الأغنياء منها يعدون جزءاً من الجاليات الأجنبية، بالرغم من أنهم كانوا مصريين بالمولد و الجنسية. وقد أعطت مصر الأمان و الحرية والفرصة الهائلة فى التقدم الاقتصادى لليهود بعد طول حرمان فى البلاد التى جاءوا منها. وساعد اليهود شبكة علاقاتهم العائلية الدولية ومعرفتهم باللغات ومستوى تعليمهم المرتفع عن بقية المصريين. وهكذا أصبحت مصر الدجاجة التى تبيض ذهباً لليهود، وبعد أن كانوا مهمشين فى البلاد التى هاجروا منها أصبحوا مواطنين فوق العادة فى مصر، ولهم مميزات تفوق بكثير ما لدى المصريين أصحاب البلد.

وقد تغير نظام التعليم عند اليهود فى مصر من التعليم التقليدى للمصريين إلى التعليم الغربى، و ذلك بمساعدة مدارس الليسيه الإسرائيلية الفرنسية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وحتى بداية الأربعينات من القرن العشرين استمرت هذه المدارس في القيام بعملها فى المدن والريف المصرى فى بلاد مثل طنطا وغيرها. وكان معظم اليهود يرسلون أولادهم إلى هذه المدارس الإسرائيلية، حيث يتعلمون الفرنسية، إلا أن كبار الأغنياء كانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية الكاثوليكية. وفى عام ١٩٤٧ كان انتشار التعليم بين اليهود قد أدى إلى انخفاض الأمية بين اليهود المصريين إلى ٥٪ مقارنة بالنسبة المرتفعة جداً عند المسلمين والأقباط: ونتج عن ارتفاع مستوى التعليم أن بدأت بعض العائلات اليهودية تكسب مبالغ طائلة

من أعمال الصرافة والبنوك، مثل قطاوى وموصيرى ومنشه وسوارس وأجينيون، ووظفوا لديهم موظفين يهادا فى معظم الوظائف المتاحة لمساعدة أبناء الجالية من ناحية، ولأنهم الأكثر تعلماً ومعرفة باللغات من ناحية أخرى.

وقد اشتركت بعض هذه العائلات – بمساعدة رأس مال فرنسى – فى شراء أجزاء كبيرة من الأراضى المملوكة للأسرة المالكة، فقد اشتروا ما يقرب من نصف مليون فدان، وأقاموا مصانع تكرير السكر. وقد أدار هنرى ناعوس اليهودى البريطانى الجنسية – الذى أصبح فيما بعد السير فكتور هرارى – مشروع كوم أمبو للسكر بكفاءة عالية، حتى أصبح يسيطر تماماً على إنتاج السكر فى مصر. ويعتقد بنيين أن شركة السكر تطورت اقتصاديا فى الملكية والإدارة، لتصبح فى معظمها مصرية عام ١٩٤٧. ويرجع تأميم الشركة فى مرحلة لاحقة بعد الثورة يرجع إلى خلاف بين الحكومة وعبود باشا، وليس له علاقة بملكية يهودية أو أجنبية للشركة. وأنشأ سوارس شركة لنقل المواطنين فى مصر، وكذلك خطوط حلوان ومصر وأسيوط وقنا وأسوان للسكة الحديدية. وصعدت عائلة موصيرى سلم الاقتصاد بسرعة وأسست بنكين، واشتركت فى إدارة نحو ٣٠ شركة كبرى، وقد كان إيلى موصيرى صديقاً لإسماعيل صدقى باشا الذى عينه عضواً فى المجلس الاقتصادى المصرى. وقد ساعد التزاوج بين العائلات الغنية اليهودية على زيادة الثروة بتحالف رأس المال بين الشركات المختلفة. وقد أسس جوزيف فتا شركة جوزى فيلم عام ١٩١٥، وهى الشركة التى أنتجت عدداً كبيراً من الأفلام المصرية المهمة.

وحتى العائلات اليهودية الشرقية التى هاجرت إلى مصر حديثاً نسبياً فى منتصف القرن التاسع عشر – مثل شملا وشيكوريل وبدويك وحاييم ومزراحى ونجار وبتشتو وورومانو وستون وشالوم وسموحة وتوريل وهانو وأروزدى باك وجاتينيو وسيمون أزرت وكوهينيكا أصحاب الصالون الأخضر – استطاعوا كلهم أن يصبحوا من كبار الأغنياء فى فترة قصيرة من التجارة، بعد أن امتلكوا جميع متاجر وسط المدينة ما عدا صيدناوى، وصعدت عائلة شيكوريل سلم الثروة بسرعة فائقة خلال الجيل الثانى. وقد صعد السلم الاجتماعى أجانب آخرون غير اليهود مثل إخوان صيدناوى، وهم من الكاثوليك الشوام.

وكان عدد المحامين اليهود فى المحاكم المختلطة اثنين وثمانين محاميا، أى ١٤٪ من مجموع المحامين عام ١٩٣٠، على حين كان هناك محام يهودى واحد فى المحاكم المصرية, وقد كان هناك عدد كبير من اليهود المصريين ضمن الوفد المصرى فى مباحثات معاهدة منترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية، منهم المحامى اليهودى زكى عريبى الذى عينه عبدالناصر بعد ذلك فى لجنة وضع الدستور، وسيطرت الجالية اليهودية على كل المحلات الصغيرة ومحلات الملابس و المجوهرات, سواء فى الموسكى أو فى وسط القاهرة الحديثة، وكثير منهم كانوا عمالاً فنيين، خاصة اليهود الأشكيناز، وبالرغم من كل ذلك كان ثلث يهود الحارة فى ذلك الوقت يعانون من البطالة, وكذلك كان اليهود فى الدلتا قد بدأوا يعانون من الفقر والبطالة. وقد ارتفعت الفجوة الاقتصادية بين اليهود الفقراء اليهود الأغنياء, لكن تدريجياً ظهرت طبقة متوسطة يهودية تدير المحلات الصغيرة وتعمل في البنوك والشركات اليهودية، وبدأت تطالب بإصلاح أوضاع الجالية ورفع مستوى التعليم ومساعدة الفقراء منهم.

●كانت سلسلة مقالات أنس مصطفى كامل فى (الأهرام الأقتصادى) مهمة جداً، وأوضحت بعض النقاط الغامضة. فقد كانت هناك خلافات كثيرة حول تقدير دور ونسبة الملكية والإدارة اليهودية فى الاقتصاد المصرى, والتى وصلت ذروتها فى فترة ما بين الحربين العالميتين، ويعتقد أنس أنها كانت تتراوح بين ١٥ و. ٢٠ بالمائة لليهود المصريين، وكان الأوروبيون يملكون نحو ثلاثين بالمائة, لكن كان منهم بعض اليهود أيضاً، وامتلك الشوام والأرمن واليونانيون نحو عشرين بالمائة, أى أن المصريين كانوا يملكون ويديرون ما لايزيد على ثلاثين بالمائة من الاقتصاد المصرى. وبعيداً عن الملكية كان اليهود يتحكمون تماماً فى البورصة, وكان عدد العاملين منهم فى بورصتي القاهرة والإسكندرية يتراوح بين خمسة وسبعين و تسعين بالمائة, وكذلك كانت شركات التأمين تدار بالكامل بواسطة اليهود, وبعيداً عن التجارة وشركات السكر وشركات الخدمات لم يكن اليهود مهتمين بالصناعة التى انتعشت بين الحربين.

وفى عينة عشوائية قامت بها إسرائيل لدراسة الأعمال التى كان يقوم بها المصريون قبل هجرتهم إلى إسرائيل تبين أن ١١٪ لم يكن لديهم عمل, و١٥٪ كانوا يعملون فى قطاع الخدمات, ٣٠٪ فى التجارة, و٤٤٪ مهنيون ومديرون مسئولون.

● أنس مصطفى كامل – تاريخ الراسمالية اليهودية فى مصر – الأهرام الاقتصادى – عددى ٢٣ مارس – ٤ مايو عام ١٩٨١

ويبدو أن كلا من الإحصائيات المصرية والإسرائيلية غير دقيقة و غير معبرة عن حقيقة الوضع, لأن طبقة اليهود المصرية الغنية والمثقفة والمهنيين وأصحاب الشركات ذهب معظمهم إلى أوروبا وأمريكا، ولم يذهبوا إلى إسرائيل.

يقول ماير: «إن دراسة أنس مصطفى كامل فى (الأهرام الاقتصادى) اتهمت اليهود المصريين بأنهم استغلوا القوانين المميزة للأجانب، واستفادوا منها فى جمع أموال طائلة ويعتقد أنس كامل – مثل تيار كبير من اليسار المصرى – أن كبار أغنياء اليهود ساندوا الصهيونية, و شاركهم فى ذلك بعض الباشوات من رجال الأعمال والسياسيين المصريين، مثل أحمد زيور وعدلي يكن وإسماعيل صدقي وحسين سرى, وذلك باتخاذ الحكومة المصرية والمسئولين فيها قرارت مساندة للشركات اليهودية لزيادة أرباحها». ويقول أنس: «إن اليهود استمروا فى سياسة مساعدة الصهيونية حتى بعد عام ١٩٤٨ وإلى منتصف الخمسينات، حين أممت ممتلكاتهم بعد أن هَرَّبوا معظم أموالهم إلى الخارج».

وقال أنس كامل في دراسته أيضاً: «إنه فى منتصف الستينات لم يتبق فى مصر إلا ١٥٠٠ يهودى, معظمهم من رجال المعاشات, وبعضهم من الفقراء البسطاء الذين لم تهتم بهم حكومة إسرائيل». ويعتقد أنس وكثير من الذين علقوا على الدراسة أن الخطر الاقتصادى الإسرائيلى مازال قائماً, بل وربما تبدأ سلسلة جديدة منه بعد معاهدة السلام, وقد تؤدى إلى إضعاف الاقتصاد المصرى. ويقول ماير: «إنه على العكس من أنس فإن● المؤرخ المصرى عبد العظيم رمضان يرفض هذه الآراء, ويقول: «إن اليهود كان لهم دور فى الاقتصاد المصرى له أهميته وحجمه، لكن يجب عدم المبالغة فيه». ويقول ماير: «إن الرأى العام المصرى يؤمن بنظرية المؤامرة التى تسخر اليهود فى العالم كله لخدمة الهدف اليهودى و الدولة الصهيونية . وفى تقدير ماير أن الكتاب اليساريين هم الوحيدون الذين تفهموا أن اليهود المصريين لم يكونوا نسيجاً واحداً, ويقول ماير إن المصريين عدوا اليهود المصريين وحدة واحدة تأتمر بأوامر الصهيونية، علي حين أنهم عدة أنسجة وطبقات وأصول عرقية ويتكلمون لغات مختلفة, ولا يمكن جمعهم فى مصطلح (اليهودى المصرى)», وبالرغم من ذلك يعتقد ماير أن صورة اليهودى المصرى فى وسط الشعب المصرى كانت صورة إيجابية، حيث عرف بأنه أمين ونشيط وموهوب.

● القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبدالناصر – عبدالعظيم رمضان– الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة ٢٠٠٣

أقام معظم اليهود فى القاهرة والإسكندرية، إلا أنه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت هناك جاليات يهودية فى مدن الدلتا, خاصة طنطا والمنصورة والمحلة الكبرى والسنبلاوين و الزقازيق وزفتى, ونظراً لتدهور الأحوال الاقتصادية فى هذه المناطق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أخذ الأغنياء ومتوسطو الحال يهاجرون من هذه المدن إلى القاهرة والإسكندرية، ولم يبق فيها إلا الفقراء.

موسي قطاوي باشا رئيس الجالية اليهودية والاقتصادي الكبير

موسى قطاوى باشا (١٨٤٩ - ١٩٢٤) من أهم الشخصيات فى تاريخ عائلة قطاوى، وقد تولى مناصب خطيرة, واستطاع أن ينمى الإمبراطورية الاقتصادية للعائلة، وأسس مدرسة قطاوى، التى تعلم فيها الكثير من أولاد الفقراء والعائلات المتوسطة من اليهود المصريين، ويعد عند الكثير من المؤرخين من الشخصيات اليهودية التى أثبتت انتماءها إلى مصر, إلا أنه من الغريب أن قطاوى هرب من مصر مع زوجته لمدة قصيرة عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢ أثناء ثورة عرابى, وذهب إلى نابولى وعاد بعد إجهاض الثورة.

ومما لا شك فيه أن هروب موسى قطاوى باشا القطب الكبير لعائلة قطاوى والزعيم الأكبر للجالية اليهودية المصرية يحمل دلالات كثيرة, أولاها أنه تخلى عن الشعب المصرى حين قامت ثورة الجيش المصرى التى أيدها الشعب المصرى كله، وعدها طريقاً للخلاص من أسرة خديوية فاسدة فرطت فى ثروة البلاد، وباعت الشعب وممتلكاته بأبخس الأثمان للأجانب من كل نوع, وقد غادر قطاوى باشا مصر إلى أن تتضح الأمور, وهذا يعنى أن وضعه ومكانته فى مصر كانا مرتبطين بوجود نفوذ أجنبى وأسرة مالكة فاسدة، فقد كان قطاوى مثل كل أغنياء اليهود مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعائلة المالكة, وبالتأكيد كان هناك آلاف المهاجرين إلى مصر فى القرن السابع عشر, وهى نفس الفترة التى هاجر فيها قطاوى إلى مصر, وكلهم كانوا قد أصبحوا مصريين تماماً فى نهاية القرن الثامن عشر, مثلهم مثل قطاوى, ولا شك أنهم أيدوا عرابى واستقلال مصر مثل كل المصريين, فلماذا يهرب اليهودى المصرى عندما تطالب مصر بالاستقلال؟. وفى تلك الآونة لم تكن هناك مشكلة فى فلسطين, ولم يكن هناك

سبب يدعو قطاوى إلى التخلى عن وطنه، إلا إذا كان لم يعد نفسه مصرياً صميماً، وعلى النقيض من ذلك كان هناك اليهودى المصرى ابن البلد يعقوب صنوع الذى أيد عرابى ودافع عن مصر والمصريين, ونفى من مصر بعد ذلك, وأخذ يدافع عنها في باريس. هل الفارق بين قطاوى باشا المصرى الغنى ذي النفوذ الكبير ويعقوب صنوع المصرى الفقير المثقف هو أن صنوع ارتبط بأهل البلد وأحس بهم وعاش معهم، على حين أن قطاوى ارتبط بالأجانب فى مصر, وارتبط بالأسرة المالكة ولم يعنه الشعب فى شيء ولم تكن مصر تعنيه إلا مصدرا لزيادة دخله؟.

إن حادث هجرة قطاوي غير معروف، و قد عثرت على وثائق هذه الهجرة بالمصادفة، و لم تذكرها معظم كتب التاريخ التي تناولت تاريخ اليهود في مصر، و كانت تلقي ظلالا من الشك على موقف قطاوي، الذي كان دائما مع الشعب المصري، و ضد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

اليهود والثقافة المصرية

من المعروف أن لليهود الأوروبيين والأمريكيين تأثيرا ثقافيا كبيرا فى البلاد التى يعيشون فيها، يفوق بمراحل نسبة عددهم فى المجتمعات الأوروبية أو الأمريكية, كما أن لهم تأثيرا فى الاقتصاد والإعلام أكبر بكثير من حجمهم فى المجتمع لكننا إذا درسنا بهدوء التأثير الثقافى لليهود المصريين فى مصر، سنجد أنه فى مجموعه كان هامشياً وغير مؤثر فى تاريخ الثقافة المصرية, على عكس التأثير اليهودى القوى فى الاقتصاد المصرى، والسبب فى ذلك يبدو لى واضحاً, لأنه كان يمكنك أن تنتج اقتصاداً متقدماً وتقوم بتجارة ناجحة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية فى النصف الأول من القرن العشرين, ولا يلزم لذلك أن تكون جزءاً من نسيج المجتمع المصرى, ولا حتى أن تتعرف على مشاكله، ويكفى أن تدرس السوق المصرية لتعرف المطلوب استيراده أو تصنيعة أوتصديره, وكيف يمكن التفاهم مع أعوانك فى الحكومة المصرية حتى يساعدوك بلوائح وقوانين مناسبة لعملك وتنظيم اتصالاتك مع رجال الأعمال الأوروبيين.

أما حين نتحدث عن الثقافة فلا يمكن لأى إنسان أن ينتج ثقافة تمثل أى شعب بدون أن يكون جزءاً من هذا الشعب الذى عايشه وشعر بآلامه وآماله, فكيف يمكن لليهود المصريين أن ينتجوا فناً أو ثقافة وهم فى معظمهم كانوا من نسيج مختلف ولم

يندمجوا فى شعبهم؟، وذلك باستثناء اليهود المصريين الأصليين الذين عايشوا الشعب المصرى وعاشوا معه.

فلنأخذ أولاً اليهود المصريين من الأشكيناز الذين كانت ثقافتهم هى ثقافة أوروبا الشرقية، وكانت موسيقاهم هى الموسيقى الأوروبية, ومعظمهم لم يقرأ بالعربية, والبعض لم يكن حتى يتكلمها, بالرغم من أنه ولد وعاش فى هذا البلد ، لذا إذا رجعنا إلى كل ما أنتجه اليهود المصريون من ثقافة لن نجد أى مشروع ثقافى أو إنتاج أدبى فى القصة أو الشعر أو الموسيقى أو أى شىء آخر من طائفة الأشكيناز.

أما طائفة السفارديم- فكما سبق أن بينا- فإن منهم اليهود المصريون الأصليون, ومنهم من هاجر إلى مصر فى فترات لاحقة، وهذه المجموعة التى وفدت فى القرنين التاسع عشر والعشرين كانت لغتها الأصلية فى الأغلب الفرنسية، وكانت ثقافتها فرنسية, فهى تقرأ وتفكر بالفرنسية وتستمع إلى الموسيقى الأوربية، لذا لم تنتج أيضاً شيئاً مهما فى الثقافة المصرية، والمحاولات الروائية والأدبية كانت تكتب بالفرنسية أولاً, وبعد ذلك بالعبرية لمن هاجر منهم إلى إسرائيل, وسوف نتعرض لهذا الأدب فيما بعد.

أما اليهود المصريون الأصليون فهم الوحيدون الذين كانوا مؤهلين لإنتاج ثقافة مصرية، لكن حتى الكثير من هؤلاء قد تمت صياغة عقولهم بتعليم مختلف وثقافة مختلفة تحت التأثير الصهيونى العالمى فى الربع الثانى من القرن العشرين, وأصبح نتاج الفترة يهوداً مصريين, لكن غير أصليين, لأنهم فقدوا قدرتهم على القراءة بالعربية, وفقدوا العلاقة الحميمة مع الشعب المصرى الأصيل, وأصبح تعاملهم الأساسى مع اليهود الخواجات, ومع الخواجات من غير اليهود.

يبقى من كل ذلك بعض اليهود المصريين الأصليين الذين لم تطلهم التأثيرات والتغيرات المهمة التى حدثت لليهود المصريين, وسوف نذكر أمثلة لهم :

يعقوب صنوع ١٨٣٩ - ١٩١٢

يعد الكثيرون يعقوب صنوع (أبو نظارة) (١٨٣٩ - ١٩١٢) أهم الشخصيات اليهودية المصرية التى أثرت فى الثقافة المصرية, فيعقوب صنوع يهودى مصرى من اليهود السفارديم, وكان متعدد المواهب ومعجونا بطين مصر، يقول شمويل موريه: «إنه الشخصية اليهودية الوحيدة فى التاريخ المصرى التى كان لها وجود شعبى وثقافى

وسياسى فى مصر و الشرق الأوسط كله». ويتعجب موريه لأن صنوع انتقد بعض العادات الإسلامية، وانتقد أيضاً الحكام المصريين, وكذلك الحكام المسلمين عموماً, مثل الخديو توفيق والخديوي إسماعيل, و انتقد كذلك القوى الأجنبية, وبالذات بريطانيا العظمى، وكانت صحيفته الفكاهية تتندر على خديو مصر. ويعتقد موريه أن شجاعة صنوع فائقة لكونه يهوديا, ولأنه كان من المحتمل فى القرن التاسع عشر أن يضطهد اليهود فى العالم الإسلامى بهدف تخويف الآخرين، لذا كانوا يأخذون جانب الحذر. ويؤيد مقولته بكتاب إدوارد لين عن عادات وتقاليد المصريين. ويدعى موريه نقلاً عن د.إبراهيم عبده المؤرخ المصرى «أن السبب فى شجاعة صنوع ربما كان تحوله إلى الإسلام». ويبذل موريه مجهوداً كبيراً فى إقناع القارئ بأن حكاية إبراهيم عبده عن تحول صنوع إلى الإسلام غير حقيقية. والواقع أن جميع الكتاب و المؤرخين اعتمدوا فى دراسة سيرة صنوع علي أوراقه المحفوظة فى جامعة باريس, وعند حفيدته المقيمة فى باريس. وفى اعتقادى أن موضوع تحول صنوع إلى الإسلام أو بقائه يهودياً ليس له أهمية على الإطلاق, وأن الأمر فى تقديرى هو أن صنوع مصرى صميم بغض النظر عن ديانته, الإنسان يعبر عن مكنونه وهويته وحبه لوطنه، مادام مرتبطاً ارتباطاً ذهنياً ونفسياً بهذا الوطن فى كل زمان ومكان, وفى هذا الأمر لايعد الدين العامل الجوهرى فى تحديد مفهوم الوطنية والمواطنة, فمثلاً هناك بعض المسلمين المصريين من دعاة القومية الإسلامية أو الدولة الإسلامية الكبرى التى تأتى فى المقام الأول, ثم تأتى مصر فى المقام الثانى، على حين أن هناك أغلبية من المصريين يؤمنون بالوطنية المصرية أولاً، و لها بالطبع روافد عربية أو إسلامية أو قبطية. فالمهم أن يعبر الإنسان عن وطن يحبه ويرتبط به، ويعد هذا البلد المكان الذى يسبح فيه, وإذا خرج منه يفقد نفسه, حتى لو خرج إلى عالم فيه حرية أكبر ورخاء أكثر وأمان تام. والوطنيون المصريون– بغض النظر عن إنتماءاتهم السياسية أو عقائدهم الدينية– مرتبطون بالوطن, يفكرون فيه ويحلمون به ويتواصلون مع مواطنيه, حتي وهم فى المنفى.

وعندما انتقد صنوع حكام مصر واستبداد الحكام المسلمين, وبعض العادات القبيحة للمسلمين، كان ينتقدها بوصفه مصريا مثل أى مصرى مسلم أو قبطى ينتقد مصر، و لو كان جزء من اليهود المصريين فى القرن العشرين قد تصرفوا مثلما تصرف صنوع ما كان قد حدث للجالية اليهودية ما حدث لها، و لتضامن معظم المصريين معهم

لصالح الوطن. نعم، صنوع كان مصرياً وطنياً مخلصاً من حقه أن ينقد ما يراه، لأنه كان يعرف جيداً- وكان الجميع يعرفون أيضاً- أنه مصري أولاً وأخيراً، لكنه يحمل الديانة اليهودية التي لا تحجب الصفة الوطنية عن المواطن مثلها مثل أي دين آخر. وقد نشر موريه خطابات صنوع المرسلة من باريس إلى مصر، وكانت هذه الخطابات مرسلة إلى الأمير حليم وإلى نيكولا رعد، وعدة خطابات أخرى مرسلة من وإلى إبراهيم المويلحى، وكلها تعبر عن حب كبير لمصر وارتباط شديد بالشعب المصرى.

وقد كتب صنوع عددا كبيرا من المسرحيات الفكاهية من عدة فصول، عرض بعضها على المسرح فى القاهرة قبل نفيه إلى باريس، وأرسل الباقى مهرباً إلى مصر، وكلها كانت تنتقد الحاكم و الظلم الذى يلاقيه المصريون وكان النشاط الأكبر لصنوع هو الصحافة التى عمل بها فى مصر ثم فى فرنسا، وكلها تحض على الشجاعة وتحريض المصريين على الثورة و الدفاع عن عرابى وثورته ضد الإنجليز، ويجب ألا ننسى أن صنوع هو صاحب شعار (مصر للمصريين). وتذخر المكتبة العربية بدراسات مفصلة عن يعقوب صنوع اليهودى الوطنى المصرى الذى لاقت أعماله الصحفية والمسرحية قبولاً شعبياً فائقاً.

والخلاصة أن معظم الجالية اليهودية المصرية كانت لها علاقات بالثقافة الأوروبية، لذا لم يساهم فى الثقافة العربية إلا أعداد قليلة من اليهود المصريين مقارنة بيهود البلاد العربية، حيث كانت لغة اليهود المصريين فى معظمها الفرنسية، وكانوا يشتركون بالكتابة و النشر بالفرنسية، وكانت دراستهم أيضاً فرنسية، حتى فقدت اللغة العربية- وأيضاً اللغات اليهودية مثل اللادينو و البيديش وكذلك الإيطالية - أهميتها لهم مقابل الفرنسية.

وهذا قد يفسر لماذا لم يقدم اليهود المصريون رمزاً كبيرا فى الأدب العربى فى القرن العشرين مقارنة بيعقوب صنوع فى القرن التاسع عشر، ولم يقدم اليهود المصريون شيئاً ذا قيمة حقيقية فى الأدب أو الشعر أو المسرح المصرى أو حتى النقد الأدبى أو الفنى.

وحتى فى ترجمة الأدب العالمى إلى العربية لم يلعب اليهود دوراً مقارنة بالموارنة اللبنانيين المهاجرين إلى مصر الذين لعبوا دوراً مهماً، وكان هناك بعض الأدباء من

اليهود المصريين, لكنهم كتبوا بلغات أوروبية، مثل أدمون جابى فى فرنسا وجاكلين كهانوف فى إسرائيل.

مـراد فــرج

هناك مثال آخر نادر ليهودى مصرى مثقف يكتب بالعربية هو مراد فرج, وهو من اليهود القرائين, ولد في القاهرة عام ١٨٦٦، وتوفى فيها عام ١٩٥٦. وكان شاعراً ومؤلفاً وناقداً.

كان مراد فرج محامياً و مستشاراً قانونياً للقصر الملكى, وقد توفى عن عمر يناهز التسعين عاماً، ونشر خمسة وعشرين كتاباً فى حياته, وفى أوائل القرن العشرين كان فرج محرراً فى جريدة لطائفة القرائين تسمى (التهذيب), ونشر فيها الكثير من أوائل كتاباته, ثم بدأ ينشر فى عدد كبير من المجلات والصحف المصرية. وبدأ أيضاً فى نشر قصائده فى صحيفة (الجريدة) التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد, ونشر أيضاً فيصحيفة (المؤيد) التى كان يحررها الشيخ على يوسف، وكانت الصحيفتان من أهم الصحف فى ذلك الوقت، وقد جمعت مقالاته وأشعاره فى مجموعة من الكتب نشرت بين عامى ١٩١٢ و ١٩٢٥. والكثير منها كان يتعلق بمذهب القرائين ومراجعات للشعراء اليهود الذين عاشوا في القرون الوسطى و كتبوا بالعربية، وترجم بالاستعانة بابنه توفيق طالب الحقوق فى ذلك الوقت روايات عن الفرنسية منها "أمثال النبى سليمان" ورواية "حب صهيون".

وبالإضافة إلى كتبه عن طائفة القرائين له كتاب (مقالات مراد) فيه مقالات أصلاحية للمجتمع المصرى, وبعضها فلسفية, والبعض الآخر عن موضوعات عامة, لكنها لا تعكس أى واقع أو رأى سياسى●. يقول سميخ فى دراسته عن كتابات مراد فرج: «إن فترة كتابة المقالات الأولى كانت فترة عصيبة فى تاريخ مصر، حدثت فيها مذبحة دنشواى وقتل بطرس غالى رئيس وزراء مصر, ولم يتعرض مراد لأى شىء من ذلك إلا فى مقالة واحدة أسماها (حرب الوطن) نعى فيها بطرس غالى, ووصفه فيها بأنه بطل الوحدة القومية، ويذكر فيها أنه يجب على المسلمين المساواة بين جميع الأديان, ويرفض مبدأ بعض المسلمين الذين يؤمنون بأن رحمة الله لا تطبق على غير المسلم, ويشكر أحمد لطفى السيد على شجاعته فى نشر مقالاته مسلسلة فى صحيفة

● المصادر الاجنبية

"الجريدة"، وقد علق فيها على الآية القرآنية (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) وقال إن هذه الآية مدسوسة على القرآن من أعداء الإسلام، وأبدى لطفى السيد شجاعة بالغة فى نشر هذه المقولة، لأنه كان مهتماً بأن ينشر جميع الأفكار، ولأبناء جميع الأديان. وواضح أن فرج ليس عنده خلفية عن الفلسفة والكتابات الأوروبية التى كانت موجودة بكثرة فى كتابات يعقوب صنوع وفرح أنطون ونيقولا حداد من معاصريه. ولا يمكن مقارنة مراد فرج بالمجددين اللبنانيين أو المصريين مثل قاسم أمين. وقد نشر أربعة مجلدات من شعره، بالإضافة إلى ديوان دينى سماه (القدسيات) يبدى فيه تفاعلاً وتأثراً بالمشروع الصهيونى، ويتوجه إلى الإخوة المصريين، ليقول لهم إن المشروع الصهيونى حق لهم، ويجب ألا يقفوا فى طريقه. والمجلد الأول كان عن الحب والموت والحياة والمصير وبعض الأخلاقيات، وقد نشر قصيدة بمناسبة المغادرة النهائية للورد كرومر، لا يمكن أن تقارن بقصيدة شوقى فى هذه المناسبة. ونشر كتاباً عن الشعراء اليهود كتب مقدمته إسماعيل أدهم، وقدم فيه دراسة لغوية عن الشاعر اليهودى السموأل، ونشر قصيدة موجهة إلى المسيحيين يطالبهم فيها بالابتعاد عن إراقة دم أطفال اليهود، بمناسبة حادثة بور سعيد عام ١٩٠٢.

وفى المجلد الثالث توجد ثلاث قصائد تحية وتعاطف لأساتذة يهود حضروا من فلسطين إلى مصر بدعوة من الحكومة المصرية، وكثير من القصائد تحتفل بأبطال من التاريخ اليهودى، أو شعر مناسبات لافتتاح مدرسة أو مستشفى، وفى المجلد الرابع الذى نشر عام ١٩٣٥ اللهجة الصهيونية إلا فى قصيدة واحدة.

وكان لمراد فرج علاقة وثيقة بشعراء وأدباء مصر فى ذلك الوقت، وقد أرسل أحمد شوقى بك قصيدة إلى شاعر الإسرائيلية مراد فرج نشرتها جريدة (الكليم) على الغلاف عام ١٩٢٥ ، وقد أرسل مراد فرج قصيدة تحية لأمير الشعراء أحمد شوقى فى ١٩٢٧/٥/٢، والقصيدتان منشورتان فى هذا الكتاب مع مجموعة الصحف والمجلات المصورة. وفي سنواته الأخيرة استمر في الكتابة، لكن فى المواضيع الدينية واللغة العربية. و يقول سميخ إن مراد فرج انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٦، واستمر عضواً فيه حتى وفاته عام ١٩٥٦. إلا أن الأستاذ رجاء النقاش كتب في عدد جريدة "الأهرام " يوم الأحد ٢٠٠٤/٩/١٣ أنه كان هناك يهودي واحد في المجمع، هو الحاخام ناحوم، و أنه راجع سجلات المجمع فلم يجد اسم مراد فرج.

ومن المعروف أن كتابات مراد فرج وأشعاره الأولى فى مطلع القرن العشرين كانت صهيونية التوجه والفكر، بالرغم من أن فرج من اليهود القرائين البعيدين عن الأفكار الصهيونية, وبرغم أن الأفكار الصهيونية لم تكن معروفة أو واضحة فى ذهن اليهود المصريين فى تلك المرحلة المبكرة, إلا أنه بمرور الوقت وبعد تفاقم القضية الفلسطينية اختفت النبرة الصهيونية، والحديث عن الوطن القومى لليهود فى فلسطين من كتابات مراد فرج ، وربما كان ذلك لأنه اكتشف أن الكتابة فى هذه الموضوعات ربما تحدث شرخاً فى علاقته بمصر وبأصدقائه المصريين, وأعتقد أنه حجب توجهاته الصهيونية التى كانت واضحة قبل ذلك, حتى لا يبدو فى صورة المصرى غير الوطني، وحتى لا تتعارض آراؤه مع التيار الغالب من المصريين, وربما يكون قد آثر الاحتفاظ بأفكاره الصهيونية لنفسه. ويعد النقاد مراد فرج محاميا أولاً وكاتبا وشاعرا ثانياً، ومواهبه الأدبية والشعرية محدودة باعتراف الجميع .

هل هناك تأثير ثقافى آخر لليهود المصريين ؟

كان اليهود القراءون هم الجزء الأساسى من اليهود المصريين الذين كانوا يجيدون اللغة العربية، وكانت هناك مجموعة من الكتاب تجتمع فى المقهى وتسمى نفسها المدرسة الحديثة. يقول سميخ: كان ضمنها بعض اليهود, وكانت هذه المجموعة تضم يحيى حقى و محمود تيمور وطاهر لاشين وحسين فوزى من كتاب القصة القصيرة, وكان أحد أعضاء هذه المجموعة طبيب يسمى شالوم بن مسعودة, وهوطبيب شاب من القرائين تكلم عنه يحيى حقى, وكان يسميه الفليسوف و الطبيب. وأود أن أعلق على الاهتمام غير الطبيعى بشخصية ذكرها يحيى حقي فى أحد كتبه، وهي لشاب يهودى أطلق عليه اسم الفليسوف ، ولم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك فى أى مكان, ولم ينشر شيئاً وصل إلينا من أى مكان فى العالم, ولهذا من الغريب أن يركز الباحثون الإسرائيليون على مقولة عابرة ليحيى حقى، يهتمون بها لمجرد إثبات أن بعض شباب اليهود كانوا على علاقة بالأدب والثقافة فى مصر. ويذكر المؤلف الإسرائيلى نفسه حكاية رواها أنيس منصور عن صالون العقاد, حين جاءت عائلة يهودية تحييه قبل هجرتها من مصر, وأن شاباً يهودياً يدعى هرارى ألقى كلمة عن المرأة اليهودية التى أثرت سابقاً

فى حياة العقاد. هذه أيضاً حكاية ليس لها أهمية، ولا أحد يدرى مدى تأثيرها وما حجمها؟ وما مضمون الكلمة؟ وكم فرداً من هذه العائلة ذهب ليودع العقاد؟. ومن هاتين الحادثتين يستنتج سميخ أن شباب اليهود لابد أنهم كانوا مشاركين فى الحركة الأدبية المصرية. لكن المؤكد أن الباحث الإسرائيلى سميخ أجرى بحوثاً مستفيضة عن التأثير الأدبى اليهودى فى الثقافة المصرية، لكنه لم يجد شيئاً إلا هذه الحكايات التى ليس لها أى وزن أو قيمة.

ويبقى أن اليهود المصريين أنشأوا جمعية (الأبحاث التاريخية الإسرائيلية المصرية) عام ١٩٢٥، تحت رعاية الحاخام ناحوم حاييم أفندي، وشكلت لجان لجرد الكتب والمخطوطات اليهودية المصرية القديمة، ولجنة للنشر، وأخرى للعلاقات الخارجية. وكان من أعضائها المهمين الدكتور إسرائيل ولفنسون، وهو تلميذ لطه حسين والذى كان قد أشرف على رسالته للدكتوراه. وقد نشر ولفنسون كتاباً مهما عن موسى بن ميمون كتب مقدمته الشيخ مصطفى عبد الرازق. وتعتقد سهام نصار أن كبار المفكرين المصريين من أمثال أحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين انقادوا بسهولة وبدون وعى إلى التعامل مع الصهيونية، ومن أمثلة ذلك أن طه حسين رأس تحرير مجلة (الكاتب المصرى) التى يملكها إخوان هرارى.

ومنذ القرن التاسع عشر كان كبار المثقفين فى مصر على علاقة وثيقة باليهود، فعلي سبيل المثال شجع جمال الدين الأفغانى يهود الإسكندرية على تكوين جمعية مصرالفتاة اليهودية عام ١٨٧٩، وقدم العقاد ماكس نوردو المفكر والفليسوف الصهيونى الكبير وتلميذ هرتزل النجيب إلى القارىء المصرى ورثاه بعد موته، وكان العقاد واعياً بصهيونية نوردو، لكن ذلك لم يشكل له مشكلة أبداً. وقدمت فرقة فاطمة رشدى المسرحية مسرحية (يهوديت) التى عربها أحمد رامى وأخرجها عزيز عيد.

وملخص الأمر أن اليهود كان لهم تواجد بسيط فى المجتمع الثقافى، وأن الشعب والحكومة والمثقفين المصريين لم يظهروا أي عداء لهم حتى قيام دولة إسرائيل، أو قبل قيامها ببضع سنوات على أقصى تقدير.

و حيث إن اليهود المصريين كانوا مجموعات مختلفة الثقافة واللغة والأصل والعلاقة بمصر تاريخياً ، وكانت ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية متفاوتة إلى حد كبير ، فإن

المجموعة الوحيدة التى كانت تجيد اللغة العربية وتحمل نفس الموروث الثقافى للمصريين هم فقراء اليهود والشريحة السفلى من الطبقة الوسطى, أما باقى اليهود فلم يكن عندهم ارتباط باللغة أو الثقافة, وبالتالى كانت علاقتهم بالسياسة تتمثل في الحفاظ على مصالحهم. تقول كرامر: «إن بقية اليهود لم يكونوا يبدون اهتماما بالسياسة المحلية ولا الثقافة المصرية، و يشعرون بأنهم أعلى كعباً من بقية المصريين».

●وهناك مؤرخون مثل عرفة عبده على وسيدة محمود حسنى يعدان اليهود أجانب وكل ولائهم للصهيونية، وهناك نبيل عبد الحميد السيد من جامعة المنيا الذى يتعاطف مع الإخوان المسلمين فى دعوتهم بأنه لا فرق بين اليهود في مصر أو فلسطين, ويعتقد أن التاريخ أثبت أنه من الصعوبة التفرقة بين اليهودى و الصهيونى.

طه حسين ومجلة الكاتب المصري

صدر العدد الأول من المجلة فى أكتوبر عام ١٩٤٥ , وأغلقت فى مايو عام ١٩٤٨, تكونت شركة الكاتب المصرى, وهى شركة مساهمة مصرية، من سبعة أشخاص من آل هرارى, وهى عائلة يهودية مصرية قديمة, وطلبت الشركة من طه حسين إصدار هذه ●المجلة الأدبية الثقافية الشهرية، قال إنه قبل رئاسة تحريرها استقصي وأحسن الاستقصاء, وتَبَيَّن أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد. وكانت المجلة على مستوى عال جداً فى محتواها الأدبى والثقافى, وكان ثمنها عشرة قروش, وهو ثمن مرتفع بالنسبة لثمن المجلات فى ذلك الوقت.

●ويقول الناقد الراحل على شلش إن طه حسين خلال رئاسته لتحرير المجلة- التى استمرت حتى قرر أصحابها إغلاقها بسبب ظروف الحرب العربية الإسرائيلية- لم يقترب من قضية فلسطين، ولم يقحم نفسه فى الصراع السياسى حول الموضوع كله, واكتفى بمقال واحد فى يونيو عام ١٩٤٦ . بدأه بالعطف على المهاجرين اليهود من الأطفال والنساء, وكذلك الفلسطينيين أنفسهم الذين قال إنهم لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين . وللحق والتاريخ فإن هذه المقالة لم تكن فى المقام الأول مقالة سياسية، بل كانت وصفا لرحلة قام بها طه حسين على باخرة كبيرة متجهة إلى لبنان, وتصادف أن كان عليها ما يزيد على الألف من اليهود القادمين من أوروبا فى طريقهم إلى فلسطين, ومعظمهم من النساء والأطفال. ويصف طه حسين الرحلة

● اليهود والماسون فى مصر – على شلش – ١٩٨٦

●ملف اليهود فى مصر الحديثة – عرفة عبده على – القاهر ١٩٩٣

●اليهود فى مصر بين قيام إسرائيل والعدوان الثلاثى ١٩٤٨ – ١٩٥٦ نبيل عبدالحميد سيد أحمد الهيئة المصرية للكتاب – مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ١٩٩١

●الكاتب المصرى ١٩٤٥ – ١٩٤٨ – المجموعة الكاملة – رئيس التحررير طه حسين

والجو العام على السفينة، ثم يعرج على وصف اليهود المهاجرين من أوروبا بالوصف الذى ذكره على شلش, ثم قال طه حسين إن الفلسطينيين لم يستشاروا فى إيواء هؤلاء البائسين, لكن على شلش لم يكمل بقية الجملة المنشورة التى قال فيها طه حسين إن هناك أوطاناً كثيرة فى العالم أقدر على إيوائهم من فلسطين. وعموماً هذه الفقرة القصيرة لم تمثل أكثر من خمسة بالمائة من المقال, وكانت وصفاً لمشهد عايشه طه حسين فى الرحلة.

وفى عام ١٩٤٥ تساءل الكثيرون كيف يعمل طه حسين فى مجلة أصحابها من اليهود، ونشرت بعض الصحف العربية هذه الأسئلة, وأجرت مجلة الاثنين الصادرة عن دار الهلال حديثاً صحفياً مع طه حسين, وسألته الصحفية صراحة : يقولون إنك تعمل على مساعدة الصهيونية، فأجاب طه حسين : ليت الذين يذيعون هذا الكلام الفارغ يستطيعون أن يبلوا فى خدمة العروبة مثلما أبليت. ليس أدل على أننى أساعد الصهيونية من أننى أحيي الأدب العربى القديم, وأنشر أشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم, فأى مساعدة للصهيونية أقوى من هذا؟. وحين يظهر العدد الأول من الكاتب المصرى سوف ترون. وأرسل له الكاتب الفلسطينى خليل شطارة مستفسراً عن الموضوع, فبعث إليه طه حسين رسالة نشرتها "البلاغ" الفلسطينية قال فيها : فأما الشائعات فمصدرها المنافسة التجارية من ناحية,والضغينة السياسية والحسد البغيض من ناحية أخرى, وخلاصة القضية أن سبعة من اليهود المصريين اشتركوا فى عمل تجارى صرف قوامه نشر الأدب العربى ، قديمه وحديثه ، ونقل الجيد من الآداب الغربية إلى لغة الضاد, وطلبوا أن أكون مشيرهم فى ذلك, فقبلت بعد أن استقصيت وأحسنت الاستقصاء, وتيقنت أن الأمر لايتصل، ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد، وإننى أتحدى من شاء أن يجد فى المجلة إشارة إلى الصهيونية أو تأييدا لها ، ومن يدرى لعل خصوم هذه المجلة يبهتون فى يوم من الأيام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية، وهجوماً عنيفاً على ظلمها، ودفاعاً عن العرب فى وطنهم فلسطين، وإنه لن يخلف ظنه ولا ظن أحد من العرب. وهكذا كان طه حسين قبل أن تصدر المجلة واضحاً وصريحاً, وأعتقد أن تقييم موقف طه حسين فى موضوع مجلة "الكاتب المصرى" يجب أن ينبع من شيئين, أولهما مدى تحقيقه لوعده بمضمون المجلة، وثانيهما علاقة موقفه بموقف المثقفين المصريين عموماً فى ذلك التاريخ, من ناحية

التعامل مع اليهود المصريين. ومعروف أنه حتى ذلك التاريخ كان المصريون عموماً لا يمانعون فى التعامل مع اليهود المصريين من غير المنتمين للحركات الصهيونية، أى أنهم كانوا – بشكل واضح – يتعاملون مع اليهود بشكل طبيعى وعادى .

و قامت هيئة الكتاب بإعادة نشر جميع أعداد المجلة التى صدرت خلال الثلاث سنوات ١٩٤٥ – ١٩٤٨، و صارت متوافرة للقراء بثمن زهيد، والمجلة ثقافية بالدرجة الأولى, والكثير من الموضوعات التى نشرت فيها تصلح لأن يعاد نشرها اليوم، وبالإضافة إلى المقالات الثقافية والأدبية والأشعار والنقد الأدبى, كانت المجلة تلخص فى أحد أبوابها أخبار العالم الثقافية والفنية, وقد راجعت فهارس جميع الأعداد التى صدرت فى السنوات الثلاث فلم أجد شيئاً بقلم طه حسين له علاقة باليهود, باستثناء المقال التى سبق ذكره. ولم يتناول أحد من الكتاب الآخرين في المجلة هذا الموضوع, لكن مشكلة فلسطين ذكرت كثيراً فى باب السياسة الدولية, وهو باب يتضمن تقارير أجنبية معظمها من الأمم المتحدة والدول الكبرى, وكانت عبارة عن حقائق وقرارات دولية مترجمة إلى العربية.

وفى عدد مارس ١٩٤٦ كتبت المجلة تقريرا عن فلسطين جاء فيه: أما تقرير لجنة التحقيق الأمريكية البريطانية عن فلسطين فلم يرضى أحداً رغم صدوره بإجماع الآراء. و لم يحقق للصهيونية حلم الدولة اليهودية من ناحية، و لم يدع مجالاً لأمل عند العرب من ناحية ثانية، إذ أوصى بفتح باب الهجرة ورفع القيود عن نظام بيع الأراضى, وهما الوسيلتان اللتان يتألم منهما العرب، ويرون أنهما أداة استيلاء الصهيونية على بلادهم وإخراجهم من ديارهم. وقد كان لإذاعة هذا التقرير أسوأ الأثر فى البلاد العربية جميعاً, فقامت حكوماتها وهيئاتها تحتج وتعلن الإضراب, دليلاً على استنكارها ورفضها لهذا الأمر, وتوج ذلك باجتماع لرؤساء الدول العربية، تلته دورة استثنائية خاصة لمجلس جامعة الدول العربية. أما باقى أبواب المجلة فتحوى موضوعات مختلفة، وهناك حادثة طريفة نشرتها المجلة عن سيد قطب, عندما كان ناقداً فنياً قبل أن يصبح مفكراً إسلامياً, فقد اكتشف أحد قراء (الكاتب المصرى) أن سيد قطب نشر مقالة فى الكاتب المصرى سبق أن نشرها فى جريدة أخرى, ونشرت (الكاتب المصرى) التعليق التالى:

القارىء محمد الشاذلي كتب يقول: «إن مقال سيد قطب (النقد والفن) نشره سيد قطب بنصه وفصه وعجره وبجره كما يقولون تحت اسم (دلالة الألفاظ على المعانى) فى مجلة (الثقافة)». وقد رد سيد قطب فى خطاب نشرته المجلة وشكر القارىء, وأفاد بأنه قد أحدث تغييراً فى البحث, أما هيئة تحرير المجلة فنشرت تعليقا من المحرر قالت فيه: «أما نحن فنأسف أشد الأسف لأن الأستاذ سيد قطب لم يخبرنا بأنه نشر مقاله ذلك, ثم أعاد النظر فيه لينشره من جديد, وإلا كان من الممكن أن نرى فى نشر هذا المقال المعدل رأياً غير الذى رأيناه, حين لم نكن نعلم أن له صورة أخرى نشرت فى مجلة أخرى منذ سنين».

أما عن الذين يكتبون فى المجلة فيكفى أن أذكر أسماءهم حتى تتضح أهمية هذه المجلة, فقد كان يكتب بصفة منتظمة أحمد نجيب الهلالى ، وتوفيق الحكيم ، وعزيز فهمى ، ومحمد عوض محمد ، ومحمد كامل حسين ، وعثمان أمين ، وسلامة موسى، ومحمود تيمور بالإضافة إلى طه حسين, ومن الكتاب الشبان الناشئين: سليمان حزين, وسهير القلماوى ، وعبد القادر القط ، ويحيى حقى ، وعبد الرحمن بدوى ، ورشاد رشدى ، ومحمود عزمى, والشاعران عبد الرحمن صدقى والعراقى محمد مهدى الجواهرى, ومن الأجانب كان يكتب عدد كبير من مثقفى العالم، منهم: أندريه جيد ، وجان بول سارتر, وأندريه مالرو.

ونخلص من ذلك إلى أن طه حسين أنشأ مجلة ثقافية عظيمة, جمع لها الكثير من الكتاب القدامى والجدد، وكذلك الأجانب, وقدمت خدمة ممتازة للقارئ المصرى والعربى, أما تمويلها فكان من اليهود المصريين, ولا يمكن أن يعنى ذلك شيئاً مهما فى ذلك الوقت يدين طه حسين.

الشخصية اليهودية في الرواية المصرية

● ناقش د. رشاد الشامى الشخصيه اليهودية المصرية فى أدب إحسان عبدالقدوس. وقال الشامى: إنه لا يكاد يرصد شخصية يهودية مصرية محورية فى أعمال كبار الأدباء المصريين, بإستثناءات نادرة، مثل رواية (أحمد و داود) لفتحى غانم و(إبراهيم الكاتب) لإبراهيم عبد القادر المازنى، و لا تعد الأخيرة عملاً روائياً حقيقياً.

أما عبدالقدوس فيتحدث عن شخصية الفتاة اليهودية سواء كانت جلاديس أو

● الشخصية اليهودية فى أدب أحسان عبدالقدوس.. رشاد عبدالله الشامى كتاب الهلال القاهرة ١٩٩٢

فورتتينيه, وكيف كانت اللغة الفرنسية لديهما مدخلاً للتعرف على الأدب العالمى، وكيف كانت الحرية مكفولة للبنات، ونمط الحياة مختلفاً تماماً عن النمط. المصرى التقليدى للمسلمين والأقباط, وكيف كان العمل مهماً لشباب اليهود فى سن مبكرة ويتحدث الكاتب عن زيارة عبدالقدوس لفلسطين عام ١٩٤٥ . مستطلعاً الموقف, لكي يعود لكتابة تحقيق تحت عنوان (ضاعت فلسطين). وكتب عن هروب ثلاثة من معارفه بين الصحفيين المصريين اليهود إلى إسرائيل, ورصد الكاتب كل أعمال عبد القدوس التى تحوى شخصيات يهودية. وقد اختار الشامى بعض العبارات فى روايات إحسان شديدة الدلالة على الموقف الحقيقى لليهود، مثل المقولة: إن الثورة لم تطرد اليهود، ولكن اليهود هم الذين يطردون أنفسهم ، أو الحوار الذى قيل فيه إن يهود مصر لم يختطفوا، لقد اختاروا, ومن حق كل إنسان أن يختار وطنه. وفى رواية (لا تتركونى هنا وحدى) تقول البطلة : على كل حال لم نسمع عن أى يهودى من أصل مصرى له شأن أو قيمة فيالمراكز القيادية فى إسرائيل. إن كل يهود مصر كانوا يعدون من أغنى يهود الدنيا، فقد كانوا يعيشون فى الوطن العربى ولهم قيمة، ثم ذهبوا إلى إسرائيل ليعيشوا بلا قيمة، وكأنهم أُجَرَاء لتأدية الأعمال التى يحتاج إليها يهود أوروبا, أو كأنهم الزنوج الذين كانت أمريكا تهربهم إلى أرضها لتسخيرهم أيدي عاملة.

اليهود المصريون والموسيقي والغناء والسينما

داود حسنى :

يعد الملحن اليهودى الكبير داود حسنى نجماً لامعاً فى التلحين, وداود حسنى قرائى كان يقطن حارة اليهود, وتعود أصوله المصرية إلى أجيال طويلة، وتوفى داود حسنى عام ١٩٣٧ , كان داود حسنى شجاعاً بالإضافة إلى موهبته العظيمة، فقد أقدم على تلحين أوبرا مصرية فرعونية كتب كلماتها الدكتور حسين فوزى, وكان كامل الخلعى قد رفض تلحينها, وطلب سيد درويش مبلغاً لم يقدر عليه منتج العمل الفنى, فقام بتلحينها داود حسني عام ١٩١٩ , ومثلت على المسرح فى القاهرة. وقد قام داود حسنى بتلحين عدد كبير من الأدوار والطقاطيق والأغانى التى ما زالت من جواهر الغناء المصرى الشرقى الأصيل, والتى كثيرا ما تتغنى بها فرق الموسيقى العربية فى دار الأوبرا وغيرها، منها (قمر له ليالى)، (على خده ياناس ميت وردة), و(عصفورى يا أمه).

ومن الواضح أن داود حسني لم يكن في مقدوره إبداع هذه الألحان لو لم يكن مصرياً حتى النخاع, مرتبطاً بأهل بلده ويحمل عواطف وشجونا، ليس فقط تجاه أهله في حارة اليهود, وإنما تجاه شعب مصر كله. ولا تزال الإذاعة المصرية تحتفل كل عام بيوم ميلاد داود حسني وتذيع ألحانه.

ليلى مراد:

ربما كانت ليلى مراد أكثر الفنانين اليهود المصريين شهرة، تأثيراً في المصريين, فقد خلبت لُب الشعب المصرى كله رجالاً ونساء بصوتها الجميل الملائكى, وتمثيلها البسيط فى عدد ضخم من الأفلام المصرية التى كونت تراث السينما ، ولعقود طويلة كانت أغانى ليلى مراد الأغانى المحببة للشعب كله، والتي يحفظها عن ظهر قلب ويدندن بها طوال الوقت, وحتى هذه اللحظة مازال يحفظ أغانيها الكبار والشباب ، وفى الثلاثينات والأربعينات كانت مصر كلها تغنى أغانى ليلى مراد, ولم يفكر أحد منهم في أن ليلى مراد يهودية, فلم يكن ذلك يعنى لهم شيئاً ، المهم أنها كانت مصرية صميمة تشعر بهم وتغنى لهم, وقد وقعت ليلى مراد فى غرام النجم الشهير أنور وجدى, وأعلنت إسلامها وتزوجته فى الأربعينات من القرن العشرين, وقد أثار الزواج ضجة كبيرة آنذاك بسبب الشعبية الكاسحة للنجمين الكبيرين, لكن الزواج كان عاصفاً بسبب شخصية أنور وجدى التى قيل إنها كانت صعبة فى المعاشرة اليومية, ويحكى اليهودي، المصرى موريس شماس الذى هاجر إلى إسرائيل أنه فى مقهى لانسيانو الذي كان يقع فى حارة اليهود اجتمع عدد من يهود الحارة ليناقشوا مشكلة كبيرة تخص مطربتهم ومعبودتهم الجميلة ليلى مراد، التى علموا أنها غيرت دينها إلى الإسلام حين تزوجت من أنور وجدى، وكان الغضب يجلق فوق رؤوس الكثيرين, وكان أكثرهم غضباً اليهودى المصرى الإيطالى الأصل لانسيانو صاحب المقهى، الذى أعلن أن الراديو سوف يغلق فى المقهى عند إذاعة أغنيات ليلى مراد, وقام بإنزال صورة ليلى مراد المعلقة على حائط المقهى، إلا أن سعدية اليهودية الفقيرة ثارت على هذا التصرف, وصاحت: لماذا هذا الغضب؟ هل هى قريبتكم؟ هل هى أختكم؟ ما علاقتكم بها؟ الأمر بسيط لقد أحبت وأرادت أن تتزوج مثل أى امرأة، ولم يسفر النقاش عن شىء.

● ليلى مراد – صالح مرسى – كتاب الهلال – القاهرة ١٩٩٥

في اليوم التالى انتشر خبر فى حارة اليهود كلها, ووصل إلى كل فرد فيها, ومؤداه أن ليلى مراد قامت بزيارة سرية طويلة فى الليلة السابقة لمعبد ابن ميمون اليهودى فى الحارة ، فى منتصف الليل تماماً, وطلبت من القائمين على المعبد عزف الموسيقى على روح أبيها الفنان زكي مراد, ثم غادرت فى هدوء، وفى الصباح - بعد أن انتشر الخبر- عم الارتياح فى الحارة، و قام صاحب المقهى بتعليق صورتها مرة أخرى على الحائط, وفتح الراديو مرة أخرى للاستماع لأغانيها بين ترحيب زبائن المقهى.

تبدو هذه الحكاية مصرية تماماً، انفعل الناس بسرعة وكان غضبهم شديداً, وسرعان ما عاد الهدوء والصفاء لهم, وبدأوا يستمعون إلى محبوبتهم قيثارة الموسيقى العربية. ولم يفكر هؤلاء البسطاء من سكان الحارة في أن الموقف لم يتغير, وأن ليلى مراد أعلنت إسلامها, وأنها سوف تتزوج أنور وجدى, ويعنى ذلك أن يهود الحارة كانوا مثل المسلمين والأقباط فى انفعالهم وتصرفاتهم وحزنهم وفرحهم وسرعة النسيان.

كان منير مراد شقيق ليلى مراد الأصغر، وقد ولد عام ١٩٢٨ وتوفى عن عن عمر يناهز الثالثة والخمسين عام ١٩٨١ ، وكان قد اتجه إلى الفن بعد نجاح أخته ليلى فى هذا المجال, وورث مهنة التلحين عن أبيه وتخصص فى الألحان الخفيفة الاستعراضية، فلحن لشادية كثيراً من الأغانى الخفيفة, وكثيراً من إسكتشات الأفلام, وكذلك لعبدالحليم حافظ، وقد تزوج منير مراد الفنانة سهير البابلى، وأكتسب شهرة من الألحان وبعض الأغانى الاستعراضية التى قام بها. يقول يوسف القعيد فى مقال له: إن منير مراد حين توفى عام ١٩٨١ لم يعثر عنده على أى وثيقة تثبت أنه مصرى, وكان جواز سفره مغربيا منحه إياه الملك الحسن ملك المغرب. وعدم وجود وثيقة سفر مصرية معه لاتعنى أنه لم يكن مصرى الجنسية، فأبوه زكى مراد وجده ولدا في مصر, وربما ترجع أصول الأسرة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. وربما كان قد تكاسل عن استخراج جواز سفر مصرى أو رأى أن جواز السفر المغربى قد يكون أفضل فى سهولة الخروج من مصر وسهولة الحركة، لكن يبقى أن هناك الكثير من اليهود المصريين بالمولد عبر أجيال لم يحصلوا على الجنسية المصرية، لأسباب شرحناها فى فصل خاص عن الجنسية.

توجو مزراحي :

من أوائل المخرجين المصريين، وقد كان مخرجاً ومنتجاً وممثلاً، وبدأ عمله في الإسكندرية، وأخرج فيلماً عن الكوكاكين عام ١٩٣٠، وانتقل إلى القاهرة فأبدع عدداً من الأفلام، وكان سريعاً في عمله ويقال إنه أخرج فيلم (سلفني ٣ جنيه) لعلي الكسار في أسبوع واحد, وقد أنتج وأخرج فيلم (سلامة) لأم كلثوم, لكن الفيلم فشل تجارياً مما أصابه بإنهيار عصبي.

و كانت نجمة إبراهيم ممثلة مسرح مهمة، وقامت بدورها الخالد وهو دور ريا في فيلم (ريا وسكينة)، ولها أدوار مهمة في عدد كبير من الأفلام المصرية. و كانت زينات صدقي ممثلة كوميدية لها شعبية كبيرة، و أتقنت دور الخادمة.

أما كاميليا فقد أطلق عليها فاتنة السينما المصرية, وقامت ببعض الأدوار, وعرفت بأنها عشيقة للملك فاروق، وتوفيت في حادث طائرة في مصر عام ١٩٥٠ .

أما نجوى سالم فكانت ممثلة مسرح من تلاميذ نجيب الريحاني, وأخلصت لمسرحه سنوات طويلة بعد وفاته إلى أن اعتزلت الفن, وكانت قد تزوجت من الناقد الفني عبدالفتاح البارودي. وكانت هناك الممثلة اليهودية الشهيرة راقية إبراهيم التي مثلت أمام عبدالوهاب دور البطولة في فيلم (رصاصة في القلب)، ولا يزال الجميع يذكر مقولتها (سنتى بتوجعني.. حكيم روحاني حضرتك) وقد هاجرت راقية إبراهيم إلى نيويورك، حيث عملت مترجمة للوفد الإسرائيلي في الأمم المتحدة.

ويعتقد سليمان الحكيم في كتابه الذي يحكي تاريخ اليهود في مصر– مع التركيز على مجموعة من الفنانين اليهود المصريين – أنه لولا نشوء إسرائيل لاستمر دور اليهود في مصر حتى الآن.

وهكذا قدم اليهود المصريون ملحناً من أهم الملحنين المبدعين, ومطربة من أهم المطربات في تاريخ مصر الفني، وبعض الممثلين والملحنين و المغنين متوسطي أو قليلي الأهمية. وإذا تحدثنا عن داود حسني وليلى مراد فكلاهما من اليهود المصريين ذوي الجذور المصرية القديمة، وكلاهما خرج من حارة اليهود التي يعيش فيها اليهود الذين لايمكن أن تفرقهم عن بقية المصريين, وهذان المثلان خير دليل على أن من يعبر عن مشاعر الشعب المصري هو المصري أياً كانت ديانته, وهو الذي يعيش بقلبه وروحه وضميره مع مصر, وكلا من داود حسني وليلى مراد عبَّرا عن مصر وشعبها وعواطفها

● يهود لكن مصريون – سليمان الحكيم – دار الامين القاهرة ١٩٩٥

بأجمل وأرقى ما يكون, وكان تقدير الشعب المصرى لهما عظيماً ولم يفكر أحد من المصريين - حين يستمتع بفنهما - إلى أي ديانة ينتميان.

الحركة الصهيونية فى مصر
ومشروع الوطن القومى اليهودى

أثبتت كتب التاريخ الموثقة أنه كانت هناك ثلاث مشروعات للاستيطان اليهودى، اثنان منها فى مصر ، أحدهما فى منطقة شرم الشيخ, وهو ما يسمى في مصر مشروع منطقة مدين, والمشروع الثانى فى العريش ، أما المشروع الثالث فهو الاستيطان فى فلسطين. هذا المشروع الأخير له تاريخ ضخم خارج نطاق هذا الكتاب, لذا سوف نركز فقط على ما يخص مصر دولة وشعبا، وما يخص اليهود المصريين وعلاقتهم جميعاً بإنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين والمشروعات السابقة له.

فى نهاية القرن التاسع عشر بدأ تنفيذ مشروع بول فريدمان -اليهودى الألمانى- فى الاستيطان فى منطقة مدين, وهى منطقة ممتدة عبر شمالي غربي الجزيرة العربية ومدينة العقبة الأردنية, وجنوباً فى الساحل المصرى لمسافة ٤٠٠كم, وقد وصل فريدمان إلى الإسكندرية بعد موافقة إنجلترا على المشروع, وحمل معه متطوعين من اليهود الأوروبيين, وأخذ معه بعض العلماء وثلاثين عائلة مصرية, وذهب إلى شرم الشيخ واشترى بعض الأراضى هناك, إلا أن المعارضة العثمانية وهجوم زعماء البدو وشخصية فريدمان المنفرة، تسببت جميعاً فى فشل المشروع بصفه نهائية وتوقف التفكير فيه مرة أخرى.

ثم كان مشروع العريش الذى وافقت عليه بريطانيا, وقد وصلت البعثة الصهيونية إلى مصر عام ١٩٠٣ لعمل الترتيبات لاستيطان منطقة العريش وهجرة ملايين اليهود إليها, مع عمل الترتيبات اللازمة لضخ مياه النيل إلى المنطقة, لكن المشروع قوبل بمعارضة قوية من اللورد كرومر، بالرغم من موافقة الحكومة البريطانية عليه, حيث لم يرغب في أن يتدخل أحد فى مشروعاته الزراعية فى مصر, التى تعتمد على النهر, و التي قدر لها أن تكون مزرعة القطن للتصدير لمصانع مانشستر، وكذلك عارضت المشروع الحكومة المصرية، وأعلن بطرس غالى - وزير الخارجية المصرى في ذلك الوقت- رفض حكومة مصطفي باشا فهمى المشروع، وأعلنت أن سيناء والعريش قطعة

من مصر لن تتنازل عنها، ورفضت مبدأ هجرة اليهود إليها ، ويعتقد بعض المؤرخين – وأوافقهم فى الرأى – أن معارضة اللورد كرومر كانت أساسية ومهمة فى إحباط المشروع. وقد عارض كرومر لأسباب ليس لها علاقة بالدفاع عن أراضى مصر، وإنما لأن المشروع يتعارض مع مصلحة إنجلترا الاقتصادية، وفشل المشروع.

مشروع الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وعلاقته بالحركة الصهيونية المصرية

كانت بدايات الحركة الصهيونية المصرية فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ضعيفة بين مجموعات بسيطة من اليهود الأشكيناز، وكانت هناك مجلة (نهضة اليهود) التى كانت تصدر بالفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى و لم يكن فيها سوى ثمانين مشتركاً فقط ولم تهتم أغلبية اليهود بالصهيونية، وهم من السفارديم الذين رأوا أن نبى الصهيونية هرتزل مجرد جامع أموال. وخلال الحرب العالمية الأولى طرد من فلسطين نحو ١١ ألف يهودي من الصهاينة الأشكيناز إلى الإسكندرية والقاهرة, وبالرغم من أن معظمهم غادر مصر بعد فترة قصيرة عائداً إلى فلسطين، إلا أن القليل منهم بقى فى مصر, وأنشأ الحركة الصهيونية المصرية التى بدأت تعليم اليهود المصريين مبادئ الصهيونية بتعليمات وتأكيدات حاييم وايزمان.

وقد أسس يهودى اسمه باروخ أول جمعية صهيونية فى مصر عام ١٨٩٧, وسرعان ما تكونت أربع عشرة جمعية فى القاهرة والإسكندرية، واتحدت عام ١٩١٧ ، و كونت الأتحاد الصهيونى, وكان رئيسه جاك موصيرى, وهو مثال نادر للسفارديم الذين تعاطفوا مع الصهيونية مبكراً, وكان سكرتير الاتحاد ليون كاسترو, وأصدر هؤلاء الصهاينة الجريدة الصهيونية "إسرائيل" باللغة الفرنسية، ورأس تحريرها ألبير موصيرى, وهو طبيب آمن بالصهيونية مبكراً, وكان معظم أعضاء الاتحاد من اليهود الأشكيناز، وأقيم احتفال كبير حضره ٨ آلاف يهودى بمناسبة إصدار وعد بلفور، وأرسل موصيرى برقية شكر إلى رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج.

وانطلقت مسيرة فى القاهرة من ٣ آلاف يهودى يوم ٢٨ أكتوبر عام ١٩١٧ تحية وامتنانا لوعد بلفور الذى عُرف أنه سوف يعلن خلال أيام قليلة من شهر نوفمبر. وأرسل المتظاهرون إلى وايزمان التلغراف الذى ينص على أن المجتمعين بالقاهرة من

اليهود المصريين يؤيدون إنشاء بالإجماع وطن قومى اليهود فى فلسطين, ويثقون في أن حكومة جلالة ملك إنجلترا سوف تسهل وتساعد هذا المشروع. وفى الإسكندرية قام اليهود يوم ١١ نوفمبر بمسيرة مماثلة من ثمانية آلاف يهودى . وتكرر الأمر فى العام التالى عند زيارة الوفد الصهيونى العالمى بقيادة حاييم وايزمان للإسكندرية والقاهرة، حيث خرج لتحيتهم آلاف اليهود فى الشوارع.

ومنذ منتصف العشرينات توقفت المظاهرات والمسيرات المؤيدة للصهيونية، لأن الملك فؤاد كان يحب اليهود، لكنه كان يكره الصهيونية, وكان الحاخام فى القاهرة وكل الأغنياء اليهود ضد الصهيونية.

وفى عام ١٩١٨ أنشأت جماعة من أغنياء اليهود من عائلات منشه وبتشتو وكوهين لجنة فلسطين, لتقديم المساعدات الإنسانية لليهود فى فلسطين, إلا أنها كانت على علاقة وثيقة بالمنظمات الصهيونية العالمية. وقد ساعدت هذه المنظمة بالاشتراك مع المنظمات العالمية على توطين ١٢ ألف يهودى أوروبى فى فلسطين.

وفى السنوات التالية بسبب الخلافات الداخلية انخفض عدد المشتركين فى المنظمات الصهوينية إلى ٨٠ عضوا فقط عام ,١٩٢٧ وكان مجموع التبرعات اليهودية المصرية للصهيونية ٢٥ ألف جنيه من عام ١٩٠١ حتى عام .١٩٤٣ وفى عام ١٩٢٥ ذهب مائة عضو من الجالية اليهودية للاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية فى القدس، و كان معهم أحمد لطفى السيد رئيس الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن).

وفى عام ١٩٢٩ حين بدأت حوادث حائط المبكى تدخلت الجالية اليهودية لدى السلطات المصرية لمنع الدعاية المؤيدة للفلسطينين. و استمر النفوذ الصهيونى ضعيفاً للغاية فى مصر, وبالرغم من إعلان الحاخام الأكبر منع أى تبرعات لليهود فى فلسطين, إلا أن بعض التبرعات استمرت بصفة سرية. وبالرغم من بدء هذه الحركة الصهيونية فى مصر فى أوائل القرن العشرين، إلا أنها لم تحقق أى تقدم خلال أعوام طويلة, وكانت الحركة تركز على الأعمال الثقافية بالدرجة الأولى, مثل جمع التبرعات لإنشاء الجامعة العبرية فى القدس, و كان هذا الأمر يعد فى وسط المثقفين المصريين نشاطاً ثقافياً يجب تشجيعه, واستمر ذلك حتى حدثت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ضد الهجرة اليهودية، وفى ذلك الوقت ظهر تحول واضح فى موقف المصريين من

الصهيونية، ورأى الكثيرون من اليهود المصريين أن الصهيونية سوف تخلق موقفاً متعارضاً وخطيراً بين مواطنتهم المصرية وديانتهم اليهودية. وحيث إن اليهود المصريين كانوا في موقف اقتصادى وثقافي متميز في المجتمع المصرى، فقد شعروا بأن الصهيونية سوف تشكل خطراً عليهم, لذلك عارضوها بقوة. ولم تحاول المجموعة الصغيرة من الصهاينة في مصر مجرد المحاولة إغراء اليهود المصريين بالهجرة إلى فلسطين. ومعروف أن نحو أربعة آلاف يهودى فقط قد غادروا مصر إلى فلسطين خلال ثلاثين عاماً من ١٩١٧ – ١٩٤٧. ومعظمهم لم يكونوا مصريين أصلاً, بل مغاربة ويمنيين وأشكيناز, وكانت إقامتهم في مصر مؤقتة، ويعنى هذا أنه حتى عشية إنشاء الدولة اليهودية لم يهاجر أحد من اليهود المصريين إلى إسرائيل.

● وعقد أول مؤتمر عالمي للحركه الصهيونية في مدينة بازل في سويسرا عام ١٨٩٧ برئاسة تيودور هرتزل, واتفق فيه على العمل على أن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود, وجندت الصهيونية العالمية نفوذها وأموالها لتنفيذ المشروع الذى كانت الخطوات الأولى في تنفيذه قد بدأت قبل ذلك المؤتمر بعدة سنوات.

يقول غنيم وأبو كف في كتابهما الصغير والمهم: «إن وصول هرتزل في زيارة إلى مصر عام ١٩٠٣ قوبل بابتهاج من العائلات الرأسمالية اليهودية الشهيرة، وكان ذلك مبشراً بقيام حركة صهيونية سياسية, وقامت مجموعة صغيرة من السكندريين بتأسيس جماعة بن صهيون في الإسكندرية عام ١٩٠٨. وتبنت توصيات مؤتمر بازل, وكان كل أعضاء هذه الجمعية من يهود الأشكيناز القادمين من روسيا وبولندا».

وبعد أن أفاضت الصحف المصرية – خاصة الأهرام والمقطم – في وصف المؤتمر الصهيوني الأول في بازل والمؤتمرات التالية له، بدأ في مصر نشاط الحركة الصهيونية في السنوات الأولى من عمر القرن العشرين، لكن كل الظواهر والمعلومات المتاحة تشير إلى أن المصريين جميعاً حكومة وشعباً لم يكونوا يعيرون الحركة الصهيونية أهمية, ولم يتصوروا أن هذه الحركة قد يكون لها أية أهمية أو تأثير على مستقبل مصر والعرب.

أما اليهود المصريون – باستثناء بعض القادة والمفكرين فلم يقدروا أن مستقبل هذه الحركة سوف يكون كاسحاً ورهيباً, حتى أنه سوف يكتسح يهود مصر الذين عاشوا فيها قروناً ويخرجهم من بلادهم إلى مختلف أنحاء المعمورة.

● **اليهود والحركة الصهيونية في مصر..أحمد غنيم وأحمد أبو كف–كتاب الهلال عدد٢١٩ يونيو١٩٦٩**

الأتحاد الصهيونى المصرى

شكل الاتحاد الصهيوني المصرى عام ١٩١٧، وكان رئيسه جاك موصيرى، ونائبه ليون كاسترو. وأقيم احتفال في الإسكندرية حضره عدد كبير من اليهود المصريين، و اليهود المهاجرين من فلسطين بصفة مؤقتة خلال الحرب العالمية الأولى، و الحاخام الأكبر، ومحافظ الإسكندرية زيور باشا. وفى نهاية الحفل أنشد الحاضرون نشيد الأمل الإسرائيلى (هتيكفاه), وأرسلوا برقية إلى وايزمان رئيس المؤتمر الصهيونى العالمى, يعربون فيها عن رغبة يهود مصر فى أن تصبح فلسطين دولة يهودية لغتها العبرية. وتقول بعض المصادر غير المؤكدة إن الملك فؤاد حضر وبارك الاحتفال الصهيونى فى مصر.

ومن الواضح أنه فى تلك المرحلة المبكرة لم تكن الحكومة المصرية ولا الشعب المصرى يعرفون الكثير عن خطورة المشروع الصهيونى على فلسطين وعلى الأمن المصرى.

وكان هناك كثير من الغموض فى مفهوم الصهيونية فى ذلك الزمن، وكان المصريون وحتى زعماؤهم غير مدركين لخطورة الحركة الصهيونية, فمثلاً كان ليون كاسترو نائباً لرئيس الاتحاد الصهيونى, وفى الوقت نفسه أحد النشطاء فى ثورة ١٩١٩ ضد الإنجليز، وكان أحد مساعدى سعد زغلول والمفاوض والمترجم والكاتب المصرى فى أوروبا دفاعاً عن قضية التحرر من الاستعمار، وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرت من أن الكثير من اليهود كانوا جزءاً من النسيج المصرى, وأن المصريين – حتى كبار مثقفيهم المتعلمين – لم يفطنوا إلى خطورة الصهيونية. أعتقد أنه فى المراحل الأولى لم يكن اليهود المصريون بصفة عامة– يفطنون أيضاً إلى أن الدعوة الصهيونية سوف تلاقى فى مراحل لاحقة الغضب الشعبى المصرى الذى سوف ينتهى بهم إلى الرحيل من مصر.

وفى عام ١٩١٨ حضر حاييم وايزمان على رأس بعثة صهيونية فى طريقها لتفقد الأحوال فى فلسطين, واستقبلته الجالية اليهودية المصرية بكل ترحاب.

وقد أرسل وايزمان خطاباً لزوجته قال فيه إنه لا يوجد أحد ضد الصهيونية فى مصر, وأن حالة اليهود المصريين المادية عظيمة، وهم من كبار الأغنياء، لكنهم غير

مهتمين بفلسطين، وفى المستقبل قد يهتمون بها، بشرط أن تصبح امتداداً لمصر ليجددوا نفوذهم الاقتصادى بالأنتشار فيها. لذا لا يمكننا الاعتماد على اليهود المصريين باستثناء موصيرى واثنين أو ثلاثة آخرين، والباقى لا يستحقون الذكر لكن على أية حال مصر مهمة، لأن الصلة بين مصر وفلسطين وثيقة للغاية. وكتب وايزمان تقريراً بعد رحلته قال فيه: إن الزعماء اليهود المصريين كانوا معادين للصهيونية من الناحية النظرية، لكنه نجح فى إقناع موصيرى بتكوين قسم الإغاثة الصهيونى فى القاهرة، وقابل من المصريين فارس نمر وسعيد شعير باشا وسليمان بك ناصف، وقابل شيخ الأزهر، وقدم له تبرعاً من المنظمة الصهيونية العالمية مقداره ١٠٠ جنيه، وأهتم شيخ الأزهر بمشروع الجامعة العبرية. وتخوف بعض المصريين الذين قابلهم وايزمان من المخاطر على المزارعين الفلسطينيين، لكنه طمأنهم. وفى زيارة أخرى إلى مصر عام ١٩٢٢ قال وايزمان: إن الأمل فى نشاط الصهيونية يكون بالاعتماد على اليهود الروس المقيمين فى مصر، لأن اليهود المصريين غير مهتمين ولا أمل فيهم. واتفق على إصدار صحيفتين، إحداهما بالعربية يحررها المسيحيون الشوام والفلسطينيون العرب، وذلك لتشجيع التعاون مع المنظمات الصهيونية. وفى عام ١٩٣٤ تبرع اليهود المصريون بإقامة مستعمرة فى فلسطين لليهود الألمان النازحين.

وكان جابوتنسكى الذى أقام فى الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الأولى قد خرج على التيار الصهيونى العام بتيار أشد تطرفاً، وعاش فى باريس، حيث أقنع الشاب اليهودى السكندرى ستراسلسكي – الذى سافر إلى باريس للدراسة– بمبادئه، وحين عاد إلى الإسكندرية أسس فرعاً لهذه المنظمة المتطرفة. وكان وايزمان يحاول دائماً فتح قنوات اتصال مع المصريين المسلمين، وشعر اليهود فى مصر بالقلق عام ١٩٣٨ بسبب الخطر على الأماكن المقدسة الإسلامية فى القدس، وطلب قطاوى باشا من وايزمان إصدار تصريح بأنه لا توجد نية للاعتداء أو الاستيلاء على هذه الأماكن.

وأعتقد أن الجالية اليهودية فى مصر لم تكن تظن أن تعاطفها مع تكوين وطن قومى فى فلسطين يتعارض مع مصريتها ووطنيتها، بدليل أن الحكومة المصرية لم تظهر أية معارضة لذلك، ولا الشعب عارض ذلك ممثلاً فى حزب الوفد، ولا الأحزاب الليبرالية. ولم يبدأ ظهور المعارضة المصرية للمشروع الصهيوني إلا فى منتصف الثلاثينات من القرن العشرين بعد أن تفاقم الوضع فى فلسطين، ووصلت أصداء المظاهرات الفلسطينية إلى مصر.

● يقول عبد العظيم رمضان: «إن الشعب المصرى منذ ثورة ١٩١٩ كان مهتماً بقضيتين ، الأولى تحرير مصر، والثانية وحدة مصر والسودان»، وعبر سعد زغلول عن رأيه فى قضية الوحدة العربية، فقال إن هذه القضية لا يمكن أن تبحث إلا بعد أن يجاهد كل شعب لتحقيق استقلاله. ويقول رمضان «إنه يبدو أن بداية التعاطف مع الشعب الفلسطينى كانت من منطلق إسلامى وليس عربيا، لكن الوفد نجح فى تعبئة الشعب خلف فكرة القومية المصرية».

وكان أول من تحدث عن عروبة مصر فى العصر الحديث مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد، وهو القبطى المصرى، ومنذ ذلك الحين أخذ الوفد يجر مصر إلى قاطرة العروبة. وكان مصطفى النحاس هو الذى أعلن ربط القضية الفلسطينية بالحركة الوطنية المصرية، حين قال للمندوب السامى البريطانى سير مايلز لامبسون (لورد كيلرن) أثناء مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ إنه لن يستطيع أن ينام مطمئناً إذا كانت على حدود مصر الشرقية دولة إسرائيلية.

وعلى هذا لا يمكن الاعتقاد بأن اليهود المصريين خانوا وطنهم مصر، وتنكروا له باحتفالهم برواد الصهيونية، ولا بد أن ننظر إلى الأمر واضعين فى الاعتبار الفترة التاريخية التى تم فيها الحدث ، و موقف بقية المصريين من أقباط ومسلمين من هذا الأمر، حيث لم يظن أحد أن الأحتفال برواد الصهيونية معاد للوطن، ولم يعترض الشعب المصرى ولا حكومته قولاً أو فعلاً أو حتى امتعاضاً، فلماذا نطلب من اليهود أن يعترضوا وألا يشاركوا؟.

ومثال آخر لعدم وضوح الرؤية لدى المصريين جميعاً، هو طريقة تصرفهم حين زار مصر وفد من مدرسى المدارس اليهودية فى فلسطين عام ١٩٢٦، وأقام لهم الاتحاد الصهيونى المصرى حفل عشاء حضره وزير المعارف المصرى، ثم قام الوزير بدعوة الوفد إلى حفل غداء في مدرسة ثانوية مع كبار رجال التعليم، ووعد برد الزيارة مع المعلمين المصريين ، وواضح أن الحكومة المصرية وموظفيها لم يروا مشكلة فى استقبال الوفد ، فلماذا إذن نهاجم اليهود المصريين واتحادهم الصهيوني؟.

وحين ظهرت أنباء الصدامات اليهودية الفلسطينية فى فلسطين والعنف الشديد

● القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبدالناصر - عبدالعظيم رمضان - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة ٢٠٠٣

الذى قام به المستوطنون ، ساندت بعض الصحف الإسرائيلية المصرية مثل صحيفة "إسرائيل" يهود فلسطين, وهاجمت الفلسطينيين العرب, واستطاعت أن تضم إلى صفها إسماعيل صدقى وزير الداخلية فى مصر، فعطل الصحف المساندة للفلسطينين، و أوقف النشاط الفلسطينى المعادى للصهيونية فى مصر. وقد مثل موقف إسماعيل صدقى تناقضاً بين الرأى العام المصرى الذى بدأ لأول مرة فى عامى ١٩٢٩ و١٩٣٠ يتفهم خطورة الموقف ويؤيد الفلسطينيين، وبين موقف الحكومة المصرية ممثلاً فى وزير داخليتها، وعموماً بعد هذا التاريخ أصبح موقف الرأى العام المصرى واضحاً تماماً, وعلى هذا الأساس يجب محاسبة اليهود المصريين على موقفهم المعادى لرأى الشعب.

يقول كاهان «إنه منذ ذلك التاريخ، وبسبب التطور الذى حدث في موقف الرأى العام المصرى، طالب زعماء الجالية اليهودية فى مصر أفراد الجالية بالتوقف عن جمع الأموال ليهود فلسطين, طالبوا أفراد الجالية بأهمية الحصول على الجنسية المصرية لمن لا يحملها, وطالبوا أيضاً بأن يمتنع اليهود المصريين عن التعليق على الأحداث الجارية فى فلسطين, وهو موقف يعكس حرصاً من اليهود المصريين على الاحتفاظ بعلاقتهم الجيدة بالمصريين, وبدا حرصهم على فصل هذه العلاقة عما يحدث فى فلسطين, وتم التنبيه على اليهود بعدم إبداء أى مظاهر للتعاطف أو التأييد ليهود فلسطين, و يبقى ذلك فى القلب, ولا يظهر على هيئة فعل أو مساعدة أو تعبير, وهو ما التزمت به الجالية اليهودية من السفارديم فى معظمها, حتى قبل الرحيل الأخير من مصر, لكن طائفة الأشكيناز التى تجرى فى أوردتها الدماء الصهيونية استمرت فى سياستها الصهيونية، وحاولت أيضاً تجنيد أفراد من السفارديم للتعاون معها, إلا أنها أتخذت بعضاً من الحذر, لكن الحركة الصهيونية فى مصر- بتأييد من الأشكيناز- استمرت وشجعت اليهود المصريين على شراء أراض فى فلسطين».

وفى تلك الفترة حضر إلى مصر كثير من زعماء الصهيونية العالميين, مثل وايزمان الذى حاول فى آخر زيارة له إلى مصر عام ١٩٣٨ طمأنة الحكومة المصرية, وقابل رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكى، وسجل اسمه فى سجل التشريفات بقصر عابدين. وكان من الزوار الدائمين لمصر موسى شرتوك أول وزير خارجية لإسرائيل ورئيس جمهوريتها فيما بعد.

وقد قام سمارت السكرتير الشرفى للسفارة البريطانية فى مصر بلفت نظر اليهود المصريين إلى أن تعاطفهم مع اليهود فى فلسطين سوف يسبب إثارة مشاعر معادية لهم فى مصر, وأن فيه ضررا على مصالح اليهود المصريين, فقام قطاوى باشا و الحاخام الأكبر بإنشاء جمعية الشباب المصرى اليهودى وجريدة الشمس اللتين أخذتا تدعوان إلى التمصير والحفاظ على الوطن, والبعد عما يثير التفرقة، إلا أن ذلك لم يؤثر على النشاط الصهيونى من الأشكيناز الذى نشط بشدة فى الأربعينات.

وكان من أكبر الناشطين الصهاينة فى مدينة الإسكندرية ألبير ستراسلسكى الذى عاد إلى مصر ليؤسس فرع حركة التصحيحيين، وهم غلاة المتشددين فى العنف مع الفلسطينيين، وزاول نشاطاً كبيراً, حتى قيام الدولة اليهودية. وفى صيف عام ١٩٣٧ دعا أستاذه جابوتنسكى لإلقاء محاضرة فى فندق سيسل فى الإسكندرية، حضرها عدد كبير من أعضاء المنظمات الصهيونية فى الإسكندرية.

وفى عام ١٩٤٤ استدعى حسن رفعت وكيل وزارة الداخلية المصرى أعضاء اللجنة الصهيونية، وأخبرهم بعدم موافقة مصر على تكوين فرع لهم فى مصر, وطالبهم بالتوقف عن أى نشاط صهيونى فيها.

وبدأت الحركة الصهيونية فى مصر تأخذ دفعة إلى الأمام عام ١٩٤٦. حين استطاعت أن تقنع عشرة بالمائة من اليهود المصريين – قدر عددهم بسبعة آلاف نسمة – بشراء الشيكل، مساهمة منهم فى المؤتمر الصهيونى العالمى الذى عقد في ذلك العام. وقد كان تواجد الفيلق اليهودى فى مصر، الذى تكون من متطوعين يهود حاربوا ضمن جيوش الحلفاء وتحت قيادتهم، مشجعاً لمن يؤيدون الصهيونية، وكذلك تواجد قوات التحالف البريطانية فى مصر فى تلك الفترة وبعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية. كل ذلك كان عاملاً فى تنشيط الحركة الصهيونية فى مصر, فقاموا بأعمال دعائية ومعلوماتية للصهيونية عما حدث لليهود فى أوروبا, وشرحوا لهم أهمية وجود وطن قومى لليهود, وأقنعوا بعض اليهود المصريين بأن عليهم أن يتفهموا الخطورة على مستقبلهم إن لم ينضموا إلى الحركة الصهيونية. وقد لقيت هذه الدعوه قبولاً من بعض شباب اليهود من خريجى المدارس الإسرائيلية الفرنسية، و انتشر هؤلاء الشباب يحملون لواء الدعوة الصهيونية فى مصر, لإقناع اليهود المصريين بالهجرة إلى

إسرائيل للعمل فى الزراعة, لتحقيق الذات اليهودية وكانت هذه الحركات مرتبطة بالتنظيمات الصهيونية اليسارية الممثلة فى المباى والمبام اللذين تكون منهما حزب العمل فيما بعد. وكانت هذه الجمعيات قد بدأت نشاطها خلال الثلاثينات بإغراء الشباب المصريين اليهود بالهجرة إلى إسرائيل لكنها لم تنجح فى ذلك.

و يحكى بنيين بالتفصيل أن قائد هذه الحركة فى مصر- منذ عام ١٩٣٨- هو عزرا زنونة المصرى بمساعدة أحد الصهاينة القادمين من فلسطين, و قد نجحا فى تكوين خلية من شباب الصهاينة فى مصر الجديدة، واستطاعوا استقطاب نحو ٨٠٠ شاب يهودى فى القاهرة والإسكندرية بنهاية الحرب العالمية الثانية, وبعد عام ١٩٤٧ تحولت الحركة إلى تنظيم سري, وكانت الحركة تجند فقط اليهود المتعلمين, وكان معظمهم من اليساريين والماركسيين، وكانت لغتهم الأساسية - التي يتحاورون بها - الفرنسية التى استمرت لغتهم الأولى فى الحديث بعد هجرتهم إلى إسرائيل, يقول بنيين إن زعيم الحركة عزرا زنونة هاجر أبواه من حلب إلى القاهرة، وكانا يجيدان الفرنسية و العربية، لكن أجداده كانوا يتحدثون العربية فقط, وقد ولد فى القاهرة, وتعلم حتى حصل على الثانوية العامة المصرية, وعمل فى بنك فرنسى, وكان مثقفاً متميزاً وقارئاً جيداً للفلسفة، وبقيادته أقامت هذه المجموعة علاقات مع مجموعة اليهود الماركسيين المصريين.

ويقول بنيين إنه في عام ١٩٣٨ زار مركز شباب الصهاينة فى مصر الجديدة الباحث الأكاديمى اليهودى برنارد لويس, وهو الذى أصبح أستاذاً وعالماً شهيراً مرموقاً فى شؤون الشرق الأوسط والاستشراق فيما بعد، وهو معروف بتأييده الشديد لإسرائيل, وقد زار المركز أيضاً اليهودى المصرى الشهير هنرى كورييل الذى أصبح قائداً لمنظمة حدتو, كبرى المنظمات الماركسيه المصرية. يقول بنيين إنه حدث نقاش طويل بالفرنسية والإنجليزية عن الشيوعية والاشتراكية والصهيونية، واستمر هذا النقاش لمدة عشر سنوات، وقد كان الموقف الأول لهذه الجماعة هو إقامة دولة يهودية فلسطينية واحدة, وهو نفس موقف حدتو المنظمة الشيوعية المصرية, إلا أنه بعد أن قرر الاتحاد السوفيتى التصويت لصالح تقسيم فلسطين اتبعت المجموعة قرار الأتحاد السوفيتى. وبعد الهجرة إلى إسرائيل ساهمت هذه المجموعة فى إنشاء حزب المابام اليسارى الإسرائيلى.

وقد قابل بنيين فيما بعد قائد هذه المجموعة وبعض أفرادها, وألخص هنا جزءا مهما من كتابه, ففى عام ١٩٤٥ هاجر ثلاثون فرداً من الجماعة إلى فلسطين, وتولت القيادة في مصر مجموعات أخرى, وكان عدد أفراد المنظمة قد أصبح نحو خمسمائة شاب يهودى, استطاعوا تهريب نحو مائة يهودى مصرى إلى فلسطين بطرق غير قانونية وعد ذلك نجاحاً كبيراً لهم. وقد التحقوا فور وصولهم إلى فلسطين بالتدريب العسكرى، وفى عام ١٩٤٧ انضموا إلى الفيلق الموجود فى النقب, وقد خاضوا الحرب ضد الجنود المصريين عام ١٩٤٨. وقتل منهم أربعة أفراد, وقد غير قائد هذه المجموعة اسمه من عزرا زنونة إلى عزرا تلمور, وحصل بعد ذلك على الدكتوراه فى الفلسفة وأصبح أستاذاً فى جامعة يافا ورئيس تحرير مجلة عن التاريخ الأوروبى, وخلال دراسته فى لندن التقى مع ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث السورى وبعض شباب البعث, وكتبوا مسودة مشروع للصلح بين العرب وإسرائيل, لكن قيادة حزب المابام فى إسرائيل كدرته على فعلته, وكان لدى هذه المجموعة المتميزة ثقافياً من اليهود المصريين شعور بالتفوق على اليهود الأشكيناز القادمين من شرقي أوروبا, لكن ذلك لم يترجم إلى نفوذ داخل إسرائيل أو صعود سياسى لهم, وقد اعتقدوا- وهم محقون فى ذلك- أن أصلهم المصرى والشرقى هو السبب فى عدم وصولهم إلى مناصب سياسية أو حزبية إدارية متميزة.

وبالرغم من أن أفكارهم وانتماءهم الماركسى كان يفوق الانتماء الصهيونى، إلا أن رفضهم الدخول فى التنظيمات الماركسية المصرية كان يعنى أن ولاءهم الأول للصهيونية وأنه لا انتماء عندهم لمصر. وقد استقبلهم فى الكيبوتز (المستوطنة) سكانها من اليهود البولنديين استقبالاً سيئاً, واعتقدوا أن هؤلاء اليهود المصريين عرب جهلة، لكن اتضح فيما بعد أن تعليم وثقافة البولنديين أقل بكثير من هذه المجموعة. وكانت الحياة فى الكيبوتز غريبة وصعبة علي بعض المصريين, خاصة النساء المصريات الأنيقات اللاتى رفضن مشاركة بقية النساء فى ملابسهن الخاصة الأنيقة، كما كانت تقتضى قواعد المشاركة الجماعية فى حياة الكيبوتز, وقد اعترض سكان الكيبوتز على الاحتفال برأس السنة الميلادية الذى أقامته مجموعة المصريين لأنه ليس عيداً يهودياً، ولم يقتنع السكان الآخرون في المستوطنة بأن المصريين جميعاً مسلمين وأقباطا ويهودا قد تعودوا جميعاً على الاحتفال بهذه المناسبة. وقد كان سوء الأحوال الاقتصادية فى

إسرائيل فى بداية الخمسينات سبباً مهما فى زيادة الاحتكاك والتنافر بين المجموعات المختلفة من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل.

وقد حدثت خلافات أيديولوجية شديدة بين مجموعة المصريين المقيمين فى الكيبوتز وقيادة حزب المابام اليسارى, وكان السبب الأساسي هو أن المصريين اتخذوا مواقف عقائديه يسارية لم تتماش مع آراء قيادة المابام, بل اشترك بعضهم فى تثقيف السكان العرب سياسياً وعقائدياً فى القرية القريبة من المستوطنة, وذلك بشرح الآراء اليسارية لهم, وكانت النتيجة أن معظم اليهود المصريين اليساريين طردوا من الكيبوتز على فترات مختلفة. وقصة هذه المجموعة المصرية اليهودية اليسارية التى حكيتها بالتفصيل نقلاً عن بنيين تشير إلى بعض النقاط المذهلة ، أولاها أن قائد هذه المجموعة الشاب زنونة الحلبى الأصل المصرى المولد، لم يعرف أحد من أجداده لغة أخرى غير العربية وكان أباه أول من تعلم لغة أخرى غيرالعربية، وأصبح خواجة فى بلده مصر يتكلم الفرنسية مع الجميع ويكره أن يتحدث بالعربية, وقد نسى أوتناسى أن هذه البلاد التى عاش فيها أجداده وآباؤه من المفروض أن تكون أوطانهم, والمذهل أن هؤلاء الشباب الماركسيين التقدميين رفضوا أن يتعاونوا مع الماركسيين المصريين, حتى اليهود منهم, لأنهم كانوا يرغبون فى قطع علاقتهم بالوطن ، حتى مع من يحمل أفكارهم وآراءهم.

وإننى مذهول من أن هذه المجموعة من الشباب تدربت على حمل السلاح, وحاربت الجنود المصريين بعد شهور قليلة من هجرتهم إلى إسرائيل. إننى قد أتفهم على مضض شعور اليهودى الأوروبى الذى تعرض للعذاب فى وطنه الأصلى، ويشعر بالكراهية تجاه هذا المكان، ومن الممكن أن يحارب جنود ذلك الوطن. لكن هؤلاء الشباب المصريين الذين رضعوا من لبن أمهاتهم فى مصر ، ومصر هى التى آوتهم وحافظت عليهم حين طردوا أو فروا هاربين من أوروبا, وتعلموا فى مدارسها وأمضوا طفولتهم وشبابهم يتمتعون فيها ، كيف يمكن لهؤلاء قتل جيرانهم و زملائهم ومواطنيهم الذين تربوا بينهم؟ إن الأفكار الماركسية واليسارية أفكار من المفروض أنها نبيلة ترتقى بالإنسان ليتساوى الجميع وتنحسر الفروق بين البشر. كيف يمكن لمن يؤمن بذلك أن يؤمن فى الوقت نفسه بفكرة طرد مجموعة من البشر من أراضيها وبيوتها ويحارب بلده الذى تربى فيه؟ أجد صعوبة بالغة فى تفهم كيفية الجمع بين أفكار نبيلة وتصرفات دنيئة.

كتاب (اليهود وحركة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ - ١٩٤٨) بقلم غنيم وأبوكف، نجد أن أحمد بهاء الدين قدم له قائلاً: «إنه أول كتاب من نوعه، وأول دراسة متكاملة عن الحياة اليهودية والنشاط الصهيونى فى مصر قبل قيام إسرائيل، ويعرب بهاء الدين عن دهشته لندرة المؤلفات المصرية فى هذا الموضوع. ويقول إن القارئ المصرى قد يتصور أن يهود البلاد العربية فوجئوا بقيام إسرائيل, فأسرعوا بالفرار إليها، أو أنهم يعتقدون أن الحركة الصهيونية لم توجد إلا فى أوروبا وفلسطين فقط, ويقول بهاء الدين إن كلا التصورين خطأ. ويقول نحن لا نقول إن الصهيونية جندت كل يهودى فى كل قطر عربى, و لا نوافق على كل ما حدث من ظروف أدت إلى تشجيع ذهاب اليهود إلى إسرائيل».

وكان صعود هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣ باعثاً على قلق اليهود المصريين على أنفسهم وعلى اليهود الألمان, وعلى اليهود فى فلسطين, وأنشئت لأول مرة جمعية صهيونية عام ١٩٣٢ تنادى بالهجرة إلى إسرائيل.

يقول غنيم وأبو كف إن يهود مصر لم يشاركوا جميعاً فى النشاطات الصهيونية برغم الضغوط الصهيونية عليهم, وقالوا إنه كان هناك عدد من شباب اليهود المثقفين الواعين الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة ، رفعوا راية المعارضة وكونوا الجماعة المضادة للصهيونية. وكان من أنشطهم هانز بن كسفلت (ابن طبيب نمساوى) الذى شن حرباً ضارية على الصهيونية, وكان ضمن مجموعته إيريك رولو الذى أصبح محرراً مهماً في جريدة لوموند الفرنسية بعد ذلك، ويوسف درويش، وشحاتة هارون، وريمون دويك، وغيرهم من الشيوعيين اليهود المصريين.

وفى عام ١٩٤٤ حضر من فلسطين اثنان من منظمة شترن الإرهابية هما إلياهو حكيم وإلياهو بن تسورى, وأطلقا النار على وزير الدولة البريطانى لورد موين, فقتل على الفور, وقبض على الجانبين وأعدما، وقبض على سادونسكى المدرس اليهودى - بعد ذلك- بتهمة تسهيل مهمتهما، وسجن ثلاث سنوات.

وهاجم قطاوى باشا الأنشطة الصهيونية فى مصر, لكن المصريين كان قد فاض بهم الكيل من أفعال المنظمات الصهيونية فى الشعب المصرى, فقامت مظاهرة خرجت من الأزهر, وأحرقت معبد اليهود الأشكيناز وبعض المحلات اليهودية فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥.

● اليهود والحركة الصهيونية فى مصر أحمد غنيم وأحمد أبوكف - كتاب الهلال عدد ٢١٩ يونيو١٩٦٩

وقد استنكرت الحكومة المصرية وأمين عام الجامعة العربية عبد الرحمن باشا عزام, وجميع فئات المصريين ما حدث, لكن رد الفعل الشعبى المصرى كان يعبر عما وصلت إليه مشاعر المصريين فى تعاطفهم مع الشعب الفلسطينى, وهذا يؤكد بوضوح أن عدم وضوح الرؤية لدى المصريين وقطاعات من اليهود المصريين كان السبب فى التأخر الشديد فى إظهار الغضب على ما يحدث فى فلسطين.

وقد ظهر لأول مرة رأى عام مصرى قوى لتأييد الفلسطينيين أثناء الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٣٦, وبدأت الجماعات الإسلامية والراديكالية المصرية, ممثلة فى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة تنظر إلى اليهود المصريين على أنهم طابور خامس. وبدأ اليهود المصريون يتوجسون من أن يؤثر الشعور الوطنى المؤيد للفلسطينيين على وضعهم فى مصر. وتصرفت الجالية اليهودية بنفس الطريقة التى تصرفت بها عام ١٩٢٩, وكانت طريقتهم هى الاتصال بالحكومة المصرية والسلطة البريطانية و السفارات الأجنبية ودفع مبالغ مالية كبيرة إلى الكثير من الصحف المصرية، كوسيلة للضغط على المصريين من ناحية، و طلبوا من النشطاء الصهاينة التوقف عن النشاط الصهيونى, أوعلى الأقل العلنى منه، و من ناحية أخرى استمرت المساعدات السرية لليهود فى فلسطين, وانخفض النشاط الصهيونى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية, وفضلت السلطات الصهيونية فى فلسطين تنشيط هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين عن تنشيط الهجرة العربية, وتم تأجيل أوراق المصريين الطالبين للهجرة, بالرغم من أن عددهم كان قليلاً ، ومعظم هؤلاء كانوا من يهود اليمن وعدن والمغرب الذين كان يعيشون فى مصر, بالإضافة إلى يهود أوروبا الشرقية الذين توقفوا فى مصر لفترة فى طريق هجرتهم إلى فلسطين عندما تسمح الظروف.

ويعنى ذلك أن اليهود المصريين لم يهاجروا إلى إسرائيل قبل عام ١٩٤٧, وكان العامل المهم فى عدم هجرة المصريين الذى أجمعت عليه المصادر الصهيونية، وكذلك المصادر المناهضة للصهيونية، هو الحالة المادية الممتازة لليهود المصريين, وبالذات الطبقات الغنية والطبقات الوسطى المؤثرة فى القرار اليهودى، وكان الأمن الذى تمتع به اليهود وعدم وجود أى شعور عدائى لليهود فى مصر بين أفراد الشعب المصرى

بصفة عامة عاملاً مؤثراً فى الحماس للهجرة. ولم يعتقد أحد منهم أن الإخوان المسلمين أو مصر الفتاة قوة مهمة لها مستقبل مؤثر، وإنما رأوا أنهم عناصر متطرفة غير مهمة أو مؤيدة بأية قوى سياسية أخرى, واستمر ذلك حتى نهاية الثلاثينات.

ولم تكن هناك مشكلة لليهود المصريين فى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فلم يشعر اليهود المصريون بأى شعور عدائى على أى مستوى مقارنة بما حدث ليهود أوروبا, وبالتالى لم يشعر يهود مصر بأهمية الصيهونية لهم, وعندما ساعد اليهود المصريون المهاجرين من يهود أوروبا إلى فلسطين بالأموال كانوا يرون أن ذلك مساعدة لليهود المضطهدين فى أوروبا, وليس لبناء وطن قومى سوف يهاجر إليه اليهود المصريون.

وكانت الملاحظات التى قيلت وكتبت باستمرار بواسطة الزائرين إلى مصر من يهود أوروبا أو فلسطين، أن اليهود المصريين لا يعيشون حياة يهودية, لأنهم مهتمون بالأشياء المادية ويفتقدون المعانى الروحية والثقافية والمثل العليا فى هذا الجو الشرقى المتخلف الذين يعيشون فيه, وأنهم غير مهتمين بالحياة اليهودية السامية الراقية.

وكتب أحد المدرسين اليهود فى مدارس الليسيه الفرنسية يقول إن يهود المجتمع المصرى مختلفون عن بقية اليهود, وأن اليهود المصريين يهود بالاسم فقط ، ولا يعلمون ولا يعرفون أنهم من سلالة الجنس الذى أعطى الدين والأخلاق لكل العالم ، صحيح أن اليهود المصريين متدينون يؤدون الصلاة ويذهبون إلى المعبد, إلا أنهم يفتقدون الروح اليهودية الأصيلة, وهم سعداء بهذا الرخاء الذى يعيشون فيه, ويرجع جزء من المشكلة إلى عدم وجود تعليم يهودى مستقل. وكتب ريتشارد ليشتيم عام ١٩٣٧ قائلاً: إن الجو العام فى مصر شرقى كسول يفتقد الثقافة والفهم, ومعظم اليهود ممتازون، لكنهم يفتقدون الصهيونية والدافع إلى النضال ضد أوروبا، وضد الانصهار فى المجتمع المصرى الذى يعيشون فيه. بل وصل الأمر إلى أن وُجد تيار بينهم يدعو إلى الانصهار والاندماج فى المجتمع المصرى, وذلك لأنهم سطحيون, والحل يكمن فى روح الصهيونية التى يجب أن يؤمن بها كل اليهود المصريين، وفي تلك الفترة على حين كان حاييم ناحوم أفندي الحاخام الأكبر لليهود المصريين يعارض الصهيونية كان حاخام الإسكندرية يؤيد الصهيونية. وترجع معارضة اليهود المصريين للصهيونية إلى أن

المصريين متدينون بطبيعتهم, ولا يُقَدِّرُون الاشتراكية الصهيونية حق قدرها, ويرفضون المجتمع العلماني, ولا يحبون الآراء التى تتعارض مع الدين, أو ترفض الدين كلية, وهو الأمر الذي كان منتشراً بين زعماء الصهاينة الزائرين لمصر. وكان كبار فى السن من اليهود المؤثرين فى مصر يخلطون بين الشيوعية والإلحاد والصهيونية، وكان اليهود المصريون المحافظون لا يحبون ولا يحترمون الحرية الكاملة للمرأة الصهيونية،التى يري البعض أن بها تكون فاسقة، لأنها تتصرف تماماً مثل الرجل، وهذه الأفكار مخالفة للتقاليد الشرقية للمرأة.

وسبب آخر لرفض اليهود المصريين للصهيونية، هو أن اليهود السفارديم – وهم الأغلبية فى مصر– كان يعرفون أن الأشكيناز فى فلسطين فى المرتبة الأعلى, وأنهم سوف يفقدون وضعهم المميز فى مصر، وينتقلون إلى وضع أدنى فى إسرائيل، وقد علق كل المبشرين بالصهيونية الذين زاروا مصر, بأن اليهود المصريين من الطبقتين الوسطى والعليا يتصفون بالعنجهية ويضجون من الأفكار الصهيونية، لذا فإن انتشار الصهيونية فى مصر حدث فى فترة متأخرة جداً ، وفى تلك الفترة نجحت الصهيونية فى إقناع أعداد من شباب الطبقة الوسطى من المتعلمين, ولم تنجح مع الأغنياء الذين خافوا على وضعهم المتميز، ومع يهود الحارة الذين كانوا منتمين إلى الوطن إلى حد كبير, وقررت الصهيونية العالمية تغيير سياستها حتى يمكنها أن تكسب يهود مصر, فغيرت الخطة إلى محاولة اكتساب العائلات الكبيرة والأغنياء, ونجحت فى الإسكندرية مع عائلات منشه وجرين وهرارى, عن طريق اتصال مكثف مع كبار العائلات وإقناعهم بأهمية الصهيونية وإقامة الوطن القومى, لكن التخطيط نفسه فشل فى القاهرة. وكان المجمع الماسونى بناى بريت أكبر ممول مصرى للحركة الصهيونية، لأن معظم أعضائه كانوا من كبار أغنياء اليهود.

وهذا الأمر يعنى أن اليهودية قومية أكثر منها ديانة ، وأن الوطن الصهيونى أقامته مجموعة معظمها من الملحدين، والبقية منهم لا تعطى الدين اليهودى أهمية كبرى, ولم يكن آباء الصهيونية مواظبين على التعاليم اليهودية، وإنما كانوا يؤمنون بالصهيونية عقيدة تجمع يهود العالم بوصفها قومية توحدهم، على حين يلعب الدين دورا ثانويا فى هذا الأمر، ويمكن استغلاله لأغراض سياسية مثل توحيد الشعب اليهودى, وكانت فكرة القومية التى تعلو على الديانة واضحة عند تكوين الدولة التى لم يكن من المتدينين فى

قمتها إلا نسبة ضئيلة, واستمر ذلك حتى الآن. ومع المد الدينى فى العالم كله الذى يتجه يميناً لا تزال الأحزاب الدينية فى إسرائيل تشكل أقلية, لكنها غير قادرة على تشكيل حكومة تمثل قوة رئيسية.

فى البداية ركزت الصحافة الصهيونية على التعاون بين العرب واليهود والقرابة العرقية والأخوة بينهم وبين العرب, وأن فى الهجرة إلى فلسطين فائدة للجميع. و أثناء الحرب العالمية الثانية كان يوجد فى مصر أعداد كبيرة من جنود الحلفاء اليهود الصهاينة الذين كثفوا جهودهم لتنظيم الشباب فى الحركة الصهيونية, وبدأ النشاط الحقيقى عام ١٩٤٣ حين حفزوا اليهود المصريين ضمن حركة عامة لحث يهود الشرق الأوسط على الهجرة إلى فلسطين, وتم تنظيم الحركات الصهيونية بين الشباب, واستخدمت جميع الطرق القانونية وغير القانونية لدفعهم إلى الهجرة إلى إسرائيل, وبلغ عدد الشباب الصهيوني فى مصر فى نهاية عام ١٩٤٧ نحو ١٥٠٠ شاب. لكن لم تنجح حركات توحيد هذه المنظمات فى القاهرة والإسكندرية، فقد كانت الحركات والمنظمات متعددة ومتفرقة وليس لها كيان ضخم مؤثر . وبعد اغتيال اللورد موين طرد استراسلسكى من مصر, وقيدت حركة الجمعيات الصهيونية بواسطة السلطات البريطانية.

وفى عام ١٩٤٤ قررت المنظمات الصهيونية العالمية تعيين ليون كاسترو مسئولاً عن كل المنظمات الصهيونية فى مصر, ونجح فى توحيد ألف شاب يهودى تحت لوائه.

واجتمعت اللجنة المصرية الصهيونية فى ١٩٤٥/١/٧ بحضور كل الأعضاء المهمين من يهود القاهرة والإسكندرية, وكان عمل اللجنة وحركة الشباب الصهيونى يتم تحت سمع السلطات المصرية و بصرها، وكانت تحركاتهم وتجمعاتهم قانونية، و أستمر ذلك حتى شهر نوفمبر ١٩٤٥ حين قيدت الحكومة حركتهم.

وفى عام ١٩٤٤ عبر حسن رفعت وكيل وزارة الداخلية عن رغبة الوزارة فى تحجيم النشاط الصهيونى فى مصر, واتصل بالسفارة البريطانية للتنسيق معها, لكنها لم تعطه إجابة شافية، وطوال الحرب العالمية الثانية كان النشاط الصهيونى فى مصر على أشده بزيارات متتالية من زعماء الصهاينة فى العالم. وربما كان للمظاهرة اليهودية الكبيرة – التى سارت فى شوارع القاهرة فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥ ، تأييداً لذكرى وعد

بلفور- أثر كبير فى إثارة الشعب والصحافة وخطباء المساجد, وقد تم الرد عليها بأحداث ومظاهرات ضخمة من الشعب المصرى كله ضد الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين، والتى أحدثت بعض الخسائر اليهودية, وعلى أثرها قام الشباب اليهودى بتنظيم وحدات للدفاع عن الحارة وسلمت لهم أسلحة من الجيش البريطانى كما تقول كرامر. وقد عارض الحركة الصهيونية حتى النهاية جناحان من اليهود المصريين، أولهما الزعماء التقليديون من أغنياء السفارديم، والمجموعة الأخرى هى معظم قيادات اليهود الشيوعيين.

وكتب زعماء اليهود المصريون إلى المؤتمر اليهودى العالمى عام ١٩٤٤ مطالبين بوطن قومي، ولكن فى غير فلسطين, ومحذرين من مغبة قيام دولة إسرائيل على مستقبل اليهود في مصر. وطلب رينيه قطاوى من ليون كاسترو إغلاق معسكرات تدريب شباب الصهاينة ولم يعر كاسترو الطلب أي اهتمام. ولما شعر قطاوى فى نهاية الأربعينات بنشاط صهيونى فى مجلس الطائفة فى القاهرة, استقال من منصبه, ولم يستطع أغنياء الجالية ولا الشيوعيون, إيقاف النشاط الصهيونى الذى كانت تدعمه الصهيونية العالمية بآلاتها الجبارة.

وفى عام ١٩٤٨ أعلنت حالة الطوارئ, وبعد إعلان الحرب أغلقت الحكومة مكاتب الحركة الصهيونية, وكان زعماؤها قد غادروا إلى فلسطين ، وفى تقدير كرامر أن معظم اليهود المصريين كانوا حتى عام ١٩٤٨ لا يعتقدون أن الهجرة إلى إسرائيل هى الحل، ولم يترك اليهود مصر بصفة أساسية إلا بعد حرب ,١٩٥٦

يتضح من هذا العرض التاريخي للحركة الصهيونية فى مصر، أنها أولت اهتماماً شديداً بمصر منذ بداية القرن العشرين, لكنها لم تحقق نجاحات تذكر مع اليهود المصريين, باستثناء بعض يهود شرقي أوروبا المقيمين فى مصر, وعَبَّر زعماء الحركة الصهيونية عن غضبهم واحتقارهم لليهود المصريين الشرقيين المتخلفين الذين لا يفهمون ولا يقدرون الصهيونية. وقد حققت الحركة الصهيونية نجاحاً جزئياً فى نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات مع مجموعة صغيرة من الشباب المتعلمين, ويرجع هذا النجاح فى تقديرى إلى تأثير المدرسين اليهود فى مدارس الليسيه فرانسيه اليانس اليهودية التي كان مدرسوها الفرنسيون مقتنعين بفكرة الصهيونية التى جمعوا بينها

وبين فكرة الماركسية فى بوتقة واحدة, وكان هؤلاء الطلبة صيداً سهلاً للصهيونية العالمية، ومع ذلك لم يتحقق للصهيونية النجاح المتوقع لها لأسباب عدة, أولها أن أمور الجالية اليهودية كان يتحكم فيها كبار الأغنياء الذين كانوا مقتنعين تماماً بأن الصهيونية ليست فى مصلحتهم, وهذا لا يعنى بالطبع أنهم كانوا من الوطنيين المصريين، لكنهم كانوا يعتقدون أن مصالحهم الاقتصادية سوف يقضى عليها المشروع الصهيونى ، وثانى هذه الأمور أن اليهود المصريين كانوا يعيشون حياة كريمة بدون متاعب أو اضطهاد أوعنف, ولا شيء يقارن بما حدث ليهود أوروبا . وثالث الأمور أن اليهود المصريين كانوا يعرفون أن الحياة فى إسرائيل سوف تكون صعبة وخطرة، وأن أحوالهم لن تتحسن بل سوف تسوء, لهذه الأسباب مجتمعة كان اليهود المصريون ضد الصهيونية. لذا فإن الهجرة الكلية النهائية لليهود المصريين كانت لأسباب عديدة أخرى سوف نذكرها بالتفصيل, وكان التأثير الصهيونى على أفكار المصريين فى مؤخرة هذه الأسباب.

الجنسية المصرية واليهود فى مصر

يقول شيمون شامير الذى كان رئيساً للمركز الأكاديمى الإسرائيلى فى القاهرة، ثم أصبح السفير الإسرائيلى الأسبق فى مصر فى كتابه (يهود مصر) «إن عصرالليبرالية فى مصر الحديثة يشير بوضوح إلى الحياة المريحة والحيوية والنشاط وقوة الجالية اليهودية المصرية, بما أسسته من معابد ومستشفيات ومدارس ومحلات وشركات وبيوت جميلة عاش فيها أغنياء اليهود المصريين, وتمتع اليهود المصريون بوضع يعد أفضل وضع لليهود فى العالم الإسلامى». وكان شعار ثورة ١٩١٩ "الدين لله والوطن للجميع" هو الشعار الذى أعطى لكل المصريين من جميع الأصول والأديان نفس الحقوق المدنية, بصرف النظر حتى عن لغتهم التى يتكلمون بها، لذا لم يكن اليهود يحتاجون إلى أى نوع من الحماية, لأنهم كانوا مواطنين عاديين. وكانت مفاجأة للكثيرين أن عدداً كبيراً من اليهود المصريين لم يكن يحمل الجنسية المصرية, وبعضهم لم يكن يحمل أى جنسية أخرى عام ١٩٤٨ حين بدأت هجرة اليهود من مصر.

ويشير التعداد فى مصر عام ١٩٤٧ إلى أن عدد اليهود كان ٦٥٦٣٩ نسمة، و بالرغم من أن هناك مبالغات كثيرة فى أن هذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى حقيقة عدد

اليهود، إلا أن المصادر اليهودية الموثوقة تشير إلى أن العدد كان أكبر من ذلك بنحو عشرة آلاف, أى أن العدد الكلى لليهود الذين كانوا يعيشون فى مصر كان نحو ٧٥ ألفا قبل قيام دولة إسرائيل.

ويقول شامير «إن منهم نحو ٣٠ ألفا يحملون جنسيات أجنبية, وبالتالى لا يمكن لهم, ولم يحاولوا الحصول على الجنسية المصرية, و٥ آلاف يحملون الجنسية المصرية، و نحو ٤٠ ألفا بدون جنسية». وهناك اختلافات كبيرة فى تقدير المؤرخين لعدد اليهود المصريين الذين كانوا يحملون الجنسية المصرية، ويصل التقدير من نحو ٥ آلاف – كما ذكر شامير– إلى خمسين بالمائة من اليهود المصريين، كما ذكر عدد من المؤرخين من مختلف الاتجاهات.

يقول شامير «إن هذا العدد الكبير من اليهود الذين لا يحملون الجنسية المصرية حسب تقديره يفسر أن اليهود كانوا متأثرين بالغرب فى كثير من الأحيان، ويتطلعون إلى الحصول على جنسيات غربية، ولم تكن لديهم الرغبة فى الحصول على الجنسية المصرية».

ويعتقد شامير أن هذا الأمر يثير بعض التساؤلات, أهمها هل كان اليهود أجانب فعلاً؟ وهل كان الحصول على جنسية أجنبية سهلاً؟ وهل كانت الجنسية الأجنبية أفضل من الجنسية المصرية؟ وهل عومل اليهود معاملة مختلفة فى هذا الشأن مقارنة بكثيرين من غير حاملى الجنسية المصرية من المقيمين فى مصر؟.

تطور قوانين الجنسية المصرية

كان كل من يعيش فى مصر بصفة دائمة ولا يحمل جنسية أجنبية يعد من رعايا الدولة العثمانية، بما ذلك جميع المصريين أيا كانت ديانتهم, وحين أعلنت إنجلترا الحرب على تركيا عام ١٩١٤ أصبح المصريون من كانوا من أصل مصرى أو من الرعايا العثمانيين الذين عاشوا فى مصر أو أرادوا الاستقرار فيها، هم الذين يكونون الشعب المصرى, وقد مرت قوانين الجنسية المصرية بمراحل كثيرة, بدءاً من قانون عام ١٨٩٢ الذى نص على أن المصريين هم الذين ولدوا فى مصر, أو الذين عاشوا فيها خمسة عشر عاماً متصلة ، ونص القانون على أن المصريين لهم الحق فى وظائف الدولة, ولهم حق الانتخاب، وكذلك عليهم واجب التجنيد فى الجيش, وصدر قانون عام ١٩١٤ الذي

يقول عنه شامير «إنه قانون متساهل للغاية فى الحصول على الجنسية المصرية». يؤكد القانون أن جميع رعايا الدولة العثمانية المقيمين فى مصر لهم الحق فى الحصول على الجنسية المصرية ، وبالطبع فإنه يشمل جميع اليهود, ما عدا الحاملين لجنسيات أجنبية أوالوافدين الجدد إلى مصر من خارج الدولة العثمانية.

وبين عامى ١٨٩٧ و١٩١٧ تضاعف عدد اليهود المصريين من نحو ٢٥ ألفا إلى نحو ٦٠ ألفا, معظمهم قدموا إلى مصر من أجزاء مختلفة مما كان يسمى الدولة العثمانية، ويعنى ذلك دولا عديدة من حوض البحر الأبيض المتوسط.

يقول شامير «إنه حضر إلى مصر فى تلك الفترة مجموعة من اليهود والأرمن و الشوام الموارنة, معظمهم من جبل لبنان, وكان حضورهم إلى مصر بأعداد كبيرة، وكانت هذه الطوائف على علاقة وثيقة بالغرب، واستطاعوا التعاون مع الإنجليز, ونجحوا فى أعمال الصرافة والتجارة, وكان ينظرإليهم على أنهم أجانب, لذا كان القانون يعدهم مجموعة منفصلة وقد كانت هذه المجموعة مختلفة عن اليهود و الموارنة والأرمن الموجودين منذ زمن بعيد فى مصر».

وكان الرأى العام المصرى ضد إعطاء الجنسية مباشرة لهؤلاء المهاجرين الجدد, سواء كانوا يهوداً أو شواما، وكان مصطفى كامل من كبار الناشطين فى هذه المعارضة. وقد رفض مجلس الوزراء المصرى إعطاء هذه المجموعة الجنسية بطريقة تلقائية.

وفى عشرينيات القرن العشرين بدأت الوطنية المصرية بعد ثورة ١٩١٩ تأخذ مساراً واضحاً نحو الاستقلال، وتوصيف حدود مصر وتعريف من هو المصرى، وحددت الجنسية المصرية بثلاثة قوانين, الأول هو أن كل من كان يعيش على أرض مصر بصفة مستمرة حتى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . له الحق فى الحصول على الجنسية المصرية, إلا إذا طالب فى خلال عام بالحصول على الجنسية التركية، وفى هذه الحالة عليه أن يغادر مصر خلال ذلك العام. وكان ذلك منطقياً، لأن كل سكان مصر قبل ذلك التاريخ كان يعدون من رعايا الدولة العثمانية, وكانت جوازات سفرهم صادرة باسم الدولة العثمانية. وكان القانون لا يعطى الوافدين إلى مصر بعد ذلك التاريخ الحق فى الحصول تلقائياً على الجنسية المصرية. وطلب القانون من كل مواطن من سكان

الإمبراطورية العثمانية السابقة الحصول على جنسية البلد الذي كان يقطنه بعد خروج هذه الدول من عباءة الإمبراطورية العثمانية.

فى عام ١٩١٧ كان تعداد مصر ١٢ مليون نسمة، منهم نحو ٢٥ ألف يهودى, يتمتع بالجنسية المصرية منهم ١٥ ألفا والباقى يحملون جنسيات أخرى, أهمها البريطانية و الفرنسية والإيطالية، والبعض كان من رعايا الدولة العثمانية، وكان هناك غموض فى تصنيف اليهود، هل اليهودية دين أم جنس عرقى؟. ولم تكن التعريفات واضحة أو محددة ، فمثلاً كان بعض اليهود يدينون باليهودية وجنسيتهم مصرية, والبعض الآخر كان يكتب فى الأوراق الرسمية أن جنسيته (يهودى), وعموماً هناك كثير من الغموض فى هذه النقطة حتى لدى باحثين متميزين مثل كرامر.

وقد نوقشت عدة مشروعات للجنسية المصرية، وتمت الموافقة على القانون نهائياً وصدر فى عام ١٩٢٩، ويعد هذا القانون فى رأى شامير قانونا ليبراليا وطنيا مصريا، وكان يعتمد على حرية المواطن وانتمائه للوطن الذي يمثل أمة مصرية موحدة، وقد عَرَّفَ القانون المصريين بأنهم كل مواطنى الدولة العثمانية الذين كانوا مقيمين فى مصر فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ يوم إعلان الحماية البريطانية وانفصال مصر رسمياً عن الدولة العثمانية, والذين استمروا يعيشون فى مصر حتى صدور القانون. أما الذين حضروا إلى مصر بعد ذلك التاريخ أو عاشوا خارج مصر فى تلك المدة فيمكنهم الحصول على الجنسية بعد تقديم طلب خلال عام من صدور القانون. أما أبناء المصريين الموجودين فى الخارج, وكذلك من يولد فى مصر من أب أجنبي ولد فى مصر, فيحصلون على الجنسية المصرية, ومن حق المواطنين الذين يعيشون فى مصر لأكثر من عام و يحملون جنسية أخرى يريدون التخلى عنها ليحصلوا على الجنسية المصرية, أن يتقدموا بذلك بعد عام من إقامتهم, ويجوز فى هذه الحالة منحهم الجنسية، وأضاف القانون أن من يقيم إقامة مستمرة لمدة عشر سنوات فى مصر مع حسن السير والسلوك و القدرة على كسب عيشه, ويجيد اللغة العربية يمكن أن يحصل على الجنسية المصرية بدون سابق علاقة له بمصر.

وكما يقول شامير فإن كل اليهود المقيمين فى مصر منذ القرن التاسع عشر- وكان عددهم نحو سبعة آلاف نسمة- كان حصولهم على الجنسية المصرية تلقائياً بنص هذا

القانون, وحيث إن تعداد عام ١٩٢٧ أظهر أن عدد اليهود المقيمين فى مصر ٣٢٠٫٣٢ ، كان ثلثهم من المقيمين لأجيال طويلة فى مصر, يحق لهم الحصول على الجنسية, وكذلك يحق لليهود الذين هاجروا إلى مصر عام ١٩١٤ هم وأبناؤهم. ويفيد شامير أن موسم الهجرة الكبرى إلى مصر من حوض البحر الأبيض المتوسط ومن شرقي أوروبا واليمن والعراق، كان يتيح أن ينضم إليهذه المجموعة اليهود من الرعايا السابقين للدولة العثمانية، والذين هاجروا إلى مصر من مختلف البلاد, والذين كان من المكن أن يحصلوا على الجنسية خلال عام واحد حسب هذا القانون, وكان هذا أمراً سهلاً وبسيطاً, لكن المفاجأة الكبرى كانت عـــام ١٩٤٧، حيث أظهر الإحصاء أن عـــدد اليهود فى مصر كانو نحو ٧٥ ألفا و المسجلين فى التعداد الرسمي نحو ٦٥ ألفا، منهم نسبة كبيرة من اليهود بدون جنسية. وطفا على السطح السؤال الكبير: لماذا كان ثلث أو ثلثا اليهود المصريين بدون أية جنسية؟ واستخدمت هذه النقطة فى التشهير بمصر وإظهارها بمظهر الدولة المتعنتة، العنصرية التى ترفض أن تمنح الجنسية لمن عاش فيها فترات طويلة, واستخدمت أيضاً أداة لتهجير اليهود المصريين إلى مختلف بلاد العالم, بما فيها إسرائيل, وللإجابة على هذا السؤال المهم دعنا أولاً نستمع إلى رأى شيمون شامير سفير إسرائيل الأسبق فى القاهرة, الذى يقول إنه ربما كان السبب فى عدم التقدم للحصول على الجنسية المصرية هو الأمل في الحصول على جنسية أوروبية, لكنه يعتقد أن هذا السبب غير جوهرى لصعوبة الحصول على جنسية أوروبية, فمثلاً كان الإنجليز لا يوافقون على منح الجنسية البريطانية للمصريين إلا فى حدود ضيقة جداً, مثل العائلات اليهودية الغنية من أمثال ساسون وسموحة وهرارى. وكان الإيطاليون و الفرنسيون أكثر كرماً فى منح الجنسية ليهود مصر. ويقول شامير إن الوطنية المصرية كانت تطالب بتمصير الوظائف و بذا تصبح الجنسية المصرية ميزة. ومع ذلك لم يسارع اليهود إلى الحصول على الجنسية المصرية. ويعتقد شامير أيضاً أن الحصول على الجنسية الأوروبية لم يعد مغرياً, بعد أن ألغيت المحاكم المختلطة والقوانين التى تعطى مميزات خاصة لحاملى الجنسيات الأوروبية، وعموماً فى تلك الأثناء كان اليهود المصريون الأغنياء أو الذين لهم علاقات أوروبية خاصة قد حصلوا بالفعل على جنسيات أوروبية.

وقد بدأ موضوع الجنسية المصرية يأخذ بعض الأهمية التى تزايدت بمرور الوقت،

وفي نهاية الثلاثينات عندما بدأ تمصير الوظائف والاقتصاد المصرى، أصبح من الأهمية أن يحمل المواطن الجنسية المصرية، وازداد الأمر أهمية عام ١٩٣٧، ثم أصبح له أهمية قصوى عام ١٩٤٩، وهو العام الذى انتهت فيه فترة التمييز الأجنبى والمحاكم المختلطة فقبل ذلك التاريخ كانت هناك ميزة لأن تكون أجنبياً وتحمل جنسية أوروبية، فقد كانت المعاملة مع الحكومة أسهل، والمعاملة الضرائبية أسهل، وحتى المحاكم الجنائية كانت تعرض على محاكم خاصة، وكان لدى حاملى الجنسية الأجنبية من الحماية والمساعدة أكثر مما هو متاح للمصريين، وبالطبع فإن ذلك ساعد على انتعاش أعمالهم ومشاريعهم.

وقد حاول الكثير من اليهود فى مصر استغلال هذا الأمر بالحصول على جنسية أوروبية، وكانت فرنسا كريمة فى منح جنسيتها ليهود ليس لهم أية علاقة بفرنسا سوى أنهم يتكلمون لغتها، على حين لا يوجد أحد من عائلاتهم هناك، وربما لم يزوروا فرنسا أبداً.

وكان الأمر كذلك مع بعض الدول مثل إيطاليا، وكان الغرض من وراء ذلك زيادة نفوذ الدولة الأجنبية فى مصر بسبب كثرة رعاياها، بالإضافة إلى مبلغ محترم يدفعه المواطن للحصول على الجنسية.

وبدأ الكثيرون من اليهود الذين صعدوا السلم الاجتماعى فى اختراع تاريخ وهمى لعائلاتهم فى أوروبا قبل الهجرة إلى مصر، واخترع البعض تاريخاً لهم في تونس و الجزائر والمغرب، فربما يستطيعون الحصول على الجنسية الفرنسية، والبعض الآخر يخترعون تاريخاً لهم في عدن وجبل طارق، لعلهم يحصلون على الجنسية البريطانية بدلاً من أن يبقوا مصريين.

والغريب أن الذين هاجروا إلى مصر فى أوائل القرن العشرين سارعوا إلى الحصول على الجنسية المصرية، على حين أن اليهود الذين عاشوا فى مصر أجيالاً لم يسعوا إلى الحصول على الجنسية، وهكذا أصبح معظم اليهود الذين حصلوا على جواز السفر المصرى أجانب يتكلمون لغات أجنبية، على حين أن اليهود المصريين فضلوا أن يبقوا بدون جنسية تحت الحماية الأوروبية للأقليات، وهكذا أصبح هؤلاء اليهود أجانب بدون جنسية مصرية، على حين أنهم مصريون يعملون في مصر ولهم

ممتلكات فيها، وهو وضع فرضه التطلع اليهودى إلى الحصول على الجنسية الأوروبية من ناحية، وازدراء الجنسية المصرية من ناحية أخرى. وقد كان وضع المواطن المقيم فى مصر الذى لا يحمل أية جنسية أفضل من وضع حامل الجنسية المصرية لأن إعلان الحماية البريطانية أعطى غير الحاصلين على أية جنسية نفس المميزات لحاملي الجنسيات الأجنبية, لذا فضل بعض اليهود المصريين عدم الحصول على الجنسية المصرية, ليتمتعوا بالامتيازات الأجنبية، وكان عندهم الأمل دائماً فى الحصول على جنسية أوروبية. وهناك اخلاف حول نسبة هؤلاء اليهود غير الحاملين للجنسية، لأنه فى عام ١٩٣٧ ازداد عدد اليهود المسجلين بجنسية مصرية، لكن كثيرا من اليهود فقدوا الجنسيات الأجنبية التى سحبت منهم.

وفى أثناء الثلاثينات حين كان الحصول على الجنسية سهلاً وغير معقد لم يطلب معظم اليهود الحصول على الجنسية, لشعورهم بأنه لا توجد فائدة مادية أو معنوية من الحصول عليها, وفى منتصف الأربعينات حين أصبح الحصول على الجنسية أكثر صعوبة لم يستطع الفقراء والمهمشون من اليهود الحصول عليها, أما الأغنياء ومتوسطو الحال فكان عندهم إما جنسية أجنبية أو تقدموا وحصلوا على الجنسية المصرية. فبعد نهاية الحرب العالمية الأولى كان عدد حاملى الجنسيات الأوروبية ٢٢٪ من يهود مصر, وبين قائمة الأغنياء والمؤثرين من اليهود التى نشرت عام ١٩٢٢ كان ١٣٪ من يهود الإسكندرية فقط فى قائمة من يحملون الجنسية المصرية، ومن يهود القاهرة ٦٪ فقط, ومن اليهود الأشكيناز٥٣٪, ومجموع اليهود فى هذه القائمة كان ٣٨٠ شخصاً, هم أهم وأقوى وأغنى اليهود. ويلاحظ هنا أن اليهود الأشكيناز البعيدين عن الشرق الأوسط وفهم الجو المصرى- وهم فى الوقت نفسه حاملو لواء الصهيونية, و هم الذين لا يعرفون اللغة العربية، نجد أنهم استوعبوا أهمية الحصول على الجنسية المصرية, ولو إلى حين، أما اليهود الشرقيون من السفارديم فتمكن البعض من الحصول على الجنسيات الأوروبية، ومن لم يتمكن استمر يعيش بدون جنسية تحت الحماية البريطانية ومميزاتها, مفضلاً ذلك على الجنسية المصرية.

● يقول لانداو إنه فى أوائل الثلاثينات شعر اليهود المصريون بأن هناك رياحاً جديدة تهب، وأن الشعور الوطنى المصرى بدأ يلتهب فلجأ الكثير من اليهود إلى الحصول على دروس فى اللغة العربية, خوفاً من المستقبل, خاصة أولئك الذى لا يحملون الجنسية،

● تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية ١٥١٧ - ١٩١٤ - تحرير يعقوب لانداو

واختلفت وجهات نظر اليهود المصريين تجاه تعاظم الشعور الوطنى المصرى، وحاول بعض المثقفين من اليهود الانضمام إلى التيار الوطنى المصرى، وأسسوا جمعية الشبان اليهود المصريين، وظهر هذا التيار فى بعض الصحف اليهودية مثل "الشمس" و نادوا بوطن واحد للجميع، وطالبوا بالتركيز على ذلك فى المدارس الإسرائيلية الفرنسية، وطالبوا بأن يعمل الجميع لرفعة مصر ورخائها، واهتمت بهذا الأمر بعض قيادات اليهود المصريين مثل رينيه قطاوى ويوسف أصلان قطاوى. طالب حاييم ناحوم أفندى حاخام اليهود المصريين في إعلان رسمي بالاهتمام بالجنسية المصرية والتقدم للحصول عليها.

ويعتقد شامير أن عدم حصول الكثيرين من اليهود على الجنسية المصرية يرجع إلى عدم تقدير أهمية هذا الأمر، خاصة فى الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى. وبالرغم من إنتشار التعليم بين اليهود، إلا أنه بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٣٧ كان نحو الثلث من اليهود أميين. وكان الكثيرون يثقون فى أن وضع الجالية فى مصر مستقر، ولم يحاولوا التقدم للحصول على الجنسية، ويقول شامير إن مبلغ الخمسة جنيهات رسوم الحصول على الجنسية كان فوق طاقة الفقراء. و اعتقد كثير من اليهود من الطبقة المتعلمة أن القانون فيه تعقيدات (وذلك غير صحيح) فتكاسلوا عن التقدم للحصول على الجنسية.

وتقول وثيقة رسمية من الأمم المتحدة إن الكثير من اليهود المصريين لم يحصلوا على الجنسية المصرية بسبب الكسل والإهمال، أولأسباب أخرى غير واضحة بالرغم من مد فرصة الاستفادة بالقانون عدة مرات.

ويقول شامير «إن البيروقراطية المصرية التى قد تصل إلى حد التمييز بين المتقدمين، مع صعوبة تقديم بعض الأوراق كانتا سبباً مهما فى عدم حصول اليهود على الجنسية المصرية». ويعتقد أن هذا لم يكن تمييزاً ضد اليهود، بل ضد منح الجنسية المصرية للأجانب المقيمين عامة وأن وزارة الداخلية كانت تتعنت فى طلباتها غير أن من لجأ إلى مجلس الدولة حصل على حقه فى جميع الأحوال،. غير أنه لم يثبت أن البيروقراطية كان لها أى دور فى تعطيل منح الجنسية لليهود قبل منتصف الأربعينات ، ولكن يبدو أنه كان لها دور اعتباراً من نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ , وهناك نقطه مهمة أثارها كل من بدوى وغالى ورياض وهى أن روح القانون هى الأهم، وأن الجنسية

تعطى لكل الأشخاص المقيمين الذين يكون واضحاً أنهم سوف يذوبون وينصهرون فى بوتقة واحدة مع الشعب المصرى, وأن هذا الأمر فى أوروبا كان أكثر سهولة, لأن معظم الجنسيات الأجنبية فى مصر كانت سوف تذوب فى التيار الأوروبى لا محاله بعد فتره طالت أم قصرت, أما بالنسبة لمصر فإن موضوع الانصهار قد يكون صعباً, وأحياناً مستحيلاً لبعض الجنسيات. وكما قال بدوى فإن الأولوية فى منح الجنسية كانت للعثمانيين الذين يستحقون الجنسية المصرية, ثم العرب و المسلمين ليس كدين وإنما كحضارة وجنس ، وأن اللغة العربية جزء مهم من أركان الجنسية.

وقد كانت النظرة العامة إلى اليهود المصريين أنهم يمثلون ثقافة وحضارة مختلفة ومرتبطة بالحضارة الغربية، وذلك لأن الظاهر للعيان أن اليهود كانوا من كبار الأغنياء أوالشريحة العليا من الطبقة الوسطى وكانت لهم ارتباطات وثيقة بالغرب.

ويعتقد شامير أن قانون الجنسية المصرية تأخر كثيراً فى فترة الثلاثينات, لأن المجتمع المصرى تغير و الروح الوطنية أصبحت عارمة, وظهرت قوى جديدة كالإخوان المسلمين و مصر الفتاة, وكلاهما كان يكن عداء للغرب بصفة عامة، واليهود بصفة خاصة. ويعتقد شامير أن الفقرة الخاصة بالمصريين فى المادة السادسة من قانون الجنسية يفهم منها أنها تعنى الأقباط والمسلمين, وأصبح هناك كلام عن مصريين حقيقيين ومصريين غير حقيقيين.

وبالرغم من كل ما يقوله شامير فإنه يعترف بأنه لم تكن هناك صعوبة فى الحصول على الجنسية المصرية فى السنوات الأولى لصدور قانون الجنسية، وأن اليهود تأخروا وتكاسلوا فى طلب الجنسية لفترة متأخرة، وكانت الظروف العامة قد تغيرت وبيروقراطية موظفي الداخلية قد ازدادت.

الجنسية المصرية ونهاية الجالية اليهودية

صدر قانون العمل الجديد عام ١٩٤٧، وأعطى فرصا أكبر لتعيين المصريين فى الوظائف ليحلوا محل الأجانب, وكان هذا عاملاً مهما فى تمصير الشركات وإعطاء أهمية للجنسية المصرية. وقد طبق القانون حرفياً، وأدى ذلك إلى الاستغناء عن خدمات الكثير من الأجانب وغير حاملى الجنسية المصرية، وحتى لا يفقد اليهود وظائفهم انطلقوا بسرعة البرق فجأة للحصول على الجنسية المصرية, ولم يكن الأمر سهلاً فى

ذلك الوقت، و ذلك في السنة السابقة لإعلان دولة إسرائيل, وأعلنت مصلحة الجوازات بوضوح أن المصريين هم فقط من يحملون جوازات السفر المصرية. وبعد عام ١٩٤٨ توقفت الحكومة المصرية عن منح الجنسية المصرية لليهود. وقد صدر قانون آخر للجنسية عام ١٩٥٣، ثم في عام ١٩٥٦ أصبح الحصول على الجنسية المصرية أكثر صعوبة, وقد تحولت روح القانون تدريجياً من سهولة الحصول على الجنسية المصرية إلى صعوبة الحصول عليها.

والمعروف أن القانون لم يقصد به اليهود, وإنما الأجانب, والمفروض أن اليهود المصريين مصريون لهم جميع الحقوق وعليهم جميع الواجبات, فحين يكتشف الشعب المصرى أن اليهود المصريين في معظمهم لا يحملون الجنسية المصرية التى كان متاحاً الحصول عليها بسهولة ويسر طوال عشرات السنين، فإن ذلك يعني أمراً واحداً هو أن اليهود المصريين الذين ولدوا هم وآباؤهم - وربما أجدادهم - في مصر لم يفكروا فى الانتماء الكامل للوطن, وإنما عاشوا فى هذا الوطن, لأنه أفضل مكان فى العالم تَقَبلَّهم ورحب بهم وأعطاهم فرصا تزيد عن مواطنيه المصريين, وقد فوجئت الحكومة المصرية عندما اكتشفت أن الكثير من اليهود الذين عاشوا أجيالاً فى مصر لم يكونوا يحملون الجنسية، وفى تلك اللحظة فقط هرعوا إلى السلطات المصرية يحاولون الحصول على الجنسية.

يقول شامير إن ما حدث للجالية اليهودية فى مصر حدث أيضاً للجاليات الإيطالية واليونانية و الروسية، وكذلك حدث الأمر تاريخياً للجالية اليونانية فى تركيا والهنود فى كينيا و الصينيين فى إندونيسيا, وأن جزءا من المشكلة كان يقع على الأقلية التى تعاونت فى كثير من الحالات مع الاستعمار أو القوى العالمية المسيطرة, وكانت أحياناً تتحيز وتسيطر على الاقتصاد الوطني. فمن الواضح أن معظم الجالية اليهودية فى مصر- خاصة الأجيال الجديدة منها- لم تكن تريد أن تذوب فى جموع الشعب وتحمل آماله و آلامه.

وفى النهاية فإن الشعب المصرى لم يفرق بين اليهود الذين يمكن أن يذوبوا فيه ويتمصروا تماماً والذين لم يذوبوا فيه, لأن الشعب كان متفرجاً فى معظم الأحوال. ويتساءل شامير هل استفادت مصر أم خسرت بسياسة التمصير؟ ويجيب بأنه كان من

الواجب أن يتغير الموقف ليصبح أكثر عدالة بين الأجانب المتحكمين فى مصادر الثروة و بين المصريين أصحاب البلد, وكان يجب أن يكون هناك تيار ثقافى عام فى مصر يجمع الأجانب والمصريين، ثم يتساءل مرة أخرى: هل كان من الممكن التصرف بطريقة أخرى للحفاظ على الشخصية المصرية التى تجمع ثقافات متعددة تقوم بنشاط خلاق فى المجتمع؟

وللإجابة عن سؤال شامير فإن موقف اليهود كان صعباً بسبب قيام دولة إسرائيل والمواجهة العسكرية فى حرب ١٩٤٨، أما بقية الأجانب فقد كان الاحتكار والسيطرة الأوروبية سبباً أساسياً في أن يكون القرار الشعبى المصرى هو التخلص من النفوذ الأجنبى, وليس من الأجانب واليهود. لكن هؤلاء رفضوا أن يعيشوا فى ظروف الشعب المصرى نفسها وعندما ذهبت امتيازاتهم الخاصة قرروا الهجرة من مصر.

بعد قراءة مستفيضة ودراسة دقيقة لجميع الآراء التى كتبت فى موضوع الجنسية من شامير السفير الإسرائيلى الأسبق فى مصر و الأستاذ الأكاديمى والباحث المتميز بنيين. وبعد مراجعة جميع المصادر المتاحة مصرية وأجنبية أود أن أقول إننى على ثقة كبيرة من أن بعض أغنياء اليهود من السفارديم الذين وفدوا إلى مصر فى القرن التاسع عشر من أنحاء الدولة العثمانية ارتبطوا بالثقافة ورأس المال الغربى، وحصلوا على الجنسيات الغربية المختلفة أو كانوا فى طريقهم للتجنس بها, أو حتى الأمل فى الحصول عليها يوماً ما، ولم يكن عندهم الرغبة فى الحصول على الجنسية المصرية ولم يشعروا أبداً بالانتماء لمصر ولا الولاء للمصريين, وكانت فترة إقامتهم فى مصر التى امتدت إلى عدة أجيال ما هى إلا محطة فى الدياسبورا اليهودية قد تنتهى يوماً ما فى دول أوروبية أو فى حلم الدولة اليهودية, وهذه المجموعة من العائلات الغنية المشهورة مثل سمسون وسموحة وهرارى وغيرها، كانت ذات وضع اقتصادى متميز وعلاقتها قوية بالدول الغربية والاستعمار الإنجليزى، وكان لها نفوذ كبير فى مصر، وكانت تعيش فى عالمها الخاص الذى لا يرتبط بمصر أو المصريين إلا ببعض الخدم والبوابين، حتى مربيات الأطفال فى هذه العائلات كانت جنسياتهن أوروبية ولم يكن لديهن اهتمام بالأمور السياسية ولا الدخول فى حلبتها, وكانت قوتهم الاقتصادية تستخدم فى المحافظة على مصالحهم, وذلك باستخدام النفوذ الاستعمارى الإنجليزى على السلطات المصرية. ومن المؤكد أن هذه المجموعة مثلها مثل الاستعمار الإنجليزى كان تشعر

بالحركة الوطنية المصرية ونفوذها المتزايد, ورتبت أحوالها المالية والاقتصادية بحيث يسهل لها الانتقال إلى الخارج بأموالها فى الوقت المناسب بدون خسائر, وهو ما حدث فعلاً.

أما المجموعة الثانية فكانت من اليهود السفارديم الذين هاجروا من أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، وتوالت هجراتهم إلى مصر, و استطاعت هذه الطبقة أن تكون فى مقدمة الرأسمالية الوطنية المصرية، بل سبقت الرأسمالية المصرية الوطنية في كثير من المشروعات الصناعية والزراعية, ثم شاركت الرأسمالية المصرية فى مشروعات كثيرة بعد ذلك, وكانت هذه العائلات تعد نفسها مصرية وحصلت على الجنسية المصرية مبكراً, ووجدت هويتها المصرية بوضوح, بل كانت قلقة من أى نفوذ صهيونى فى مصر, لأنه قد يضعف موقفها الوطنى، ومن هذه المجموعة عائلات مثل قطاوى وشيكوريل, وهذه الطبقة كانت فاحشة الغناء ومختلطة أيضاً بالأجانب والقوى الغربية، لكن مع الحفاظ على هويتها المصرية إلى حد ما, وكان منها بعض الوزراء, ونجح فى انتخابات البرلمان بعض منها, ولم تكن عند هذه المجموعة مشكلة فى الحصول على الجنسية المصرية, وقد حصلوا عليها مبكراً فى نفس الوقت مع غيرهم من المسلمين.

أما المجموعة الثالثة فهى الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى من اليهود السفارديم وبعض الأشكيناز، الذين استطاعوا أن يتلقوا قدراً من التعليم فى مدارس الإرساليات الإسرائيلية الفرنسية مكنهم من الحصول على وظائف فى الشركات والبنوك و المصانع لمعرفتهم الجيدة باللغة الفرنسية وأصول الإدارة و المحاسبة وما شابه ذلك, وهذه الطبقة لم تكن غنية، وكانت تعيش فى الأحياء التى تقطنها الطبقة المتوسطة من المصريين. وكان لهذه الطبقة تطلعات اقتصادية كبيرة, وكان أفرادها يعلمون جيداً أن هذا الأمر سوف يتحقق بالتصاقهم بالرأسمالية الغربية والقوى الأوروبية والأجنبية والاستعمار البريطانى, لذا لم يحاولوا الالتصاق بالشعب, ولم يعدوا أنفسهم جزءاً منه ولم يحلموا مثله ولا فكروا فى مستقبله، و هم الذى عاشوا معه أجيالاً, وكانت لغتهم العربية فى الأغلب ضعيفة, والكثير منهم كان يتكلمها, لكنه لا يكتبها, لأنها لم تكن لغة العمل فى معظم الشركات. وأعتقد أن هذه الطبقة هى التى استطاع الصهاينة الأوائل فى مصر الوصول إليها، وهى التى تكونت منها خلايا

الصهيونية الناشطة، وهذه الطبقة هى التى تلكأ بعض أفرادها ولم يحاولوا الحصول على الجنسية المصرية لسنوات طوال عندما كان الحصول عليها سهلاً وميسوراً بدون مشاكل, لأنهم لم يرغبوا فى ذلك, وكان حلم الجنسية الأوروبية يداعبهم، وبالتأكيد كان الحلم الصهيونى يلعب دوراً فى صياغة أفكارهم, وهذه الطبقة هى التى اكتشفت فجأة أن هناك قومية مصرية صاعدة, وأن هناك تغييراً فى قوانين العمل يعطى ميزة للمصريين, وهو ما أدى إلى نشاط مفاجئ فى هذه الطبقة لتعلم اللغة العربية ومحاولة الحصول على الجنسية المصرية حتى يحتفظوا بوظائفهم, وكان ذلك فى مرحلة متأخرة فى أواسط الأربعينات, حين أصبح الحصول على الجنسية المصرية أصعب وأكثر تعقيداً ، وكانت مشكلة الاستيطان اليهودى فى فلسطين قد وضحت للمصريين, ومبادئ التوتر بين المصريين والصهاينة فى فلسطين قد ظهرت فى الأفق. ويفسر عدم حصول الأعداد الكبيرة من اليهود على الجنسية المصرية بتقاعسهم ورفضهم الحصول عليها لسنوات طويلة, وحين أرادوا لأسباب نفعية شخصية الحصول عليها الجنسية كان الوقت قد فات, وأصبح الحصول عليها بعيد المنال.

وقد نشرت رئاسة الطائفة اليهودية إعلاناً فى ٩ يناير ١٩٤٨ جاء فيه: نوجه أنظار أبناء الطائفة بصفة خاصة إلى الضرورة القصوى والملحة فى تسوية حالتهم فيما يتعلق بالجنسية، ونرجو من جميع الذين لا يتمتعون بجنسية أجنبية محددة، والذين بسبب ميلادهم وإقامتهم المستمرة فى مصر أو الظروف الأخرى التى يحق لهم بسببها المطالبة بالجنسية المصرية، عليهم التقدم لأن مصلحتهم تقتضى القيام بهذا العمل, وعلى الذين يقتربون من سن الرشد (٢١ عاماً) أن يقوموا فى الحال بعمل الإجراءات اللازمة لاختيار الجنسية المصرية. وأعلنت رئاسة الطائفة أنه على كل فرد توجيه النصح لأقاربه وأصدقائه بالتوجه إلى المكتبة الإسرائيلية بالمعبد اليهودى، لتسهيل إجراءات الحصول على الجنسية المصرية، وتمت الإجراءات نفسها فى الإسكندرية.

وقد أثارت بعض الصحف اليهودية موضوع وجوب تسجيل اليهود للإقامة فى مصر مثل الأجانب، وهذا غير صحيح، حيث إن اليهود الذين لا يحملون الجنسية لم يطلب منهم تصريح إقامة وتسجيل، بل شجعوا على الحصول على الجنسية المصرية بقانون أوائل القرن ثم قانون عام ١٩٢٩. لكنهم لم يتحركوا فى هذا الاتجاه إلا بعد أن شعروا بأنهم ربما يفقدون وظائفهم بسبب عدم حصولهم على الجنسية المصرية. ويبدو أن

اليهود اعتقدوا أن قانون العمل الجديد موجه ضدهم، وليس ذلك صحيحاً, لأنه صدر لحفظ حق المصريين في العمل, ولم يتأثر به اليهود من حاملي الجنسية المصرية. ولم يكن الحجم الضخم الكبير لليهود الذين لا يحملون الجنسية معروفاً للحكومة المصرية, ولا حتى للجالية اليهودية نفسها.

أما الطبقة الأخيرة المنتمية للمصريين قلباً وقالباً فهم سكان حارة اليهود من اليهود القرائين و الربانيين و معظم اليهود الشيوعيين على حد سواء، فكانت هناك نسبة لا بأس بها تحمل الجنسية المصرية أما الباقي فلم يتقدموا عن جهل أو كسل ، بالرغم من أن الحاخام الأكبر وجه نداء لليهود بالتقدم للحصول على الجنسية بعد صدور قانون الجنسية. الغريب أن الطائفة اليهودية الغنية والمنظمة التى أنشأت الصناعات والمستشفيات و المدارس والملاجئ ودور المسنين لأهل الطائفة، لم تشغل بالها بمساعدة سكان الحارة على الحصول على الجنسية، وهو أمر غير مفهوم، إلا إذا كانت القيادات تعلم أن إقامتهم فى مصر مؤقتة، وأن الجنسية ليست لها أهمية كبري, وربما كان، عدم الحصول عليها فائدة للحركة الصهيونية، لأن عدم وجود الجنسية كان يعنى سهولة نقلهم إلى اللوطن القومى فى المستقبل.

اليهود والمشاركة السياسية فى مصر

لعب اليهود أدواراً معلنة وأخرى مستترة فى السياسة المصرية منذ القرن التاسع عشر. يقول الرافعى إن مجلس الحكم أثناء الثورة العرابية أصدر بيانا يرفض فيه عزل عرابى, ورفض قرار الإنجليز ٥٠٠ شخص, منهم شيخ الأزهر وحاخام اليهود. وقد انضم بعض شباب اليهود إلى الثورة العرابية, وكان يعقوب صنوع الذي تحدثنا عنه في فصل سابق، مثالا للوطنية المصرية. وكتب عرابى إلى صنوع من منفاه فى ١٨٨٤/٩/٢٥ قائلاً : أعترف بأنك كنت أول من تعاطف مع الأمة المصرية, لأنك كافحت من أجل قضية الأمة والحرية ثمانى سنوات, وكانت صحيفتا "الحاوى" و"أبونظارة" أهم عون لى فى نداء الأمة ونشر أفكار الحرية بين القاصى والدانى, أكرمك الله باسم الأمة.

ويقول جاك حسون إن يهود الإسكندرية أيدوا ثورة عرابى, ثم أيد أولادهم وأحفادهم سعد زغلول أثناء ثورة ١٩١٩. وانضم البعض مثل فيلكس بنزاقين وموريس

فرجون إلى حزب الوفد, والكثيرون إلى الحركات الماركسية. والغريب أنه حين أيد الشعب المصرى ثورة عرابى، قام حاخام اليهود وأبناء الطائفة بتأييد عرابى من منطق أنهم مصريون وطنيون مؤمنون بقضية مصر واستقلالها, وكان هذا الشعور نابعاً عن شعور وطنى مصرى لم يتأثر بالأفكار الصهيونية التى لم تكن تبلورت بعد, ولم تؤثر فى انتماء اليهود المصريين لوطنهم ، وفى الوقت نفسه تقدم المليونير اليهودى الشهير روتشلد– الذى دعم الحكومة البريطانية لشراء أسهم مصر فى قناة السويس لإنشاء أول مستوطنة يهودية فى فلسطين– ليقنع أحمد عرابى بالسفر إلى أوروبا، و تقاضى ٤ آلاف جنيه سنويا، مقابل التخلى عن القضية الوطنية المصرية والموافقة على المطالب الإنجليزية الفرنسية و إجهاض الثورة. وهذا يظهر أن زعماء الصهيونية العالمية سواء كانوا سياسيين أو رأسماليين كانت أعينهم على مصر, وخطورة حصولها على الحرية والاستقلال منذ القرن التاسع عشر.

و الموقف نفسه حدث مع مصطفى كامل الذى كان زميله فى الدراسة فى فرنسا داود حزان ابن حاخام الإسكندرية الذى حكم عليه الإنجليز بالإعدام ، بسبب نشاطه الوطنى لكن الحكم خفف. ومن المثير أن نعرف أن مصطفى كامل قابل تيودور هرتزل أبا الصهيونية قبل المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧. طالباً منه المساعدة فى القضية الوطنية المصرية، وكتب هرتزل فى مذكراته: قابلت هذا الشاب الشرقى المثقف الذكى الفصيح, وسوف أضعه منذ الآن فى حساباتى, لأنه قد يلعب يوماً دوراً فى سياسة الشرق, حيث يجوز أن نلتقى فيما بعد. ثم يضيف: وهو أيضاً سليل الفراعنة الذين استعبدونا (يقصد اليهود) ، وهو يشكوالآن من عذاب العبودية, ويأتى إلى أنا اليهودى سعياً وراء مساعدتى, ولا أعتقد أننى قادر على أن أفعل له شيئاً, لكنى أكدت له أطيب تمنياتى. ثم عقب هرتزل فى مذكراته على هذه المقابلة قائلاً إنه من الأفضل للقضية الصهيونية أن يخرج الإنجليز من مصر, وأن يصبح عبور قناة السويس خطرا، وعندئذ تكون فلسطين اليهودية الحديثة مفتوحة أمام اليهود, ويتخذ خط سكة حديد يافا إلى الخليج الفارسى طريقاً يهودياً مهما منافساً لقناة السويس.

ومن الواضح أن هرتزل والصهيونية العالمية كانت لديهم خطة واضحة المعالم، لكنها تخضع للتغيير حسب مقتضيات الظروف ، وواضح مدى المرارة عند هرتزل بسبب طرد اليهود من مصر فى العصر الفرعونى منذ آلاف السنين، وكان تقدير هرتزل سليماً عن

مصطفى كامل بأنه شخصية مهمة لها مستقبل فى مصر, ولولا وفاة مصطفى كامل فى ريعان الشباب، فإنه في الأغلب كان سيصبح من أهم الشخصيات المصرية فى نضالها ضد الاستعمار. ومن الناحية الأخرى لم يكن العرب والمصريون عندهم أدنى تفكير أو معلومات عن المشروع الصهيونى العالمى وخطورته على أوطانهم ، وعندما ذهب مصطفى كامل لمقابلة هرتزل لم يكن يدرك أنه يطلب المعونة والمشورة من الرأس المخطط لتحطيم مستقبل العرب وقهرهم. ولم يدرك مصطفى كامل – عندما أراد الاستقلال لمصر وأيضاً لفلسطين– أن هرتزل أيضاً يريد الاستقلال لمصر حتى يبعد الإنجليز القوة العالمية عن فلسطين، ليخطط لمستقبلها ويفعل بها ما يشاء وأنه مثل مصطفى كامل كان يريد الاستقلال لفلسطين، ولكن بوصفها وطنيا قوميا لليهود، وليس كما أرادها مصطفى كامل دولة فلسطينية عربية مستقلة.

منذ بداية حكم محمد على حتى حكم فاروق كان اليهود على علاقة وثيقة بالعائلة المالكة وقد ازدهروا فى عهدي سعيد وإسماعيل, وتمتعوا بحماية الأجانب والقناصل فى تلك الفترة، ففى عهد إسماعيل كان فيكتور هرارى وافرايم عاداه مديري الخزانة ومراقبي المالية في الوزارة. وكانت العائلات الكبيرة – مثل قطاوى ومنشه وهرارى وموصيرى– على علاقة وثيقة بالعائلة المالكة فى العهود المختلفة، وكان محامى القصر هو مراد فرج ليشع اليهودى القرائى. وبعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ زادت فرص اليهود فى التقدم, وتدفقت على مصر أعداد كبيرة منهم للتمتع بفرص الرخاء الاجتماعى. ولم تصدر أى تشريعات ضد اليهود فى مصر, وحتى قانون ١٩٤٧ الذى شكا منه الكثير من المؤرخين اليهود، فإنه صدر لإعطاء الفرصة للمصريين فى الحصول على فرص العمل, وقد أثر هذا القانون على كل الأجانب بصفة عامة, ولم يكن موجهاً ضد اليهود, ولم يؤثر قط على اليهود المصريين الحاملين للجنسية المصرية.

يقول على شلش إن حرية التعبير كانت مكفولة تماماً لليهود, فأصدروا أكثر من ٥٠ صحيفة ومجلة خلال نحو نصف قرن, وكذلك كانت حرية التعبد وممارسة الشعائر متاحة بالكامل, وكانت معابدهم منتشرة فى الأماكن التى يعيشون فيها.

وكانت المدارس والجامعات مفتوحة بالكامل لليهود، وتخرج ٩٢٧ يهودياً في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) الآن عام ١٩٤٧، و تخرج في المدارس الثانوية فى العام

نفسه ٣٠٨٠ يهودياً.

وعند صدور وعد بلفور صرح السلطان فؤاد بأن مصر تنظر بعين العطف إلى قضيتهم وتأمل أن يتحقق أملهم، وكان ابن قطاوى صديقاً للملك فؤاد فى شبابه قبل توليه العرش، واستمرت العلاقة نفسها مع الملك فاروق إلى أن قامت حرب فلسطين، وهذا يعني أن جميع حكام مصر حتى ثورة يوليو كانوا يراعون اليهود ويفضلونهم ويلبون طلباتهم. وكان عدد الباشوات والبكوات منهم كبيراً جداً بالنسبة لتعداد اليهود.

وبالنسبة لرؤساء الوزارات المصرية فقد كانوا كلهم على علاقة جيدة باليهود، وبعضهم كانت له علاقة خاصة جداً باليهود، مثل حسين سرى وإسماعيل صدقى. يقول على شلش إن المحامى زكى شويقة كان صديقاً شخصياً للنحاس باشا، وصحبه فى رحلة مع زوجته إلى فلسطين عام ١٩٤٣ . وكان صدقى باشا بالذات أكثر المدافعين عن اليهود فى مصر، ومعروف أنه اعتقل الفلسطينيين الذين تظاهروا في القاهرة ضد وعد بلفور، وسمح بالمسيرات اليهودية التى تؤيد وعد بلفور، وأغلق صحيفة الشورى الفلسطينية التى تدافع عن القضية الفلسطينية، وترك الصحف الصهيونية، وشارك فى افتتاح الجامعة العبرية، واشترك فى معرض تل أبيب عام ١٩٣٢، ويعنى ذلك أن الحكومات المصرية المتعاقبة لم توجه أى لوم أو مضايقة لليهود المصريين . أما بالنسبة للإنجليز فكانوا يحابون اليهود ويشجعونهم على الهجرة إلى مصر، وكان بين كبار أغنياء اليهود فى مصر بريطانيون مثل سوارس وورلو.

وكان حزب الوفد بزعامة سعد زغلول ومصطفى النحاس يحظى باحترام الشعب كله، وانتمى إليه بعض اليهود ، مثل فيلكس بن زاقين، الذى كان صهيونياً ووفدياً متحمساً فى آن واحد، وألبيرمزراحى صاحب جريدتى الصراحة والتسعيرة.

وكان حزب الوفد حريصاً على ضم جميع عناصر الأمة من مسلمين وأقباط ويهود، وكان داخله أيضاً تيار يسارى قوى متعاطف مع الحركات السياسية كلها، بما فيها الماركسية، وذلك بالإضافة إلى التيار اليمينى الذى يمثله فؤاد سراج الدين وكبار الملاك، وتيار وسطى أيضاً من العمد والمشايخ والموظفين.

ومن المعروف أن كاسترو كان أحد الأعضاء الناشطين فى حزب الوفد أثناء ثورة ١٩١٩، وكان من المقربين إلى سعد زغلول، وهناك خلاف بين المؤرخين على أهمية

الدور الذى لعبه كاسترو، وهل كان فعلاً المتحدث باسم سعد زغلول والوفد فى أوروبا عندما سافر زغلول ليطلب الاستقلال لمصر. ومما لا شك فيه أن كاسترو كان أول من أسس منظمة صهيونية مهمة فى مصر، وفى الوقت نفسه كان يعد بطلاً وطنياً فى الدفاع عن استقلال مصر، وقد هاجم البعض سعد زغلول بسبب علاقته بكاسترو ، ودافع شلش عن سعد زغلول والوفد قائلاً إن صهيونية كاسترو لم تكن تعنى شيئاً بالنسبة للوفد وكبار المثقفين والسياسيين المصريين فى تلك الفترة. ويقول شلش إن علاقة كاسترو لم تكن بهذه القوة بعد زغلول، وأنه لم يكن ناطقاً باسم الوفد المصرى، وإنما مساعداً فى الترجمة وبعض المهام.

وبالرغم من النقد والاتهامات التى وجهت إلى الجريدة التى حررها كاسترو، إلا أنها كانت كما قالت سهام نصار وفدية صريحة ومتحيزة لسعد زغلول، وكانت تدافع عن شخصية سعد زغلول ووطنيته، وتقول إن سعد زغلول ليس محرضاً أو إرهابياً، وإنما رجل دولة معتدل. وأثبتت نصار أن كاسترو انضم إلى الوفد المصرى فى مباحثاته فى لندن عام ١٩٢٤، وهناك إشارات فى مذكرات سعد زغلول إلى زيارات متعددة له من كاسترو، وكان سعد يتباحث معه ويستمع إلى آرائه. وقد هاجمت جريدة "الوطن" سعد زغلول لارتباطه بكاسترو الصهيونى الذى لا يخدم إلا مصالحه، وقالت إنه كان يجب أن يراعى زغلول شعور الفلسطينيين العرب، وهى إشارة واضحة إلى أنه حتى فى تلك الفترة المبكرة كان هناك من يعى حجم المخاطر، ويتفاعل معها، حتى لو استخدمها البعض لأسباب شخصية ومعارك سياسية. وكانت مقالات كاسترو فى الليبرتية مؤثرة، وأقام الدنيا حينما اقترح أن تتفق مصر والإنجليز على حل وسط مؤقت يهدئ الأمور بضع سنوات. ونشر كاسترو الكثير من الأفكار الاشتراكية والماركسية، وسمح بالنشر للآخرين فى التيار الفكرى نفسه. وللحق لم تنشر الليبرتيه الكثير عن المشكلة اليهودية أو عن فلسطين، لأنها ركزت أساساً على المسألة المصرية.

و كانت الأعراق واللغات المختلفة لليهود تفصلهم تماماً عن الشعب، لذا لم يكن من الممكن أن ينصهروا جميعاً داخل الأمة المصرية ويكونوا جزءاً منها، إلا أن بعض اليهود انضموا إلى الفكر الوطنى مثل داود حزان وفيتا سوسينو وفليكس بن زاقين، وكان هناك جزء لا بأس به من اليهود ينتمي إلى التيار الوطني حتى نهاية الثلاثينات، وكان الكثيرون يدافعون عن مصر الوطن الأم، ولم يكن حتى الصهاينة مثل ليون

كاسترو يجدون مشكلة فى الإيمان بالصهيونية والوطنية المصرية فى آن واحد، لكن هؤلاء لم يكن يوحدهم تيار قوى واضح, وفى عام ١٩٣٥ أنشأت مجموعة من شباب اليهود جمعية الشبان اليهود المصريين, وأصدروا جريدة الشمس, وكان شعارهم الوطن والإيمان والثقافة، وكان بينهم إسرائيل ولفنسون المدرس في دار العلوم تلميذ طه حسين, وكان هدف الجمعية توعية الأعضاء بتاريخهم اليهودى مع إعطائهم الشعور بالوطنية المصرية، و كتب أعضاء هذه الجمعية عن الأدب و التاريخ المصرى دراسات كثيرة. ومن الغريب أن هذه المجموعة كان لها أيضا نشاط صهيونى منفصل, ولم تعتقد أن هناك تعارضاً بين هذا وذاك.

قد يبدو للقارئ المعاصر أنه من المذهل وغير المقبول للمنطق أن يكون هناك مصري وطنياً وفى الوقت نفسه يكون صهيونياً يؤمن ويدافع عن إقامة وطن لليهود فى فلسطين, لكن يبدو أن ما نظنه غير معقول كان هو الشئ الطبيعى والمفهوم فى ذلك الوقت المبكر, وبدت ملامح صعوبة الجمع بين هذين النقيضين من الأفكار فى أوائل الثلاثينات, وأصبحت مستحيلة فى الأربعينات, والسؤال الذى تصعب الإجابة عليه من المراجع المتاحة: هل كان هؤلاء اليهود المصريون مؤمنين فعلاً بالقضية الوطنية المصرية وكذلك بالصهيونية؟ أم أن الأمر كان خداعاً وأن الإيمان بالقضية المصرية كان خدعة حتى يتمكن اليهود من نشر دعوتهم الصهيونية بدون مشاكل؟ أعتقد أن بعض اليهود كانوا يؤمنون فعلاً بإمكانية الجمع بين الوطنية المصرية والصهيونية، وربما كان إيمانهم بالصهيونية أقوى وأشد من إيمانهم بالوطنية المصرية التى تخلوا عنها بعد صعود أسهم الصهيونية.

تقول كرامر: كانت هناك مجموعتان ، الأولى تشدد على أهمية تكوين اليهودى المصرى الوطنى, والثانية تريد تدريب اليهود المصريين على الوطنية المصرية و القومية اليهودية.

كان قطاوى باشا والحاخام ناحوم من كبار مؤيدى الالتصاق بالوطنية المصرية, وكانت جريدة "الشمس" قد أيدت الوفد عام ١٩٣٥، وقالت إن اليهود مصريون لا يريدون حماية من بريطانيا , وطالبت بجلاء الإنجليز ووحدة وادى النيل.

وبعد حادثة كوبرى عباس عام ١٩٤٦ صلت جميع المعابد على أرواح الشهداء،

وأعلنت الإضراب العام ضد الإنجليز، وبالنسبة لقضية فلسطين فقد طالبت هذه المجموعة بحل سلمى بين العرب واليهود، حيث إنهم تجمعهم ثقافة واحدة، وإنه مهما حدث فى فلسطين فاليهود المصريون وطنيون مصريون، لكن مطالبة اليهود بالاندماج فى المجتمع المصرى والاشتراك فى الحياة الثقافية والسياسية وتعلم العربية لم تلاق إقبالاً شديداً. وكان تعريب اجتماع الجالية اليهودية فى مصر مشكلة لم تتقدم كثيراً وكان تعليم اللغة العربية قد بدأ فى المدارس اليهودية باعتبارها لغة ثانوية. وعموماً كان التيار الوطنى محدوداً ولم يحقق نجاحاً.

يقول حاييم كوهين إن معظم اليهود المصريين فى أوائل القرن العشرين كانوا يشعرون بالغربة، ولم يشتركوا فى الكفاح المصرى ضد الاستعمار باستثناء القلة التى شاركت فى الوفد، وكذلك مجموعة اليهود التى انضمت بعد ذلك إلى الحركة الشيوعية، ولم يشعر اليهود بأى مضايقة أو تمييز، وذلك حتى بداية الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٣٥- ١٩٣٦. وقد سبق محمد على علوبة جماعتى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة إلى مناهضة اليهود ومقاطعتهم، إلا أنه لم تحدث أى حوادث شغب ضد اليهود حتى ذلك الحين.

وقد حاولت الحكومة المصرية عدة مرات أن تجعل اليهود المصريين يلعبون دوراً فى حل مشكلة فلسطين بالتفاوض مع صهاينة فلسطين، لكن اليهود فى فلسطين رفضوا كل الحلول الممكنة من وجهة نظر الحكومة المصرية. وقد كلف على ماهر، أصلان قطاوى عضو مجلس الشيوخ المصرى عام ١٩٤٣ بالذهاب إلى فلسطين ومقابلة بن جوريون الذى رفض اقتراح دولة للشعبين، وكذلك طلب النقراشى من اليهودى السكندرى فيلكس بن زاقين تكوين لجنة من يهود مصر للذهاب إلى الولايات المتحدة للتباحث مع يهود أمريكا حول إيجاد حل لمشكلة فلسطين. وكان حزب الأحرار الدستوريين يتعاطف مع اليهود ويشجع التفاهم بين العرب والفلسطينيين فى فلسطين ويدعو إلى الوطن مشترك. ولم يكن التيار المهم والقوى والمسيطر على الثقافة المصرية يعادى اليهود، وكان هناك تيار أضعف بكثير - يمثله إسماعيل مظهر وعلوبة ورشيد رضا - بعد تفهمه للموقف الفلسطينى.

تقول كرامر إنه من الصعوبة تحديد دور اليهود المصريين فى السياسة نظراً

لتعارض وجهات النظر المختلفة للباحثين فى هذا الأمر، وأن الحقيقة يمكن أن تتوارى خلف وجهة النظر السياسية للكاتب وموقفه. وتقتبس كرامر فقرة من جريدة "الشمس" اليهودية المصرية عام ١٩٤٤ حين كان الموقف فى فلسطين حرجاً والعواطف العربية متأججة ضد المنظمات و العصابات الصهيونية التى تطرد الفلسطينيين من أرضهم ، تقول الجريدة إن من تقاليد وعادات اليهود الشرقيين ألا يزجوا بأنفسهم فى عالم السياسة، وهم يساعدون بذلك الحكومات الشرقية على اتخاذ أى قرار تراه فى مصلحة البلاد بدون ضغط من العناصر اليهودية المحلية. وتقول كرامر أيضاً كانت هذه رسالة إلى الحكومة المصرية بأن اليهود المصريين لن يزجوا بأنفسهم فى مشكلة فيها تعارض بين موقفهم بوصفهم مصريين وبين ما تقوم به الصهيونية العالمية فى فلسطين. لكن الحقيقة كما يقول أحد المدرسين الفرنسيين فى المدارس الفرنسية الإسرائيلية أن اليهود رأوا أن اهتمامهم بمصر والشرق عموماً مرجعه الاهتمام بتاريخ وعادات مدهشة تدعو إلى الدراسة والتأمل، لكنهم كانوا يحاولون دائماً أن يتباعدوا بأنفسهم عن المشاركة السياسية، لأن معظمهم لم يعد نفسه جزءاً من الوطن.

وكان هناك نوعان من المشاركة السياسية لليهود المصريين، أولهما الاشتراك فى الأحزاب المصرية والقيام بنشاط سياسى واضح فيها، وهو ماكان يحدث حتى الثلاثينات. ولم يكن الإنجليز سعداء بتحسين العلاقات بين اليهود والجنسيات الأخرى من جانب، وبين أهل مصر من جانب آخر، وكتب السير نيفل هندرسن المندوب السامى البريطانى خطاباً للخارجية يؤيد فيه وضع إسفين لتشجيع الخلافات بين المصريين وغيرهم حتى يلجأ الجميع إلى الإنجليز لحمايتهم.

وفى الفترة التالية لثورة ١٩١٩ انضم بعض الشبان اليهود المثقفين وأصحاب المهن المختلفة بالانضمام إلى سعد زغلول، وأيدوا مطالب مصر فى الاستقلال، ومنهم ليون كاسترو المحامى الشهير، وفيتا سونسينز وداود جزان. وانضم بعض أغنياء اليهود إلى أحزاب الأقلية مثل قطاوى باشا الذى انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين.

ونظم رجل الأعمال السكندرى بتشتو احتفالاً كبيراً لاستقبال سعد زغلول، حين عاد إلى الإسكندرية بعد نفيه إلى جزيرة سيشل. وكان المحامون ديتشى وإيزادور فيلدمان وزكى عريبى من نشطاء حزب الوفد، وقامت جمعية الشبان اليهودية المصرية بتأييد

ومساعدة حزب الوفد.

وكما تقول كرامر فإنه حتى منتصف الثلاثينات لم يكن هناك تعارض بين أن تكون صهيونيا ووطنيا مصريا فى آن واحد, وكان الكثير من الصهاينة يشجعون الحركة الوطنية المصرية ويؤيدونها، لكن الأمر لم يصل إلى تكوين حركة وطنية يهودية مصرية حقيقية, لكنه كان دائماً عمل شبه فردى أو حركة من جماعات قليلة العدد. ولكن يبدو أن الفكر السياسى الحقيقى لليهود فى مصر سار أساساً فى اتجاهين:

أولهما الشيوعية والثانى الصهيونية، و كان كلا النشاطين معاديا للحكومات المصرية فى الأربعينات، وهي الحكومات التي كانت تحارب الشيوعية ربما بقدر أكبر بكثير من محاربتها للصهيونية ، وفى تلك الفترة نادت جماعة الإخوان المسلمين بأن اليهود هم المفسدون في الأرض وأنهم يتاجرون فى السلاح والجنس. وقال النقراشى باشا رئيس الوزراء إن إعلان الطوارئ عند بدء حرب ١٩٤٨ مكن الحكومة لأول مرة من أن تقوم باعتقال جميع الشيوعيين المصريين، وكان اليهود هم رواد الحركة الشيوعية المصرية فقبض على زعمائهم, لكنه قال أيضاً إنه على أى الأحوال فإن جميع الصهاينة شيوعيون، وهو قول يبعد تماماً عن الحقيقة والواقع و التاريخ.

وعموماً فإنه خلال الفترة الليبرالية المصرية من ثورة ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٢ لم يهتم اليهود بصفة عامة بالسياسة، لانشغالهم بتحسين موقفهم الاقتصادى وإحساسهم الدائم بالحرية والأمان, لكن بعد صعود التيار الوطنى القومى المصرى وتنامى القوى المضادة للاحتلال و النفوذ الأجنبى أصبح الأجانب والأقليات المصرية المسيطرة على الاقتصاد موضوع هجوم ونقد شديدين.

وكان أمام اليهود الذين يريدون المشاركة فى الحياة السياسية ، إما الانضمام إلى الحركة المصرية الإسلامية القبطية الوطنية ضمن تيارها الأساسى الممثل فى حزب الوفد, أو الانضمام إلى التيار اليسارى الذى كان يحارب الوضع السياسى والاجتماعى والاقتصادى الظالم فى مصر. أما الحل الثالث فكان الاستمرار فى الاغتراب عن المجتمع المصرى، إما بالانضمام إلى الحركة الصهيونية أو التخطيط للهجرة.

وكان أول تصرف للجالية اليهودية مع تصاعد التيار الوطنى أن يتصرفوا بهدوء بعيداً عن الأعين, وألا يثيروا أى مشاكل, وكان هذا تصرف جزء من الجالية سوف يتعرض لخسائر فى حالة انهيار العلاقة بين اليهود و الشعب, وهم كل رجال المصارف و الشركات وكبار رجال الأعمال وقادة الجالية اليهودية التى كانت تضغط على الناشطين الصهاينة، حتى لا يزاولوا أى نشاط صهيونى لمنع أى احتكاك مع القوى الوطنية.

و كان زعماء الجالية دائماً يعلنون الولاء لمصر و للملك المفدى الذي أقاموا معه علاقة وثيقة. واعتقد بعض الصهاينة أنه نظراً للوضع المتميز لليهود المصريين فإنه بإمكانهم أن يقوموا بحلقة وصل بين مصر وإسرائيل, وقد نُشر ذلك تعليقاً على محاضرة عن علاقة العرب باليهود ألقاها طه حسين فى الإسكندرية.

وبعد أن فشل مشروع اندماج اليهود فى المجتمع المصرى بدأ النشاط الصهيونى فى الأربعينات يأخذ وضعاً متميزاً, بالرغم من أنه كان قد فشل فى إثارة اهتمام اليهود قبل ذلك, باستثناء بعض اليهود الأشكيناز وقلة من الطبقة الوسطى من اليهود السفارديم.

وقد سبق حدوث نشاط صهيونى لمدة قصيرة أثناء الحرب العالمية الأولى بسبب نشاط بعض البولنديين و الروس من الأشكيناز الذين طردتهم تركيا إلى فلسطين بسبب وعد بلفور، إلا أن الحركة هدأت، وكان أغلب المصريين اليهود رافضين للانضمام إلى الحركة الصهيونية, إلا أنه فى أثناء الحرب العالمية الثانية بعد عام ١٩٤٢ استطاعت الحركة الصهيونية بمساعدة مندوبين من القدس تجنيد نحو ألف مصرى من شباب اليهود للحركة الصهيونية, وبدأ نشاط الهجرة بمساعدة الاتحاد الصهيوني المصرى عام ١٩٤٧ ونجحت في تهجير ٢٠-٢٥٪ من اليهود المصريين بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٢, معظمهم من فقراء اليهود الذين وصلوا إلى إسرائيل عن طريق جنوا ومارسيليا. ولم تمنع الحكومة المصرية النشاط الصهيونى الرسمى إلا عام ١٩٤٧, ليس خوفاً من إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين, وإنما خوفاً من الشيوعية. وكانت الحكومة المصرية فى أواخر الأربعينات سعيدة بهجرة اليهود الاختيارية ولم تحاول منعها، لأنها أرادت أن تتخلص من النشاط اليسارى والشيوعى بأى طريقة،بالرغم من

أن مجموعة الشيوعيين اليهود كانوا أكثر اليهود المصريين دفاعا عن مصر و التصاقا بشعبها.

الصراع الألماني اليهودى فى مصر بعد صعود النازية

فى عام ١٩٣٣ بدأت حركة يهودية لمقاطعة البضائع الألمانية، واستخدام العنف فى إيقاف عرض الأفلام الألمانية، والكتابة ضد هتلر و النازية فى الصحف اليهودية المصرية, ونجحت حركة المقاطعة نسبياً, لكنها لم تؤثر على الصادرات الألمانية إلى مصر, وقد قامت حركة مضادة من الألمان وأعوانهم, وكانت الحكومة المصرية– وكذلك السفارات الغربية– فى موقف شبه محايد، وقد هاجمت بعض الصحف المصرية موقف اليهود المصريين وقالت إن هذه الحركة ضد المصالح المصرية, واستمر الجذب والشد بين الألمان فى مصر و النفوذ الألماني الضعيف فيها من ناحية, وبين اليهود المصريين من ناحية أخرى، حتى قيام الحرب العالمية الثانية، حين وقفت الحكومة بوضوح ضد الألمان تحت ضغط الحكومة البريطانية.

صعود مصر الفتاة والإخوان المسلمين

بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ظهرت حركتان وطنيتان تمثلان أقصى اليمين, الأولى هى الإخوان المسلمون التى أسسها حسن البنا، والثانية حزب مصر الفتاة الذى أسسه أحمد حسين. و كان كلا الحزبين يؤمن بأن هناك تعارضا جذريا بين وجود اليهود المصريين وإنشاء وطن قومى مصرى عده الإخوان وطنا إسلاميا يتوسع ليضم بلاداً إسلامية أخرى، وعده مصر الفتاة وطناً فرعونياً على نهج النظم النازية والفاشية.

فى نهاية العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن العشرين ظهرت على السطح هاتان الجماعتان اللتان كانتا تريدان محاربة الأحزاب التقليدية المصرية, وسرعان ما اهتمتا بالقضية الفلسطينية، وقادتا حملة مقاطعة البضائع البريطانية لحماية الصناعة الوطنية فى أوائل الثلاثينات, وقد أيد هذا النشاط فى البداية حزب الوفد واتحاد الطلبة، وتبرع الجميع لمشروع القرش لبناء مصنع طرابيش والتخلى عن القبعة. وقد حكى لى يوسف حزان اليهودى المصرى والقيادى البارز بين الشيوعيين المصريين, والذى تعدى التسعين من عمره، حين قابلته فى باريس لإجراء حوار حول اليهود المصريين – قال إنه اشترى طربوشاً وزوجين من الجوارب من منتجات مشروع القرش,

وقالت له أمه إن بضاعة شيكوريل سوف تكون أحسن، لكنه رفض، لأن مشروع القرش مشروع وطني مصرى يجب تشجيعه. وقد حول أحمد حسين جمعية مصرالفتاة إلى حزب سياسى تحت شعار (الله – الوطن – الملك). ونادى بوحدة وادى النيل وأنشأ منظمة القمصان الخضراء من الشباب الفاشى, مثل التنظيمات الإيطالية والألمانية, وفى تلك الفترة تحت الضغط أنشأ الوفد القمصان الزرقاء, والإخوان المسلمون الجوالة إلا أن الزوبعة التى أثارتها مصرالفتاة كانت أكبر بكثير من حجمها وحجم أعضائها مقارنة بحزب الوفد.

وقد صعدت جماعة الإخوان المسلمون لتصبح قوة كبيرة فى نهاية الثلاثينات, و صارت لها شبكة من الأعضاء تغطى مصر كلها, وكذلك البلاد العربية بما فيها فلسطين، وتنادى بالرجوع إلى السلف الصالح وتطبيق القواعد والقوانين الإسلامية من القرآن والسنة. ودعت الجماعة إلى تقليص النفوذ الأجنبى فى مصر، وطالبت أيضاً بتغييرات فى الصناعة والزراعة، و قد أسست مراكز اجتماعية وعيادات وبعض المدارس، وكان الإخوان يرون أن الاستقلال هو الخطوة الأولى نحو توحيد الأمة الإسلامية. وقد كان صعود الإخوان المسلمون ومصر الفتاة تعبيراً عن سخط عام على الاحتلال الإنجليزى والسيطرة الأجنبية على المقدرات المصرية، وصاحب ذلك بدء حركة التصنيع وانتشار أفكارالحرية مع الارتفاع الكبير فى عدد السكان. وساهم فى ذلك أيضاً الفقر والظلم، وبدء البحث عن تحقيق الهوية وكانت هناك اتجاهات كثيرة بينها الإسلام ، وقد تقلص النفوذ البريطانى بتوقيع معاهدة ١٩٣٦. والنفوذ الأجنبى بتوقيع اتفاقية مونترو لإلغاء المحاكم المختلطة. وبدأت الحكومة المصرية تلعب دوراً داخلياً وخارجياً لأول مرة بعيداً عن التحكم الكامل للبريطانيين. وكانت الاضطرابات والمظاهرات العربية عام ١٩٣٦ عاملاً مهما فى لفت نظر الشعب المصرى نحو القضية الفلسطينية, ربما للمرة الأولى على نطاق واسع, وساعدت على إحياء فكرة الوحدة العربية والتوجه القومى، ولأول مرة اهتم الناس بالقضية الفلسطينية التى كانت خارج نطاق الاهتمام المصرى قبل ذلك.

وحتي نهاية العشرينات لم يبد أحد فى مصر اهتماماً بالنشاط الاستيطانى اليهودى فى فلسطين, إلى درجة أن الكاتب والمفكر الإسلامى السلفى رشيد رضا كتب فى جريدته (المنار) يبدى احتراما للإنجازات التى قام بها المستوطنون الصهاينة فى

فلسطين، و أن فائدة وجودهم رفع مستوى عرب فلسطين فى المستقبل. وفى الثلاثينات كانت جماعة الإخوان المسلمين وبعض الجماعات القومية لا تضع فارقاً بين الصهيونية واليهودية, إلا أن الوفد والأحزاب الكبرى كان الفارق عندها بين اليهود والصهيونية واضحاً.

وفى عام ١٩٢٩ حين ظهرت حوادث حائط المبكى والتقارير الواردة عن استيلاء اليهود على المقدسات اليهودية فى فلسطين, قامت الجالية اليهودية فى مصر بإسكات الأصوات الصهيونية تماماً, خوفاً من رد فعل مصرى, واتصلت بالسلطات المصرية والبريطانية تطلب حمايتها فى حالة قوع اعتداء عليهم من مناصرى القضية الفلسطينية، إلا أنه لم تحدث اعتداءات.

وفى منتصف الثلاثينات تنبه بعض السياسيين المصريين، مثل علوبة باشا وعلى ماهر ومكرم عبيد وعمر طوسون إلى أهمية المشكلة الفلسطينية وعلاقتها باستقلال مصر، وكذلك رفع بعضهم شعار القومية العربية, وقادت جماعة الإخوان المسلمين تياراً يدعو إلى الأصولية الإسلامية ضد اليهود فى فلسطين.

وفى عام ١٩٣٦ زارت مصر اللجنة العربية العليا، لإقناع الحكومة والشعب بخطورة الموقف فى فلسطين, خاصة المقدسات الدينية, وكان لهذه الزيارة تأثير فى الرأى العام المصرى. ونادى الإخوان المسلمون بالجهاد فى فلسطين, وأصبحت منابر الجوامع المكان التى قُدمت فيه المشكلة الفلسطينية للشعب المصرى, لكن على أنها مشكلة بين المسلمين واليهود, وليست مشكلة شعب وأرض ووطن. وانتقل الشعور العام بالتضامن مع الفلسطينيين خارج النطاق الإسلامى, ليشمل الشعب كله الذى تكونت فيه لجان للتضامن مع فلسطين.

وفى عام ١٩٣٨ عقدت مصر مؤتمر البرلمان العالمى لمناصرة الفلسطينيين, وقامت مظاهرات ضد اليهود و الصهيونية، لكن البوليس منعها، ونادت المظاهرات بمقاطعة البضائع اليهودية. وفى عام ١٩٣٩ قرر حزب مصرالفتاة إنشاء لجنة لمقاطعة البضائع اليهودية ونشر قائمة سوداء بأسماء التجار المطلوب مقاطعتهم، وحدثت حوادث بسيطة لبعض اليهود بدون إصابات حقيقية، واتهم اليهود المصريون بالاتفاق مع الصهيونية، مما يعرض المصريين لخطر كبير, ووزعت المنشورات التى تقول للشباب المسلم إن

فلسطين تذبح بواسطة اليهود, وعلينا أن نقوم بثورة للدفاع عنها, وانتقلت بعد ذلك المظاهرات إلى الجامعة. وعلى الصعيد الآخر كان حزب الوفد الليبرالي الكبير الذى تمتع بالشعبية الكبرى يحاول أن يستمر فى اجتذاب جميع الأفكار, وكان اليهود وكل الأقليات يجدون فيه ملاذاً يؤكدون فيه وطنيتهم. أما الجناح الماركسي فكان من أكثر الأجنحة عقلانية وتفهماً لهذا الأمر, وانضمت إليه أعداد كبيرة من اليهود الذين كانوا فى معظمهم من الأجانب أو المتمصرين.

فيما بين الحربين العالميتين نشر ألبير موصيرى الصحفى المصرى رئيس تحرير جريدة "إسرائيل" الصادرة فى القاهرة, خطاباً مفتوحاً على صفحات جريدته، يطلب فيه من الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندى أن يشرح لليهود أنه من الممكن أن يكونوا مصريين وطنيين مخلصين لمصر التى ولدوا وعاشوا فيها, وفى الوقت نفسه يتمسكون بالقومية اليهودية والأفكار الصهيونية, وهو الأمر الذى رفضه الحاخام وظل على عدائه للصهيونية حتى مات عام ,١٩٦٠

وقد حذر النحاس باشا مما يحدث فى فلسطين, وقال إن ذلك سوف يؤثر على الشعور المصرى نحو اليهود، وسوف يشجع على كراهيتهم. وسارع اليهود- كما حدث منذ عقد سابق – إلى استخدام شبكة اتصالاتهم الواسعة, النطاق بين أوساط كبار السياسيين والاقتصاديين المصريين للضغط على الحكومة, لإيقاف نغمة العداء للصهيونية التى كانت تنعكس على اليهودية أيضاً، وقاموا أيضاً بالضغط على المنظمات الصهيونية المحلية لتوقف أى نشاط صهيونى، و أن تختفى قدر الامكان.

وكتب قطاوى باشا رئيس الجالية اليهودية المصرية إلى حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية الدولية يطلب منه أن يساعد في حل المشكلة العربية اليهودية فى فلسطين، لمنع القلق فى مصر الذى قد يهدد اليهود المصريين. ونجح اليهود فى تهدئة العواطف فى مصر, ونادت بعض الصحف بطمأنة اليهود، وبالذات الصحف الوفدية، إلا أن الدعاية الإيطالية الفاشية والألمانية النازية فى مصر حاولت إثارة المصريين ضد اليهود، وحثت على عدم تهدئة اليهود و طمأنتهم.

وقد شعر الكثير من المصريين بخطورة الصهيونية وإنشاء دولة إسرائيل التى تساعدها الإمبريالية العالمية، وقد ترددت الحكومة المصرية خلال تلك الفترة فى إقحام

نفسها على القضية الفلسطينية, وحاول محمد محمود رئيس الوزارء المصرى التوسط بين الصهاينة والفلسطينيين. وباءت محاولات عدد من السياسين المصريين بالفشل بسبب تعنت بريطانيا ورفضها أى تدخل مصرى.

وأثناء الحرب العالمية الثانية أعلنت حالة الطوارئ وعندما اقترب هتلر من العلمين فر اليهود السكندريون إلى القاهرة, وقد رحل بعض المعروفين بمعاداتهم للفاشية والنازية بواسطة البريطانيين مؤقتاً إلى فلسطين. وقد طمأن رئيس الوزراء المصرى الحاخام ناحوم بأنه حتى لو اجتاح الألمان مصر, فاليهود فى حماية المصريين. وقد أيد اليهود فى مصر بالأنفس والأموال الحلفاء ضد المحور, وساند نحو ٤٠٠ يهودى مصرى الجنرال ديجول في مقاومته للاحتلال النازى. وخلال الحرب كان التعاون اليهودى مع الماسونية وثيقاً جداً.

وقد كان تأثير الحرب على مصر شديداً, فزادت البطالة بعد الحرب واتسعت الفروق بين الطبقات وارتفعت الأسعار. وفى تلك الفترة تصاعد القلق نحو فلسطين واشتدت العداوة نحو الصهيونية, وقاد الهجوم الإخوان المسلمون وشاركهم مصر الفتاة وحزب مكرم عبيد الصغيرالكتلة الذى استمر يوزع منشورات عنيفة ضد الصهيونية وبالطبع أثار ذلك مخاوف الجالية اليهودية في مصر. وزاد قلق اليهود المصريين حين اغتالت مجموعة من شتيرن جانح الصهيونية لورد موين الوزير البريطانى لشئون الشرق الأوسط. وحاول زعماء اليهود إقناع الجمعيات الصهيونية فى مصر بالهدوء إلا أنهم على عكس ما حدث فى العشرينات والثلاثينات لم ينصتوا لنصائح زعماء الطائفة، وحاول زعماء الطائفة فى مصر التوسط مرة أخرى بين القادة المصريين والصهاينة فى فلسطين, وقابل المسئولون المصريون قادة مثل موسى شرتوك واليهاو ساسون اللذين حضرا إلى القاهرة مراراً للتباحث بدون فائدة. وجاء فى تقرير سرى إنجليزى أن أى تحرك يهودى فى فلسطين سوف يصحبه تحرك مماثل فى مصر نحو اليهود المصريين. وفى ٢ نوفمبر ١٩٤٥ وبالرغم من قرار الداخلية بمنع المظاهرات, إلا أن الآلاف خرجوا من الأزهر فى ذكرى وعد بلفور, والتحموا مع آلاف المصريين فى ميدان عابدين, وهاجموا المحلات والمنشآت فى وسط المدينة وأحرقوا معبد اليهود الأشكيناز. ودخلوا حارة اليهود واعتدوا على المنشآت والأفراد, وكانت الحصيلة أربعين مصاباً، بالإضافة إلى قتيل واحد من جنود البوليس, وخسائر قدرت بمليون جنيه مصرى.

وأحيل ٣٠٠ متظاهر إلى المحاكمة، وحدثت مظاهرات أشد ضراوة فى الإسكندرية وقتل فيها خمسة أفراد. وبعد ذلك بيوم واحد قابل الملك حاخام اليهود وطيب خاطره وأعلن تعويض الخسائر, وبناء المعبد اليهودى مرة أخرى، وبعد يومين طلب شيخ الطرق الصوفية شيخ الأزهر من الحاخام الأكبر إعلان معارضته للصهيونية, إلا أنه رفض. وأعاد الحاخام إرسال الخطاب الذى طالب فيه الصهيونية العالمية بالبحث عن مكان آخر لليهود غير فلسطين، وقال «إن اليهود المصريين جزء من النسيج المصرى». وفى ٩ فبراير ١٩٤٦ قامت مظاهرات ضخمة ضد بريطانيا, وفتح البوليس كوبرى عباس (الجيزة الآن), وقتل عشرون طالباً فى مذبحة كبرى. وقد نظم تلك المظاهرة الطلبة اليساريون والوطنيون مع بعض الإخوان المسلمين، وطالبوا بالجلاء ووحدة وادى النيل، وأعلنت الحكومة المصرية فى ذلك الوقت انضمامها إلى جامعة الدول العربية. وأغتيل المرشد العام للإخوان المسلمين, وكذلك أمين عثمان وزير المالية الموالى للإنجليز, و حكمدار القاهرة سليم زكى, والمستشار الخازندار الذى حاكم قاتل أحمد ماهر، وفى عام ١٩٤٨ تجددت الاعتداءات على المحلات التجارية اليهودية مثل شيكوريل و أوريكو وداود عدس وبنزايون وجاتينيو وشركة المعادى. وحدث إنفجار فى حارة اليهود قتل فيه ٢٠ فرداً، وكذلك فجرت شركة الإعلانات الشرقية.

وواضح أن تلك الحوادث ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بما حدث فى فلسطين فى تلك الفترة، وما جرى من تضخم نشاط المنظمات الصهيونية المصرية المرتبطة بالصهيونية العالمية والمنظمات الموجودة فى فلسطين.

ويعنى ذلك أن الشعب المصرى لم يكن يحمل أى ضغينة ضد اليهود, وكما قال الكثير من المؤرخين فإن اليهود الصهاينة فى مصر خلال الخمسة والثلاثين عاماً الأولى من القرن العشرين كانوا يعيشون حياة رغدة مريحة, وإن كافة المصريين كانوا يتعاملون معهم تجارياً ويذهبون إلى مؤسساتهم وأطبائهم ومحاميهم . يقول شلش إن مزراحى أهدى كتابه (مصر ويهودها) إلى فيلكسن بن زاقين المحامى السكندرى الشهير, وإلى محمد عبدالهادى كبير مفتشي الرسم فى وزارة التعليم, الذى دافع عنه وأسبغ عليه حمايته فى قريته, حين كان رومل على أعتاب الإسكندرية، ويقول مزراحى إن الكثير من اليهود فروا إلى الصعيد وآواهم أهله.

وأنشئت فى تلك الفترة صحف شيوعية كثيرة ناطقة بالفرنسية منها جريدة "لوردر" التى استمرت نحو عشر سنوات فى الصدور. ونشرت الجريدة مقالاً بعنوان (لن يخيفنا) قالت فيه إن إنشاء الوطن القومى للشعب اليهودى تمت الموافقة عليه من قبل ٥٢ دولة، أما عرب البلاد الذين كانوا فى الماضى البعيد بدواً رحلا جاءوا من بلاد بعيدة فعليهم أن يقبلوا ذلك إن شاءوا العيش فى سلام مع أبناء صهيون. إن فلسطين هي وطن اليهود، لذا يجب أن يفهم ذلك ويسلم به جميع سكان البلاد. وقد أنشأ ستراالسكى جريدة (الصوت اليهودى) لتمثل فرع الصهاينة المتطرفين من تلاميذ جابوتسنكى, واستمرت الصحيفة عدة سنوات, وتوقفت عن الصدور فى منتصف الأربعينات, وقد طردت الداخلية المصرية ستراالسكى. وصدرت بعد ذلك مجلة (الكراسات المصرية) وكانت مجلة يهودية ثقافية شهرية متميزة، ولكنها كانت تدعو أيضاً إلى الصهيونية، وصدرت أيضاً مجلة شهرية للشباب سميت "كاديما" استمرت عدة سنوات.

تعامل اليهود مع المتغيرات السياسية

كان واضحاً بعد وقوع أحداث فلسطين والشعور المصرى المتعاظم ضد الصهيونية أن على اليهود أن يعُرِّفُوا أنفسهم بأنهم المصريون اليهود, أو يعدوا أنفسهم يهودا من مصر, وأصبح واضحاً أن على اليهود المصريين الخيار بين المواطنة المصرية والهوية اليهودية التى تؤيد الصهيونية.

وقد كان اليهود دائماً لا يقحمون أنفسهم فى أمور السياسة, وذلك حتى لا يقتربوا أو يجبروا على الإجابة على سؤال عن الهوية، وحيث إن الجالية اليهودية لم تكن جالية من نسيج واحد, بل من عشرات الاتجاهات والأفكار والأوضاع الاجتماعية ونوع الجنسية التى يحملها كل منهم، فإنه لم يكن من الممكن أن تُجمِعَ الجالية على إجابة واحدة تعبر عنها.

وكان أمامه التيارات الأساسية التى حاولت الإجابة على هذا السؤال المهم ثلاثة ، إما الانضمام للتيار الوطنى المصرى أو الأنضمام إلى الحركات الشيوعية واليسارية أوالانضمام إلى الحركة الصهيونية, وهو ما يعنى الذوبان اليهودى فى الوطن, أو الذوبان فى حركة شيوعية عالمية, أو الهجرة إلى الوطن المرتقب. تقول كرامر إنه من

الغريب أن أغلبية اليهود لم يفكروا فى الإجابة على هذا السؤال وفضلوا الحياة فى وضعهم الحالى, ولم يشعروا بخطر حقيقى من أن التطور والتغيير قادم لا محالة.

بداية النهاية

بدأ الشباب اليهودى المصرى فى نهاية الثلاثينات وخلال الأربعينات يهتم بالسياسة تدريجياً وكان الطلبة الذين يتعلمون فى المدارس الفرنسية يتخذون مواقف يسارية, علي حين بدأ أبناء الشريحة السفلى من الطبقتين الوسطى الفقيرة - الذين يتعلمون فى المدارس اليهودية المصرية- يتخذون مواقف تميل إلى الصهيونية، والحقيقة أنه كان بين اليساريين و الصهاينة شباب يهود مصريون يؤمنون بالوطنية المصرية, وكانت هناك مجموعة من الشباب اعتقدت أنه لا يوجد تعارض بين الوطنية المصرية والآمال اليهودية.

وأصبح السؤال: هل هناك أية فرصة توحد بعض المصريين - من الأصول الأجنبية الذين عاشوا أجيالاً فى مصر باستثناء المسلمين والأقباط - فى التيارالوطنى المصرى؟ والسؤال الذى طرحته كرامر: هل لو أصبح كل اليهود مصريي الجنسية، ويتحدثون العربية، وأصبحوا وطنيين من ناحية الميول والأفكار, هل كان ذلك سوف يغير من الأمر شيئاً؟, وتعتقد كرامر أن هذا لم يكن ممكنا حدوثه, لأن معظم اليهود المصريين لم يشعروا بأنهم مصريون، بالرغم من أنهم كانوا يحبون مصر والحياة فيها، لكنهم كانوا يريدون أن يبقوا فيها بوصفهم طائفة مختلفة مثل اليونانيين والإيطاليين والأرمن المصريين.

فى عام ١٩٣٧ وقعت مصر معاهدة مونترو التى ألغت المحاكم المختلطة والميزات الممنوحة للأجانب, والتى لا يتمتع بها المصريون، وألغيت القنصلية البحرية والحجر الصحى الخاص بالأجانب فى الإسكندرية، وتحول البنك المصرى إلى البنك المركزى بإدارة مصرية, وفى عام ١٩٤٢ أصبحت اللغة العربية إجبارية فى المعاملات التجارية والمالية, وفى عام ١٩٤٦ صدر قانون يلزم المحلات التجارية بكتابة لافتتاها بالعربية, وألزمت هذه القوانين أصحاب المحلات والأعمال الذين لا يعرفون العربية بتوظيف مصرى يعرف اللغة. وفى عام ١٩٤٧ صدر القانون رقم ١٣٢ الذي يلزم الشركات المساهمة التى تطرح أسهمها فى البورصة بأن يكون ٧٥٪ من الموظفين فيها مصريين

و ٩٠٪ من العمال مصريين و٥١٪ من رأس المال مصرى، ونتج عن ذلك تسريح نحو ٦٠ ألف موظف من اليونانيين و المالطيين و الشوام و اليهود، ولم يكن القانون موجهاً بأى حال ضد اليهود، ولم يضار اليهود الذين يحملون الجنسية المصرية. قالت جريدة يهودية أن معظم المديرين كانوا من اليهود و استطاعوا أن يتحايلوا على هذا القانون. ولم يكن هناك تجريم أو عقوبة على الذى لا ينفذ القانون. ولم ينطبق القانون على الأعمال الصغيرة والمتوسطة، وإنما على الشركات الكبيرة المساهمة فقط.

والغريب أن هذا القانون الوطنى الثورى أصدرته حكومة النقراشى السعدية التى كان الشعب يري أنها لا تمثله. وفى عام ١٩٤٧ – نتيجة لهذا القانون– تقدم ألف أجنبى مقيم بطلبات للحصول علي الجنسية المصرية، وبدأت فى الوقت نفسه حملات لمقاطعة المحلات الأجنبية، وبدأ يعم شعور بعدم الأمان بين كل الأقليات الأجنبية متضمنة اليهود.

وبالرغم مما حدث فى ذكرى وعد بلفور فى نوفمبر ١٩٤٥ . عندما قام اليهود بمظاهرة كبيرة، فى القاهرة تأييداً لوعد بلفور، إلا أن أغلبية المصريين لم تضمر أو تظهر أى عداء ضد اليهود. ولم تؤثر دعايات الإخوان المسلمين ومصرالفتاة المضادة للصهيونية أساساً، ولليهودية بالتبعية على الرأى العام المصرى، ونفى الحاخام ناحوم فى ١٣ نوفمير ١٩٤٦ أن هناك مصاعب تواجه اليهود المصريين. وكانت هناك صعوبة واحدة قابلت اليهود منذ عام ١٩٤٦ هي الحصول على وثيقة سفر للذهاب إلى فلسطين، ومع ذلك استمر تدفق اليهود من الخارج إلى فلسطين عبر مصر.

وفى عام ١٩٤٧ أثناء مناقشة الأمم المتحدة لمشكلة فلسطين، وافقت المجموعات اليسارية والشيوعين وجريدة الشمس الصهيونية على قرار التقسيم، علي حين رفضه كل العرب. وبدأت الصحف المصرية والعربية فى الهجوم على الصهيونية، ولم تعد هناك تفرقة بين الصهيونية واليهودية عند الكثير منهم، وحدث هجوم على اليهود فى الصحف، واتهموا بأنهم يحطمون الاقتصاد المصرى.

ومنعت الحكومة المصرية جميع المظاهرات ضد الإنجليز واليهود، وأعلنت حالة الطوارئ فى ذكرى إعلان وعد بلفور عامى ١٩٤٦ و ١٩٤٧، وأصدرت الحكومة أمراً بمنع النشاط الدعائى ضد أى من أفراد المجتمع المصرى. وأعلنت الحكومة أن

الشيوعية هى مصدر البلاء، وأن كل الصهاينة شيوعيون.

وقد علم الصهاينة القادمون من فلسطين أن الدولة العربية عازمة على إعلان الحرب، فغادروا مصر على عجل، وفى مايو ١٩٤٨ قبض على الصهاينة المصريين، وكذلك الشيوعيين. وتقول كرامر «إن المعتقلات فى المكس وأبو قير وسجن النساء فى القناطر كانت معقولة، وكان يسمح لهم بالزيارة والأكل من الخارج والاحتفال بالأعياد اليهودية. وعندما احتج الشعب البريطانى لم يبال بذلك النقراشى باشا رئيس الوزراء».

وقد وضعت تحت الإدارة الحكومية بعض الشركات المملوكة لليهود، وبعد أسابيع حدث الشئ نفسه للشركات المملوكة للإخوان المسلمين. وقال محمد حسين هيكل فى الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ عند مناقشة قضية فلسطين «إنه عندما يسيل الدم الفلسطينى فى إسرائيل سوف يؤدى بالضرورة إلى إسالة الدم اليهودى فى البلاد العربية، مهما حاولت الحكومات العربية بإخلاص منع ذلك».

وخلال تلك الفترة– التى اهتز فيها وضع اليهود المصريين وعلاقتهم بالوطن لأول مرة – أعلن الملك فاروق أن اليهود جزء من نسيج مصر، وحاول زعماء اليهود التفاهم مع السلطات المصرية وتأييدها، وطالب زعماء الجالية اليهودية بالتضامن مع الشعب الفلسطيني، وأرسل رينيه وأصلان قطاوى خطاباً إلى "الأهرام" – بعد أن استقالا من هيئة الجالية اليهودية – قالا فيه إنهما يهوديا الديانة ومصر هى وطنهما وجنسيتهما مصرية. وأصدرت الجالية اليهودية فى بورسعيد بياناً تندد فيه بإسرائيل، ونشرت جريدة "الشمس" فى مارس ١٩٤٦ مقالاً عن أهمية إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين، لكن الجريدة لم تعلن خبر إنشاء دولة إسرائيل يوم إعلانها. وقالت (صوت الأمة) الوفدية إنه يجب اتخاذ إجراءات ضد الطابور الخامس من اليهود والصهاينة المصريين، وأثناء حرب فلسطين كان الموقف هادئاً، ولم تحدث أى متاعب لليهود، إلا بعد الغارات الإسرائيلية على القاهرة والإسكندرية فى ٢٠ يونيو ١٩٤٨، وقتل نحو عشرين شخصا فى حارة اليهود القرائين من جراء انفجار قنبلة. وفى سبتمبر انفجرت قنبلة أخرى فى حارة اليهود، ثم نسفت وكالة الأنباء اليهودية، وقد كانت كل هذه الحوادث فردية غير منظمة من الشعب وغير مدعومة من الحكومة. تقول كرامر إن معظم الاعتداءات على اليهود قام بها الإخوان المسلمون الذين اغتالوا – بعد ذلك–

النقراشى رئيس الوزراء, ثم تم اغتيال حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين.

وفى عام ١٩٥٠ أضيفت مادة إلى قانون الجنسية يعطى الحق للحكومة فى سحب الجنسية المصرية ممن يعادى المصالح العليا الوطنية، وحتى عام ١٩٥٦ لم يصدر أى قانون مصرى موجه ضد اليهود بالذات.

وخرجت الجالية اليهودية من حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ بخسائر قليلة جداً فى الأفراد و الممتلكات، لكن بدأ الشعور بعدم الأمان فى المستقبل، لكنه لم يصل إلى الدرجة التى تحفز اليهود على الهجرة إلى خارج مصر. وقدر معظم اليهود أن الحوادث التى حدثت سببها حرب ١٩٤٨، وبانتهاء الحرب سوف تزول الأسباب, لكن الإحساس بعدم الأمان استمر خاصة فى الطبقة المتوسطة وطبقة الأغنياء، و إن لم يكن اليهود يريدون أن يفقدوا مراكزهم الاقتصادية المتميزة فى مصر بالهجرة. لكن الشرائح السفلى من الطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة اهتزت أوضاعها بسبب النزعة إلى تمصير الاقتصاد المصرى، وقد هاجر من مصر خلال المدة من ١٩٤٩ -١٩٥١ أعداد من هاتين الطبقتين، وكان السبب الاقتصادى أحد العوامل، والسبب الآخر هو الخوف من المستقبل, ولم يكن أمام هذه المجموعة من الذين لا يحملون جوازات سفر أوروبية إلا الهجرة إلى إسرائيل, وكان الحل الصهيونى هو الأمثل بالنسبة لهم. وقد تم تمويل هذه الهجرة بواسطة المؤسسات اليهودية الدولية, ولم تعترض الحكومة المصرية على ذلك, ثم فتحت مكاتب للهجرة تابعة للموساد فى القاهرة والإسكندرية لتنظيم الهجرة إلى أوروبا, ومنها إلى إسرائيل, وتعاونت معهم السفارات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية لتسهيل استخراج وثيقة سفر مؤقتة. تقول كرامر «إنه قد دفعت رشاوى لبعض الموظفين المصريين لتسهيل هذه المهمة». وفى الوقت نفسه هاجر بعض الأغنياء وبعض الأفراد من الشريحة العليا للطبقة المتوسطة على نفقتهم الخاصة إلى أوروبا, ولم يذهبوا إلى إسرائيل.

وقدر عدد المهاجرين من ١٩٤٩-١٩٥١ بنحو ١٥-٢٠ ألفا (٢٠٪ من اليهود المصريين). وأفاد الإحصاء الإسرائيلى أنه من عام ١٩٤٩- ١٩٥٤ هاجر ١٥ ألف يهودى مصرى إلى إسرائيل. وكان قرار الحكومة المصرية إغماض العين وترك اليهود يهاجرون.

وتعتقد كرامر أن حريق القاهرة لم يكن موجهاً ضد اليهود أساساً، وإنما إلى القوى الأجنبية المتحكمة فى مصر، خاصة الإنجليز, وكان بعض اليهود متواطئاً مع القوى الأجنبية المسيطرة المتعاونة مع الاستعمار ، كما أن الحرب كانت موجهة أيضاً إلى الملك وقطاع أصحاب الأعمال من اليهود، مثلهم مثل الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين والإنجليز. وبعد الثورة حاول النظام تهدئة وطمأنة الأجانب, وزار محمد نجيب المعبد اليهودى والمدارس اليهودية. وبعد عام ١٩٤٨ توقفت الحركة الصهيونية العلنية فى مصر, وأصبحت سرية بين الشباب فى النوادى, ومن هذه النوادى تم تجنيد الأعضاء الإرهابيين الذين اشتركوا فى عملية سوزانا، التى حطمت العلاقة بين الجالية اليهودية والنظام المصرى, لكن الضربة القاصمة كانت فى أكتوبر ١٩٥٦, حين اشتركت إسرائيل فى العدوان الثلاثى على مصر. وتم القبض على الصهاينة، و طرد الإنجليز والفرنسيين واليهود من الصهاينة، وعدل القانون لتصبح الصهيونية جريمة.

اليهود والحركات الشيوعية في مصر

هاجر اليهودى الروسى جوزيف روزنتال وابنته شارلوت إلى مصر عام ١٨٩٢, قادمين من روسيا, محملين بالأفكار البلشفية اليسارية، وقد استطاع رزونتال تنظيم أول نقابة لعمال السجائر فى مصر, وفى أوائل القرن تمكن روزنتال من تأسيس اتحاد نقابات العمال المصريين, واستطاع فى العام نفسه ضم عدد من المصريين إلى تنظيمه, وقام بالاتصال بزعيم الأمة سعد زغلول الذى صرح له بأنه لا يهتم بالمشاكل الاجتماعة، وأن شاغله الأساسى التحرير الوطنى و السياسى لمصر والمصريين، ولم يكن البعد الأجتماعى للتحرر واضحاً فى ذهن زعيم الثورة, إلا أن سعد زغلول قدره وتفاهم معه. وكان الحزب الشيوعى الوليد يضم مجموعات مختلفة الأفكار والخلفيات، وانشق عن الحزب بعض المثقفين المصريين بعد تأسيسه, مثل سلامة موسى عام ١٩١٢, وكالعادة تحالفت الحكومة المصرية مع الإنجليز لضرب الحزب الشيوعى المصرى الأول، وكل الأحزاب التالية له فى المستقبل.

تكون أول حزب شيوعى مصرى برئاسة روزنتال اليهودى الروسى الأصل, واشترك معه محمود حسنى العرابى ومحمد عبد الله عنان و علي العناني وسلامة موسى، وانضم الحزب إلى الكمنترون الدولى للأحزاب الشيوعية عام ١٩٢٠، وكان الحزب

الشيوعي المصرى خلال العشرينات نشيطاً وسط العمال المصريين, لكن الحكومة والإنجليز مارسا العنف والقبض على أعضائه, حتى توقف عن النشاط فى نهاية العشرينات. وكان حسنى العرابى قد قاد حملة لطرد الأجانب من الحزب الشيوعى المصرى, حتى أنه طرد روزنتال مؤسس الحزب. وفى العشرينات كانت الحركة الشيوعية المصرية حقيقة واقعة، وكان عدد المنتمين إليها من اليهود قليلا جداً, لذا لم يكن لهم تأثير يذكر فيها .

وفى عام ١٩٣٤ أنشأ الصحفى السويسرى اليهودى بول دى كامب تجمعاً سياسياً أغلبه من اليهود, كان من أعضائه راؤول كوربيل, والشاب الصغير هنرى كوربيل، و قد لعب دوراً مهماً ومؤثراً فى الحركة الشيوعية المصرية داخل مصر وخارجها بعد أن طرد منها و كانت هذه بدايات الحركة الشيوعية المصرية الحديثة.

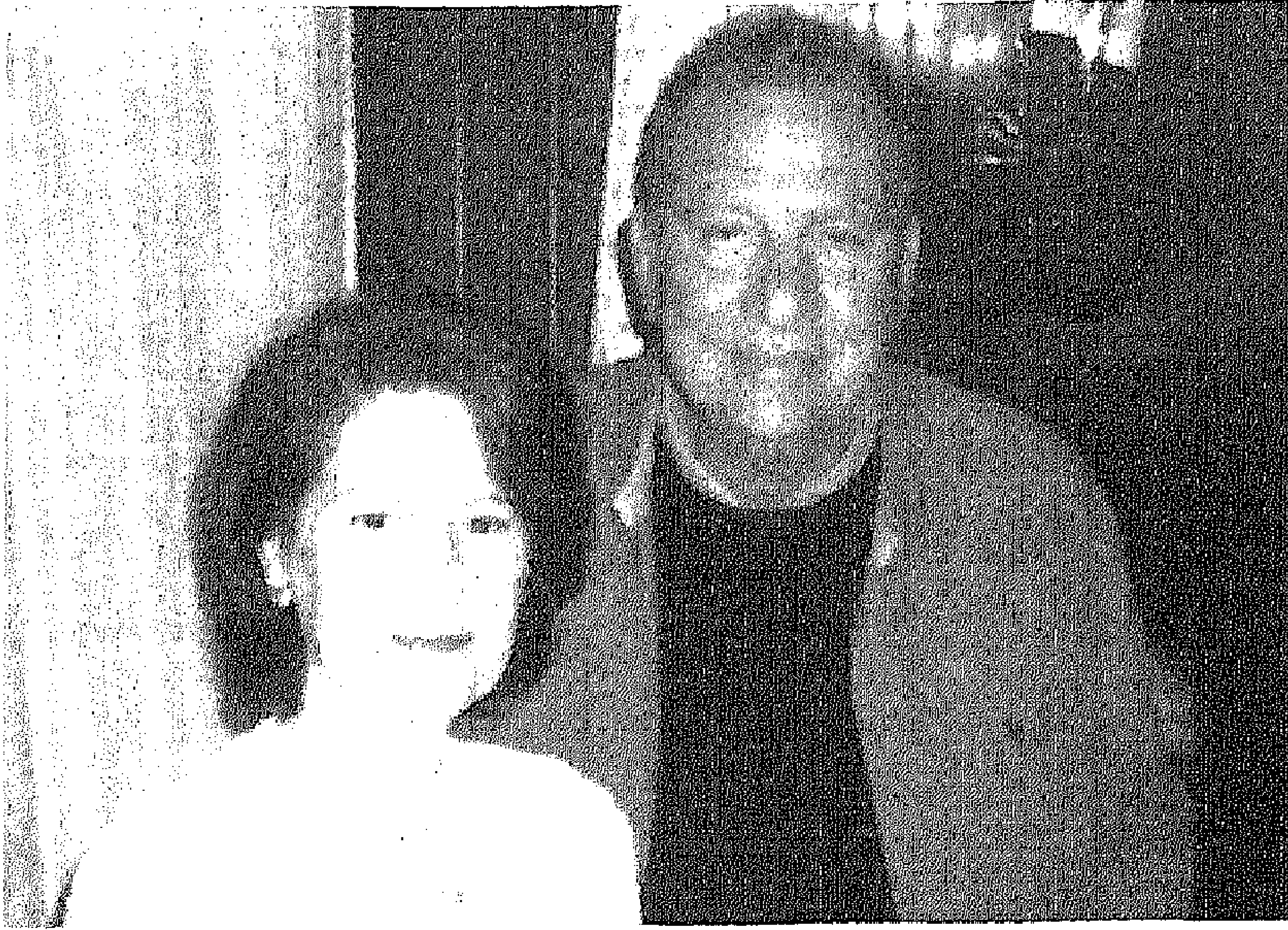
وفى منتصف الثلاثينات نظمت الحركات اليسارية فى مصر– بقيادة اليساريين من كل الجاليات الأجنبية من إيطاليين وفرنسيين وأرمن ويونانيين ويهود مع بعض المثقفين المصريين، نشاطاً كبيراً، وبدأت الصحف اليسارية الناطقة بالفرنسية – برئاسة تحرير ليون كاسترو وإسحاق ليفى من اليهود المصريين, وآخرين من غير اليهود, مثل المصرى جورج حنين – نشاطاً صحفياً يسارياً كبيراً. وحيث إن الكثيرين من هذه الجماعات الماركسية كانوا من المهاجرين الأشكيناز من شرقي أوروبا، فقد حاولت الحكومة المصرية إيقاف هجرة اليهود الأشكيناز فى العشرينات و الثلاثينات, ليس خوفاً من الصهيونية وإنما من الشيوعية.

وأثناء صعود النازية فى ألمانيا, والفاشية فى إيطاليا, نظم اليساريون من اليهود جمعيات لمكافحة الفاشية, خاصة ضد الجناح الفاشى المنحاز إلى موسوليني بين الجالية الإيطالية المصرية. وكانت أكثر الجماعات اليهودية محاربة للنازية جمعية مرتبطة بالماسونية أعضاؤها من اليهود, سميت بناى بريت.

وفى عام ١٩٣٥ أنشأ دى كامب حركة السلام اليسارية. وأنشئت الحركة المعادية للفاشية بواسطة اليهود الصهاينة، أما المصريون مسلمين وأقباطا فبدأت الحركات اليسارية والشيوعية تلعب دوراً مهماً فى اجتذابهم أثناء الحرب العالمية الثانية، بإنشاء الحركة الديمقراطية، ومن هذه الحركة تكونت عدة أحزاب شيوعية مختلفة، وتعتقد

المؤلف مع اليهود

١- مادا ماير مع المؤلف فى جنيف
٢- ديدار فوزي مع المؤلف فى قهوة فى جنيف
٣- السيدة آني كرم وزوجها مع المؤلف فى القاهرة



١



٢



٣

المؤلف مع اليهود

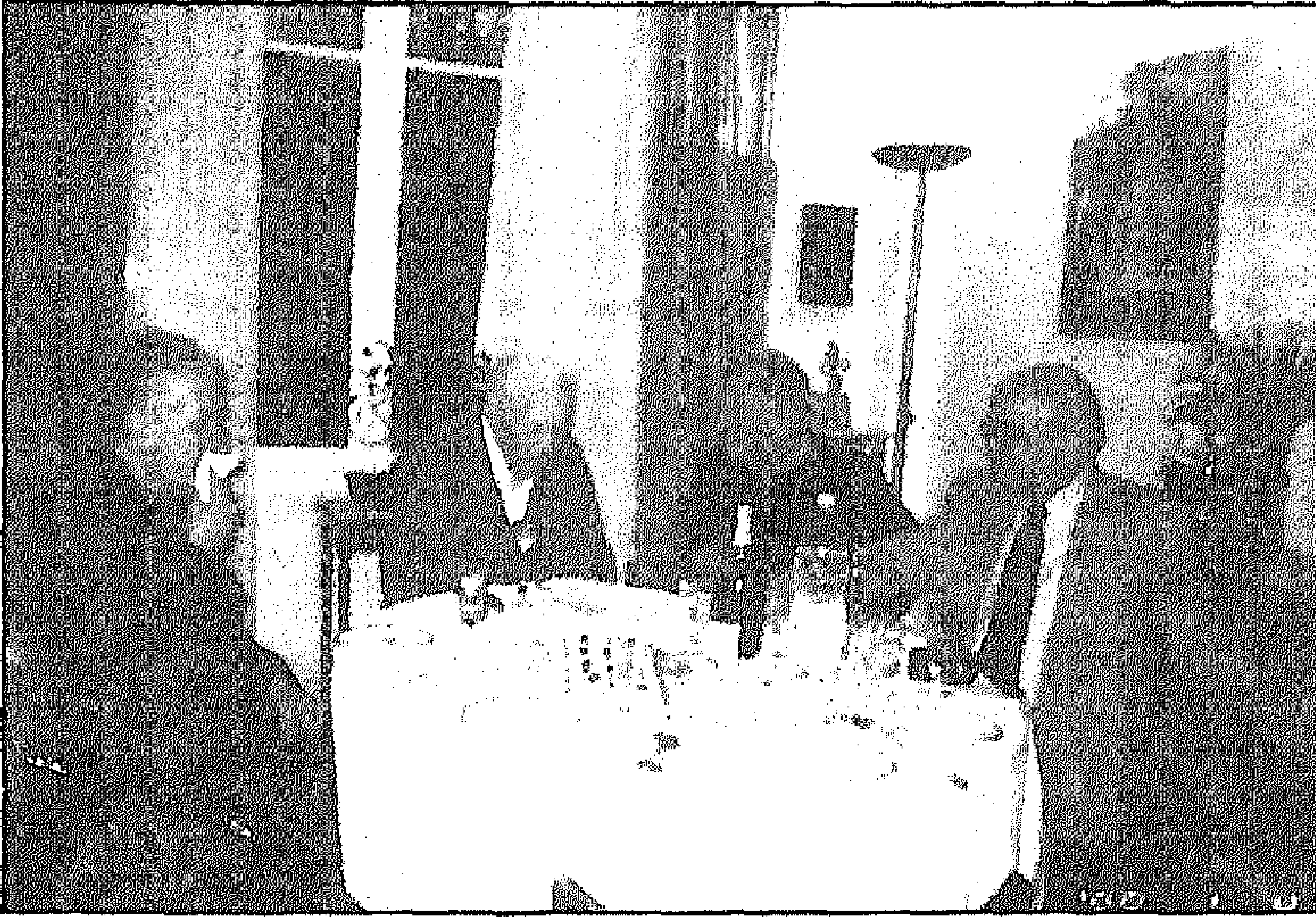
٤- يوسف درويش مع المؤلف في القاهرة
٥- سام حكيم في محطة قطار جنيف مع المؤلف
٦- ألبير أرييه مع المؤلف في جروبي بالقاهرة

٤

٥

٦

المؤلف مع اليهود





٧- المؤلف مع يوسف « سوسو » حزان وريمون استمبولي وسعيد سلامة

٨- المؤلف مع السيده ميشيل فى باريس

أماكن وشخصيات

١ - حفل طهور طفل يهودى بالقاهرة
٢- رحلة شباب يهودى الي أبو قير ١٩٣٠
٣- مدرسة الاليانس الاسرائيلية فى طنطا ١٩٤٢
٤- مدرسة قطاوي باشا اليهودية العربية
٥- شارع سعد زغلول بالأسكندرية وهو موقع معظم المتاجر اليهودية
٦- المهندس رافائيل الادجين مدير مصلحة الكيمياء ١٨٨٠-١٩٥٦
٧-الحاخام الأكبر حاييم ناحوم افندى



١



٢



٣



٤



٥



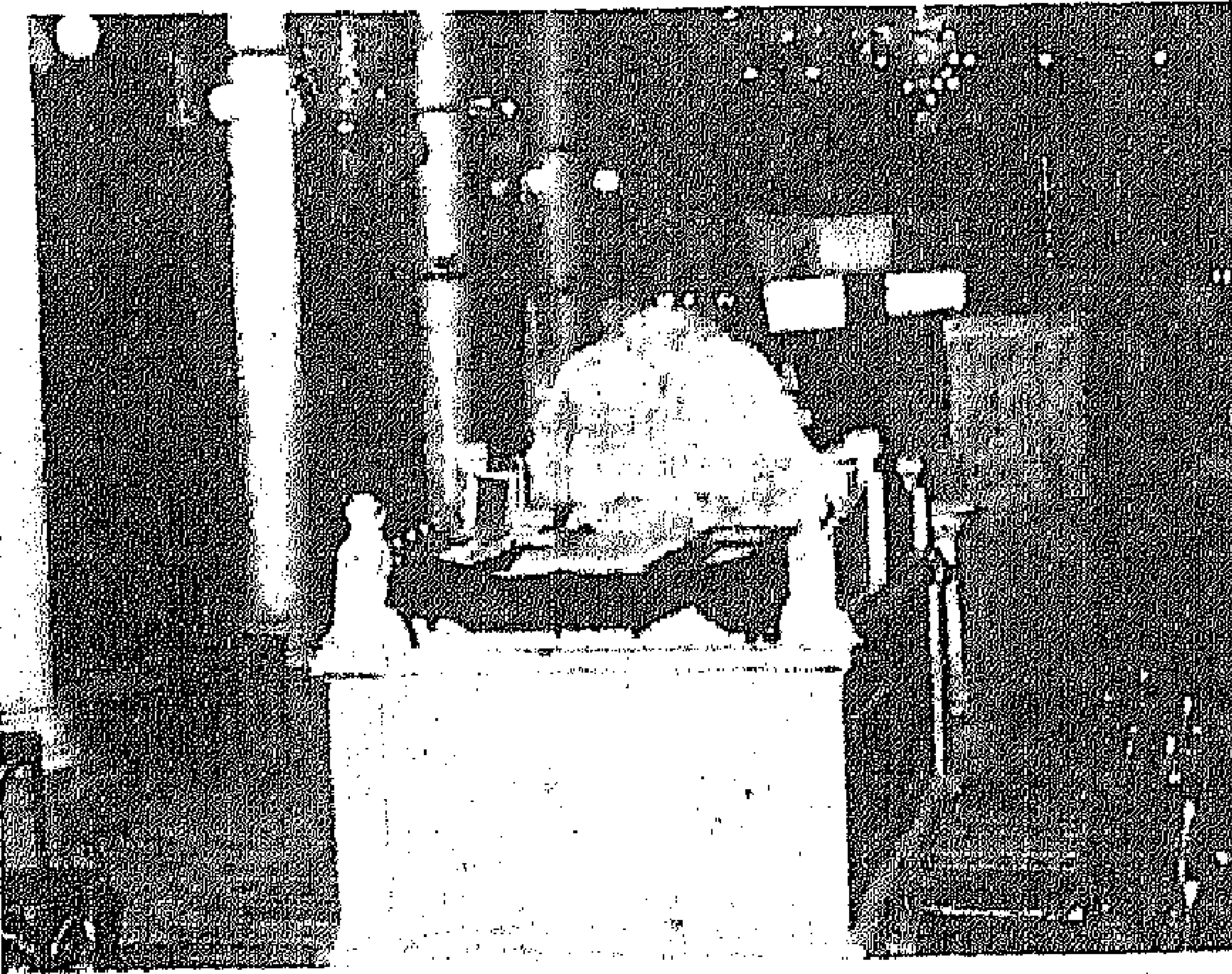
٦



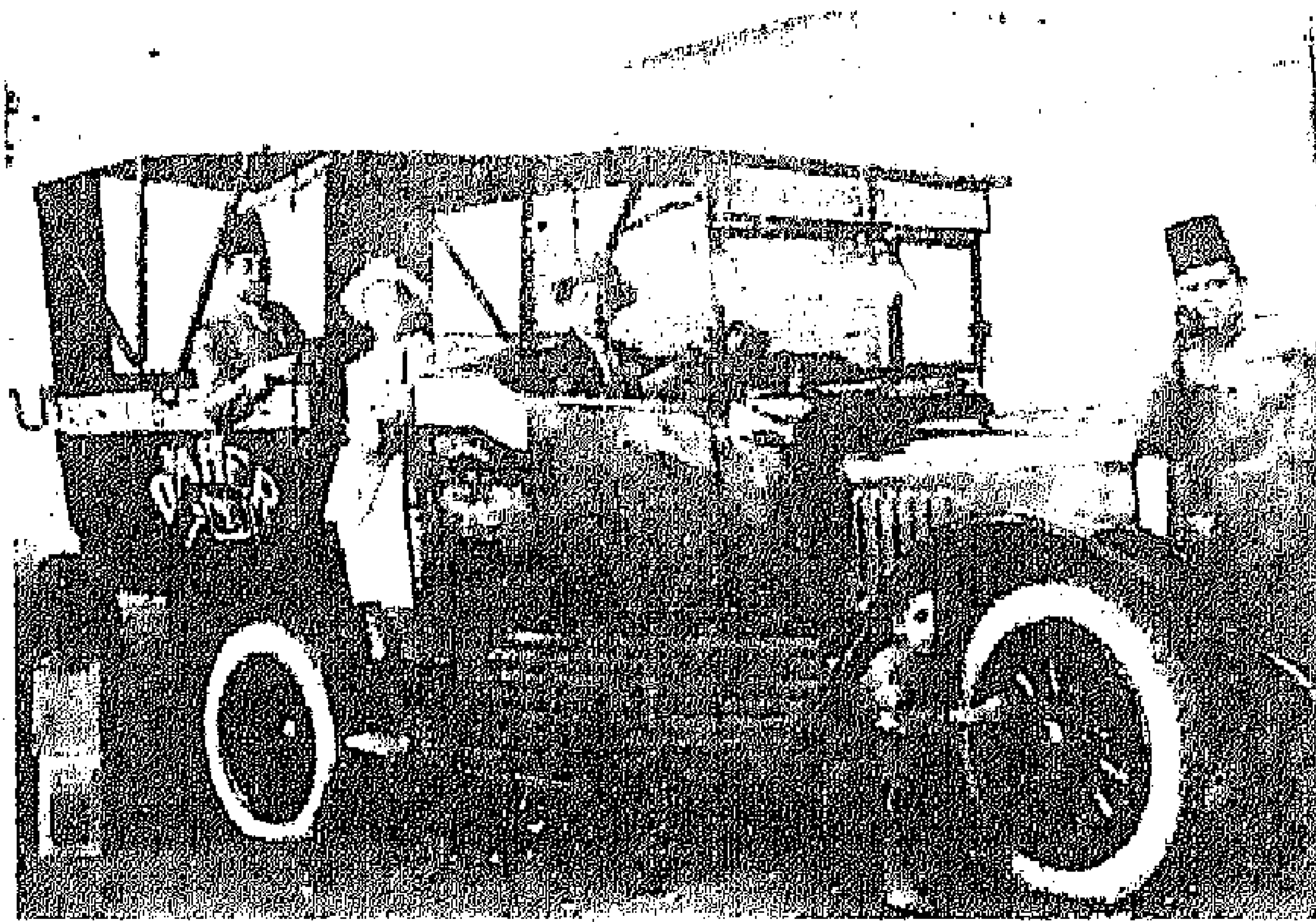
٧

أماكن وشخصيات

٨- معبد بن ميمون بحارة اليهود - القاهرة
٩- أحد أغنياء اليهود في سيارته الفورد ١٩٢٧
١٠- أول اتوبيس عام في مصر أنشاه سوارس مؤسس حي المعادي بالقاهرة
١١- طقم المستشفي الإسرائيلى بالقاهرة ١٩٣٨ يجلس في الصف الثاني على باشا ابراهيم عميد طب القصر العينى
١٢- باروخ مسعوده رئيس طائفة القرائين عام ١٩٣٦
١٣- يعقوب قطاوى بك رئيس الجالية اليهودية فى مصر
١٤- يوسف باشا قطاوى وزير مالية مصر في عهد الملك فؤاد توفى عام ١٩٦٥

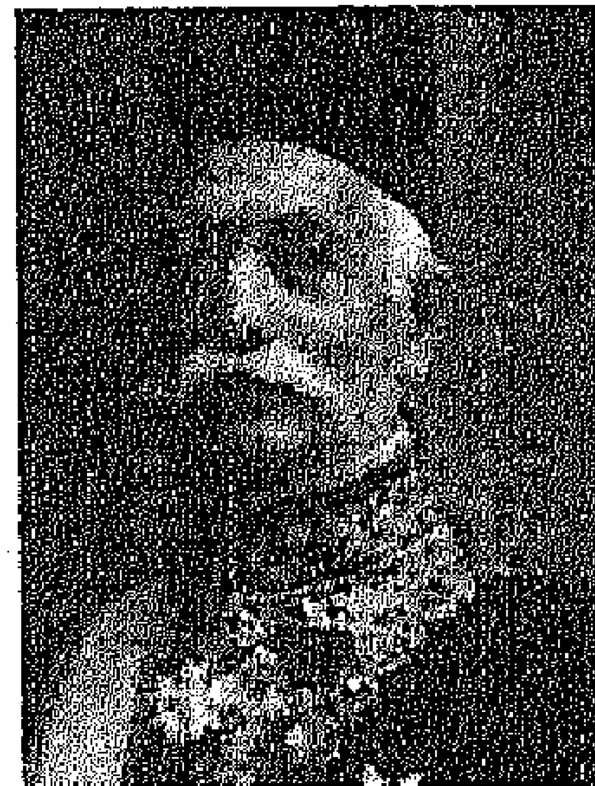

٨


٩


١٠


١١


١٢


١٣


١٤

أماكن وشخصيات

١٥- ابو حصيرة صاحب المولد المشهور في دمنهور
١٦- السيدة ليانادلر بنت المليونير اليهودى السكندري نادلر وجرم بطرس بطرس غالي
١٧- الحاخام الأكبر في إحتفال تيلفين الديني عام ١٩٥٣
١٨- موسى باشا قطاوي مؤسس الامبراطورية الأقتصادية للعائلة ١٨٤٨ - ١٩٢٤
١٩- محامى القصر الملكى الشاعر مراد بك فرج
٢٠- عائلة يهودية القاهرة ١٩١٠
٢١-الحاخام فى افتتاح البرلمان المصرى عام ١٩٣٤
٢٢- زيارة الرئيس محمد نجيب للمعبد اليهودى الكبير بالقاهرة يوم كيبور ١٩٥٢

















أماكن وشخصيات

٢٣- حفل زواج عائلة من الاشكيناز في القاهرة
٢٤- المتاجر اليهودية الكبري - القاهرة ١٩١٠
٢٥- معبد حنان بالعباسية
٢٦- قصر عائله يهودية في طنطا
٢٧-حفل في فيلا باروخ مسعودة من أغنياء اليهود القرائين



٢٣

مجلة
تاريخ الاسرائيليين في مصر
تصدرها

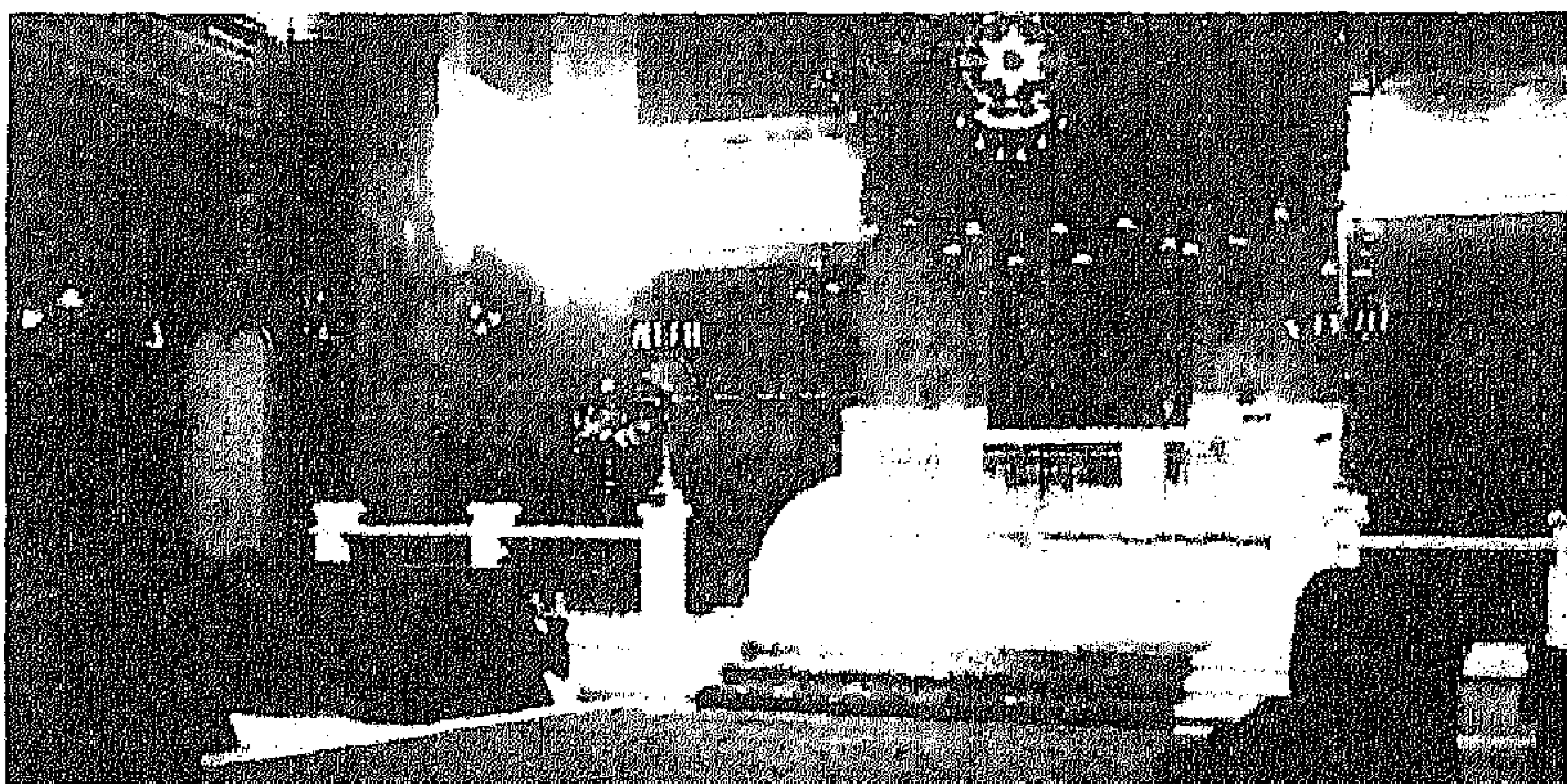


REVUE
DE
L'HISTOIRE JUIVE EN ÉGYPTE

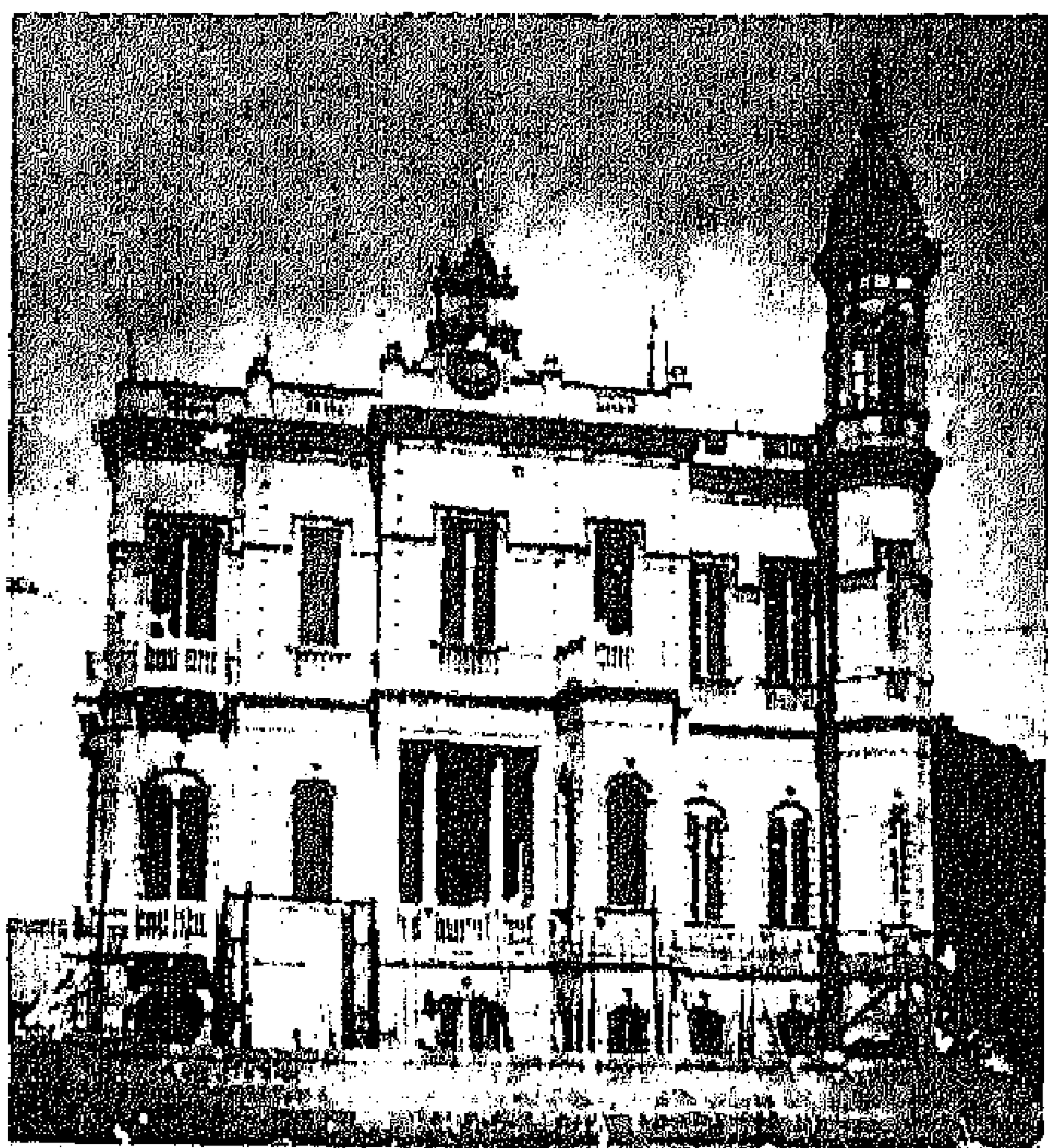




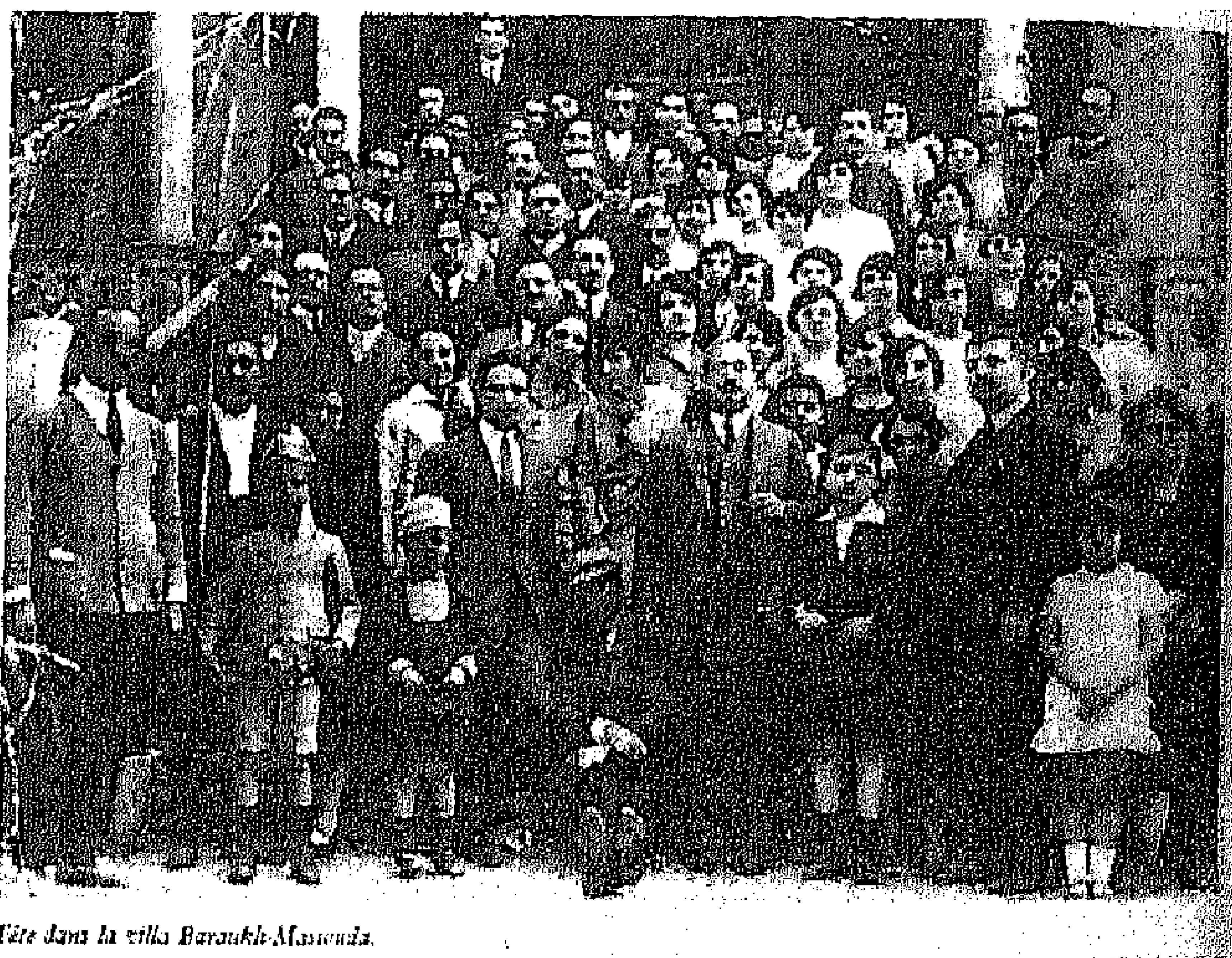
٢٤



٢٥



٢٦



Fête dans la villa Baroukh-Masouda.

٢

الكليم

الاتحاد

الصراحة
EL SARAHA

الأجانب في مصر في أمان تام

مصر والأجانب

نغمة قديمة بالية

كلمة صراحة

ليس بن جوريون مصر

الكليم

الكليم

اسرائيل

عطف الرأى العام على اسرائيل

نحن وجيراننا

الاتحاد

الاتحاد

الشمس
جريدة أسبوعية جامعة

تنافر الدعاية الأجنبية

الأراضي الميعاد

اللورد بلفور صاحب الوعد المشهور المعروف

تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية

EL – SARAHA

ضبط طائرة صهيونية بمصر وعليها ١٢ صهيونيا

اسرائيل

القومية في العلم والعالم

الكليم
AL-KALIM (Revue Israélite Caraïme)

داود حسني

الكليم
AL-KALIM (Revue Israélite Caraïme)

نماذج من الصحف اليهودية

كرامر أن الحركات الشيوعية فى مصر كانت خلافاتها تدور حول رأيهم فى تمصير الحركة واشتراك العمال فى قيادتها، وكذلك أيهما أولاً القضية القومية والاستقلال أم الاشتراكية، وتكونت أحزاب شيوعية مختلفة كلها بقيادة يهود مصريين, هم هنرى كورييل، ومارسيل إسرائيل, وهيليل شوارتز. وكانت كبراها هى الحركة المصرية للتحرير الوطنى بقيادة كورييل واستطاعت الحركة جذب عدد كبير من المصريين، وكذلك حركة تحرير الشعب بقيادة مارسيل إسرائيل. وأصدرت الحركة المجلة الجديدة, والعصبة والتطور وجماعة الفجر الجديد برئاسة أحد صادق سعد ويوسف درويش وريموند دويك وأحمد رشدى صالح, وكانت هذه الحركة هى الأقرب إلى الشعب المصرى, بالإضافة إلى الجناح اليسارى للوفد. أما الشرارة فقد كونها هيليل شوارتز من المثقفين الأجانب والمصريين, وأصدرت صحيفة "الجماهير".

وفى الأربعينات كانت مدرسة الليسيه فرانسيه فى الإسكندرية والقاهرة معقلا للفكر الماركسى, وقد نجحت فى ضم المسلمين والأقباط إلى الماركسية، وكان اليهود فى موقع القيادة حتى تم القبض عليهم عام ١٩٤٨,

وشكل تكوين لجنة العمال والطلبة فى فبراير ١٩٤٦ تطوراً شعبياً هائلاً, مما أدى إلى الهجوم العنيف على الشيوعيين من إسماعيل صدقى رئيس الوزراء, الذى أصدر أمرا بالقبض عليهم وإغلاق صحفهم. وتكونت "حدتو" من وحدة الشرارة مع الحركة الديمقراطية, لتتكون منظمة حدتو التى ازداد أعضاؤها إلي فى سرعة فائقة وانتشرت صحيفتهم "الجماهير".

وفى مايو ١٩٤٨ بعد حرب فلسطين والقبض على الشيوعين, انفكت أواصر حدتو مرة أخرى. وكانت حدتو منقسمة إلى فروع الطلبة والعمال والمثقفين والمرأة والجيش والسودانيين والأجانب, وكان لليهود تمثيل قوى فى الحركة.

وكان على حدتو – الحركة التى أعلنت أنها حركة مصرية للتحرر الوطنى بكافة أنواعه – أن تحدد موقفها من قضية فلسطين, وطبقاً للخط السوفيتى أعلنت أولاً عن موافقتها على إقامة دولة ديمقراطية للعرب واليهود فى إسرائيل, لكنها غيرت موقفها تبعاً لتغير موقف الاتحاد السوفيتى. ووافقت على قرار التقسيم وإقامة دولتين فى فلسطين. وكان رأى حدتو الأول أن الصهيونية حركة بورجوازية موالية للإمبريالية

العالمية، لكن حدوث تغيير فى موقف حدتو بالنسبة من قضية فلسطين أدى إلى عزل حدتو إلى حد ما عن الجماهير المصرية والعربية. ولم يوافق كل أعضاء حدتو على قرارات القيادة بالموافقة على تقسيم فلسطين. وبدأت الجماهير تنظر بقلق إلى دور اليهود البارز فى الحركة الشيوعية، و تري أن دورهم البارز فى القيادة سوف يكون معطلاً لتقدم الحركة بين جماهير الشعب المصرى, واعتقدت بعض القيادات المصرية مثل أحد صادق سعد ويوسف درويش (من اليهود القرائين) وريموند دويك أن الحل فى التحول إلى الإسلام، واعتقد البعض أن الانخراط فى نشاط مضاد للصهيونية فى أوساط اليهود هو الحل.

وينقد توماس ماير كتاب رفعت السعيد (اليسار المصرى و المسألة الفلسطينية), لأن السعيد اتهم الأغنياء والرأسمالية المصرية بتمويل وتشجيع الحركة الصهيونية فى مصر, ويعتقد ماير أنه قد دق إسفيناً بين المصريين واليهود، ويقول إن هذا الكلام مرسل لا إثبات ولادليل عليه, وعكس ما أثبتته الدراسات من جميع الاتجاهات. يقول السعيد فى هذه الدراسة إنه بالاشتراك مع زملائه من الشيوعيين المصريين دافعوا بأنفسهم ضد الاعتداءات التى حدثت في الأربعينات على الممتلكات اليهودية, والتى قامت بها مصر الفتاة والإخوان المسلمون. وأنا أتفق مع ماير في الجزء الأول من تحليله، فلم أجد فى الوثائق والكتب و المجلات التى قـرأتها دليلا على أن أغنياء اليهود السفارديم فى مصر قدموا دعماً ذا أهمية للحركة الصهيونية، فإن الكثير منهم كانوا على وعى وإدراك كامل بأن نجاح الحركة الصهيونية فيه نهاية لأعمالهم الناجحة فى مصر وحياتهم الرغدة فيها, ومعظمهم -إن لم يكن كلهم- لم يهاجروا إلى إسرائيل حين حان وقت الرحيل, وكانت جذور الصهيونية فى اليهود الأشكيناز الذين تم تجنيدهم بواسطة أعوان الصهيونية القادمين من فلسطين لتجنيد اليهود المصريين فى النشاط الصهيونى، ولم يتم تجنيد بعض أغنياء اليهود من الإسكندرية إلا في مرحلة متأخرة جداً، بعد أن أصبح وضع اليهود فى مصر حرجاً بسبب قيام دولة إسرائيل, وبسبب الثورة الشعبية ضد الاعتداءات اليهودية السافرة على الفلسطينيين.

أما بخصوص الجزء الثانى من رأى ماير, فأنا أتفق مع رفعت السعيد في أن مصر الفتاة والإخوان المسلمين كانا الصوت الأعلى والأكثر حماساً فى إثارة الغضب والكراهية تجاه اليهود المصريين بكافة طوائفهم واتجاهاتهم, ورأوا أن كل اليهود

صهاينة، ولم يفرقوا بين يهودى وصهيونى، وهو ما كان مهماً فى ذلك الوقت، لعدم تقوية الصهاينة بالمساعدة على انضمام كل اليهود إليهم.

وقد قال رفعت السعيد «إن اليهود الشيوعيين قاموا بتكوين الجبهة المعارضة للصهيونية، والتى حلتها الحكومة بعد ذلك». ويقول أيضاً إن اليسار المصرى نجح فى منع الكثير من اليهود المصريين من الالتحاق بالصهيونية، وهنا أتفق مع رفعت السعيد جزئياً فقط، لأن الأحزاب الشيوعية المصرية كانت فعلاً مضادة للصهيونية، واستمرت فى معارضتها للصهيونية حتى بعد خروجها من مصر، لكن يجب ألا ننسى خريجى مدارس الأليانس الإسرائيلية الفرنسية، التى كان مدرسوها يمثلون أقصى اليسار من الفرنسيين على مختلف اتجاهاتهم ، والذين أشرفوا على تعليم و تخريج طلاب يؤمنون بأفكار اشتراكية مختلفة، معظمها ماركسية، وهذا فى تقديرى هو السبب فى الإحصائية التى أوردها ماير، بأن أكثر من سبعة آلاف مهاجر مصرى إلى إسرائيل ضمن العشرين ألف مهاجر كانوا ينتمون إلى اليسار. لكن يجب أن أوضح أن هذا اليسار ليس له علاقة بالتنظيمات الشيوعية المصرية الأساسية حدتو واسكارا وأيضاً التنظيمات الشيوعية الصغيرة الأخرى التى كانت كلها تناضل ضد الصهيونية، وكانت هذه المجموعات الماركسية يهودية صرفة، وليست لها علاقة بتاتاً بالحركة الشيوعية المصرية، ويذكر ماير بالتفصيل الشهادات التى أجراها رفعت السعيد مع الشيوعيين المصريين ، مدافعاً عن موقفهم، برغم أن بعضهم كان من أصول غير مصرية.

وبالرغم من أن الشيوعية جذبت الكثير من اليهود، إلا أن المصريين على وجه العموم رأوا أن الصهيونية تسيطر على الحركة الشيوعية فى مصر، وقد رأى الكثير من المصريين من المسلمين والأقباط، أن الشيوعيين اليهود يمثلون خطراً على مجتمعهم، وكذلك رأت الحكومة – ممثلة فى النقراشى رئيس الوزراء– أن الشيوعيين والصهاينة شيء واحد، ولا فارق بينهما، ويمثلان خطراً على المجتمع، ويجب محاربتهم وسجنهم، وبالطبع كان ذلك يمثل قصوراً شديداً فى تفكير الحكومة المصرية.

ويذكر ماير خطبة جمال عبد الناصر فى عيد العمال عام ١٩٥٤ التى اتهم فيها اليهود بأنهم يؤمنون بخليط من الصهيونية والشيوعية اللتين رأى عبد الناصر أنهما متماثلتان وأن الذى يمولهما الصهيونى هنرى كورييل، وهذا غير صحيح تماماً لأن

الثابت في جميع المراجع أن كوربيل كان ضد الصهيونية، وأنه كان شيوعياً أرثوذكسياً, وأنه لم يتعاون مع الصهيونية وإسرائيل, بل ظل موالياً ومخلصاً لمصر حتى بعد طرده منها, وإن كانت له أفكاره التى تبلورت فى مراحل لاحقة، وحاول فيها التعاون مع الحزب الشيوعى الإسرائيلى لحل المشكلة الفلسطينية, وفى تلك الفترة كتبت جريدة "الدعوة" لسان حال الإخوان المسلمين أن الصهيونية والشيوعية وجهان لعملة واحدة, وكلاهما يريد أن يحكم العالم. وفى دراسة لزكريا سليمان بيومى نشرت فى القاهرة عام ١٩٧٨ عن الإخوان المسلمين و اليهود من ١٩٣٧ - ١٩٤٧. نقل منها ماير أن الإخوان اعتقدوا أن اليهود المصريين طابور خامس، وكلهم يدينون بالصهيونية.

اليهود والتنظيمات الشيوعية الرئيسية

يقول بنيين إنه بين الثلاثينات و الخمسينات من القرن العشرين انضم نحو ألف يهودى مصرى إلى الحركة الشيوعية المصرية, وكان هناك نحو ألف آخرين من اليهود المتعاطفين مع الحركات الماركسية، وهناك اعتقاد خاطئ عند كثير من المؤرخين بأن الحركة الشيوعية المصرية فى معظمها كانت يهودية, وهذا غير صحيح, لأن أغلبية الحركة كانت من المصريين المسلمين والأقباط، لكن تمثيل اليهود فيها كان أكبر بكثير من نسبة تمثيلهم فى المجتمع المصرى. وكان الكثير من مواقع القيادة لهم, وهؤلاء اليهود المصريون الذين شاركوا مع المصريين فى إنشاء التجمعات الماركسية لم يكونوا يؤمنون بالصهيونية، وذلك على عكس المجموعة اليسارية التى جمعت بين الماركسية والصهيونية، وكانت تضم اليهود فقط، وهم خريجو مدارس الاليانس اليهودية، وهذه المجموعة اليسارية من اليهود هاجر معظمها إلى إسرائيل بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٥٠. والتحقت بمستعمرة يهودية تحدثت عنها بالتفصيل فى فصل آخر.

وفى الفترة التى بدأ النشاط الشيوعى فى مصر يشتد فيها ، كان الضغط من الحكومة والملك والإنجليز على مصر شديداً، لإحباط النشاط الشيوعى، حيث كانت الشيوعية بمبادئها الجذابة للمساواة تجذب عدداً كبيراً من الشباب المصريين، بمن فيهم اليهود والأجانب من اليونانيين والإيطاليين وغيرهم, حيث كانت الماركسية حلاً مثالياً يضعهم مع الأقباط والمسلمين من المصريين فى قارب واحد.

هنري كورييل

هنرى كورييل ولد فى مصر من أبوين يهوديين يحملان الجنسية الإيطالية، وينحدر من عائلة ثرية، وحصل على الجنسية المصرية عام ١٩٣٥. وتعلم فى مدرسة الجيزويت الكاثوليكية، ولم يكن يجيد العربية بالرغم من انتمائه الشديد إلى مصر, بدأ نشاطه السياسى فى الثلاثينات وأوائل الأربعينات, بتكوين جماعات لمحاربة الأفكار الفاشية معظم أفرادها من الأجانب المتمصرين, إلا أنه فى عام ١٩٤٣ أسس الحركة المصرية للتحرر الوطنى (حمتو) التى أصبحت أهم منظمة شيوعية فى مصر لمدة طويلة، وكانت النواة لوحدة المنظمات الشيوعية المصرية, وبعد ذلك قام بتمصير هذه الحركة والتأكيد على اشتراك المصريين فيها.

يحكى جيل بيرو فى كتابه عن هنرى كورييل تاريخ حياته ونضاله, وقد نشر د. رؤوف عباس دراسة عن أوراق كورييل، وتناولت كتب د. رفعت السعيد المؤرخ الرئيسى لتاريخ الشيوعية والشيوعيين فى مصر معلومات مهمة عن كورييل.

وفى عام ١٩٤٢ أسس هيليل شوارتز- وهو يهودى أيضاً - منظمة اسكارا الشيوعية التى انضم إليها عدد كبير من المثقفين من الطبقتين الوسطى والعليا، وكانت تجمع بين اليهود و المسلمين والأقباط, وكان لها نشاط ثقافى واجتماعى تميز بالاختلاط والحرية التامة بين أفراده من النساء و الرجال, ولم تكن العلاقات بين الرجال والنساء يتحكم فيها الدين, بل كانت مشتركة بين كل الأديان, وحدثت عدة زيجات بين ديانات مختلفة فى تلك الحركة.

وقد انضمت منظمة شيوعية صغيرة بقيادة اليهودى مارسيل إسرائيل- اسمها تحرير الشعب- إلى أسكارا, وبعد ذلك قاد كورييل توحيد المظمات الشيوعية تحت اسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو). وقد كانت اللجنة المركزية للتنظيم مكونة من ١٥ عضواً, منهم ثلاثة هم: كورييل وشوارتز وايميه سيتدن. ولم ينضم مارسيل إسرائيل إلى الحركة, لأنه عد نفسه أجنبياً, بالرغم من أنه الوحيد الذى كان يجيد العربية فى القيادات اليهودية.

وكانت هناك جماعة أخرى ماركسية التفكير التفت حول مجلة (الفجر الجديد) أسسها ثلاثة من اليهود، هم: يوسف درويش وأحمد صادق سعد (بعد أن غير اسمه

وأشهر إسلامه) وريمون دويك، وقد اكتشفت هذه المجموعة أن مشكلة الحركة الشيوعية المصرية أن الذى يقودها هم المتمصرون من اليهود، ولذا قرروا أن من ينضم إلى جماعتهم لابد أن يعبر (المر)، وهو ما يعنى أن المر لا يمر فيه إلا المصرى الذى يجيد العربية ويشعر هو و الآخرون، بأنه مصرى صميم، وفى هذه الحالة يمكن أن ينضم إلى المجموعة، وقد أحس زعماء عمال النسيج فى شبرا الخيمة أن هذا هو الطريق السليم لحركة شيوعية مصرية حقيقية، وانضموا إلى هذه المجموعة، وكان اليهودى المصرى صميم يوسف درويش هو المستشار القانونى لنقابات العمال والتجارة لسنوات طويلة. وكان يوسف درويش شخصية محبوبة وطنية يكن لها جميع العمال الاحترام بدون أى اعتبار أو أهمية لديانته اليهودية، وذلك على عكس بعض المثقفين المصريين الماركسيين الذين كان عندهم قلق من الديانة اليهودية لهذه القيادات الثلاث، حتى بعد أن تحولوا إلى الإسلام. وقد تحدثت مع يوسف درويش ساعتين، وحكى لى بفخر عن نشاطه الوطنى فى خدمة العمال المصريين. والمنظمة الأخيرة التى تكونت فى نهاية الأربعينات هى الحزب الشيوعى المصرى، وأطلق على المجموعة اسم (الراية) نسبة إلى جريدتها السرية، وكان من زعماء هذه الحركة إسماعيل صبرى عبد الله وفؤاد مرسى وسعد زهران، ورفضت دخول اليهود ضمن أفرادها، ورأت أنهم يشجعون الانحلال داخل حزبهم، وقد تميزت هذه المجموعة بدخول نسبة كبيرة من الأقباط المصريين تحت لوائها.

وتغلبت وجهة النظر التى توافق على أحقية اليهود المتمصرين فى الاشتراك فى قيادة المنظمات الشيوعية المصرية، واتفق الجميع على أهمية تمصير (حدتو) باجتذاب أعداد كبيرة من المصريين فى قيادتها.

ونقلاً عن بنيين يقول ريمون استامبولى -الوثيق الصلة بهنرى كورييل الذى تم اغتياله فى السبعينات فى باريس- إن حرب ١٩٤٨ كانت ضربة قاصمة لأحلامنا، وكنا نظن أننا مصريون، بغض النظر عن أن بعض المصريين كانوا ينظرون إلينا على أننا أجانب، والآن لسنا فقط أجانب، وإنما أيضاً أعداء، وربما نكون طابورا خامساً لإسرائيل فى نظر المصريين.

و قد قضت القضية الفلسطينية على وحدة حدتو، وأدى ذلك إلى ظهور القيادات

المصرية الشابة ممثلة فى شهدى عطية الشافعي وأنور عبد الملك وغيرهما ممن أرادوا تمصير المنظمات الشيوعية وتحجيم دور اليهود فيها. يقول بنيين حدتو مثل كل المنظمات الشيوعية العربية وافقت على قرار تقسيم فلسطين, وذلك مسايرة لموقف الاتحاد السوفيتى، بالرغم من اتهام البعض لهم بأن الموافقة كانت بسبب وجود يهود فى قيادات المنظمة، ولا يعتقد كورييل أن انقسام حدتو كان سببه وجود القيادة اليهودية فى ظل النزاع العربى الإسرائيلى.

ولا يعتقد بنيين أن كورييل كانت له أى دوافع أو علاقات صهيونية، بل يعتقد أنه شيوعى أرثوذكسى يؤيد موقف الاتحاد السوفيتى على طول الخط، وأنه كان يريد السلام مع إسرائيل، حتى تتفرغ مصر لحل القضية الاجتماعية عن طريق الحل الاشتراكى, وغداة الحرب العربية الإسرائيلية فى ١٩٤٨ قبض على اليهود من المنظمات الصهيونية وكذلك من معظم المنظمات الشيوعية، وعندما أفرج عنهم بعد ذلك قررت المحكمة عام ١٩٥٠ ترحيل هنرى كورييل –بالرغم من أنه كان مصرى الجنسية– إلى إيطاليا, ومنها استقر فى باريس.

الشيوعيون اليهود المصريون في فرنسا

كونت مجموعة اليهود المصريين فى فرنسا مجموعة أطلق عليها الاسم الحركى (مجموعة روما), وكانت بقيادة كورييل وسكرتارية يوسف حزان الذى أنشأ مطبعة ودار نشر صغيرة فى باريس, وضمن هذه المجموعة كان جاك حسون وريمون استمبوللى وآخرون. واستمر كورييل فى إرسال آرائه بالحبر السرى إلى منظمة حدتو فى مصر. يقول كورييل إنه شعر بمصريته وانتمائه الشديد إلى مصر بعد نفيه الى فرنسا, وكان لديه أمل كبير فى العودة إلى مصر, ويبدو أن هذا الشعور قد لازم الكثيرين من أفراد هذه المجموعة من المتمصرين الذين لا يجيد بعضهم العربية، وكانوا يعدون أجانب فى نظر معظم المصريين، وهاهم يعتقدون أن انتماءهم قد كبر وأصبح أقوى فى المنفى, لأنهم كانوا يعدون أيضاً أجانب فى فرنسا, وبالطبع هناك اختلافات كبيرة بين المؤرخين والمحللين حول موقف هذه المجموعة، التى يبدو أن انتماء أفرادها القوى للأيديولوجية الماركسية كان يغلب عليهم, وبالرغم من ذلك استمروا فى الاحتفاظ بولائهم لمصر التى ولدوا وعاشوا فيها, واعتقدوا أن الماركسية سوف تكون حلاً شاملاً

لمشاكل وطنهم مصر.

وقد قامت مجموعة كوربيل فى فرنسا بنشر مطبوعة غير دورية عن مصر والسودان, وعند قيام ثورة ١٩٥٢ لم تستطع مجموعة كوربيل تقييم الموقف عن بعد, خاصة بعد أن حدث انقسام آخر فى حدتو حول موقف المنظمة من ثورة يوليو, الذى أيده البعض وعارضه البعض الآخر، خاصة بعد إعدام خميس و البقرى إثر مظاهرات العمال فى كفر الدوار بعد محاكمة عسكرية غير عادلة. وترددت أقاويل بأن هناك علاقة خاصة بين النظام الجديد والسفارة الأمريكية والمخابرات المركزية الأمريكية, ورأى البعض أن النظام الجديد نوع من الدكتاتورية العسكرية.

قام نظام عبد الناصر بالقبض على جميع الشيوعيين المصريين، بدون تفرقة بين المجموعة التى كانت تؤيده والمجموعة التى لم تؤيده, واستمرت مجموعة روما برئاسة كوربيل فى حضور الاجتماعات العالمية للشيوعيين من مختلف بلاد العالم ممثلة لمصر, وكذلك فى المنظمة العالمية للشباب الديمقراطى و مجلس السلام العالمى، وعندما هاجمت حدتو نظام عبد الناصر فى نهاية عام ١٩٥٣ انضمت مجموعة إلى روما إلى الخط السياسى نفسه، بالرغم من عدم موافقة كوربيل الشخصية على ذلك.

وقد رفض الشيوعيون المصريون فى الوطن الموافقة على الاجتماعات التي تمت بين مجموعة روما والأحزاب الشيوعية الإسرائيلية عام ١٩٥٤. وأيد الشيوعيون المصريون فى الوطن جمال عبد الناصر فى مواقفه ضد الإمبريالية العالمية، بالرغم من معارضتهم لديكتاتورية النظام الذى فرض قيوداً على الحركات العمالية والنقابات, وألغى حق الإضراب ولم يسمح للأحزاب الشيوعية المصرية بالحركة.

وبالرغم من إشكالية اشتراك اليهود المصريين منذ الأربعينات فى الحركة الشيوعية المصرية، إلا أن الحماس المشترك فى الدفاع عن الوطن ضد الاستعمار أدى إلى التغاضى عن ذلك, وعدم إثارة موضوع اشتراك غير المصريين فى الحركة الوطنية المصرية، لكن بعد أن أطلق عبد الناصر العنان للحركة القومية العربية, أصبح عرب ويهود البلاد العربية فى صراع مع دولة إسرائيل- وهى الدولة اليهودية - مما جعل اليهود المصريين الشيوعيين فى الخارج في موقف شديد التناقض, وبه مصاعب كثيرة.

وقد ساعد التقارب بين الشيوعيين و نظام الحكم فى مصرعلى وحدة الأحزاب

الشيوعية المختلفة وتكوين الحزب الشيوعي الموحد فى فبراير ١٩٥٥. وفي تلك الأثناء علق المصريون عضوية كورييل فى الحزب الشيوعى المصرى, ومع ذلك استمرت مجموعة روما فى النشاط لدعم الحزب الشيوعى المصرى, وقامت بترجمة الجريدة السرية "كفاح الشعب" وجريدة "كفاح شعوب الشرق الأوسط" إلى الفرنسية. وقد قرر مؤتمر باندونج – بموافقة عبدالناصر – قبول حل سلمى بين مصر وإسرائيل يشمل الاعتراف المتبادل وإعادة أراض احتلتها إسرائيل بعد قرار التقسيم, وكان سكرتير المؤتمر يوسف حلمى ناشطاً فى محاولة تحقيق هذا الأمر, وأيدته فى ذلك مجموعة روما بشدة, إلا أن عبدالناصر و إسرائيل كليهما لم يكن مستعداً لاتخاذ خطوات دبلوماسية جادة فى هذا الاتجاه، وكان رأى الكثير من أعضاء حدتو أن تقارب مجموعة روما مع الشيوعيين الإسرائيليين يسبب إشكالية كبيرة لهم.

وقد ذكر ثروت عكاشة فى مذكراته – وأيد نفس المعلومة بنيين– أن هنرى كورييل عام ١٩٥٦ استطاع الحصول على نسخة من وثيقة الخطة الكاملة للهجوم على مصر بعد تأميم قناة السويس, وأنه سلمها إلى عبد الرحمن صادق الملحق الإعلامى المصرى فى السفارة المصرية فى باريس، لكن عبد الناصر اعتقد أن ما ذكر فى الوثيقة يصعب تصديقه, وبعد انتهاء العدوان الثلاثى على مصر عُرف أن ثروت عكاشة الملحق العسكرى المصرى في باريس كان على علم بتحركات كورييل الإيجابية تجاه مصر، وطلب من عبدالناصر إعادة الجنسية المصرية إليه بعد تقديم هذه الوثيقة المهمة إلى مصر, بالرغم من أنها ضد مصالح إسرائيل, وهو يهودى وضد مصالح فرنسا التى هى وطنه الثانى ، بعد طرده من مصر وسحب الجنسية المصرية منه ، لكن عكاشة لم يتلق رداً على طلبه.

وفى عام ١٩٥٧ قرر الحزب الشيوعى المصرى – بناء على طلب مجموعة الراية بقيادة إسماعيل صبرى عبد الله وفؤاد مرسى – حل مجموعة روما و التخلص من أى نفوذ يهودى فى الحركة الشيوعية المصرية. وكما يقول رفعت السعيد المؤرخ الأساسى للحركة الشيوعية المصرية، فإن كثيراً من أعضاء حدتو كانوا سعداء بهذا القرار, بالرغم من علاقتهم الوثيقة وتقديرهم لكورييل.

وفى أول يناير ١٩٥٩ قام عبد الناصر بالقبض على الشيوعيين المصريين, وبالرغم

من أنه سبق طرد مجموعة روما من الحزب, إلا أنها استمرت فى جمع الأموال لمساعدة المسجونين من الحزب, وكذلك بالدعاية لقضيتهم فى أوروبا .

وفى تلك الأثناء شعرت المجموعة اليهودية المصرية فى باريس بأنهم لم يستطيعوا أبداً أن يكونوا مصريين, ولم يستطيعوا أيضاً أن يكونوا فرنسيين فى وطنهم الثانى, فسارعوا إلى الانضمام إلى حركة تحرير الجزائر, وبعد استقلال الجزائر تبرع كوربيل ببيته فى الزمالك للحكومة الجزائرية ليصبح مقر السفارة الجزائرية فى القاهرة، وما زال مقرها حتى الآن, وقد استمر كوربيل ومجموعته فى النشاط السياسى تأييدا للنضال الثورى فى مختلف أنحاء العالم. وقاموا بعدة محاولات لبدء الحوار العربى الإسرائيلى، لكن النجاحات كانت محدودة. و قد أسعدني الحظ بإجراء حوارين من اثنين من أعمدة هذه المجموعة، هما يوسف (سوسو) حزان، و ريمون استمبولي، و الحواران منشوران في هذا الكتاب. كما قابلت مجموعة أخرى من اليهود المصريين الشيوعيين في بايس و جنيف و مصر. و كان انطباعي أن هذه المجموعة مصرية القلب و العاطفة، تحب مصر و تتمنى لها الخير، و لم تؤمن بالصهيونية حلا لمشكلة اليهود. و قد طردت هذه المجموعة من مصر قبل الثورة، بسبب انتمائها إلى الشيوعية، و لم يكن للديانة اليهودية أو الاشتباه في الميول الصهيونية دور في طردهم من مصر. و أحب أن أشير إلى كتاب ألبير أوديز الصادر حديثا في باريس، و الذي يفيض بالحب و العشق لمصر أم الدنيا. و أعتقد أن كل الشيوعيين اليهود الذين قابلتهم في مصر و خارجا مصريون وطنيون يكنون للوطن التقدير كله.

اليهودية المصرية.. لماذا تدهورت؟

وماذا حدث لليهود فى القرن العشرين؟

يقول يعقوب الإسكندرانى إن اليهود المصريين الأصليين عاشوا أكثر من ألفي عام فى مصر, وحصلوا على مناصب مهمة ووضع اقتصادي متميز، ونادرا ما تعرضوا لأى نوع من الاضطهاد، وتكلموا العربية باللهجة المصرية, وبالرغم من إندماجهم الكامل فى الشعب المصرى قرر اليهود المصريون لأسباب كثيرة الهجرة.

ومن المعروف أن اليهود المصريون حتى بداية القرن التاسع عشر كانوا منتشرين فى كل أنحاء مصر, من الفيوم إلى دمياط, وكانوا يسكنون المدن والقرى, وكان

معظمهم يعملون فى الحكومة موظفين أو محصلين للضرائب, بالإضافة إلى المهن المختلفة كالأطباء والمدرسين والمحاسبين, وكثير منهم كانوا من الصناع المهرة.

ومن المعروف أن بعض اليهود السفارديم المهاجرين من أسبانيا فى نهاية القرن الخامس عشر عملوا في الزراعة، واستمروا على ذلك حتى عام ١٩٥٠. مثل عائلة وهبة فى الغربية وماحولها, وكانوا يمارسون الزراعة فى قويسنا وصنبو وخلوة الغلبان، وكان لهم أيضاً تواجد زراعى فى زفتى والمحلة وميت غمر ودمياط.

يرجع تاريخ اليهود فى مصر إلى الزمن القديم, وتوجد بردية – ترجع إلى نحو خمسمائة عام قبل الميلاد– تشير إلى الوجود اليهودى فى جزيرة الفانتين فى أسوان.

وفى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اتجهت أنظار اليهود المصريين إلى أوروبا, ومنذ تلك اللحظة انقسم اليهود المصريون إلى جناحين, الجناح الأول أراد أن يبقى على شعوره بالانتماء إلى مصر, والجناح الآخر خضع للنفوذ المتناهى للغرب, وبهذا مهد الطريق إلى أن يفقد انتماءه إلى الوطن، لكن الكثيرين من أعضاء هذا الفريق استطاعوا الحصول على الحماية الفرنسية، وعبر عدة عقود انبهروا تماماً بالغرب, وأصبحوا يمثلون المصالح الأوروبية التى تعاونوا معها ضد المصالح المصرية الوطنية.

وكانت هذه المجموعة ممثلة بوضوح وبقوة فى مدينة الإسكندرية، والتفت مجموعة كبيرة من اليهود الذين يريدون الانتماء إلى أوروبا حول البارون منشه النمساوى الأصل، وحدث خلاف شديد مع مجموعة اليهود المصريين الذين أرادوا الاحتفاظ بمصريتهم, وتم الاتفاق على قواعد لتنظيم العلاقة بين اليهود المقيمين فى الإسكندرية، وكانت المكاتبات والأوراق الرسمية للجالية تكتب باللغة الإيطالية التى لا يعرفها معظمهم يهود الإسكندرية. وقد ذهب أبناء هذه الطائفة إلى المدارس الإسرائيلية الفرنسية التابعة لباريس, علي حين كانت الطائفة اليهودية المتمسكة بمصريتها ترسل أبناءها إلى المدارس المصرية.

أما فى القاهرة وبور سعيد وطنطا و المنصورة فلم يكن الانقسام واضحاً بهذه الدرجة بين اليهود, إذ لم يكن يمثل اليهود من أصول أجنبية الذين وفدوا حديثاً إلى مصر أكثر من عشرين بالمائة من اليهود, لكن تدريجياً كان تأثير هذه القلة اليهودية

الأوروبية الميل يزداد, حتى أصبح هو التأثير الطاغى قبل الهجرة النهائية لليهود المصريين.

يقول جاك حسون «إن اليهود كانوا مصريين, لكنهم كانوا دائماً يحلمون بأن يصبحوا يهوداً أوروبيين, لأن ذلك فى نظرهم كان هو التحضر, وهكذا بدأ استخدام اللغة العربية يصبح مظهراً من مظاهر التخلف والفقر, وبالرغم من أن هناك نسبة حصلت على البكالوريا المصرية ودخلت الجامعة المصرية، إلا أن حلم الجميع أصبح الهجرة من مصر».

وحدث تحول كبير بعد جيلين فقط, وأصبح معظم اليهود المصريين يجيدون الفرنسية والإيطالية واليونانية واللادينو والإنجليزية، وتركوا العربية، وكذلك دراستهم الدينية التقليدية لفقراء اليهود, وبذا اغتربوا داخل وطنهم, وأصبحوا يمثلون ثقافة مختلفة عن ثقافة معظم المصريين، يركزون على التعاون الوثيق مع القوى الأجنبية الأوروبية. وأصبح الشعار الطاغى (يجب أن نقلد أوروبا ونتعلم منها، ويجب أن تخجل بوصفك يهودى من لغتك العربية)، كان هذا هو الشعار المتداول بين الطبقات العليا، و الطبقات الوسطى اليهودية. لكن كانت هناك مقاومة لهذا التغيير، مركزها المعابد اليهودية التى حارب حاخاماتها أى تغيير من الخارج، ومن المعروف أن التاريخ يشهد بوجود أفراد من المثقفين اليهود الذين دافعوا عن الوطنية المصرية بقلوبهم وجوانحهم, ومن أمثلة هذا الجناح الكاتب الصحفى يعقوب صنوع صاحب الجريدة الشهيرة (أبو نظارة) الذى نفاه الإنجليز إلى فرنسا، فدافع عن حرية مصر من باريس, وكان أول من رفع شعار (مصر للمصريين) فى مظاهرات الجيزة أمام الأهرام, وفى أربعينات القرن العشرين انضم عدد كبير من اليهود المصريين إلى منظمة حدتو الشيوعية, بوصفها خلاصا لهم من هذا المأزق فى الهوية, وفى تلك الآونة لم تكن كلمة الصهيونية واضحة، وكان الكثيرون من اليهود المصريين يمقتون الكلمة.

تقول كرامر فى مقدمة أطروحتها للدكتوراه إنه من مجموع نحو ٧٥ ألف يهودى كانوا يعيشون فى مصر فى الثلاثينات والأربعينات هاجر ٢٠ ألفا بعد عام ١٩٤٨, ثم من ٤٠-٥٠ ألفا بعد حرب السويس فى ١٩٥٦, وكانت قرارات التأميم فى عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢ هى الضربة التى أخرجت عدة آلاف أخرى, وبعد حرب ١٩٦٧ غادر

من تبقى, وفى الثمانينات كان فى مصر أقل من ألف يهودى معظمهم من كبار السن.

ولا يوجد تفسير واضح لماذا خرج اليهود من مصر؟. وهناك وجهات مختلفة فى تفسير هذا الأمر، الأولى تقول إن التاريخ أثبت أن هناك إمكانية للتفاهم والتعايش والحياة المشتركة بين المسلمين والأقباط واليهود، ووجهة النظر الأخرى تقول إن الإسلام كان عنيفاً مع اليهود, ولم يتعايش معهم, وتقول كرامر إن كل وجهة نظر تأخذ فى الاعتبار الفترة التاريخية التى تحكى فيها عن العلاقة بين اليهود و المسلمين, وكذلك موقفهم من الصهيونية.

وتقول وجهة نظر إن اليهود المصريين كانوا تاريخياً يشعرون بأنهم مختلفون عن العرب، وأن الوطنية المصرية كانت كافية وواضحة داخلهم, وحددت علاقاتهم بباقى دول المنطقة وكذلك بالغرب وثقافته, إلا أنه فى الثلاثينات من القرن العشرين حدث تغير فى الفكر المصرى، وبدأ تعاطف المصريين مع وجهة النظر المؤيدة للعروبة خاصة فى أوساط المثقفين فى المدن وبعض الأحزاب السياسية. ومما لاشك فيه أن الشعور الوطنى المصرى المطالب بالاستقلال –الذى بدأت ملامحه تكتمل فى أوائل القرن العشرين ووصل إلى ذروته فى ثورة ١٩١٩– كان شعوراً مصرياً خالصاً, حاول البعض أن يعده صحوة لمصر الفرعونية التى اندثرت, وحاول البعض الآخر عده صحوة للحضارة الإسلامية التى انهارت أركانها وأصبحت تاريخاً, وتعتقد كرامر أن تطور الوطنية المصرية أخذ بعداً جديداً فى منتصف الثلاثينات، هو تحرك الوطنية المصرية فى اتجاه العروبة. فمن المعروف أن سعد زغلول وزعماء الوفد الأوائل لم تشغلهم القضية العربية, بل بالعكس أعلنوا مراراً أن قضيتهم هى مصر واستقلالها. إلا أن مكرم عبيد سكرتير عام حزب الوفد – وهو القبطى المصرى الوطنى– كان أول من عبر عن البعد العربى للتيار الوطنى المصرى, وأقنع مصطفى النحاس رئيس الحزب بأهميته، وتعتقد كرامر أن التغيير فى الاتجاه الوطنى المصرى نحو العروبة, كان سبباً أساسياً فى تحول الرأى العام المصرى, من مجرد مشاهد لما يحدث فى فلسطين من تغيرات بسبب الهجرة اليهودية، إلى متعاطف مع الفلسطينيين, ثم مشارك فعال فى الدفاع عن القضية الفلسطينية. وتعتقد كرامر أن هذا التحول فى الرأى العام المصرى أحدث شقاً بين اليهود المصريين وبين بقية الشعب المصرى، والذين رأوا أن البعد العربى للوطنية المصرية يخرجهم من دائرة المواطنة.

وكذلك لم تكن الجالية اليهودية المصرية مماثلة لبقية الجاليات اليهودية في العالم العربي.

وهناك عوامل أدت إلى اختلاف مصر عن بقية الدول العربية, ذلك أن الاقتصاد ونظام الحكم المصرى أخذا مساراً متقدماً قبل الدول العربية بفترة طويلة, وأن المجتمع المصرى كان فيه عدد كبير من الجاليات الأجنبية المؤثرة، منها اليهود المصريون, وقد ساعدت هذه الجاليات على إدماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد الاوروبى . لكن فى الوقت نفسه كان هناك صعود للوطنية المصرية, وصعود للإخوان المسلمين, ونزعة إلى الاستقلال, وشعور قومى ضد الصهيونية سببه القضية الفلسطينية. وتتساءل كرامر: هل كان موقف اليهود المصريين مختلفاً عن موقف بقية الأقليات الأجنبية فى مصر بين الحرب العالمية الأولى عام و ١٩٥٢؟ ماذا حدث للأرمن و اليونانيين والإيطاليين؟ هل ما حدث لليهود كان خاصاً؟ أم أنه كان عاماً على الأقليات كلها؟ وهل كان هناك عداء مصرى خاص باليهود؟ وما السبب فى هذه الهجرة الجماعية الضخمة؟ تقول كرامر إنه لم يحدث تغيير أساسى فى الجالية اليهودية, وإنما حدث التغيير الأساسي فى المجتمع المصرى ككل, وتساءلت كرامر عن دور الصراع العربى الصهيونى حول فلسطين فى التأثير على العلاقة بين اليهود المصريين وباقى المجتمع, وهل حاول اليهود التأقلم مع الأوضاع الجديدة. وتعتقد كرامر أن العداء لليهودية لم يظهر فى المجتمع المصرى إلا فى الستينات بعد أن غادر اليهود كلهم تقريباً مصر.

كانت مصر مكاناً جاذباً للمهاجرين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين, وقد جذب النظام الحاكم المهاجرين بدعوى حماية الأقليات الأجنبية، وقد أدى ذلك إلى دفع الاقتصاد المصرى وربطه بالاقتصاد الأوروبى. وكان المهاجرون يرون أن مصر بلد خصب، وأهله طيبون، ويعملون بجدية، وكان عدم الاستقرار فى حوض البحر الأبيض المتوسط مع تدهور الإمبراطورية العثمانية عاملاً مهما فى هجرة اليونانيين الإيطاليين و الأرمن واليهود إلى مصر, فارتفع عدد الأجانب فى مصر من ١٥٠ ألفا عام ١٨٥٠ إلى ٢٠٠ ألف بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، وبدأ العدد في التناقص نتيجة الهجرة إلي الخارج مرة أخرى حتى بلغ ١٥٠ ألفا عام ١٩٤٧,

ولابد من ملاحظة أن رعايا الدول الأوروبية المدونين فى التعداد لا يعنى أنهم أصلاً من هذه البلاد التى يحملون جنسياتها، بل كان الكثير منهم رعايا من بلاد تحتلها فرنسا أوإيطاليا مثلاً. فمثلا ضمن ٢٤٢٥٤ بريطانى حسب إحصاء عام ١٩١٧ هناك ٤٥٪ فقط كانوا بريطانيين قادمين من بريطانيا, والباقون حضروا من مالطا واليونان والهند, والأمر مماثل بالنسبة للفرنسيين وغيرهم . وكان ضمن هؤلاء المهاجرين نسبة كبيرة من اليهود, وارتفع عدد اليهود من ٧ آلاف يهودى مصرى عاشوا قروناً طويلة فى مصر إلى ٢٥ ألفا عام ١٨٩٧ و ٦٠ ألفا عام . ١٩٢٠ ثم وصل العدد من ٧٥ ألفا إلي ٨٠ ألفا بعد ذلك. وترجع هذه الهجرة اليهودية إلى عوامل جذب من مصر, وأيضاً عوامل طرد لهم من البلاد التى كانوا يعيشون فيها, وكانت هذه الهجرة أساساً من السفارديم من حوض البحر الأبيض المتوسط وقد استقروا أساساً في القاهرة والإسكندرية والقليلون فى طنطا والمحلة الكبرى. وكان معظم المهاجرين من الشباب و الفقراء, و كان موقف الجالية اليهودية فى مصر تجاه هذه الهجرة يتراوح بين مساعدة المطرودين وعدم الترحيب بهم, لكن الأغلبية من قيادة الجالية لم تكن سعيدة بهجرة أعداد كبيرة من اليهود إلي مصر، وحاولوا توجيه هذه الهجرة إلى خارج مصر، إلى فلسطين مثلاً ، بل وطالبوا بوقف هجرة اليهود إلى مصر - كما يقول دانون- عام ١٩٠٣ لأسباب اقتصادية، وكذلك لعدم رغبتهم فى تغيير التركيبة الإثنية لليهود المصريين, لكنهم فشلوا فى وقف الهجرة, وقد أدت هذه الهجرة بالفعل- التى تواصلت فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين- إلى تغير في نوعية وطبيعة اليهود المصريين, وحدثت لهم تغيرات كبيرة, فبعد أن كان اليهود المصريون وحدة مصرية واحدة أصبحوا جماعات يهودية مختلفة اجتماعياً وإثنياً. وأصبح اليهود المصريون الأصليون فى معظمهم أفقر بكثير من الأقليات الأخرى المهاجرة إلى مصر, لكنهم كانوا أحسن حالاً من معظم الأقباط و المسلمين المصريين. وبدأ اليهود الأصليون عملهم فى الصرافة وتغيير العملة والسلفيات والعمل فى صياغة الذهب والفضة, وكان تعليمهم متواضعاً للغاية, وكانت عاداتهم و تقاليدهم ولغتهم مماثلة للمصريين, وذابوا وسط المصريين, لكن هذا الأمر الذى كان موجوداً فى منتصف القرن التاسع عشر تغير بعد ذلك.

تقول كرامر إن اليهود المصريين كانوا من خلفيات مختلفة, بحيث يصعب الحديث

عنهم باعتبارهم مجموعة واحدة، مقارنة بالجاليات الشامية و الإيطالية و اليونانية, فكانوا يتكلمون لغات مختلفة ولهم طباع وعادات مختلفة حسب أصولهم.

وكان اليهود السفارديم يتحدثون اللادينو والفرنسية والإيطالية والتركية والعربية، أما اليهود اليونانيون فتحدثوا اليونانية والإيطالية، واليهود الإيطاليون تحدثوا الإيطالية والتركية واللادينو, والأشكيناز تحدثوا اليديش والبولندية والروسية. وفي تلك الآونة حيث الهجرة الكبرى لمصر, ظهرت الصحف باللادينو واليديش, لكن بعد نهاية الحرب العالمية الأولى تحولت اللغة الأولى لليهود إلى الفرنسية بالنسبة للأغنياء والطبقة الوسطى, وأصبحت اللغة الثانية هي الإنجليزية، وكانت تستخدم في التعاملات. وفقدت اللغات الأخرى أهميتها, حتى العربية بدأت تفقد أهميتها بين الحربين العالميتين, وأصبحت تعد لغة مهمة، وكانت المجلة الصهيونية (إسرائيل) التى صدرت عام ١٩٢٠ قد اضطرت للتوقف عن الصدور عام ١٩٣٣ بسبب قلة عدد القراء الذين يعرفون العربية، بالرغم من أن عدد المؤمنين بالصهيونية قد زاد خلال تلك الفترة. واستمر اليهود المصريون عموماً يتكلمون العربية، لكن قل التوجه نحو تعلم القراءة والكتابة بها. وكانت العبرية لغة ميتة في مصر, لم يتكلمها إلا قلة قليلة, وفى المدارس اليهودية كانت تدرس بوصفها لغة ثانية فى المحلة الثانوية مثلها مثل اللاتينية واليونانية. وفى الأربعينات كانت هناك مجموعة صغيرة من اليهود الأشكيناز الذين كانوا يستخدمون العبرية فى كلامهم. والحقيقة أن الأغنياء من اليهود المصريين كانوا يجيدون على الأقل الإنجليزية والفرنسية، ويتكلمون بالعربية دون قراءة أو كتابة وبعضهم كان يجيد لغة أو لغتين إضافيتين كالإيطالية أو اليونانية أو اللادينو.

وأعتقد أن عدم استخدام اللغة العربية– لغة الوطن الذى ينتمى إليه اليهود– كان أحد العوامل التى أدت إلى انفصام الكثير من اليهود عن مصر وطنهم. ولو كان اليهود المصريون جميعاً يقرأون العربية، ويكتبون بها لتفهموا وطنهم الذى عاشوا فيه أجيالاً متلاحقة، ولكان إحساسهم وشعورهم نحوه قد أصبح مختلفاً. ومن المثير للانتباه أننى فى مقابلاتى لبعض اليهود المصريين فى أوروبا– ممن تراوحت أعمارهم بين الستين والتسعين عاماً– للتحضير لهذا الكتاب شعرت بأن حبهم لمصر حقيقى ومن القلب, ويذكرون مصر بكل خير. أما بالنسبة للغة فسوف أتحدث عن حالتين، الأولى لسيدة خرجت من مصر وكان عمرها ١٥ عاماً, وهي متزوجة من سويسرى, وتعيش فى

جنيف, وتذكر مصر بكل خير، تعرف بعض العامية، أما اللغة العربية فلم تتعلم حرفاً واحداً منها، حتى خرجت من مصر عام ١٩٥٦. ولم يضطرها أو يضغط عليها أحد للخروج من مصر، وكان والدها رجلا ثريا يسكن فى شارع شجرة الدر فى الزمالك, ومن كبار تجار الخردة، ويجيد العربية قراءة وكتابة، ويستمع إلى أغانى أم كلثوم، وكان مصريا أباً عن جداً, لكن ابنته درست في مدرسة أجنبية, ومعرفتها بالعربية لا تتعدى بعض الجمل من العامية، وهذا مثال واضح للتغريب التام الذى حدث لليهود المصريين, فتركوا مصريتهم ولغتهم وانضموا إلى الغرب بحياته ولغاته.

مثال آخر الأستاذ سامى حكيم الذى يتكلم عن مصر بحب شديد, وتشعر بعينيه تدمعان عند ذكرها, ويعرف كل شىء عن مصر منذ خرج منها عام ١٩٥٧. عندما كان عمره ٢٦ عاماً, وله الكثير جداً من الصداقات المستمرة فى مصر حتى الآن ، هذا الرجل الذى كان سكرتيراً فخرياً لنادى اليخت المصرى، وله نشاط اجتماعي كبير لانتمائه إلى الطبقة المتوسطة، سكن فى باب اللوق, و كان مديراً عاماً لقسم الإحصاء فى بنك التسليف الزراعى التعاونى فى الأربعينات, وهى الفترة التى كان فيها والدى مديراً لقسم التعاون فى نفس البنك. هذا الأب المصري لحماً ودماً خريج المدارس والمعاهد المصرية الذى يعمل ويكتب ويراجع إحصاءاته بالعربية ينتمى لأسرة متوسطة مصرية, وتعلم فى المدارس الحكومية, و تعلم ابنه في مدرسة الليسيه فرانسية التى كانت تدرس بالفرنسية فقط, وبعد الثانوية لم يشأ أن يدخل الجامعة المصرية عام ١٩٤٨. وبدأ يعمل فى توكيل وستنجهاوس فى مصر, وهو بالطبع يتكلم العربية جيداً، لكنه لا يقرأها ولم يتعلمها أبداً.

هأتان الحالتان تعبران عن موقف غير مفهوم لأسرتين، الأب فيهما مصرى أبا عن جد, يتكلم ويكتب ويعمل بالعربية، ويرسل أبناءه إلى مدارس لا تعلم بالعربية. هنا حدث الانفصام الحقيقى، لأن الأبناء بالرغم من حبهم لمصر- الذى لا أشك أنه مازال مستمراً إلى هذه اللحظة- إلا أنه حب غير مكتمل, وأنا هنا ألقى باللوم على الآباء الذين لم يتعلموا العربية, و اللوم أيضا على الحكومة المصرية فى ذلك الوقت التى تركت المدارس تعلم اللغات الأجنبية دون اللغة العربية, وأعتقد أنه لو كان اليهود المصريون يجيدون العربية قراءة وكتابة لكانت اللغة قد وحدت بينهم وجذبتهم إلى الوطن.

يقول نبيل سيد أحمد «إن قيام إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ كان حدثاً أشبه بالزلزال الذى هز حياة يهود مصر واستقرارهم هزاً عنيفاً, فقد كانت حياتهم فى مصر قبل قيام إسرائيل تتسم بالهدوء والاستقرار والازدهار».

وفى أعقاب قيام إسرائيل ظهرت صور من معاداة مصر شعباً وحكومة من كل يهودى تورط فى نشاط صهيونى أو حامت حوله شبهة الصهيونية، وواكب ذلك اعتداءات متفرقة على بعض اليهود، إلا أن الأمور هدأت بعد ذلك حتى عام ١٩٥٤ حين انفجرت فضيحة لافون, وتلا ذلك عدوان ١٩٥٦ حين حدث الخروج الكبير. وفى فترة الهدوء قام الضباط المصريون بما أسموه حركة الجيش المباركة التى سميت ثورة يوليو بعد ذلك. وكانت الثورة حريصة على وجود علاقات طيبة مع اليهود المصريين, فقد زار محمد نجيب رئيس مجلس الثورة الحاخام اليهودى الأكبر فى المعبد الكبير, وكذلك زار المدرسة اليهودية.

وفى عام ١٩٥٣ تكلم الشيخ أحمد طاهر فى الإذاعة المصرية بطريقة فجة عن اليهود المصريين الذين رأوا أنه أهان شرفهم وأمانتهم, وفى حديث آخر للإذاعة هاجم الشيخ أحمد حسن الباقورى اليهود وديانتهم هجوماً شديداً, وقد احتج على ذلك الحاخام أمام اللواء محمد نجيب، الذى أصر على أن يعتذر الباقورى رسمياً, وحاول الباقورى الاعتذار تليفونياً, لكن نجيب أصر على أن يقوم بزيارة رسمية إلى مقر الحاخامية للاعتذار, وقد انصاع لذلك الباقورى وقام بالاعتذار. وقد نشر ذلك ألبير مزراحى فى جريدته (التسعيرة), وقال إن ذلك يسىء إلى مصر فى العالم الخارجى, ولا يتماشى مع سياسة الحكومة, وطالب مزراحى صلاح سالم وزير الإرشاد القومى بأن يكدر الشيخ, و أن يقول له إن الدين لله والوطن للجميع. وكان مزراحى يطبع أيضاً برنامج حفلة أم كلثوم وأغانيها.

وقد كان تمثيل اليهود فى الصحافة أعلى صوتاً من الأقباط و المسلمين بالنسبة لتعدادهم. وأصدر ألبير مزراحى (الصراحة) فى عام ١٩٥٠ تحت رعاية فؤاد سراج الدين, وكان أيضاً رئيس تحرير (التسعيرة) وهى مجلة تجارية أسبوعية صدرت منذ عام ١٩٤٤. وتوقفت المجلتان عن الصدور عام ١٩٥٤. و قد كان له شريك قبطى وآخر مسلم, وذلك لتمثيل الأديان الثلاثة, وحفز ذلك نجيب الريحانى على إخراج مسرحيته

(حسن ومرقص وكوهين) التى عرضت عام ١٩٥٤، أي بعد وفاته بسنوات.

وقد ألقي القبض على مزراحى لفترة قصيرة عام ١٩٥٢. ثم أفرج عنه, وقد انتقد الحكومة عند القبض عليه, ويبدو أن انتماءه الوفدى، وليس دينه اليهودى، كان السبب فى القبض عليه.

وفى نهاية الأربعينات بدأت بعض الصحف المصرية - خاصة صحف الإخوان المسلمين ومصر الفتاة وبعض الصحف غير الحزبية - تتساءل عن موقف اليهود المصريين من الوطن مصر ومن إسرائيل, ودافعت صحيفة "الشمس" اليهودية عن يهود مصر, وطالبت بالتفرقة بين اليهودية كديانة وبين الصهيونية كمذهب سياسى, وطالبت بإخراج يهود مصر من الصراع. وقال عبد الرحمن عزام إن الدولة الإسرائيلية حين تقوم فى فلسطين سوف تكون شيوعية.

وحقيقة الأمر أن حكومات الأقلية التى حكمت مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عودة الوفد عام ١٩٥٠، كانت متربصة بالشيوعية ومهتمة بالقضاء عليها أساسا، و لم تكن مهتمة بالصهيونية. وكانت وزارة الداخلية تعلم جيداً أن الحركة الشيوعية المصرية الواعدة فى مصر بها عدد كبير من اليهود, وقد قبض على هؤلاء اليهود وسجنوا ورحلوا من مصر فى فترة مبكرة قبل قيام دولة إسرائيل, خوفاً من الشيوعية, وليس خوفاً من نشاط اليهود في خدمة إسرائيل. ومن المعروف أن الحركات الصهيونية في مصر كان يترك لها الحبل على الغارب, ولم تتدخل المباحث فى نشاطها, إلا فى أضيق الحدود, ولم تحدث مواجهة بين وزارة الداخلية وبين الصهاينة، إلا فى مراحل متأخرة جداً من الصراع, وحتى فى حالة القبض المحدود على بعض أصحاب النشاط الصهيونى، فإن الأعداد التى سجنت كانت محدودة, وكانت تتلقى معاملة ممتازة على عكس الشيوعيين. وكان بعض رجال الحكومات المصرية على علاقة وثيقة مع زعماء الصهاينة فى فلسطين، مثل إسماعيل صدقى وحسين سرى، حيث كانت تربطهم بها أواصر الصداقة والعمل المشترك فى السوق.

ويعنى هذا أن الحركة الجماهيرية المصرية كانت تشعر بخطر الصهيونية مبكراً, وحاولت قدر استطاعتها إظهار غضبها من النشاط الصهيونى, ولم يظهر الشعب غضباً من النشاط الشيوعي, سواء كان من قام به يهود أو أقباط أو مسلمون. أما

الحكومة فكان شاغلها الأكبر هو الشيوعية، وهنا يأتى التصريح الغريب لعزام باشا أول أمين عم لجامعة الدول العربية الذى يخشى من قيام دولة شيوعية فى فلسطين, ولا يخشى من قيام دولة صهيونية، ويبدو أن هذا النوع من التفكير كان غالباً على دوائر زعماء الأقلية والقصر الملكى ورجال الأعمال المصريين.

وبعد دخول مصر حرب ١٩٤٨ بدأت الدولة لأول مرة فى اتخاذ قرارت ضد الصهاينة الذين تم اعتقال أعداد منهم وترحيل بعضهم. يقول نبيل سيد أحمد إن اليهود المصريين والمسئولين عنهم أيدوا الحركة الصهيونية وتعاونوا معها بشكل واضح أو خفى. وأنا لا أوافقه على هذا الرأى, لأنه ثبت أن معظم اليهود المصريين لم يكن لهم نشاط صهيونى, ولم يكونوا متحمسين لقيام دولة إسرائيل, وإنما كانوا متعاطفين مع قيامها حتى يسكن فيها يهود أوروبا لكن الوضع تغير حين اشتد عود الحركة الصهيونية فى الأربعينات، وبدأت الحركة الصهيونية فى مصر تجذب اليهود المصريين، وحسب رأى نبيل سيد أحمد فإنه قد غادر خلالها ربع يهود مصر من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٠ و نحو نصفهم ذهبوا إلى إسرائيل.

كتب أحد اليهود فى جريدة (الشمس) أن بعض التجار عمد إلى تطبيق قانون الشركات على المحلات الفردية، بالرغم من أن القانون كان ينطبق على الشركات المساهمة فقط, واتهم البعض بأنهم فسروا قانون الشركات تفسيراً عنصرياً لم يكن ضمن نصوص القانون, ولم يفسره المشرع بهذه الطريقة.

ويذكر نبيل سيد أحمد أن ألبير مزراحى الصحفى اليهودى الوفدى – هاجم بعد الثورة برنامج (ساعة لقلبك) – وهو برنامج إذاعى شهير– لأنه كان يتهكم على اليهود, وهاجم بشدة صلاح سالم وزير الإرشاد القومى, وهو ما يعنى أنه كانت هناك حرية متاحة لصحفى يهودى فى الشهور الأولى للثورة.

وفى عام ١٩٥٤ أعلن عبد الناصر اكتشاف شبكة شيوعية بقيادة هنرى كورييل, واتهم أعضاءها بأنهم يضللون الشعب, وفى نوفمبر ١٩٥٤ قبض على اليهود المشتركين فى عملية سوزانا. وترددت فى بعض المصادر حكاية عن سيدة يهودية اسمها مدام يعقوب فرج شمويل كانت تسكن بجوار أسرة عبدالناصر فى طفولته, وكانت تعامل جمال عبد الناصر بعطف شديد بعد أن فقد أمه, وكانت صديقة لأمه أيضاً قبل وفاتها,

وأنها حضرت إلى الرئيس جمال عبد الناصر تطلب منه تخفيف حكم الإعدام على المتهمين الأول والثاني في قضية سوزانا (فضيحة لافون) ووعدها بالتفكير, لكن الحكم نفذ في اليوم التالي. وقد قال شحاتة هارون المحامي المصري الماركسي إن اليهود كانوا يستشعرون القلق أيام عبدالناصر, ولم يصحح الوضع إلا أيام السادات.

وحقيقة الأمر أن اليهود فعلاً كان يشعرون بالقلق, لكن هذا الشعور لم يكن يختلف كثيراً عن شعور أعداد كبيرة من الأجانب الذين عاشوا في مصر سنوات طويلة, لكن وجود حكومه وطنية- تحرص على صالح مصر والمصريين و تحقق العدالة لهم - كانْ مصدر قلق للجميع, لأن معنى ذلك أن يفقد هؤلاء الأجانب واليهود أيضاً الميزات الكثيرة، المادية منها والمعنوية، والتي كانت تضعهم في مرتبة أعلى من المصريين. ومشكلة اليهود -الذين كان الكثيرون منهم مصريين لحماً ودماً- أنهم لم ينسلخوا عن قوميتهم اليهودية و لم يذوبوا في بحر القومية المصرية، وبذلك استمروا أجانب في مصر, وعندما مُصِّرَتْ مصر كانوا خارج الإطار باختيارهم, وأصبحوا مثل كل الأجانب الذين فقدوا الميزات القانونية والمعاملة الخاصة, فكان عليهم أن يغادروا مصر, لأنهم لم يريدوا أن يعيشوا في وطن يتساوون فيه مع أبنائه, بل أرادوا دائماً أن يكونوا طبقة فوق الشعب.

وبعد اشتراك إسرائيل في عدوان ١٩٥٦ أصبح وضع اليهود المصريين الذين لهم نشاط صهيوني غير مستقر, وكان اندراج بعضهم في منظمات صهيونية وصلات البعض بإسرائيل، تشكلان خطراً على نظام الحكم في مصر، واتخذت تدابير وقائية, منها اعتقال أعداد من اليهود المصريين لفترات, ووضعت الحراسة على أموال وممتلكات الإنجليز والفرنسيين وبعض اليهود المصريين.

يقول حاييم كوهين الأستاذ بالجامعة العبرية إنه خلال الأيام الأولى من نوفمبر ١٩٥٦ صدرت الأوامر لليهود بمغادرة مصر, ومعهم أشياء بسيطة من متعلقاتهم الشخصية تساوي ثلاثين جنيهاً مصرياً نقداً, وتم إبعاد ٧ آلاف يهودي حتى مارس ١٩٥٧, و٧ آلاف يهودي آخرين حتى سبتمبر ١٩٥٧.

وحقيقة الأمر أن من طردوا من مصر كان معظمهم من اليهود الحاملين للجنسيتين الفرنسية والبريطانية، وفقط تم ترحيل ٢٨٠ يهوديا بدون جنسية للاشتباه في نشاطهم

الصهيونى, أما الباقى فقد خرجوا من مصر بناء على رغبتهم, وقد باعوا ممتلكاتهم، و كان السبب الأساسى فى خروجهم هو الخوف الشديد الذى صاحب عدوان ١٩٥٦, والذى خلق شعوراً عدائياً ضخماً ضد إسرائيل فى مصر وفى المنطقة كلها.

وفيما عدا ذلك فإن اليهود المصريين استمرت معاملتهم بطريقة طبيعية كما أثبتت تقارير السفارة الأمريكية، وكما قال الصحفى اليهودى الأمريكى دافيد لينتال, نقلاً عن نبيل عبدالحميد سيد أحمد.

يقول بنيين إن هجرة أصحاب رؤوس الأموال الأوروبية والأغنياء من اليهود المصريين الوثيقي الارتباط بالجاليات الأجنبية، كان مسألة وقت, وأن اليهود كانوا سيغادرون مصر نهائياً فى جميع الأحوال, حتى لو لم يقع عدوان ١٩٥٦, وأنا أوافقه في ذلك, لأن تأميم جميع الشركات المصرية والأجنبية عامى ١٩٦١ و ١٩٦٢ كان من شأنه أن يؤدى إلى هجرتهم النهائية لأن اليهود كانوا قد هاجروا إلى مصر، لما توافر فيها من فرص ضخمة للاستثمار, ومميزات كبيرة للأجانب ولا يوجد فيها أى اضطهاد لليهود, ولم يحاول اليهود الاندماج فى الشعب المصرى, وإنما اندمجوا مع الأجانب الذين هاجروا إلى مصر فى الفترة نفسها و للأسباب نفسها, وعندما لم تصبح مصر مكاناً به مميزات خاصة للاستثمار تخلوا عن مصر وتركوها, وفى ذلك الوقت هاجر الكثير من رجال الأعمال اليهود المصريين, ليبدأو أعمالهم في البلاد العربية أو أوروبا أو حتى أمريكا أوأستراليا, ولم يكن بوسع حكومة تنوى تطبيق نظام اشتراكى, وتملك فيها الدولة كل وسائل الإنتاج أن تبقى على رجال أعمال, وبالذات إذا كانوا من الأجانب أو المرتبطين بهم مثل اليهود.

ويعتقد بنيين أن هذه العوامل المهمة أدت إلى هجرة اليهود المصريين, بالرغم من أن الصهاينة من اليهود المصريين كانوا قلة ولا يشكلون قوة محلية, وأنا أوافقه في ذلك, إلا أننى أعتقد أن مفهوم الصهيونية عند المصريين كان مختلفاً عن مفهومه عند الأشكيناز فى أوروبا الشرقية. كان الأشكيناز يخططون ويعملون بكل جهودهم لإقامة دولة يهودية فى فلسطين عن طريق الهجرة والضغط على القوى الكبرى طلباً لمساعدتها المادية والمعنوية والقانونية، فى ذلك الوقت كان اليهود المصريون متعاطفين مع ما حدث لليهود فى أوروبا, وأنشئت مجلات وصحف إسرائيلية كثيرة تؤيد هذا الاتجاه وتظهر

التعـاطف مع اليـهود الأوروبيين وتؤيد هجـرتهم إلى إسرائيل, لكن مـعظم اليـهود المصريين لم يكن وارداً ضـمن تفكيرهـم أن مشروع إنشـاء الدولة سوف ينجح, لتصبح إسـرائيل دولة كبرى فى الشـرق الأوسط, وكان مـعظم اليـهود القرائين والربـانيين من السفارديم سعداء فى الحيـاة, آمنين فى مصـر لمدة قرون طويلة لم يشـعروا فيـها بأى تهديد حقيقى عليهم فى القرن التاسع عشر و أوائل القـرن العشرين, وكان نفوذهم القوى داخل مصادر صنع القرار السياسى والاقتصادى فى الحكومة مصدر ثقة بأنه لن يحدث شىء يضيرهـم . وكان ارتباط أغنياء ومثقفى هذه الطبقة فى القرن العشرين بالأجانب المتمـصرين والشركات الأوروبية والجاليات الأجنبية ارتباطاً كبيراً أبعدهم عن بقيـة الشـعب المصـرى. وعند تبلور الحـركة الوطنيـة المصـرية بعـد ثورة ١٩١٩ وخـلال الثلاثينات وأربعينات القرن الماضى أصبح المطلب المصرى بالاستـقلال عن الاحتـلال, وكذلك الاستقـلال عن النفوذ السياسى والاقتصـادى الأجنبى مطلباً ملحاً, وقد أدى عدم تحقق ذلك إلى ثورة الغضب المصرى التى رد عليها الإنجليز بمجزرة للبوليس المصرى فى الإسماعيلية، وكان الغضب الشعبى عارماً, وأدى ذلك إلى حريق القاهرة الذى طال كل المحـلات والأماكن المملوكة للأجانب, و منهم اليـهود, وعزز ذلك من الشـعـور بالقلق لدى الطبقات العليا من السـفارديم, وبدأوا يقلقون على مسـتقبلهم فى مصـر، فلا هم يريدون أو يسـتطيعـون الانضـمام إلى الشـعب المصـرى فى أحـلامـه وتطلعـاته للحرية السياسية والاقتصادية، لا هم يريدون إعلان العداء تجاه مطالبه المشروعة لأنهم عاشوا بينه سـنوات طوال وتمتعوا بخيـرات البلد, ولم يؤذهم أحد, بل بالعكس كان وضـعـهم الاقتـصـادى أعلى بكثـيـر من مـسـتوى الشـعب المصـرى, وبدأ الإحـسـاس بالغـربة والاختلاف يؤثر عليهم.

أما معظم اليهود الأشكيناز الوافدين حديثاً إلى مصر فى القرن العشرين هرباً من الاضطهاد الأوروبى لليهود, فلم يشـعروا أبداً بالانتمـاء، ولم يتـحدثوا باللغة العربيـة إلا للضرورة، ولم ينضـموا أبداً للمصـريين فى أى مطلب, وكونوا جالية أجنبية استطاعت أن تنجح بعلمـها ومعرفتـها في رفع مستوى الجالية فى مصر, وكان هولاء اليهود هـم الممثلين الحقيقيين للصـهيونية العـالمية, وهم الذين قـاموا بتنظيم المؤسسـات الصـهيونية المصرية وقادوا ونظموا حركات الجاسوسيـة الصهيونية فى مصر, وحيث إنهم كانوا بعيدين عن الشـعب وعن اللغة فقد قاموا بذلك عن طريق تجنيد بعض اليـهود المصريين

الأصليين، مثل د.موسى مرزوق بطل قضية سوزانا وفضيحة لافون، وهو من اليهود القرائين، ولم تكن الحركات الإرهابية الصهيونية فى مصر ضد المصالح الأجنبية والعربية فقط، وإنما أيضاً لإرهاب اليهود المصريين وتخويفهم وحضهم على الهجرة.

يقول بنيين إن اليهود المصريين كانوا مختلفين عن بقية اليهود فى ثلاثة أمور : أولها أن نسبة ضئيلة جداً من المصريين كانت تنتمى إلى الفكر الصهيونى، وثانيها أن معظم اليهود الذين غادروا مصر بعد عام ١٩٤٨ كانت عندهم الإمكانيات الاقتصادية أو الثقافية أوالتعليمية، و إنما ذهب إلى إسرائيل من لم يكن له مكان آخر يذهب إليه، ولم يكن عنده مؤهلات تعليمية أو مادية ، ثالثها أن اليهود المصريين أينما ذهبوا حتى داخل إسرائيل فى معظمهم عاشوا حياة اجتماعية مشابهة لحياتهم فى مصر، وهذه الأسباب توضح أن المقولة الإسرائيلية بأن المصريين ذهبوا إلى إسرائيل لإيمانهم بالمشروع الصهيونى، وأنهم انسلخوا تماماً عن الأرض التى ولدوا فيها ووطنهم الأصلى، مقولة غير دقيقة، لأن نسبة كبيرة لم تذهب إلى إسرائيل، ومن ذهب إليها كان مضطراً لذلك، لأنه لم يجد له مكانا آخر يقبله.

ويعتقد بنيين – وأؤيده فى ذلك – أن هجرة اليهود كانت مماثلة لهجرة الأقليات الأجنبية والمتمصرين، وليست مرتبطة أساساً بالمشروع الصهيونى، لأن قانون ١٩٤٧ للشركات المساهمة حد من احتكار وتوسع الأجانب فى مصر، وحيث إن معظم أفراد الجاليات اليهودية لم يكونوا يتمتعون بالجنسية المصرية، لعدم رغبتهم فى ذلك وإصرارهم على الاحتفاظ بجنسيتهم الأوروبية، لذا وضعهم هذا القانون فى مأزق. والحقيقة أن هذا القانون العادل وضعته حكومة السعديين التى كانت تحكم مصر من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٠، وكان قد قتل اثنان من رؤساء وزرائها بتهمة عدم الوطنية وممالأة القوى الأجنبية وهى الحكومة التى كان لديها أغلبية فى البرلمان، بسبب مقاطعة الوفد للانتخابات، والغريب أن هذه الحكومة التى لقبها كتاب التاريخ ومعاصروها بالرجعية وممالأة الملك والإنجليز قد سنت هذا القانون الذى كان من أهم أسباب البدء فى تمصير الصناعة والاقتصاد المصرى. ويعتقد بنيين أن الشعور الوطنى السياسى المصرى قد أبعد عن الحلبة السياسية الأقليات الأجنبية واليهود، وأنا لا أعتقد ذلك، فالواضح أن اليهود والأقليات الأجنبية هم الذين ابتعدوا عن الشعور الوطنى العام، ولم يحاولوا أن يندمجوا مع الشعب فى مشاعره وآماله، فعلى حين كان الشعب يريد أن

يطرد الإنجليز و النفوذ الأجنبي، نرى اليهود يوطدون صلاتهم وعلاقاتهم الاقتصادية ومصالحهم مع المتمصرين والأجانب, مما جعل الشعب يضعهم مع الأجانب فى سلة واحدة, خاصة أنه كان هناك شعور دفين عند المصريين بأن اليهود لابد أن يكونوا متعاطفين مع الصهيونية، لكنهم لم يظهروا ما ينم عن انتمائهم إلى مصر بالقول والفعل فى الثلاثينات والأربعينات كما فعلوا أثناء ثورة ١٩١٩. حين كان ليون كاسترو معاوناً لسعد زغلول، وكان اليهود المصريون ورجال الصحافة يداً واحدة مع الشعب المصرى فى كفاحه. وأعتقد أن السبب فى هذا التحول هو التعاطف مع مشروع الوطن القومى لليهود الذى بدأت تتضح ملامحه, ولم يكن عند اليهود فى تلك الفترة النية لأن يكونوا جزءاً من الشعب المصرى, وفضلوا الاندماج فى النظام الرأسمالى الأجنبى الذى كان يتحكم فى اقتصاد مصر، وهناك مثال واضح لذلك يذكره بنيين عن محلات شيكوريل التى كانت تملكها عائلة يهودية من السفارديم, ففى أثناء ثورة ١٩١٩ أعلن الوفد مقاطعة البضائع والمحلات الأجنبية عندما نفى سعد زغلول إلى جزيرة سيشل, و رأى الوفد و الشعب أن محل شيكوريل المملوك لعائلة يهودية مصرية هو محل مصرى، ولم يقاطعه المصريون ولم يوضع ضمن قائمة المقاطعة بعكس ما حدث عام ١٩٤٨ حيث أحرق المتظاهرون عن عمد محلات شيكوريل الذى نظر إليه على أنه يمثل سلطة أجنبية, بالرغم من ملاكه هم نفس أفراد العائلة, لكن شيكوريل فى عام ١٩٤٨ كان معظم موظفيه من اليهود الذين لم يكونوا يحملون الجنسية المصرية، وكانت لغة التعامل بين الموظفين اللغة الفرنسية, وجميع المستندات تكتب بالفرنسية, ولم يحاول شيكوريل أن يصبغ نفسه بالصبغة المصرية, وإنما أصبح خواجة تدريجياً, وبمرور الوقت أصبح معظم موظفيه أيضاً من الخواجات اليهود, وهذا يفسر التغير فى الموقف الشعبى تجاه شيكوريل, وقد هاجر سلفادور شيكوريل من مصر نهائياً إلى فرنسا عام ١٩٥٧. بعد أن باع سلسلة متاجره لعائلة مصرية, ثم تم تأميم المحلات من ملاكها المصريين عام ١٩٦١.

عملية سوزانا
(فضيحة لافون)

أعطت المخابرات الحربية الإسرائيلية أوامرها بتكوين خلية من اليهود المصريين والذين طلب منهم فيما بعد أن يقوموا بتفجير مقر البوسطة الرئيسية بالإسكندرية،

والمركز الثقافي والمكتبة الأمريكية ومحطة باب الحديد بالقاهرة، بالإضافة إلى عدد من دور السينما فى القاهرة والإسكندرية.

وقد قبض البوليس المصرى على الخلية بعد تنفيذها بعض العمليات الموكلة إليها, وبالرغم من أن هذا العمل عمل إرهابى من الدرجة الأولى، وموجه من مواطنين فى دولة ضد بقية المواطنين في الدولة نفسها إلا أن أحداً من المعلقين أو المحللين الغربيين- وحتى الحكومات الغربية - لم يسم تلك العملية باسمها الحقيقي, وهى أنها عملية إرهابية، وإنما فقط سموها عملية سوزانا. وكان الغرض من هذه العملية إثارة القلق فى مصر، مما قد يؤجل جلاء الإنجليز من مصر، ويضع إسفينا بين الولايات المتحدة والنظام المصرى الجديد, الذى يبدو أن علاقته كانت ممتازة مع الأمريكان فى الشهور الأولى من الثورة، وكذلك إضعاف صورة حكومة الثورة أمام العالم والإيقاع بينها وبين الإخوان المسلمين، لكن الجميع استبعدوا أن يقوم الإخوان بذلك، لأن الانفجار حدث قبل صلاة الجمعة بقليل، ويقال إنه كانت هناك محاولات جس نبض لاحتمال تفاهم مصرى إسرائيلى لتحقيق سلام بين البلدين تنظمه الولايات المتحدة، لكن هذه العملية نسفت - بالطبع- أى احتمال للتفاهم من جانب عبد الناصر مع إسرائيل.

وقد تمت محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية قضت بالإعدام على اثنين من الذين نفذوها، وهما موسى لتو مرزوق، وهو طبيب مصرى يهودى، وسامى عازر، وتم إعدامهما بالفعل بالرغم من الضغوط العالمية الشديدة على عبد الناصر لتخفيف الحكم, وحكم على اثنين آخرين بالإعدام غيابياً, وبالسجن مدى الحياة على مارسيل نينو وروبير داسا، وحكم على اثنين بالسجن ١٥ عاماً, وواحد بالسجن سبع سنوات, وبرئ اثنان من المتهمين. وأعلن زكريا محيى الدين وزير الداخلية المصرى أن الجواسيس اليهود المخربين قلة، وأن معظم اليهود من أبناء مصر وجزء من نسيجها, وهذه القضية لاتمسهم من قريب و لا من بعيد, وفى نص الحكم الذى أصدره اللواء فؤاد الدجوى قيل المعنى نفسه.

وقد قامت الحكومات الإسرائيلية والأمريكية والإنجليزية جميعها بإعدام جميع وثائق هذه العملية، أما الوثائق المصرية فلا يعلم أحد أين هى, وفشل الباحثون فى العثور عليها للاطلاع. ومن الناحية الأخرى نشر النائب الإسرائيلى فى الكنيست شلومو

كوهين كتاباً يعترض فيه على ما قاله الإرهابيون الذين قاموا بعملية سوزانا بعد عودتهم إلى إسرائيل, ورأى أن مصر كانت وطناً عظيماً, وأن التقارب و التفاهم مع شعبها أمر مهم، وعندما كتب ذلك كان يسبح ضد التيار في إسرائيل. وقد كان لهذه الفضيحة آثار داخلية كبيرة فى إسرائيل، منها استقالة وزير الداخلية لافون. وكانت لها آثار ضخمة على وضع الجالية اليهودية فى مصر.

وفي تبادل للأسرى بعد حرب ١٩٦٧ تم الإفراج عن خمسة من المحكوم عليهم بالسجن فى قضية سوزانا، وقد قررت الحكومة الإسرائيلية اعتبار وجودهم سراً حتى عام ١٩٧١، عندما ظهروا على شاشة التليفزيون الإسرائيلى ليحكوا أنهم لم يشعروا أبداً بأنهم مصريون, ولم يجيدوا اللغة ولم يحصل بعضهم على الجنسية, بالرغم من أنهم جميعاً من مواليد مصر، وأن عائلاتهم هربت من أوروبا في القرن التاسع عشر إلى مصر, ومع ذلك لم يقولوا كلمة حق واحدة فى مصر التى احتضنتهم لقرن كامل وأعطتهم كل شيء.

وكانت هذه العملية التى تم فيها تجنيد يهود مصريين ، ولدوا وعاشوا وتعلموا فى مصر، ليقوموا بها ضربة قاصمة لثقة المصريين فى الجالية اليهودية التى أثبتت هذه العملية أنهم يمكن أن يكونوا طابوراً خامساً ضد مصالح المصريين. وعندما كنت أحاور هذا العام اليهودى الشيوعى المصرى ريمون استمبوللي قبل وفاته ، قال إن عملية سوزانا كانت الضربة القاصمة التى وجهتها إسرائيل إلى الجالية اليهودية المصرية، ونتج عنها أن أسقطت كل احتمالات انصهار اليهود المصريين فى الشعب المصرى. ومن المعروف أن ريمون استمبوللى كان من قيادات جامعة القاهرة فى الأربعينات, وكان ضمن مجموعة الطلبة الذين فتح عليهم النقراشي كوبرى عباس, مما نتج عنه وفاة وإصابة أعداد كبيرة منهم. وقال استمبوللى إن المصريين فقدوا الثقة فى اليهود، وأصبحت إعادة العلاقة إلى ما كانت عليه في السابق شبه مستحيلة.

وكتب روبير داسا فى كتابه "العودة إلى الإسكندرية" تفاصيل تاريخه الشخصي فى مصر و حكاية عودته إليها مع مناحم بيجن أثناء زيارته الرسمية إلى الإسكندرية. وقال إنه فى يوم الجمعة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٤ فى يوم الاحتفال بالذكرى الثانية للثورة توجه النقيب زكى المنياوى نائب مأمور قسم العطارين فى الساعة السابعة مساء إلى منطقة

دور السينما بجوار شارع فؤاد والمكتبة الأمريكية وشاهد تجمعاًحول شاب – هو روبير داسا نفسه – إطفاء النار المشتعلة فى جيبه, وقبض عليه واعترف وسقطت الشبكة, وكان الضابط الذى حقق معه هو الرائد ممدوح سالم ضابط المباحث العامة في الإسكندرية الذى أصبح رئيس وزراء مصر بعد ذلك, وقد قضى روبير داسا أربعة عشر عاماً فى السجون المصرية وأفرج عنه عام ١٩٦٨ فى عملية تبادل الأسرى, وقال داسا أثناء زيارته للإسكندرية إنه كان يتطلع بلهفة ورغبة إلى زيارة مسقط رأسه. وقد قابل فى الإسكندرية الضابط الذى حقق معه عام ١٩٧٤ واصطحبه فى سيارته إلى الفندق الذي يقيم فيه، ووافق السادات على أن تصحب أخت داسا المتزوجة من مصرى فى الإسكندرية أخاها إلى إسرائيل فى رحلة العودة.

كيف خرج اليهود المصريون من مصر؟

ولماذا خرجوا؟

يقول بنيين إنه بعد إعلان الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ صدرت بيانات وتقارير تحذر من اضطهاد اليهود فى البلاد العربية، ومنها مصر، وذلك حسب اتفاقيات حقوق المواطنة، لكنه يعلق قائلاً إنه بعد قيام دولة إسرائيل كان لابد أن يلاقى اليهود بعض المتاعب, وأن التفرقة التى تحتج عليها المنظمات اليهودية تطبقها بطريقة أشد وأكثر تعنتاً الحكومة الإسرائيلية على الأقلية العربية، وهى بالتأكيد أسوأ بكثير من معاملة اليهود المصريين بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و كان الإسرائيليون العرب تحت الحكم العسكرى حتى عام ١٩٦٥. وتعرضت أراضيهم للمصادرة بكميات كبيرة، ومنعوا من الانضمام إلى اتحاد العمال, وهذه هى إسرائيل التى تطالب العرب بالمساواة بين اليهود و العرب تقوم بمعاملة سيئة للغاية. وكانت هذه الدعاية الإسرائيلية هى التى سببت القلق على اليهود فى مصر, لكن الجزء الأكبر كان دعاية سوداء ضد مصر لتشجيع اليهود على أن يدركوا أن الصهيونية هى الحل الوحيد المتاح لليهود المصريين. ويعتقد بنيين أن العداء لليهود– خلال المدة من ١٩٤٥ حتى ١٩٥٦ – كان مركزاً فى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، ولكن الأغلبية ممثلة فى حزب الوفد والجماعات الليبرالية المختلفةواليسارية لم تكن أى عداء لليهود كأفراد, وإنما العداوة كانت أساساً للصهيونية كنظام سياسى.

قال ممثل مصر في الأمم المتحدة الدكتور محمد حسين هيكل - العضو البارز في الأحرار الدستوريين عشية التصويت على قرار التقسيم عام ١٩٤٧. وهو سياسي معروف بأنه ليبرالي- إن صحيفته السياسية دافعت عن ولاء اليهود المصريين, وعن وحدة الأمة المصرية تجاه القضية الفلسطينية، بالرغم من أن إسرائيل أو الصهيونية العالمية تقول غير ذلك.

وعند النظر إلى هجرة اليهود نجد أن ١٦٥١٤ يهوديا هاجروا من مصر إلى إسرائيل بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥١ منهم ٦ آلاف إلى بلاد غير إسرائيل ، منهم الماركسيون المصريون، ومنذ عام ١٩٥٠ وعودة الوفد إلى الحكم, حتى عام ١٩٥٦ هاجر ٤٩١٨ فقط إلى إسرائيل و٥٦٠٠ إلى بلاد أخرى, وبقي نحو ٥٠ ألف يهودي حتى عام ١٩٥٦

وكان أول من هاجر اليهود الأشكيناز, وبقي الكثير من القرائين حتى الستينات, وقد ذهب الفقراء إلى إسرائيل ، والأحسن حالاً إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا, و هاجر الشباب قبل الكبار.

يقول ميشيل لاسكير في كتابه (اليهود المصريون تحت الحكم الناصري) إن اليهود كونوا مستعمرة صغيرة في جزيرة الفانتين في أسوان قبل دخول الإسكندر الأكبر إلى فلسطين عام ٣٢٢ قبل الميلاد, واستمروا في مصر، وزاد عددهم تدريجياً في العصر الفاطمي, ثم في عصر محمد علي, ثم في القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٩٤٨ انقسم اليهود المصريون إلى معسكرين, أولهما معسكر الشباب الذي انضم الكثيرون منه إلى الحركة الصهيونية، لكن الأغلبية من اليهود المصريين كانوا ضدها بسبب الخوف على مراكزهم في مصر وسط جيرانهم من المصريين, وكان البعض الآخر غير مهتم بالقضية الصهيونية.

وكانت حرب ١٩٤٨ أول خطوة حقيقية في بداية النهاية للمجتمع اليهودي المصري. وكما ذكرنا سابقاً فإنه في يوم ٢ نوفمبر ١٩٤٥ بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لوعد بلفور اندلعت المظاهرات الغاضبة ضد الإنجليز و الصهاينة، وجزئياً ضد اليهود بإحراق معبد الأشكيناز وبعض المباني اليهودية، وهي المرة الأولى في العصر الحديث التي حدث فيها اعتداء على ممتلكات يهودية, وكما هو واضح فإن الغضب الشعبي

العارم كان وراء المظاهرات, وتؤكد كثير من المصادر أن الإخوان المسلمين كانوا وراء العنف، إلا أنه لم يثبت بصفة قاطعة من المسئول الذى أشعل الحرائق, غير أن الحكومة المصرية اتخذت قرارات حازمة، ووضعت حراسة مشددة على المنشآت اليهودية.

وعند إعلان دولة إسرائيل عم الغضب الشعبى فى مصر, ولأول مرة أصبحت الجالية اليهودية محل اتهام, وأعلنت الأحكام العرفية فى ١٤ مايو ١٩٤٨. وكذلك فرضت الرقابة على الصحف, وتم القبض على ٦٠٠ شخص ارتفع عددهم إلى ١٣٠٠. وكان ألف منهم من المصريين المسلمين والأقباط, وكذلك بعض اليهود وعدد من الأوروبيين بسبب معارضتهم للحكومة، بالإضافة إلى ٣٠٠ يهودى بسبب نشاطهم الصهيونى الواضح. وعند دخول مصر حرب ١٩٤٨ تم القبض على الصهاينة المصريين والشيوعيين المصريين، و الإخوان المسلمين، ووضعوا فى معتقل حتى نهاية الحرب, وصاحب ذلك عداء ضد اليهود بصفة عامة ثم تولى الوزارة حسين سرى باشا الذي كان صديقاً وشريكاً لكثير من اليهود, واستطاع تهدئة الأمور وطمأنة اليهود، إلا أنه خرج فى تلك الفترة نحو عشرة آلاف يهودى من مصر, لكن أقل من ٤٥٪ منهم هاجروا إلى اسرائيل. وصدر أمر ملكى بقانون ينص على مصادرة أموال المصريين, سواء كانوا داخل البلد أو خارجها, إذا ماقاموا بتحريض أمن الدولة للخطر, ووضعت ممتلكات هؤلاء الأفراد تحت الحراسة, وطبق هذا القانون- كما يقول لاسكير - على بعض اليهود, كما طبق على قلة من المصريين, وتم إلغاء الأمر بعد ذلك وإعادة الأموال, وقام النقراشى باشا رئيس الوزراء بحملة ضخمة ضد الإخوان المسلمين واعتقلهم بدعوى تهديدهم نظام الحكم والأمن العام.

وقد تم احتجاز مائة من اليهود مع الشيوعيين وبعض المناهضين لنظام الحكم فى معسكر أبو قير، ومائتين من اليهود فى معسكر هاكستب فى القاهرة، وكانت المعاملة السيئة من نصيب الشيوعيين على حين لم يلق اليهود ولا حتى الصهاينة أية معاملة سيئة.

وأعتقد أنه واضح من قراءة تاريخ تلك الفترة أن الحكومة السعدية كانت شديدة الصرامة مع كل من الإخوان المسلمين و الشيوعيين الذين كان بينهم بعض اليهود، أما اليهود الصهاينة فقد عوملوا معاملة جيدة للغاية. وأعتقد أن الحكومة المصرية عندما

قبضت علي بعض اليهود من الناشطين في الحركة الصهيونية كانت تريد تهدئة الشعور الملتهب لدى المواطنيين، أما العداء الحقيقي, والاعتقال الحقيقي, والمعاملة السيئة والعنيفة فكانت من نصيب أعداء الحكومة الخطرين عليها، وهم الشيوعيون والإخوان المسلمون, أما الصهاينة الخطرون على الوطن ووحدة الأمة المصرية بعناصرها المختلفة متضمنة اليهود المصريين فكان القبض عليهم مسألة مرحلية, وكان ذلك واضحاً في المعاملة المختلفة بين الشيوعيين و الصهاينة في نفس المعسكر.

وفور التوقيع على اتفاق الهدنة في فبراير ١٩٤٨ نقص الشعور العدائي نحو اليهود, وألغت الحكومة قرار المصادرة، وعادت الممتلكات المصادرة لأصحابها, وألغيت حالة الطوارئ وأفرج عن المسجونين تدريجياً, وسمح لهم بالسفر. وقد نجح حزب الوفد في انتخابات يناير ١٩٥٠ . ورفع كل أوامر الحظر على المصريين, وقد غادر مصر من مايو ١٩٤٨ حتى يناير ١٩٥٠ نحو ٢٠ ألف يهودي من نحو٨٠ ألفا. وقد سافر من مصر إلى إسرائيل حسب الأوراق الإسرائيلية الرسمية ٧١٥٤ يهوديا عام ١٩٥٠، و ٢٠٨٦ يهودي عام ١٩٥١, و ٢١٥١ عام ١٩٥٢, و ١٠٤١ عام ١٩٥٣, و ١٠٦٩ عام ١٩٥٤، و ٦٧٧ عام ١٩٥٥, و ٨٨٠ عام ١٩٥٦، وهكذا كان عدد المهاجرين يقل بالتدريج, ويرجع السبب الأساسي في هذا– في تقديري – إلي استقرار وضع اليهود في مصر. يدعي لاسكير أن إجراءات الهجرة كان فيها بعض الصعوبات. وكانت الهجرة الأساسية لليهود المصريين إلى أوروبا, خاصة إلى فرنسا وأستراليا و إيطاليا وبقية دول أوروبا الغربية. يقول لاسكير إن من أسباب توقف الهجرة لأسرائيل والاستقرار في مصر أو الهجرة إلى بلاد أخرى هو صعوبة حياة المصريين الذين هاجروا إلى إسرائيل, وصعوبة ذوبانهم في المجتمع المحكوم باليهود الاشكيناز, وقد وصلت خطابات من اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل يحكون فيها عن صعوبة المعيشة والتفرقة في المعاملة داخل إسرائيل, وكثيرون منهم هاجروا مرة أخرى إلى أوروبا.

وأعتقد أن الكثير من اليهود الذين هاجروا – خاصة من البسطاء و الطبقة المتوسطة الذين لم يكونوا مؤمنين بالأفكار الصهيونية – قد انزعجوا من مكانتهم في قاع المجتمع الإسرائيلي، أما اليهود الصهاينة الاشتراكيون فقد انتظموا في الحياة في الكيبوتز لكنهم لاقوا صعوبات شرحناها في فصل آخر.

وهنا أجد تفسيراً واضحاً لفشل اليهود المصريين الذين هاجروا فى تلك الفترة في تعليم أبنائهم تعليما متميزا، حيث لم أجد أطباء من أصل مصرى في المؤتمرات الطبية الدولية التى يكون معظم الإسرائيليين المشتركين فيها من اليهود الأشكيناز، وهذه النقطه سبق لي أن أثرتها، ووجدت الإجابة عليها عند لاسكير فهؤلاء اليهود المصريون لم تكن عندهم أية فرصة لإلحاق أبنائهم بكلية الطب فى إسرائيل، على حين كانت الفرص متاحة فى القاهرة والإسكندرية بسهولة، وقد كانت هذه الحقيقة مفاجأة لى. وهذا الأمر يفسر أيضاً لماذا هاجرت أغلبية اليهود المصريين إلى بلاد أخرى غير إسرائيل، حيث لم يهاجر إلى إسرائيل فى الأغلب إلا الفقراء والأقل تعليماً، وبعض الشباب الذى كان يؤمن بالصهيونية إيماناً كبيراً.

في الفترة من يوليو ١٩٥٢ حتى مارس ١٩٥٤ – بعد طرد الملك وقيام نظام الضباط الأحرار– تحسنت أحوال اليهود فى مصر. ويتجاهل لاسكير تماماً فضيحة لافون (عملية سوزانا) والاعتداء على غزة عام ١٩٥٤، وهما السببان الأساسيان لتوتر العلاقة بين مصر واليهود المصريين، و منع الوصول إلى صلح مصري إسرائيلي في تلك الفترة. وأعتقد أن هذا الانتقاء التاريخى فيه نوع من التجاهل المتعمد لأحداث فى غاية الأهمية، على حين ركز لاسكير على تحديد إقامة بعض اليهود فى المعتقلات، وهو الوضع الذى اشترك فيه مع اليهود المصريون مسلمين وأقباطا وأجانب من جنسيات مختلفة، وكانت معاملة اليهود المصريين داخل المعتقلات أفضل بمراحل من معاملة بقية المصريين، وقد استرد الصهاينة كل ما صودر منهم فى أحداث ١٩٤٨, وطريقة لاسكير فى شرح تاريخ تلك الفترة يجعل القارىء يشك فى كثير من التحليلات والاستنتاجات التى ذكرها، إذ يمكن مقارنته بجويل بنيين المؤرخ اليهودى الأمين، أو كرامر الألمانية في أطروحتها للدكتوراه عن اليهود المصريين، أما ما كتبه المتحيز لاسكير فيمتلئ بالمغالطات المفضوحة، فهو يذكر مثلاً أن قانون الطوارئ عام قد صدر ١٩٥٤ لتسهيل القبض على اليهود الصهاينة، ووضع ممتلكاتهم تحت الحراسة، وأتاح حق سحب الجنسية المصرية منهم في حالة الإخلال بأمن مصر، وقد طبق هذا القرار على مئات من اليهود. وهنا يجدر بى أن أعلق على ما كتبه لاسكير بإن هذا القانون صدر خصيصاً لليهود بدون سبب واضح غير العداوة لهم، إلا أنه لم يذكر أن هذا القانون قد صدر بعد فضيحة لافون (كارثة عملية سوزانا) التى شرحت بالتفصيل فى

مكان آخر, والتى قام بها صهاينة من إسرائيل حرضوا بعض شباب اليهود المصريين, لتفجير الممتلكات الأمريكية, وإثارة الذعر بين اليهود، ليهاجروا من مصر.

هناك أمر آخر لم يذكره لاسكير – و هو المؤرخ المحترف- أن هذا القانون تم تطبيقه، واعتقل بسببه الآلاف من الإخوان المسلمين, وصودرت ممتلكاتهم وتم تعذيبهم وإعدام بعضهم. كما حوكم به أيضاً الشيوعيين و بعض المدنيين المصريين من المشتغلين بالسياسة قبل الثورة، أى أن هذا القانون لم يوضع خصيصاً لليهود, وأن تنفيذه على اليهود كان بعد القيام بعملية سوزانا, التى اشترك فيها اليهود المصريون في خيانة وطنهم الذى تربوا وتعلموا فيه. ومع ذلك كانت المعاملة السيئة لليهود أقل بكثير من معاملة الإخوان المسلمين. أما عن الفصل الخاص باليهود المصريين، من نوفمبر ١٩٥٦ حتى منتصف ١٩٥٧، ففي مقدمة هذا الفصل كتب لاسكير أسطر قليلة عن الهجوم الإسرائيلى على سيناء الذى تلاه الهجوم الإنجليزى الفرنسى, ولم يحاول أن يوضح أن المشاكل التى تعرض لها اليهود المصريون – بعد ذلك- لها صلة بالهجوم الإسرائيلى غير المبرر على مصر, ومازلت أذكر الجمل التى ذكرها اليهودي أندريه اسيمان فى كتابه الصادق, والتى عبر بها عن سعادة العائلة اليهودية السكندرية بحدوث العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، والفرحة العارمة للعائلة باحتلال بورسعيد، وقولهم إن هذه العملية العسكرية سوف تخلصهم من الحكم الوطنى المصرى, وسوف يعود الأمن والأمان والسعادة لهم فى وجود المستعمرين الإنجليز.

ويقول لاسكير إنه تم القبض على مئات من اليهود الذين احتجزوا فى مدارس اليهود, وتم وضع بقيتهم الإقامة الجبرية فى بيوتهم. ولم يقارن ذلك لاسكير بما حدث لليابانيين فى أمريكا بعد بيرل هاربر، وما حدث للألمان والإيطاليين فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، ولا غير ذلك من الحوادث الكثيرة المماثلة تاريخياً, فها هى حرب سافرة قامت بها إسرائيل الدولة اليهودية- بدون سبب واضح- على مصر, وسبقها ثبوت تهمة التخريب الذي قامت به إسرائيل بالاشتراك مع اليهود المصريين, و هجرة عدة آلاف من المصريين إلى إسرائيل، و إقامة جمعيات صهيونية، وإصدار صحف صهيونية لسنوات طوال فى مصر للدعوة إلى دولة اسرائيل بدون تدخل من مصر، وها هى هذه الدولة تهاجم مصر بدون سبب واضح, غير الحصول علي مكاسب عسكرية، وهى تعلم جيداً أن فعلتها هذه سوف تدمر العلاقة بين اليهود المصريين ووطنهم, وأنها

سوف تحطم أى محاولة لبناء الثقة بين اليهود المصريين و الدولة والأمة المصرية. وعندما يحدث مجرد وضع بعض اليهود تحت التحفظ تثور ثائرة لاسكير، ولم يحاول هذا الكاتب أن يربط بين غزو سيناء وما حدث لليهود. وفعلاً تم وضع ممتلكات ٤٨٦ مؤسسة يهودية تحت الحراسة, لكنها لم تكن وحدها، وإنما وضعت مؤسسات البريطانيين و الفرنسيين أيضاً تحت الحراسة لأنهم اشتركوا مع إسرائيل فى العدوان على مصر. ألم يحدث ذلك بسبب الهجوم الإسرائيلى؟ ، ألم تعرف إسرائيل أن ذلك سوف يؤثر على وضع يهود مصر؟ ألم تفكر فى مستقبلهم الاقتصادى؟ أو علاقتهم بالمصريين؟ أضرت عامدة متعمدة بمصالحهم ووضعتهم فى خانة أعداء المصريين، لأنها تريد أن تفرغ مصر من يهودها, حتى لو لم يذهبوا إلى إسرائيل. وأعتقد أن هذه أنانية شديدة تمثل قمة التطرف، وما فعلته إسرائيل يعني أن وجود جالية يهودية مصرية، كان سيظهر مصر بالمظهر الديمقراطى المتسامح الذى تسبق فيه المواطنة الديانة، ولكن إسرائيل أصرت على العدوان على مصر وأهلها, وأيضاً على يهودها, لأنها كانت تعلم أن عدوانها سوف يؤدى إلى خروج اليهود من مصر فى النهاية.

ماذا حدث لليهود فى الخمسينات والستينات؟

يقول توماس ماير إنه فى عام ١٩٦٩ صدرت دراسة غير عادية في سلسلة كتاب (الهلال) بمقدمة لأحمد بهاء الدين، والدراسة لأحمد أبو كف وأحمد غنيم, وهى الدراسة الأولى في هذا الموضوع فى العهد الناصرى. يشرح ماير قائلاً إن الكاتبين أشادا بالحرية الكاملة والمساعدة من الحكومة التى لاقتها الطائفة اليهودية فى العصر الملكى فى أوائل القرن العشرين، يقول الكاتبان إن الحياة المستقرة والمنتعشة اقتصادياً واجتماعياً بدأت تتأثر بالدعوة الصهيونية القادمة من الغرب, ولم يكن ذلك يسعد اليهود المصريين, وانتهى الأمر إلى جماعات إرهابية قامت باغتيال اللورد موين، وقد ورد في الكتاب أن اليهود قد قاموا بالإستيلاء على جزء كبير من الاقتصاد المصرى، ونشرت قائمة بالشركات التى يملكها اليهود بما فيها من أسماء كبار الرأسمالية والمديرين، وكان رأى الكاتبين أن الحركة الصهيونية هى المسئولة عن انهيار العلاقة بين مصر والجالية اليهودية. وقد جاء في الكتاب أن بعض اليهود المصريين كونوا الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية، وقد ذكرها أيضاً طارق البشرى فى كتابه المهم عن (تاريخ الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥-١٩٥٢).

يقول لاسكير إن وضع شركات اليهود تحت الحراسة أثر -أيضاً- على وضع الموظفين اليهود فى هذه الشركات، حيث فقدوا وظائفهم, وأثر ذلك على حياة اليهود بصفة عامة وأن السياسية المصرية للتخلص من اليهود المصريين شملت طرد اليهود من ناحية, وإعطاءهم فرصة الهجرة الاختيارية من ناحية أخرى, وشمل ذلك اليهود الذين بدون جنسية, ثم بدأ اليهود المصريون من حاملى الجنسية يطالبون بالهجرة و التخلى عن جنسيتهم, فهاجر٢٢ ألف يهودى خلال التسعة أشهر التالية لنوفمبر ١٩٥٦, وقد غادر الكثيرون منهم فى ظروف صعبة خلال أيام كما يقول لاسكير. وعندما راجعت المصادر المحايدة لم أجد فيها تأييداً لكتابات لاسكير. صحيح أنه حدثت حالات طرد لأعداد قليلة من الصهاينة الذين ثبت تعاملهم مع إسرائيل أثناء الحرب و بعدها، لكن الأغلبية اليهودية فى مصر لم يقم أحد بطردها, أو معاملتها معاملة سيئة. والواضح أن تأثير الهجوم البريطانى الفرنسى الإسرائيلى على مصر كان كبيراً, وكان اشتراك إسرائيل فيه غير مبرر، لأنها لم تكن لها علاقه بقناة السويس, وكان غرضها الوحيد التوسع وتحطيم الجيش المصرى, وهناك غرض خفى هو خلق مناخ غير صحى لحياة اليهود فى مصر، حتى يغادروها إلى إسرائيل. وخلال اللقاءات التى تحدثت فيها مع عدد من اليهود المصريين الذين خرجوا بعد ١٩٥٦. لم ألاحظ أن أحداً منهم طرد، وكانت المقولة المتكررة من الجميع بعد اشتراك إسرائيل فى العدوان على مصر عام ١٩٥٦ هي أنه (أصابنا خوف شديد من استمرار حياتنا فى مصر), وأنكر الجميع حدوث أى اعتداء أو تهديد عليهم، وأدى الخوف والسرعة فى التخلص من الممتلكات إلى بيعها بثمن بخس فى بعض الأحيان، خاصة محتويات الشقق البسيطة و المحلات الصغيرة، ولم يحدث ذلك مع كبار الأغنياء الذى باعوا كل ممتلكاتهم بالسعر المناسب, وحولوا أموالهم إلى الخارج بطرق غير قانونية. وإذا راجع القارىء الأحاديث التى أجريتها مع بعض اليهود, سيكتشف أن الرعب الذى اجتاح بعض اليهود كان غير مبرر. وقد قادت المنظمات الصهيونية واليهودية الأمريكية حملة ضخمة ضد جمال عبدالناصر ونظامه, واتهمته بالنازية وأنه استخدم موظفين سابقين من النظام النازى لاضطهاد اليهود. وادعى اليهودى المصرى موريس مزراحى أن النازيين الألمان فى مصر اتخذوا أسماء مصرية, وهذه الادعاءات بالطبع ينقصها أى إثبات. ومما لا شك فيه أن الخروج الكبير لليهود المصريين مأساة إنسانية كبيرة،

والكثير من هؤلاء اليهود هم مصريون أباً عن جد، عاشوا فى مصر حياة كريمة سعيدة, بل وكانت ظروفهم أفضل بكثير من ظروف بقية المصريين من مسلمين وأقباط، و سوف نرى أن نسبة كبيرة منهم كانت تحب مصر، وترى أنها وطنها الحقيقى, ولم تفكر أبداً فى الهجرة خارجها.

فيكتور نحمياس

في كتاب جديد نشر عام ٢٠٠٤ باللغة العربية يقول فيكتور نحمياس إنه فى عام ١٩٥٦ وقع العدوان الثلاثى لتحجيم عبد الناصر, واشتركت إنجلترا فى الحرب بسبب تأميم قناة السويس، وفرنسا بسبب الجزائر, وإسرائيل اشتركت فيها بوصفها حربا دفاعية قبل أن يتمكن الجيش المصرى من استيعاب صفقة الأسلحة التشيكية على حد قوله. وهذه الجملة الأخيرة كتبها نحمياس ولم يعلق عليها برأيه فى هذا النوع من الحروب ، وفى ذلك الوقت كان نحمياس مصرياً, من المفروض أنه تم الاعتداء على بلده عندما حاول أن ينمى قدراته الدفاعية التى ثبت أنها في غاية الضعف عام ١٩٤٨ وعند هجوم إسرائيل على غزة عام ١٩٥٤,

يقول نحمياس إن أغلبية اليهود فضلوا العيش فى كنف الحماية الأجنبية، وقال إن أقلية مثل سعد يعقوب مالكى رئيس تحرير جريدة (الشمس) كانوا مصريين مندمجين فى شعب مصر، وكان يؤمن بأن يهود مصر والشرق يمكن أن يكونوا جسراً بين الشرق والمغرب. وقال نحمياس إنه قرأ كل أعداد جريدة (الشمس) فى مكتبة الجامعة العبرية بعد هجرته إلى إسرائيل, وقال أنه كان يحضر اجتماعات مع الشباب اليهود – وهو فى الخامسة عشرة من عمره – ليتدارسوا أحوال وأخبار يهود فلسطين, وقال إنه درس العربية والقرآن الكريم.

وفور اتخاذ قرار السفر إلى إسرائيل ذهب إلى مكتب سياحة يهودى فى عمارة الإيموبيليا يمنح تذاكر السفر لمن يرغب دون أن يتقاضى شيئاً, وكانت الوكالة اليهودية تدفع ثمن التذاكر فى مقر شركة السياحة فى الخارج. ويذكر نحمياس أن لسان حال إسرائيل كان يقول إنه مادامت مصر قد تنازلت عن يهودها فنحن أولى بهم.

وحقيقة الأمر أن مصر لم تتنازل عن يهودها أبداً, وإنما كان معظم اليهود المصريين – وليسوا كلهم – قد تنازلوا عن مصر – وفى أحيان كثيرة بدأ التنازل عن

مصر فى فترة مبكرة جداً، حين أهمل الكثيرون من اليهود تعلم اللغة العربية، وحين فضل الكثيرون من اليهود أن يتجنسوا بجنسية أجنبية أو حتى يبقوا بدون جنسية عن أن يحصلوا على الجنسية المصرية، ولم يحاولوا الحصول عليها حين كان ذلك سهلاً ومتاحاً, وإنما حاولوا الحصول عليها عندما أصبحت مزايا الجنسية المصرية واضحة ولها فوائد كثيرة بعد أن قام البعض منهم بالانضمام إلى الحركات الصهيونية. وحين هاجر البعض إلى إسرائيل فى مراحل تاريخية مبكرة وانضموا إلى الجيش الذى هاجم سيناء عام ١٩٥٦. فإن الكثيرين منهم نسوا أو تناسوا أياماً جميلة فى مصر لهم ولآبائهم وأجدادهم، حيث عاشوا معززين مكرمين, ولم يذكر معظمهم مصر بكلمة طيبة إلا بعد زيارة أنور السادات إلى إسرائيل وإبرام اتفاقية السلام، حيث بدأوا يتحدثون عن الأيام الجميلة فى مصر.

يقول نحمياس إن إجراءات الخروج كانت سهلة، وحصلوا على وثيقة سفر بلا عودة. وكانت الوكالة اليهودية فى انتظارهم, ويقول إنه تذكر - على السفينة التى رحل عليها- خروج بنى إسرائيل من أرض الفراعنة. وهذا الكلام يؤيد ما قاله كل اليهود الذين قابلتهم, ويؤيد ما ذكر في الدراسات المهمة التي كتبت فى هذا الموضوع, ويخالف المقولة التي ترددها الدعاية الصهيونية من أن جميع اليهود طردوا وعذبوا وصودرت أموالهم. ويقول نحمياس إنهم لم يكونوا يملكون شيئاً يستحق أن يباع, أما حادثة ماكينة الخياطة التى تركتها أمه فى الجمرك فهى حادثة فردية من شرطى واحد, وحقيقة الأمر أن معظم كبار الرأسماليين اليهود باعوا ممتلكاتهم فى هدوء, وحولوا أموالهم إلى الخارج فى سهولة ويسر, وينطبق الأمر نفسه على الشريحة العليا من الطبقة الوسطى التى كانت تملك محلات أو ورشا صغيرة، أما المهنيون فقد استطاعوا أيضاً أن يبيعوا ممتلكاتهم ويهربوا أموالهم. أما أصحاب الدخول الصغيرة والمحلات الصغيرة وصغار الموظفين فلم يكن لديهم الاتصالات والخبرة والتفكير السليم فى تصفية أعمالهم ونقل أموالهم، أو كانت رؤوس أموال بعضهم ضعيفة، بحيث لا توجد سوق حقيقية لها, وينطبق هذا الكلام على عائلة نحمياس التى لم تكن تملك شيئاً غير شقة صغيرة، و هي أسرة شريفة تكد وتعمل لكسب قوتها، وحين جاءت ساعة الرحيل لم تجد شيئاً تبيعه أو أحداً تبيع له. وتحدث نحمياس عن الصعوبات الشديدة فى الحياة خلال السنوات الأولى للهجرة إلى إسرائيل.

يقول نحمياس إنه بالرغم من أن الفرصة لم تكن متكافئة لليهود الشرقيين ، فقد وصل معظمهم إلى مناصب مهمة فى إسرائيل, وعندما سأله مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة (المصور) لماذا لا يوجد ساسة مهمون فى إسرائيل من أصل مصرى؟ أجابه إجابة غير مقنعة, هى أنهم كانوا مشغولين ببناء حياتهم, وكأن بقية الإسرائيليين كانوا غير مشغولين بذلك لكنه قال بعد ذلك إنهم تعودوا على عدم الاشتغال بالسياسة فى مصر, والحقيقة أن اليهود فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شتغلوا بالسياسة فى مصر، وعندما قرروا الاغتراب داخل الوطن توقفوا عن العمل بالسياسة.

يحكى نحمياس عن دراسته للإعلام فى إسرائيل, وتركه دراسة الصيدلة التى كان قد بدأها فى مصر بعد ذلك فى القسم العربى بالإذاعة الإسرائيلية. يقول نحمياس إن المقاهى الشعبية فى معظم العواصم العربية كانت تستمع جهاراً إلى الإذاعة الإسرائيلية، وأنا أعتقد أن ذلك غير صحيح باعتباري شاهد عيان مهتم، وذلك على الأقل فى مصر، و أن أكثر الإذاعات أهمية في تلك الفترة الإذاعة البريطانية و صوت العرب.

أعتقد أن شخصية نشيطة ومتحمسة ولديها طمْوح مثل نحمياس, لو كانت تعيش فى أوائل القرن العشرين, ربما اشتركت مع سعد زغلول وأيدته دفاعاً عن مصر، لكنها جاءت فى النصف الثانى من القرن العشرين. وفى ظل الظروف السياسية التى أوجدها إنشاء دولة إسرائيل ما كان من الممكن أن يلعب دور مهما فى مصر بوصفه مواطنا مصريا، خاصة أنه كان شديد الشعور بيهوديته, حتى سن المراهقة.

يقول ألبير أوديز فى كتابه (نهار مصرى) المنشور بالفرنسية عام ٢٠٠٤ إنه في يوم الأحد من كل أسبوع في باريس يذكر طفولته فى مصر, وتهيم روحه بهذا البلد, ويتذكر مساء كل جمعة اجتماع الأسرة حول مائدة الطعام، ويقول ما زلت أذكر شتاء القاهرة الدافىء وشوارع الحى, ومحل نيكولاس الحلاق وحلمى الخردواتى, ومصطفى المكوجى, وما زلت أذكر رائحة البوظة مشروب البوابين الكحولى, فأنا ابن الظاهر, وولدت بالقرب من الميدان وغادرت مصر عندما كان عمرى خمسة وعشرين عاماً. وفى عام ١٩٣٥ أقيم احتفال البلوغلى (بارميتزفاه) يقول أوديز وما زلت أذكر شوارع القاهرة الخالية من

السيارات، وكانت الكثيرات من بنات البلد يلبس الملاءة اللف عند الخروج، ويذكر ردح هؤلاء السيدات (يا قعر الحلة يا إبرة مصدية يا حبل معدية ٠٠٠٠٠إلخ).

ويقول إنه كان في منطقتهم ثلاثة معابد يهودية كرايم وحنان والمعبدالكبير, وبعد حفل البلوغ الديني تبد أ الصلاة يومياً في الصباح لمدة عام ثم توقفت، والتحق بمدرسة قطاوي باشا الابتدائية، ثم مدرسة الليسيه الإسرائيلية التي أسسها البوجوازيون الفرنسيون عام ١٨٦٠ لتعليم اليهود في أنحاء العالم، وكانت الليسيه بالقرب من مدرسة ماري سوارس ونوتردام للبنات. ويقول أوديز "ما زلت أذكر الفتى الذي التحق بفصلنا عام ١٩٣٤ . وكان أسود اللون, وعرفنا أنه من اليهود الفلاشا، في الحبشة وأصبح هذا الطفل يعقوب تاديس وزيراً للزراعة مع هيلاسلاسي, وهاجر إلى إسرائيل بعد سقوط الإمبراطور".

وقد صمم والد أوديز على نقله من مدرسة الليسيه إلى مدرسة الظاهر، لأنها تدرس بالعربية مع الفرنسية، وقال له: إذا أردت البقاء في هذا البلد لابد أن تجيد العربية. ويضيف: ولم نكن أغنياء, لكن أمي كانت شديدة التدبير، وكنا نذهب للتصييف في رأس البر. وفي شبابه انضم إلى كشافة جمعية المكابي بفضل جاره ريمون استمبوللي الذي قدمه لهم.

ويقول أوديز إنه في ثلاثينات القرن العشرين كان يذهب إلى السينما بصفة منتظمة، وكان معظم الأفلام أمريكيا، والقليل منها فرنسيا، ولم تكن أفلاماً جيدة، وكان الجمهور يشارك في التمثيل أثناء العرض، وعندما يقبل البطل البطلة يصيح الجمهور "سيب النعجة يا خروف"، وعندما كان يطارد أحد البطل بسكين أو مسدس يصيح الجمهور (حاسب وراك) وعندما ينتصر البطل يصيح الجمهور: (ولا يا ولا).

ويتذكر أوديز رائحة الزهور والنباتات التي كانت تمنح القاهرة رائحة جميلة مميزة، ويقول: "في عام ١٩٤٦ كنت على مقهى في ميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن), وقمت بتوصيل أوديت إلى منزلها قبل العاشرة حسب التقاليد, وعندما ذهبت إلى المنزل صاحت والدتي من البلكونة: سلم نفسك للبوليس. وظهر أبي في البلكونة وتوسل إلى أن أسلم نفسي للبوليس, ورأيت عم يوسف البواب وبجواره مخبر، وسأله عم يوسف: هوه؟ فقال له (أيوه هوه). وذهبت إلى قسم البوليس، لأجد اثنين من أصدقائي هناك، هما

سيسانا وأصلان ومكثنا طوال الليل نتحدث, وفى اليوم التالى نقلونا إلى القسم الكبير فى باب اللوق, وهناك قابلنا عشرات من زملائنا الذين تم القبض عليهم, وعلمنا هناك أن قنبلة وجدت مخبأه في سينما مترو، وكانت فرصة للحكومة للقبض على كل اليساريين، وبالطبع لم يكن لأحد منا علاقة بالإرهاب.

وقد تكرر الأمر بصورة كبيرة عام ١٩٤٨ عند قيام إسرائيل، حيث قبض على الشيوعيين والصهاينة واليونانيين والمسلمين, الذين وضعوا فى الهاكستب فى القاهرة, وفى أبو قير فى الإسكندرية.

وفى ١٥ مايو ١٩٤٨ عند إعلان دولة إسرائيل حضر صديق إلى منزلى, وأخبرنى بأن حالة الطوارئ قد أعلنت، لكننا لم نعر الموضوع أهمية وكانت الدول العربية قد أعلنت أنها سوف تحكم دولة إسرائيل. ولم يكن لدينا خلفية سياسية، ولم يصبنا القلق أو الخوف, ولم نكن نعلم أن قيام إسرائيل سوف يغير حياتنا تغييراً جذرياً. و بعد الإفراج عن أوديز في ديسمبر ١٩٤٨ غادر مع زوجته أوديت – التي تحمل الجنسية الفرنسية – إلى مرسيليا، ليبدأ حياة جديدة. ماذا كان سيحدث لو لم يكن أوديز شيوعيا؟ كان سيبقى في مصر بدون مشاكل حتى عام ١٩٥٦، ثم يهاجر في فترة الخروج الكبير لليهود المصريين.

وبوصفي مصريا أعتقد أننى كنت أحب وأرغب أن يكون فى وطنى مصريون من كل الأديان مسلمين وأقباطا ويهودا, ومن كل الأجناس والأصول، ماداموا يحبون هذا الوطن ويعملون من أجله، ويعدون أنفسهم مصريين يدافعون عن الوطن.

يقول الروائى إبراهيم عبد المجيد إن عدوان ١٩٥٦ كان السبب فى كراهية المصريين للإنجليز والفرنسيين واليهود، وأن الدولة لم تطرداليهود, ولم تسجنهم باستثناء أعداد قليلة وجهت إليها تهم محددة, ورأيه أنه كان من الواجب الحفاظ على اليهود المصريين, وعدم تسهيل خروجهم, لأن ذلك أعطى قوة دفع لإسرائيل, وأساء إلى سمعة مصر.

ولقد كان وجود جالية يهودية مصرية وطنية خير دعاية لمصر فى معركتها الضارية مع الصهيونية العالمية التى اتهمت – ومازالت تتهم – مصر بالعنصرية والعدوان، وكنت أتمنى ذلك، ولكن هل كل الأمانى يمكن تحقيقها؟ بالطبع لا. إذن أين الخطأ؟ ولماذا

حدث هذا؟ إن شعب مصر لم يكن يريد طرد اليهود من أرضها، ولا يعقل أن شعباً استضاف اليهود المضطهدين المطرودين من بلاد كثيرة يفكر فى لحظة واحدة في طردهم. إذاً لماذا فى خمسة عشر عاماً - منذ ١٩٤٥ حتى ١٩٦٠ - حدث كل ذلك لليهود الذين عاشوا قروناً فى مصر؟.

لماذا خرج اليهود من مصر؟

ما الذى حدث فجأة وجعل حياة اليهود فى مصر غير ممكنة؟. أثبت التسلسل التاريخى الذى ذكرناه أنه حتى نهاية الثلاثينات لم تكن هناك مشكلة، بالرغم من أن الصهيونية بدأت نشاطها فى إنشاء دولة إسرائيل منذ القرن التاسع عشر لكن ما حدث هو أن الصهيونية فى فلسطين اتخذت إجراءات عنيفة أدت إلى طرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين من بيوتهم وأراضيهم, وبدأ الشارع المصرى يتعاطف مع الفلسطينيين, وربما كانت أحداث فلسطين هى التى غيرت توجه مسار الشارع من تيار مصرى وطنى إلى تيار عربى قومي. ومما لا شك فيه أن أى إنسان على وجه الأرض يرى ما حدث للفلسطينيين, لابد أن يتعاطف معهم, حتى لأسباب إنسانية. وقد قام أغنياء اليهود المصريين فى تلك الفترة بالضغط على أصدقائهم من الحكام المصريين لتهدئة الرأى العام, وحاولت مجموعة منهم الضغط على الجماعات الصهيونية فى مصر للتوقف عن نشاطها، ولو كان اليهود المصريون يريدون فعلاً أن ينصهروا فى بوتقة الشعب المصرى لأعلنوا بوضوح أن ما يحدث فى فلسطين عمل غير إنسانى, وأنهم يتفقون مع الشعب المصرى فى تأييده للفلسطينيين، لكن ذلك لم يحدث, بل بالعكس عندما قويت شوكة الدولة اليهودية, حتى قبل إعلانها تحول بعض اليهود المصريين إلى الصهيونية وبدأت هجرة البعض إلى فلسطين.

وعندما قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ كانت حريصة على طمأنة اليهود والحفاظ على ممتلكاتهم وأمنهم, وكانت هناك أقاويل عن احتمال قيام مباحثات بين عبد الناصر وإسرائيل, لكن الحكومة الإسرائيلية سرعان ما نظمت عملية سوزانا التى جندت فيها يهوداً مصريين، و أظهرت اليهود بمظهر الطابور الخامس فى وطنهم, ورداً على إعدام إثنين من الإرهابيين اليهود, قامت بالهجوم على غزة, وكل ذلك كان بغرض وضع إسفين بين مصر ويهودها، ثم كان العدوان الثلاثى الذى اشتركت فيه إسرائيل بدون

سبب، وشارك ضمن جنودها اليهود المصريون الذين جندوا فى إسرائيل.

وهناك عوامل أخرى أدت إلى إنهاء العلاقة بين اليهود المصريين ووطنهم، من أهم هذه العوامل ازدياد النفوذ الصهيونى العالمى, والذى أصبحت له سطوة كبيرة وقوة ضغط على اليهود المصريين لترك الوطن, وقوة ترغيب في حياة أفضل فى إسرائيل أو غيرها, ومن الأسباب الأخرى التغيرات التى حدثت فى مصر, إذ لم تعد الوطن الذى يعطى اليهود مميزات اقتصادية، فالتوجه الوطنى كان ضد كل القوى الأجنبية أو المرتبطة بقوى أجنبية، وكان التوجه الاشتراكى واضحاً في أنه سوف يحرم اليهود من مميزات كثيرة. وهنا كان القرار قرارهم، مصر بلد جميل، وأهله طيبون، والحياة فيه ممتعة بشروطنا وبوضعنا المتميز، وفيما عدا ذلك لا تربطهم به إلا ذكريات جميلة وأرباح اقتصادية عظيمة.

اليهود المصريون من ١٩٥٧ حتى نهاية الستينات

يقول لاسكير إنه خرج من مصر بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٠ نحو٣٦ ألف يهودى، وبقى من ٨-١٠ آلاف يهودى حتى نهاية الستينات . يقول لاسكير إن نظام عبد الناصر أراد إلغاء كل القيم والأفكار وطريقة الحياة, التى كانت تتميز بها الأقليات فى مصر من مختلف الجنسيات والديانات. وكان إلغاء القضاء الشرعى والملى لمختلف الملل والأديان خطوة على هذا الطريق. وكانت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ عاملاً فى تغير قانون الجنسية وإعطاء حرية أكبر للعرب في الحصول على الجنسية المصرية ومنع الجنسية لمن يدين بالولاء للصهيونية. ورفضت الحكومة إعادة ممتلكات اليهود الذين تركوا البلاد, حتى الحاصلون منهم على الجنسية البريطانية أو الفرنسية، بالرغم من الأتفاقية الموقعة بين البلدين, أما اليهود الذى لم يغادروا مصر فقد أعيدت إليهم ممتلكاتهم عام ,١٩٥٧

وحسب قول لاسكير فإن الحكومة المصرية والصحف حتى عام ١٩٥٧- وأثناء العدوان الثلاثى - فرقت بوضوح بين الصهيونية التى تمثل عداء لمصر، وبين اليهودية الدين السماوى الذي يحترمه الجميع. لكنه يقول إنه منذ عام ١٩٥٨ زالت هذه التفرقة, وبالتالى أصبحت الدعاية الناصرية ضد اليهود موجهة أيضاً ضد يهود الوطن, ويعتقد لاسكير أن قانون العمل أفقد الكثير من اليهود- حتى الحاصلون منهم على الجنسية

المصرية – وظائفهم، وكذلك حدد إصدار تراخيص العمل للأجانب و فرص العمل لليهود غير المصريين، وهو الأمر الذى أعتقد أنه مطبق فى العالم كله، ولا غبار إذا قرئت النصوص بعيون محايدة. ويقول لاسكير إن القانون ألزم العاملين الأجانب باستخراج بطاقة عمل مدون فيها الديانة مما قلل فرص العمل لليهود. وأعتقد – ويعتقد معى الكثيرون من المصريين- أن كتابة الديانة فى أى نوع من البطاقات الشخصية أو بطاقات العمل شيء غير حضارى, ولا لزوم ولا فائدة منه, وأنه يسبب أضراراً نفسية كبيرة للأقليات, وها هم اليهود قد خرجوا, ومازال هذا القانون مستمراً, مما يعني أنه لم يكن موجهاً ضد اليهود, وإنما هو قانون سببه ضيق الأفق وقصر نظر الحكام, ولا يراعى نفسية الشعب ولا حقوقه الأساسية. ويدعى لاسكير أن سجل المصدرين و المستوردين ووكلاء الشركات الأجنبية أتاح الفرصة للمصريين والأجانب، وتعنت مع اليهود, سواء كانوا مصريين أو أجانب.

وأخيراً هناك قوانين التأميم التى يقول لاسكير إنها طالت اليهود بعنف, لكن الحقيقة أنها طالت الجميع، وكان المصريون مثل الأجانب تماماً, فقد كان هذا هو مشروع الدولة الناصرية نحو الاشتراكية ونحو ملكية الدولة لجميع موارد الإنتاج الصناعى الزراعى, والتحكم الكامل للدولة فى الاستيراد والتصدير, ولا يمكن القول إن هذا القانون- الذى سلب القطاع الخاص فى مصر كل أمواله ومصانعه و شركاته – ضد اليهود, فمن الواضح أن هذه كانت سياسة دولة طبقت على الجميع.

يقول لاسكير إن نحو ١٣ ألف يهودى مصرى نقلتهم الوكالة اليهودية العالمية إلى إسرائيل، و ٥ آلاف استقروا فى فرنسا، و نحو ألفين فى أمريكا الجنوبية، وألف فى هولندة والباقى في الولايات المتحدة، وساعدت الحكومات الأوروبية والأمم المتحدة فى نقلهم ومساعدتهم بوصفهم لاجئين.

وكانت فرنسا أكثر الدول مساعدة واستقبالاً لليهود. وقد نجحت المفاوضات بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية من جانب, والمصرية من جانب آخر فى إعطاء بعض التعويضات, وكذلك السماح بجمع بعض المتعلقات و الممتلكات المنقولة. وقد قامت الوكالة الدولية لليهود بالصرف على ترحيل اليهود وتسكينهم فى البرازيل والأرجنتين و فنزويلا.

ويبدو أنه بعد موجة الهجرة الأولى إلى إسرائيل وأمريكا الجنوبية كان المكان المفضل لليهود المهاجرين أوروبا, وبالذات فرنسا. ومن الغريب - كما يقول لاسكير- أن مصر وتونس كانتا الدولتين الوحيدتين اللتين سمحتا بهجرة اليهود من بلادهم إلى الخارج.

وفى مقابلة بين حاخام الإسكندرية مع الوكالة اليهودية - أثناء توجهه إلى الأرجنتين- قال إن أحوال اليهود (فى ذلك الوقت عام ١٩٥٨) جيدة، وإن الكثيرين منهم لا يرغبون فى الهجرة, ولايشعرون بأن الحياة فى الخارج سوف تكون أحسن.

وكل هذه الحكايات من لاسكير تشير بوضوح إلى أنه طوال الوقت لم تكن هناك ضغوط شعبية على اليهود من جيرانهم من المسلمين والأقباط, وأن المشاكل كانت أساساً اقتصادية خاصة بوضع البعض تحت الحراسة أو تأميم ممتلكاتهم، لذا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن هذا الأمر كان سياسة الدولة، وقد بدأت ضد الأجانب, ثم بعد وقت قصير للغاية طالت المصريين الذين أخذت ممتلكاتهم أيضاً، ولم يعان اليهود في مصر من الاضطهاد الذى لا يمكن مقارنته بما حدث لليهود فى أوروبا. نعم هناك فترة قصيرة من عمر مصر - لظروف سياسة وحربية وأمنية خاصة للغاية - جمع فيها بعض اليهود فى معتقلات لفترات كانت غالباً قصيرة، لكن فى الوقت نفسه أُعتقل الآلاف من المصريين المسلمين والأقباط لفترات أطول بكثير, ونالوا من التعذيب وسوء المعاملة ما هو أكبر بكثير, بل ولا يمكن مقارنته بما حدث لليهود.

صحيح أيضاً أن بعض ممتلكات اليهود وضعت تحت الحراسة وأممت، لكن الصحيح -أيضاً- أن ممتلكات أعداد أكبر بكثير جداً من بقية المصريين قد صودرت وأممت فى فترة زمنية قريبة من وقت تأميم الممتلكات اليهودية، وهو ما يعنى أن الأمر سياسة دولة أساساً , وهنا أعود إلى كلمة اضطهاد Persecution بمعناها المعروف فى أوروبا وحين يتكلم أحد عن اضطهاد اليهود فى مصر يجب أن يعرف أن هذه الكلمة مرتبطة بأشياء معينة حدثت فى أوروبا, وأنه لا مثيل لذلك حدث لليهود فى مصر, وأن التمييز وسوء المعاملة ووضع الأموال تحت الحراسة لم يختص به النظام اليهود فقط، بل خص كل الأجانب والأغنياء المصريين مسلمين وأقباطا.

أحوال اليهود بين عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٧

حسب تقدير لجنة تقصى الحقائق الدولية فقد أفاد بأن يهود القاهرة كان معظمهم من السفارديم, برئاسة المحامى ألبير رومانو، على حين كان الأشكيناز يشكلون أقلية برئاسة المحامى جوزيف وينشتين وكان الحى اليهودى قد هجر الكثير من سكانه، وأغلق المستشفى الإسرائيلى، على حين ظل بيت العجائز اليهود مفتوحاً، وكذلك المركز الاجتماعي لليهود. وكان اليهود الأشكيناز الذين يقطنون أحياء وسط المدينة قد بقى منهم نحو ١٦٠ عائلة فقط، وكان هناك بعض الأغنياء من كلا الفصيلين يسكنون الأحياء الراقية، وكانت هجرة القيادات الغنية من جماعة السفارديم سبباً فى تدهور أحوال الجالية، وكان يرأس الجانب الديني الحاخام حاييم ناحوم أفندى الذى كان قد قارب التسعين من عمره وضعفت صحته. وكان الموقف أفضل فى الإسكندرية تحت قيادة موريس مزراحى.

وكان سلفاتور ورينيه شيكوريل قد غادرا مصر عام ١٩٥٧ بعد أن باعا متاجرهما الكبرى للسيدة قوت القلوب الدمرداشية، وعادا لفترة قصيرة عام ١٩٥٨ لبيع بقية ممتلكاتهما, وباع جاتنيو متجره الفاخر للتاجر السورى عبدالقادر الحراكى. وتوفى الحاخام ناحوم أفندى بعد تاريخ حافل عام . ١٩٦٠ وخلفه الحاخام حاييم دويق من الإسكندرية.

وفى ذلك الوقت كانت وزارة الشئون الاجتماعية قد ضيقت الخناق على كل الجمعيات الأهلية فى مصر, و منها الجمعيات اليهودية، وهو الشىء الذى لم يكن موجهاً ضد اليهود، وإنما ضد نشاط المجتمع المدنى بصفة عامة. والحقيقة أن القوانين المكبلة للعمل العام فى المجتمع المدنى مازالت موجودة فى مصر, وتحكم النشاط الأهلى كله، واستمرت بعد ذلك هجرة اليهود بدرجة أقل، وفى عام ١٩٦١ بقى فى مصر ٧ آلاف يهودى فى القاهرة والإسكندرية، منهم ألفان من طائفة القرائين و٥٠٠ أشكينازى, واستمرت الهجرة منذ عام ١٩٦٢ بدرجة أقل, حيث هاجر ٢١٠٠ حتى عام ١٩٦٣. واستمرت الهجرة بمعدل مائة شخص فى الشهر. وحتى عام ١٩٦١ ترددت كثير من العائلات اليهودية فى بيع ممتلكاتها فى مصر, لأنه كان لديها أمل فى عودة الحالة الطبيعية، لكن بعد ذلك التاريخ تيقنت الجالية أنه لا مستقبل لليهود فى مصر.

واستمر رومان رئيساً للجالية اليهودية, لكن بعد هجرة مساعده جروينبرج إلى كندا لاقى صعوبات مع أعضاء المجلس الذين اتهموه بعدم تنفيذ قرارات المجلس, واتهموه بسرقة أموال المعونات التى تصل إلى الجالية من الخارج, وحدثت أيضاً خلافات بين اليهود الأشكيناز والسفارديم. وكانت العائلات التى هاجرت فى الستينات هى العائلات التى لديها أبناء تخرجوا في المدارس الثانوية ولم ترغب العائلات في إدخال أبنائها الجامعات المصرية، وفضلت العائلات التى لديها أطفال صغار الأنتظار فى مصر مدة أطول. يقول لاسكير إنه فى تلك الفترة لم تكن هناك فرصة لليهود أو المسيحيين من أصول أجنبية في الحصول على أى مناصب، وكانت الفرص المتاحة للمسلمين والأقباط فقط. وبعد حرب ١٩٦٧ تبقى فى مصر ٢٥٠٠ يهودى انخفضوا إلى ألف فى نهاية عام ١٩٦٨,

وخلال الفترات الأولى التى تلت الحرب قبض على نحو أربعمائة يهودى من الرجال لعدة أسابيع, وأفرج عنهم تدريجياً, وترك الكثيرون منهم مصر خلال أشهر قليلة ويشكو لاسكير من المعاملة داخل سجن طرة التى لم تكن جيده ويقول أنه كان هناك جهاز تليفزيون واحد لكل السجناء اليهود, ويبدو أن لاسكير لا يعرف –أو يتناسى– وضع السجون فى مصر ففي الوقت نفسه كان هناك الألوف من السجناء السياسيين المصريين من اليساريين والإخوان المسلمين وبعض السياسيين القدامى ، وقد لاقوا أشد العذاب وأسوأ معاملة مقارنة بهم, كان المساجين اليهود يعيشون كأنهم فى فندق خمس نجوم. وبعد خروج اليهود من المعتقل احتضنتهم القنصلية الفرنسية وأعطتهم وثيقة سفر مؤقتة للسفر إلى الخارج, وقد أثار سجن بعض اليهود فى مصر موجة احتجاجات في أوروبا وأمريكا. وقد خرجت آخر مجموعة من السجناء اليهود, وعددهم ثمانون، واشترط عليهم أن يوقعوا على وثيقة تخل عن الجنسية المصرية، ووافقوا ماعدا اثنى عشر رفضوا التخلى عن الجنسية المصرية. وفى سبتمبر ١٩٧٠ تبقى ٣٠٠ يهودى فى مصر من أصل٨٠ ألفا عام ١٩٤٨,

يقول لاسكير إن استقلال دول الشرق الأوسط – الذى بدأ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية– أدى إلى ظهور قوى وطنية لديها شعور عدائى نحو الأقليات، الذين كثيرا ما ساندوا المستعمر أثناء فترة حكمه, ويقول إن هذا الشعور لا يشمل اليهود فقط, وإنما يشمل أيضا الأرمن واليونانيين و الايطاليين وغيرهم. وقد ساعد على ذلك تنامى الروح الوطنية التى التفت حول حلم الوحدة العربية.

هجرة طائفة القرائين من مصر

كتب بنيين دراسة ممتازة وموثقة عن اليهود القرائين المصريين. وتقول إحصائيات الوكالة اليهودية إنه كان يقطن القدس عام ١٩٤٨ يهودى واحد من طائفة القرائين, بقى ليحافظ ويرعى أملاك الطائفة. وبعد عام ١٩٤٨ هاجرت أعداد قليلة من القرائين إلى إسرائيل من فقراء اليهود، على حين بقي رجال الأعمال و الحرفيون فى مصر, ولم يكن لدى أهل الطائفة الرغبة فى ترك حياة المدينة والهجرة لإصلاح الأرض وزراعتها فى المستعمرات. وكانوا واعين بالصعوبات الاقتصادية فى إسرائيل فى أوائل الخمسينات، وحسب إحصائيات بيت الدين (مقر القرائين فى القاهرة) فإن أقل من مائة يهودى من الطائفة غادروا مصر قبل عام ١٩٥٦، لكن موريس شماس الذى هاجر فى الخمسينات يقدر العدد بنحو خمسمائة.

ومنذ هجرتهم إلى إسرائيل تم توطينهم فى مدينة الرملة لكنهم فوجئوا بالاعتراض عليهم بحجة أنهم ليسوا يهوداً, بل وصدر قرار بمنع هجرة القرائين إلى إسرائيل ، وأدى ذلك إلي موجة من الغضب فى الدوائر الصهيونية فى مصر، التى أوقفت الهجرة إلى إسرائيل حتى تم إلغاء القرار. ومرت فترة فى إسرائيل إلى أن عد القرائون يهوداً يمكنهم أداء الخدمة العسكرية، وقد أدى ذلك إلى موقف غريب من طائفة يهودية موجودة فى مصر, لها تاريخ عريق, وتعامل من الجميع بوصفها طائفة يهودية لها حاخام خاص, وعندما هاجر أفرادها إلى أرض الميعاد كان ينظر إليهم على أنهم ليسوا يهودا . وعندما حاول يوسف مرزوق أخو موسى مرزوق الذى أعدم فى مصر بعد اشتراكه فى عملية سوزانا الزواج, رفضت السلطات الدينية زواجه من يهودية ربانية, بدعوى أنه ليس يهودياً, وأثار الأمر جدلاً انتهى بتحويل الأمر إلى حاخامية يافا, وهى الأكثر ليبرالية، وقد وافقت علي الزواج, على أن يكون حالة فردية لا تمثل عرفاً فى المستقبل لبقية أفراد طائفة القرائين.

ولم يشجع حاخام القرائين أعضاء الطائفة على الهجرة إلى إسرائيل، ورأى أنهم آمنون فى مصر ومندمجون في المجتمع, وكان يعلم المشاكل التى سوف تصادفهم فى إسرائيل, وقد كان تأثيره قوياً, لأن معظم اليهود القرائين لم يغادروا مصر حتى حرب ١٩٥٦، عندما غادر أربعون بالمائة منهم، واتجه معظمهم إلى إسرائيل. وعندما غادر

مراد القدسى مصر عام ١٩٥٩ كان ألفان من الطائفة مازالوا فى مصر, وقد طالت قوانين التأميم المصرية اليهود وإغلقت المدارس الابتدائية للطائفة، مما اضطر أفرادها إلى الهجرة إلى الخارج, وفى عام ١٩٧٠ كان قد بقى منهم نحو مائتين فقط, وقد هاجر في أوائل الخمسينات و الستينات أعداد من اليهود القرائين إلى الولايات المتحدة، واستقر معظمهم فى منطقة سان فرنسيسكو, وانتشرت مجموعات صغيرة فى بقية الولايات المتحدة.

و حسب قول بنيين فإن أفراد المجموعة فى سان فرنسيسكو جاهدوا فى إحياء الطائفة بتقاليدها المصرية. ويحكي بنيين قصة يعقوب فرج صالح المولود عام ١٩١٣، وهو عميد طائفة القرائين فى سان فرنسيسكو, وكانت عائلته قد هاجرت إلى مصر من تونس فى منتصف القرن التاسع عشر، وكان أول دفعته في كلية الهندسة عام ١٩٣٦، والتقطت له صورة مع الملك فؤاد بهذه المناسبة، وقام بتصميم ملاجئ للحماية من الغارات الجوية على الإسكندرية أثناء الحرب العالمية، وشارك المصرى المسلم يحيى نسيم فى مكتب هندسى ناجح, واشترك فى تصميم مبان ومشروعات كثيرة فى مصر, وكان يسكن فى منزل فاخر فى ضاحية مصر الجديدة, وكانت زوجته نيللى نشيطة فى نادى هليوبوليس, وكانت تنظم دروسا رياضية للسيدات, وكان ضمن مجموعتها حرم عبداللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة الثورة, وكان أيضاً عضواً نشطاً فى الحركة الماسونية المصرية, وكانت ابنتهما نادية عضوا فى فريق مصر القومى للباليه المائى, ومثلت مصر في بطولة دولية أقيمت فى دمشق عام ,١٩٦١ وكانت نادية الصديقة الحميمة لشهدان الشاذلى بنت سعد الدين الشاذلى, الذى أصبح فيما بعد رئيس أركان حرب الجيش المصرى, وبعد أن هاجرت شهدان إلى كاليفورنيا, تجددت العلاقة التى استمرت حتى الآن بين نادية صالح اليهودية المصرية و شهدان الشاذلى بنت أحد أبطال حرب أكتوبر من المصريين. وعندما طُلب من يعقوبْ عدم الذهاب إلى نادى هليوبوليس عام ١٩٦٢، قرر الهجرة ورفض الذهاب إلى إسرائيل، وانتهى به المطاف في كاليفورنيا. و كانت عائلته تشعر دائماً بأنها مصرية، وقد أحبت مصر وغادرتها مضطرة.

ومثال آخر تحدث عنه بنيين، هو هنرى مراد المولود عام ١٩٤٥، والذي التحق بالمدارس الإسرائيلية الفرنسية، وكان يسكن في منطقة الظاهر، ويجيد العربية كأهلها,

وجده كان يملك شركة ناجحة للمصوغات والمجوهرات، لكنه وضع تحت الحراسة عام ١٩٥٦، وأممت ممتلكاته عام ١٩٦١، واضطر إلى أن يغادر مصر عام ١٩٦٤، ومازال يذكر بمرارة سوء المعاملة أثناء مغادرته مصر، وكذلك يذكر المعاملة السيئة له في كلية الهندسة بوصفه يهوديا، ويقول إنه شعر بالفخر للعمل (البطولي) الذي قام به اليهودي موسى مرزوق في عملية سوزانا، والذي أعدم بسببها، لكنه مازال يذكر مصر الدولة الأم أما زوجته درية المولودة أنها عام ١٩٤٨ فكانت تقطن الزمالك، التحقت بمدرسة الليسيه، ورفضت تعلم العربية التي رأت، لغة غير مهمة لها، وقد غادرت عائلتها مصر عام ١٩٦٢. وكان عمرها وقتذاك أربعة عشر عاماً ، ورفضت أن تذكر أي انتماء إلى مصر.

وأعتقد أن المقارنة بين هاتين العائلتين اليهوديتين مهم، فالأجيال القديمة مثل عائلة يعقوب صالح عاشت في مصر حياة رائعة، واندمجت في المجتمع بوصفها عائلة مصرية لم تشعر بأي فرق مع بقية المصريين، بل بالعكس كان مستواها الاجتماعي أعلى من مستوى الشعب المصري، ولم تكن المشكلة الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي قد ظهرا على السطح، لذا عاشت عائلة يعقوب صالح حياتها في مصر بدون مشاكل وظهرت بعض المشاكل البسيطة في فترة بعد حرب ١٩٥٦، ولأن طائفة القرائين كانت تعد مصرية، فإن أوضاعهم لم تتأثر كثيراً بعد ١٩٤٨. والدليل على ذلك أن ابنتهما مثلت مصر دولياً عام ١٩٦١. وأصبح وضع أفراد العائلة صعباً فقط بعد القرارات الاقتصادية عام ١٩٦١، بعد أن تم عزلهم عن المجتمع المصري، لذا لا تحمل هذه العائلات ضغينة لمصر، وتذكر أيامها الحلوة فيها، برغم مرارة النهاية. ولابد أن نذكر أن هناك عائلات مصرية مسلمة وقبطية تم أيضاً عزلها عن المجتمع ومنع دخولها النوادي في تلك الفترة.

أما عائلة مراد، فالأمر فيها مختلف، فمراد من مواليد ١٩٤٥، وهو ما يعني أنه كان تلميذا في المدرسة إبان حرب ١٩٥٦. حين هاجمت إسرائيل الأراضي المصرية، وكان طالباً في الجامعة في الستينات في عصر الثورة القومية العربية التي أشعلها عبد الناصر، وكانت أكبر عدو لإسرائيل و الصهيونية العالمية، وطال ذلك بطريقة أو أخرى الديانة اليهودية، لذا لم يشعر مراد أبداً بالانتماء إلى مصر، بل كان يشعر بالخوف من زملائه المصريين، ووصل الأمر به إلى مصر أنه شعر بالفخر لأن يهوديا مصريا – لا

يعرفه - فجر القنابل فى مؤسسات مصرية وأجنبية داخل مصر, ليحرج شعبها وحكومتها، ولم يعش فرح أيام الأخوة والمساواة بين اليهود و بقية المصريين، أما زوجته فبالرغم من انتمائها إلى طائفة القرائين, إلا أنها كانت خواجاية لم تعرف اللغة و لا الناس, وغادرت مصر فى سن المراهقة.

وبعد الهجرة كانت أعداد أفراد الطائفة قليلة، وعاشت تحت ضغوط الاندماج فى المجتمع الأمريكى ككل، و الجالية اليهودية التى لا تعرف شيئاً عن مذهب اليهود القرائين, وقد صادفت القرائين متاعب الحياة و العمل, فلم يلتفتوا إلى تنظيم أحوالهم لعدة سنوات، حتى استقر بهم الحال وبدأوا فى تنظيم مجتمعهم. وكان جوزيف بساح وزوجته ريموند أنشط أفراد الطائفة، و قد نشأ الاثنان فى حارة اليهود القرائين و درس جوزيف الهندسة فى جامعة القاهرة. وكان يشعر بالفخر كلما رأى موسى مرزوق فى المعبد اليهودى, وذلك لوضعه الاجتماعى المتميز بوصفه طبيبا، وبعد القبض على مرزوق فى قضية سوزانا الشهيرة بتهمة الجاسوسية شعر جوزيف بأنه أيضاً يريد أن يكون جاسوساً, كما صرح بذلك لبنيين، وقد شعر بالحزن الشديد عند إعدام مرزوق.

وفى حقيقة الأمر فإن هذا الشعور غريب, فمهما كان الأمر فقد عاش - جوزيف كما عاش آباوه فى مصر - بدون مشاكل حقيقية، ضمن أقلية يهودية، وتعلموا فى مصر ودرسوا فى جامعتها. صحيح أن الظروف السياسية والضغوط الصهيونية حولت مشاعر بعض اليهود لصالح الصهيونية وأرض الميعاد, إلا أن الإحساس بالرغبة في أن تكون جاسوساً ضد البلد الذى ولدت و عشت فيه، يعد شعوراً خطيراً وغريباً، خاصة أن تلك الحادثة كانت عام ١٩٥٤. حين كانت مشاكل اليهود المصريين مازالت محدودة للغاية, ولم يكن الشعور القومى المصرى قد تأجج ضد الصهيونية كما حدث بعد ١٩٥٦ وظهور عبدالناصر بوصفه بطلا قوميا، وفىذلك الوقت كانت جريدة "الكليم" النصف أسبوعية مازالت تصدر بلسان حال طائفة القرائين التي ينتمى إليها جوزيف, ومن الغريب أن يصرح جوزيف بأنه يريد أن يصبح جاسوساً يعمل ضد مصر، و كان عمره يومئذ لم يتعد التسع سنوات، لأنه ولد عام ١٩٤٥، إلا إذا كانت بقية العائلة والأصدقاء قد شربوه وغذوه بهذه الكراهية لوطنه. ويبدو أن هذا المثال من اليهود القرائين نادر, لأن تصرف معظم أبناء هذه الطائفة كان - ومازال- مختلفاً تجاه الوطن الأم. يقول جوزيف إن القرائين يعاملون أبناءهم كالمجوهرات الثمينة، وقد احتجز فى الحبس

الاحتياطي بعد حرب ١٩٦٧. وفي عام ١٩٧٠ هاجر إلى الولايات المتحدة. وحاولت الجالية التجمع, لكن المجتمع الأمريكى بقوته استطاع أن يدمج داخله الجيل الثانى من القرائين الذين تزوج الكثيرون منهم مسيحيين أمريكيين، وانصهروا فى المجتمع الأمريكى الكبير.

وبالرغم من ذلك أنشأت الطائفة فرعاً لها فى سان فرنسيسكو, وأعلن ذلك رسمياً عام ١٩٨٣, ثم مجلة تحمل أخبار الجالية من القرائين وبعض تاريخهم، وأنشأوا معسكراً للأطفال والشباب فى كل صيف لمدة أسبوعين, للمحافظة على التقاليد و الثقافة الخاصة بهم، وحيث إن قوانين المذهب لا تسمح بالزواج من غير القرائين, ولا تسمح أيضاً بتحول اليهود الربانيين إلى قرائين، فقد أصبح احتمال الزواج بين أبناء الطائفة ضعيفاً، وأدى ذلك إلى الزواج من خارج الطائفة.

ولقد بدأ داود ليشع مشروعاً كبيراً عام ١٩٩٣, يتمثل فى رسم شجرة عائلة لكل طائفة القرائين من القاهرة, حتى تعرف الأجيال المختلفة علاقتها وأصلها، وكذلك ساهم الجميع فى تكاليف مجلة (اليهود القراءون المصريون) التى كان يصدرها مراد القدسى حتى توفى عام ١٩٨٦, وحاولت الطائفة أن تحتفظ بعلاقتها مع إسرائيل, وكذلك مع مصر, وأن تشجع الأبناء على سماع الموسيقى المصرية, التى هى جزء مهم من تراثهم. ومازال الكثيرون من كبار السن يحافظون على قراءة الصحف المصرية. ويعتقد بنيين أن طائفة القرائين تحمل الشخصية المصرية بطابعها وثقافتها – ولا تريد فى معظم الأحيان – أن تخفيها, بالرغم من أن النظرة الأمريكية و الإسرائيلية لكل ما هو عربى نظرة سلبية.

الخروج من مصر
حكاية عائلة يهودية سكندرية

لقد كان الانتهاء من بناء مكتبة الإسكندرية وافتتاحها حافزا لكثير من الكتاب و المفكرين للكتابة عن القلعة العلمية و الثقافية العظيمة التى تمركزت في مكتبة الإسكندرية القديمة. و تناولت الكتابات أيضا مدينة الإسكندرية ذات الطابع الكوزموبوليتاني فى نهاية القرن التاسع عشر، حتى العقد السادس من القرن العشرين.

و مما لا شك فيه أن النوستالجيا لعبت دورا مهما عند الكتابة عن تاريخ الإسكندرية الحديث. فالأجيال التي تعدى عمرها الستين عاما تتذكر الإسكندرية النظيفة الجميلة الهادئة المليئة بالمطاعم و الكازينوهات و المقاهي، و كانت المدينة مرتعا للفنون التشكيلية الرائعة المستوى. و كل من يتذكر رواية لورنس داريل "رباعية الإسكندرية" يعيش الحياة السكندرية في مطلع القرن العشرين، و من يقرأ ترجمات نعيم عطية الراقية لأعمال كفافيس يحس بتأثير الإسكندرية الشعرى الساحر. و من المؤكد أن بعض المعاصرين يتذكرون ليالى الإسكندرية الساحرة و العشاء البسيط فى تافرنا في وسط المدينة، و لم يكن أحد من المصريين سعيدا بتدهور أحوال الإسكندرية خلال أربعين عاما، حتى إن العقل الباطن للكثيرين منا جعلهم يبدون أسفهم على الهجرة الجماعية للأجانب التى حدثت خلال عقدين من الزمان، و كنت شخصيا أود أن تحتفظ الإسكندرية بطابع خاص لها, كما تحتفظ أسوان و الواحات بطابع خاص. وفى كتاب أندريه أسيمان "الخروج من مصر" يحكى المؤلف قصة حياة العائلة اليهودية التى عاشت فى الإسكندرية أكثر من خمسين عاما فى القرن العشرين, وهاجرت - بعد ذلك- إلى الخارج، و الكاتب بقلم أحد أفراد الجيل الرابع لهذه العائلة. و لقد خرجت بعد قراءة الكتاب بانطباع بأن الكاتب صريح و صادق, و يحكى تاريخ الأسرة ببساطة و دقة، و ربما يكون من أسباب ذلك أن الكاتب كان شاهد عيان على كثير من الأحداث, وأنه قابل بعض أفراد العائلة من كبار السن الباقين على قيد الحياة، وجلس معهم للتوثيق و التأكد من معلوماته، وأن معظم - إن لم يكن كل- أفراد العائلة الذين ذكرهم الكاتب كانوا قد غادروا الحياة عند نشر الكتاب, مما لا يضعه في موقف حرج مع شخصيات معاصرة يمكن أن تقرأ الكتاب. ولم يحاول أن يجمل وجه العائلة فى مصر، بل ذكر كل مشاعرها الحقيقية الجيدة والسيئة تجاه مصر و المصريين.

و الكاتب ولد فى الاسكندرية, وعاش فيها طفولته و شبابه، إلى أن غادرها عام ١٩٦٤ وقد درس فى جامعة هارفارد العريقة بالولايات المتحدة, وهو يقوم حاليا بتدريس آداب اللغة الفرنسية فى جامعة برينستون.

ترجع أصول العائلة اليهودية منذ مئات السنين إلى أسبانيا حين طرد اليهود منها عام ١٤٩٢ ميلادية، و هاجرت الأسرة إلى تركيا, وعاشت في إستانبول. و فى القرن التاسع عشر حاول أفراد العائلة- مثل كثير من اليهود الأتراك - البحث عن جنسية

أوروبية أثناء إقامتهم فى تركيا, وذلك إلى جانب جنسيتهم التركية التى حملوها أجيالا. ونجح الكثيرون فى ادعائهم أن أجدادهم القدامى الأسبان هاجروا إلى ميناء ليفورنو الصغير فى إيطاليا بجوار بيزا، حيث عاشوا هناك، لذلك فهم يستحقون الجنسية الإيطالية، وبالفعل حصل عليها الكثيرون من أفراد هذه العائلة, ودخل بعضهم المدارس الإيطالية فى إستانبول لتعلم الإيطالية, و بقى الكثيرون من الذين يحملون الجنسية الإيطالية لا يعرفون حرفا من هذه اللغة.

و قد بدأت هذه العائلة في التفكير فى الهجرة من تركيا عندما أحست بأفول نجم الإمبراطورية العثمانية. و كان الحافز الأكبر لاختيار بلد للمهجر هو الصداقة الوثيقة التى ربطت بين أحد أفراد العائلة المدعو إيزاك (إسحق) والأمير أحمد فؤاد ابن الخديوي إسماعيل, الذى أصبح سلطانا ثم ملكا بعد ذلك، و قد بدأت هذه الصداقة فى إحدى الجامعات الإيطالية, حيث تزاملا معا فى السنة الدراسية نفسها. و هاجرت الأسرة بأبنائها الثلاثة: نسيم و إيزاك و آرون (المسمى فيلى) و بناتها الأربع إلى الإسكندرية عام ١٩٠٥. بعد أن باعت ممتلكاتها فى إستانبول (و هى ليست بالكثيرة) واستوطنت الإسكندرية، وعاشت فيها لأكثر من نصف قرن, حتى غادرها آخر فرع فى العائلة, ومنهم مؤلف الكتاب عام ١٩٦٤, و قد توارثت العائلة لغة اللادينو.

كان الابن الأصغر للعائلة المسمى فيلى شخصية غريبة الأطوار متعددة المواهب والقدرات, تمثل الشخصية اليهودية أصدق تمثيل، فبعد أن تعلم الإيطالية والفرنسية إلى جانب التركية و اللادينو, جند فى الجيش التركى و حارب في صفوفه، ثم انضم إلى الجيش الألمانى، و شارك فى الحرب العالمية الأولى تحت العلم الألمانى، و بالطبع أتقن اللغة الألمانية، وعندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء, انتقل إلى الجانب الآخر، وحارب فى صفوف الجيش الإيطالى ضد الألمان, وهرب من الجيش بعد الهزيمة المفجعة للإيطاليين، و ذهب ليعمل فى جزر البحر الأبيض المتوسط، ثم لحق بالعائلة التى هاجرت إلى الإسكندرية، وفيها افتتح صالة للمزادات تبيع التحف والأنتيكات. و فى الثلاثينات و مع ظهور الفاشية، كان من أكبر مؤيدى موسيلينى من الجالية الإيطالية فى الإسكندرية، حتى أن موسولينى أهداه موسوعة موقعة منه شخصيا بيعت بعد ذلك لإحدي المكتبات قبل مغادرة العائلة مصر نهائيا. و كان يرسل خطابات تحية و تشجيع لهتلر، وطلبته المخابرات الإيطالية ليكون عميلا لها و قبل أن

يوافق على ذلك ذهب إلى المخابرات البريطانية فى الاسكندرية وعرض عليهم الأمر فانضم رسميا كجاسوس للتاج البريطانى عام ١٩٣٦، على أن يقبل العمل ظاهرياً مع الإيطاليين, وتنقل بين روما و القاهرة و أثيوبيا التى كان موسولينى قد غزاها ليتجسس على الإيطاليين لصالح الإنجليز. وكانت المخابرات الإيطالية تصدر له كميات هائلة من التحف و الأثاث الإيطالى القديم من روما إلى صاله المزادات فى الإسكندرية بمبالغ رمزية حتى يكون هناك مبرر لسفره المتكرر إلى روما أمام عيون الإنجليز. وكان فيلى يتباهى بأن أخاه إيزاك وبالتالى هو شخصيا يضع الملك فؤاد ثم الملك فاروق فى جيب الصديرى الصغير. وقد ساعد الملك في تعيين فيلى عضوا فى مجالس الإدارة لعدد كبير من الشركات الكبرى فى مصر بمرتبات مرتفعة. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كافأته الحكومة الإنجليزية بمنحه الجنسية البريطانية. ولم تكن علاقة فيلى جيدة بالحركة الصهيونية فى مصر، فقد اتهمه رجالها بأنه يتجسس لصالح الإنجليز ضدهم في الفترة التى سبقت قيام دولة إسرائيل، بل و حاولوا الاعتداء عليه.

و بعد قيام دولة إسرائيل أحس فيلى بقلب الجاسوس و عقله، أنه يجب أن يعد العدة فى وقت ما للرحيل من مصر, وتأكد هذا الإحساس بعد قيام الثورة عام ١٩٥٢، فبدأ يهرب أمواله الضخمة إلى الخارج, و باع بالتدريج كل ممتلكاته, ما عدا فيلا قديمة مليئة ببعض الأثاث الذى لا يساوى شيئا. ويبدو أن فيلي كان يرأس منظمة للتهريب, وربما للجاسوسية ضد مصر. و في عام ١٩٥٥ نظمت الأسرة حفلا ضخما استمر ثلاثة أيام لمئات المدعوين, احتفالا بعيد الميلاد المئوى للجدة الكبرى رأس العائلة التى هاجرت عام ١٩٠٥ إلى مصر, وكان عمرها آنذاك خمسة و أربعين عاما، و بلغت – الآن– مائة عام، و هى بصحة جيدة و ذاكرتها قوية. و فى مساء اليوم الثالث و الأخير لحفل عيد الميلاد ألقى ابنها الأكبر نسيم كلمة لتكريم أمه, وتأكد من أن مائة شمعة قد أضيئت فى أنحاء المنزل, و ألقت الجدة كلمة تحية، بدأتها بالتركية التى كانت قد نسيتها, وحاولت التكملة بالإيطالية الركيكة, لكنها غيرت إلى الفرنسية التى تجيدها، ولم يكن هناك شئ بلغة اللادينو, لأن أقل القليل من الحضور يعرفها. و فجأة دخل أحد أصدقاء الإخوة، وهو يلهث قادما من الخارج، و طلب مقابلة فيلى على انفراد، و أخبره بأن أحد أعضاء الخلية التى ينتمى إليها فيلى قد قبض عليه, وضبطت معه ورقة بها بضعة أسماء مها فيلى و بعض المعلومات الأخرى, منها أرقام الحسابات فى سويسرا.

ونادى فيلى بقية الإخوة، وأخبرهم بأنه سوف يغادر مصر نهائيا و فورا، وطلب أن تستمر الحفلة بطريقة عادية حتى لا يلاحظ أحد شيئا، و قد رفض السفر هاربا على ظهر سفينة تجارية يونانية تغادر الميناء بعد بضع ساعات، وأخذ حقيبة من المنزل فيها بعض الملابس القديمة، وانطلق مع السائق إلى مطار القاهرة، و قبل أن يتم التبليغ بالقبض عليه ببضع ساعات كان قد غادر القاهرة. و من عجائب القدر أن تستدعى الحكومة المصرية فيلى بعد أربع سنوات خبيرا أجنبيا لبيع مقتنيات العائلة المالكة في المزاد العلنى.

ذهب فيلى حامل الجنسية البريطانية إلى إنجلترا، وغير اسمه إلى اسم إنجليزى قح، وغير ديانته إلى المسيحية، واشترى ضيعة فى الريف الإنجليزى، ليتقاعد فيها دون أن يعلم أو أن يحس أحد بأنه أجنبي، أو أن له تاريخا تشيب له الرؤوس.

و عندما ذهب مؤلف الكتاب لزيارة خاله فيلى، حين كان فى الثمانين من عمره فى ضيعته بإنجلترا، حيث يعيش مع أولاده و أحفاده، رفض الحديث عن الإسكندرية، وعندما ذكر أمامه بعض أسماء الأصدقاء و الأقارب، قال: إن هذا التاريخ زبالة، والمهم هو الحاضر، أليس المنظر رائعا هنا فى الريف الإنجليزى؟ و بعد قضاء يومين فى ضيافته عرف بالمصادفة من أحفاد فيلى أنه كان من عادته قبل أن ينام أن يغلق الحجرة على نفسه، بحيث لا يعرف أحد أنه يستمع لنشرة الأخبار بالفرنسية لمدة ساعة كاملة من محطة راديو إسرائيل.

و قد قام كل المهاجرين الجدد إلى مصر من العائلة بعمل مشروع مختلف، بدءا من افتتاح صالة بلياردو إلى صالة مزادات إلى محل لبيع و إصلاح الدراجات. و تكبر العائلة في الحجم و الثروة و يزداد عددها، وتسكن فى الإبراهيمية بالإسكندرية وسبورتنج، ثم تنتقل إلى سموحة. و كان لهم بيت في المندرة ينتقلون إليه كل صيف، و كانوا في بحبوحة من العيش، ولديهم الخدم والطباخون و السفرجية و السائق.

و استمرت العائلة تعيش حياة سعيدة، بالرغم من القلق الشديد الذى راودهم فى فترة معركة العلمين، وخوفهم من انتصار الألمان، وهو ما كان يعنى هروبهم من مصر واحتمال القبض عليهم.

و كانت تلك الفترة من الفترات العصيبة فى حياة يهود الإسكندرية، و قد حددت

الحكومة البريطانية إقامة الرعايا الإيطاليين و الألمان, خوفا من أن يكونوا طابورا خامسا لجيش روميل. و لكن هذه العائلة التى كان أفرادها يحملون جوازات سفر إيطالية لم تمس من قريب و لا من بعيد، لأنهم يهود أولا و ثانيا لأن فيلى يعمل جاسوسا للإنجليز. وقبل معركة العلمين ترك الجميع منازلهم, و ذهبوا إلى الجدة الكبرى فى منزلها الذى رفع منه الأثاث, و فرشت المراتب على أرض البيت, لينام الجميع رجالا و نساء و أطفالا كل يوم, حتى انتهت المعركة بهزيمة روميل, فعاد كل إلى بيته حتى قيام دولة إسرائيل، فى ذلك الوقت عندما شعرت الأسرة مرة أخرى بالخوف من الشعور العدائى المتوقع من المصريين تجاه اليهود، ذهبوا مرة أخرى إلى الجدة الكبرى، ففرشت المراتب و نامت العائلة جميعها على الأرض حتى هدأت النفوس, وعاد الجميع مرة أخرى إلى منازلهم.

أما الأخ إيزاك فكان الصديق الشخصى للملك فؤاد, ومن بعده الملك فاروق، وقد وصلت درجة الصداقة إلى حد أن إيزاك أخبر الملك فؤاد بأن أخته قاربت على سن الإربعين ولم تتزوج بعد، فساعده الملك بترتيب زواج أخته ومن يهودى يقيم فى مصر, يسمى ألدو خون و يعرفه العامة باسم خون باشا.

و لفرط ثقة الملك فؤاد و حبه للسيد إيزاك عينه فى منصب مدير عام وزارة المالية, وساعد إيزاك فيلي في الوصول إلى مناصبه الكثيرة, و ساعد فى تعيين أعداد كبيرة من أفراد العائلة – شبابا و شيوخا– فى مناصب إدارية كبرى فى الشركات و البنوك بمرتبات كبيرة مغرية. و قد بلغت مساعدات الملك لإيزاك حدا غير معقول, عندما تدخل لمساعدة أحد أقارب العائلة فى الهروب من ألمانيا, وأعطاه جوازي سفر دبلوماسيين مصريين له ولزوجته. أما الأخ نسيم فلم يكن له دور واضح, باستثناء حبه للهدوء و القراءة و لعب الجولف بصفة دائمة. أما البنات فقد تزوجن من يهود من ذوى أصول غربية فى الإسكندرية, وهناك يهودي عربي كان قادما من حلب، تزوج إحدى الأخوات، وكان الوحيد من غير اليهود الأوروبيين الذى دخل هذه العائلة, و قد نظر إليه الإخوة جميعا بنظرة متعالية فيها بعض الاحتقار.

عدوان ١٩٥٦

يحتل العدوان الثلاثى على مصر –الذى اشتركت فيه إنجلترا و فرنسا و إسرائيل–

جزءا مهما فى تاريخ هذه العائلة، لأنه كان حدا فاصلا فى علاقتهم بالحكومة المصرية, التى بدأ يشوبها بعض القلق بعد عام ١٩٥٢، و تطورت العلاقة تدريجيا حتى وصلت إلى قمة الأحداث أثناء عدوان ١٩٥٦. حين ظهر بوضوح إلى أى جانب يقفون، و اتخذت الحكومة المصرية موقفا شديد الحزم و الحذر منهم. و من ناحية أخرى كان لاشتراك إسرائيل فى العدوان الثلاثى أثر حاسم فى إثارة الشعور الشعبى ضد اليهود, خاصة بعد ما ظهر من تصرفاتهم أثناء العدوان.

و هناك الكثير من الأحداث التى كان الكاتب فيها شاهد عيان أثناء فترة حرب ١٩٥٦، وتدل على عدم تعاطف و انتماء هذه العائلة و مثيلاتها إلى مصر. فعند حدوث أول غارة جوية على الإسكندرية، كان الكاتب صبيا مع أمه فى وسط المدينة، و بعد أن أطفئت الأنوار دخلا إلى محل بقالة يملكه أجنبي، و أقفل الباب على مجموعة من الزبائن كلهم من الأجانب، فسمع الصبى فى الظلام أصواتا تقول: سوف يتم سحقهم فى يوم أو اثنين, وسوف يلقن الإنجليز المصريين درسا يستحقونه لقيامهم بتأميم القناة، و سوف تعود الأمور كما كانت، و أيده آخر بلكنة أجنبية قائلا: إن شاء الله. و بعد أن وصلت الأم بعد معاناة إلى منزل العائلة مع ابنها فى الظلام وجدت هذه العائلة مكتملة, و قد فرشت المراتب على الأرض للمرة الثالثة خلال خمسة عشر عاما, حتى ينام جميع الإخوة و الأبناء مع أسرهم. و لم تلتزم العائلة بإطفاء الأنوار بالكامل، و بدأوا يسمعون صياحا فى الشارع: أطفئ الأنوار، و صعد أحد البوابين إلى شقتهم قائلا: أطفئوا النور تماما، هل تريدون أن يضربونا بالقنابل، و إذا لم تطفئوا الأنوار سوف أبلغ البوليس بأنكم جواسيس.

و أثناء الظلام الدامس قال الأخ الأكبر نسيم الذى كان عمره أكثر من ثمانين عاما: دعنا ننتظر حتى تنتهى الحرب، و سوف يرى هؤلاء المتوحشون جزاء ما فعلوا، لقد تحملنا هذه الأفكار و الشعارات الوطنية أكثر مما ينبغي. و رد عليه أخوه إيزاك، و كان عمره ثمانين عاما: هل يعرف هؤلاء الذين يزعقون لنا: أطفى الأنوار من نحن؟ لقد كان فى استطاعتى معاقبتهم بالجلد بالكرابيج و السجن يوما ما (وذلك فى إشارة إلى علاقته القوية بالملك السابق) و صاح أحد الصغار: آه لو كان الملك موجودا. و صاحت الأخت مارتا التى تعدت السبعين: نحن فى حاجة إلى موسى جديد، أعنى بذلك موسى مودرن، ورجلنا الذى يصلح أن يكون موسى هو فيلى الذى غادرنا العام الماضى إلى

إنجلترا ليعيش بقية عمره.

ثم سأل أحدهم: كم من الوقت يكفى لسحق الجيش المصرى؟، و أجاب آخر يومان أو ثلاثة، و سوف يستقر الأمر خلال بضعة أسابيع كما كان تماما.

و أخذت العائلة كلها تحاول التقاط إحدى الموجات القصيرة للإذاعات الأجنبية التى أعلنت احتلال بورسعيد. و هنا ارتفعت صيحات الفرحة و التهليل من جميع أفراد العائلة, و وقفت الأختان الكبريان ترقصان من الفرح على ضوء شمعة واحدة, وصاح نسيم: لو كان فيلى معنا لكان قد فتح زجاجة شمبانيا. و عندئذ وقف إيزاك صائحا بلغة اللادينو: توقفوا الآن و كفى، إن بيتنا مليء بالخدم العرب, و نحن لا نعرف مشاعرهم الحقيقية تجاه ما يحدث, وتجاه شعورنا الظاهر بالفرح.

و فى صباح اليوم التالى لبدء الحرب غادر نسيم المنزل إلى نادى سبورتنج للعب الجولف كعادته كل يوم, وأرسل إيزاك أحد الخدم ليشترى جميع الصحف و المجلات بجميع اللغات، و بدأت العائلة الكبيرة تعد إفطارها الذى وصفه أحدهم بأنه أفخم من إفطار أعظم فندق فى العالم. و على مائدة الطعام سألت الجدة أحد أفراد الجيل الثالث: ماذا تريد أن تعمل عندما تكبر؟ فقال: أصبح سفيرا. فسأله العم: ما البلد الذي سوف تمثله؟ فكانت الإجابة: فرنسا مثلا، فقال له: لكنك لست فرنسيا، بل تحمل جواز سفر إيطاليا، لكنك فى الحقيقة لست إيطاليا و إنما تركي، و بما أن الجميع كانوا يتحدثون عن تركيا الدولة التى احتضنتهم عدة قرون باحتقار شديد، فقد أعلن الشاب أنه لا يريد أن يكون سفيرا لتركيا، و أنه سوف ينسى هذه الفكرة. و بعد الإفطار خرج إيزاك و معه الشاب الصغير مؤلف الكتاب لمقابلة أكبر و أهم سمسار يهودى فى البورصة المصرية، وقد كان السمسار الأساسى للأجانب و الأغنياء المصريين، و كان يسكن فيلا كبيرة قريبة من بولكي وكان الغرض من الزيارة تقصى الأخبار تحسبا للمستقبل. و كان رأى السمسار أن الإنجليز و الفرنسيين سوف ينسحبون من مصر، و أن جمال عبد ناصر لن يغفر ذلك, وسيكون هناك ثأر من الإنجليز و الفرنسيين، و ربما يلي ذلك تأميم ممتلكاتهم, ثم طرد اليهود انتقاما من هجوم إسرائيل. فاعترض إيزاك قائلا: لكننا لسنا من إسرائيل. فقال له السمسار: يمكنك أن تقول ذلك للرئيس عبد الناصر. فعلق إيزاك: هذه الأيام من أيام هجوم روميل على العلمين. وقال إيزاك

السمسار: إذا حدث لي شيء تذكر اسم كراوس في جنيف, وأخي فيلي يعرف في إنجلترا, فأمسك السمسار علبة سجائر ليكتب عليها الاسم, فحذره إيزاك ونبهه إلى أن هذه المعلومة لا بد أن تبقى في الذاكرة فقط. و في اليوم التالي ظهر البوليس في شقتهم ليسأل عن شخص كان يرسل إشارات مورس إلى السفن في البحر المتوسط، لكنه تركهم دون أن يفعل شيئا.

و قررت الجدة أن العائلة تحتاج إلى حظ أحسن، فأمرت بوضع منقد الفحم الكبير على الأرض, وبعد أن أشعلته وضعت عليه البخور, وكان على الجميع أن يقفز فوق المنقد الذى يتصاعد منه البخور, بدءا بالرجال ثم النساء ثم الخدم. و عاد رجال البوليس مرة أخرى في يوم آخر, و قالوا إن لديهم دليلا قاطعا على أن إيزاك يهرب الأموال و المجوهرات إلى الخارج و أن أخاه فيلي كان يقوم بذلك لسنوات طوال. و قبض عليه البوليس بتهمة خيانة الدولة، فقال: إن عمرى ثمانون عاما. و حاولت أخته أن تقول للشرطة إنه لا يمكن القبض عليه, لأنه مواطن لدولة أوروبية. و قال أخوه نسيم: لو سجنتموه لن يعيش يوما واحدا. و بعد أسبوع من القبض عليه وصلهم تلغراف من إيزاك من فرنسا يخبرهم فيه بوصوله إليها آمنا سالما.

و بدأت العائلة مناقشة الهجرة من مصر و التخطيط لها، وهو ما تحقق على أرض الواقع لجميع أفراد العائلة ما عدا والد المؤلف, الذى كان يملك مصنعا للنسيج يدر أرباحا هائلة، و كان يود أن يبقى مع عائلته في الإسكندرية, و فعلا بقى فيها ثماني سنوات حتى غادرها عام ,١٩٦٤ و خلال تلك الأعوام تغيرت الإسكندرية, وتغيرت الحياة في مصر، وأممت كلية فيكتوريا التى كان الصبى يدرس فيها، وتحولت إلى كلية النصر أصبح تدريس اللغة العربية إجباريا فيها، و أصبح هو اليهودي الوحيد في الفصل, وكان عليه أن يحفظ أجزاء من القرآن ضمن دروس اللغة العربية, وأن يحفظ الأناشيد التي تمجد العرب و تحقر من إسرائيل، وبالطبع لا يقارن هذا بما يدرسه الآلاف من التلاميذ العرب في إسرائيل عن تاريخ إسرائيل وأمجادها، و تحقير كل ما له علاقة بالعرب. و كان أبوه مصرا علي أن يستمر في المدرسة، لأنه إذا أراد أن يعيش في مصر في ذلك العصر، فلا بد أن يجيد لغتها. و قد لاقى الصبى كثيرا من العنت في تلك الفترة، تارة من المدرسين و تارة أخرى من الزملاء حتى رضخ أبوه, ونقله إلى المدرسة الأمريكية، التى لم تكن اللغة العربية إجبارية فيها. و اضطر أبوه إلى أن يغادر

مصر نهائيا بعد أن أممت أملاكه بعد ذلك.

و يذكر الكاتب أنه أثناء زيارة إلى المقابر اليهودية بالإسكندرية فى يوم كيبور، وكانوا يخططون لترك مصر، قال أبوه إنه لمن المحزن أن نترك أحباءنا فى قبورهم يتقلبون، على حين نخطط نحن للمغادرة، و لعلهم يسألوننا لماذا جئنا فى المقام الأول و نحن نكره البلد التى دفنونا فيه؟

و أعتقد أن الكاتب كان أمينا فى رواية الأحداث الحقيقية التى مرت بعائلته, و حاول جمع المعلومات و مقابلة الأحياء لاستكمال الأحداث, و لم يحاول أن يجمل الشخصية اليهودية، بل أظهر بوضوح أن الجميع لم يحب مصرنا و لا شعبنا, وانما أحب إسكندريتهم وبحرها وجمالها. والكتاب يعطى انطباعا واضحا بأن مصر كان فيها دولتان، إحداهما للمصريين و الأخرى للأجانب. و من خلال صفحات هذا الكتاب التى قاربت الثلاثمائة، وتغطي أكثر من ٥٠ عاما من تاريخ مصر فى القرن العشرين، لم نقرأ عن حدث واحد مثل ثورة ١٩١٩ أو مظاهرات ١٩٣٥ . أو التغيرات السياسية المتلاحقة، و لم يذكر اسم زعيم أو وزير مصرى واحد، و لا أى كاتب أو أديب أو فنان مصرى، و لا حتى راقصة مصرية. فالكتاب مليء بأسماء وشخصيات كلها أجنبية. أما الأسماء المصرية الكثيرة, فهي فقط أسماء الخدم بأنواعهم كافة. و كانت اللغة العربية عديمة الأهمية لهم، فلم يهتم أحد بتعلمها أو قراءة آدابها خلال خمسين عاما, إلا فى الجيل الرابع عندما بدأ بعض الاهتمام بتعليم اللغة. و قد قالت الجدة فى كلمتها احتفالا بعيد ميلادها المئوى إنها تعرف خمسين كلمة عربية, بمعدل كلمة عن كل سنة أقامتها فى مصر. وبالرغم من أن هذه العائلة بعد الخروج من مصر لم تذهب إلى إسرائيل, إلا أن زعيمهم العم فيلى المقيم فى إنجلترا كان يستمع كل ليلة لمدة ساعة كاملة إلى نشرة الأخبار بالفرنسية من محطة إسرائيل. و كان العم إيزاك يتعلم العبرية الدارجة, وهو في الثمانين من عمره, لأنه كان يتمنى أن يموت فى إسرائيل. ولا يمكن الاعتقاد بأن معاناة تلميذ يهودى واحد– بسبب دراسته تاريخ الشرق الأوسط من وجهة النظر المصرية التى تدين إسرائيل – بسبب الكوارث التى سببتها إسرائيل لمصر و المنطقة من حولها، فهي مختلفة عن معاناة آلاف التلاميذ الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية, عندما يقرأون التاريخ الذى يمجد إسرائيل و لا يعترف بأى حقوق للعرب.

ويوضح الكتاب أن معظم الأجانب و اليهود الذين هاجروا إلى الإسكندرية كانوا فقراء فى أوروبا، و بعد فترة وجيزة من هجرتهم إلى مصر أصبحوا يعيشون حياه رغدة، ومنهم من ربح أموالا طائلة، و لم يشعر أى منهم- باستثناء بعض اليونانيين- أن هذا الوطن يمكن أن يكون وطنهم الدائم, وأن يندمجوا فيه و يتعلموا لغته. و حقيقة الأمر أنه عندما أممت ممتلكات الأجانب اليهود, كان ذلك جزءا من سلسلة تأميمات سياسية للدولة, طالت كل الأغنياء المصريين أيضا فى قطاعات الصناعة و التجارة و الزراعة. وعندما هاجرت العائلة إلى أوروبا مرة أخرى, واستوطن معظمهم فى فرنسا أصبحت حياتهم بسيطة فى شقق صغيرة بدون الخدم و الحشم و الطباخين و السائقين.

الصحافة اليهودية في مصر

أنشأ اليهود فى مصر خلال نحو ستة عقود أكثر من خمسين صحيفة بلغات متعددة، واهتموا بإنشاء الصحف الفرنسية, حيث كانت هى لغة التخاطب والدراسة لأغنياء اليهود، وكذلك الطبقة البرجوازية, بل وحتى صغار الموظفين من اليهود، وكانت الفرنسية -أيضاً- لغة التخاطب بين الجاليات الأجنبية فى مصر.

وتعتقد سهام نصار صاحبة الدراسة المستفيضة عن الصحافة اليهودية فى مصر، أن السبب الرئيسى فى إصدار الصحف بالفرنسية, هو الرغب فى ألا يقرأها أو يفهمها المصريون الذين لا يعرفون الفرنسية، وبالتالى لا تثير دعاياتهم وكتاباتهم مشاعر المصريين.

وقد تأخر صدور الصحف الصهيونية فى مصر من نهاية القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين, بسبب معارضة زعماء اليهود المصريين, وبالذات قطاوى باشا, خوفا على وضع اليهود فى مصر، و احتمال الخلاف بينهم وبين المصريين, بالإضافة إلى أن زعماء اليهود - وجميع اليهود السفارديم- فى تلك الفترة لم يكونوا يؤمنون بالصهيونية، ولم يرغبوا فى تشجيع صحف تروج للصهيونية.

واستطاعت الجالية اليهودية فى مصر بقيادة السفارديم منع إصدار الصحف، لكن تحت الضغوط الصهيونية العالمية، تغير موقف زعماء السفارديم فسمحوا بصدور الصحف لكن، معظمهم أبعد نفسه عنها، وفى البداية صدرت الصحف بالفرنسية

واللادينو والعبرية, وأيضاً بالعربية، لكنها جميعاً عاشت فترات قصيرة، وكان يحررها الأشكيناز القادمون من أوروبا حديثاًإلى مصر والمتشبعون بالفكرة الصهيونية.

وكانت الصحف الفرنسية المتعددة التى ظهرت فى العقدين الأولين من القرن العشرين واضحة فى تبنيها فكرة الصهيونية, وأهمية إنشاء وطن قومى فى فلسطين. وكانت تنادى بجمع التبرعات للمستوطنات فى فلسطين.

وكان ليون كاسترو تلميذاً لهرتزل و ماكس نوردو المفكر الألمانى الصهيونى. وقد اختلف كاسترو مع المنظمة الصهيونية العالمية, واستقال منها و من الصحيفة التى كان يكتب فيها باللغة الفرنسية, وأصدر جريدة الليبرتيه (الحرية) بالفرنسية, وكانت صحيفة ذات ميول وفدية.

وقد صدرت صحيفة (إسرائيل) عام ١٩٢٠ بالعربية والعبرية والفرنسية، وكان صاحبها ألبرت موصيرى إلى أن سهام نصار تعتقد أنها كانت ملك الطائفة اليهودية المصرية, على الأقل فى الأربع سنوات الأولى. وقد كتب ألبرت موصيرى نقلا عن قريبه قطاوى باشا أنه التقى بتيودور هرتزل فى مصر، عام ١٩٠٣، وتركه بعد أن عرف الهدف من زيارته، و قاطعه قطاوى قائلاً: دكتور هرتزل لا تكمل الحديث، أخشى أن تقنعنى بأفكارك وفصاحتك، لكنى لا أستطيع أن أدخل فى أحضان الصهيونية, لأننى تلقيت تعليمات بألا أشترك فى النشاط الصهيونى, لأنها قد تكون وبالاً على الجالية التى أرأسها، و يبدو أن بعض اليهود المصريين هاجموا صحيفة (إسرائيل) وقاطعوها بسبب سياستها الصهيونية.

وكان لجريدة (إسرائيل) طبعتان، إحداهما بالفرنسية والأخرى بالعربية, وكانت كل منهما تكتب بطريقة مختلفة، فقد كانت الفرنسية تتكلم بصراحة عن الصهيونية والوطن القومى اليهودى فى فلسطين، لأن قراءها كانوا من اليهود و الأجانب ، أما (إسرائيل) الناطقة بالعربية فقد كانت حذرة فى سياستها الصهيونية، وحذرة جداً فى الحديث عن الوطن القومى فى فلسطين. وبعد وفاة موصيرى تولت زوجته الجريدة لمدة ست سنوات، ولاقت نجاحاً وتطوراً فى عهدها.

حققت سهام نصار علاقة كاسترو بسعد زغلول والوفد واليسار، وهى حكاية معقدة. فمن المعروف أن بعض الشخصيات اليهودية انضمت إلى الوفد قبل ثورة ١٩١٩

·ويعدها. ومن هذه الشخصيات محام وصحفي معروف تواتر أنه كان عضواً فى الوفد المصرى، وكان الناطق باسم سعد زغلول فى مفاوضاته فى لندن. وكان صهيونياً ويسارياً فى نفس الوقت, وأيضاً من مؤيدى الوفد ضد الإنجليز ومطالباً لمصر بالاستقلال، فاختلفت الآراء بين من قال مثل مصطفى أمين إن علاقته بسعد زغلول كانت سطحية، ومن قال مثل على شلش- إنه لم يكن سكرتيره، وإنما كان يسند إليه سعد زغلول أعمال الترجمة وبعض المهام الخارجية، وهناك من رأوا أنه كان عضواً مهما فى الوفد المصرى.

قامت سهام نصار بمراجعة شاملة ودقيقة, مع التعليق على الصحف اليهودية فى مصر.

وكتبت عواطف عبد الرحمن عن الصحف العربية وعلاقتها باليهود و الصهيونية وإنشاء الوطن القومى فى فلسطين, وأثبتت أن من الصحف المصرية "المقطم" التي كانت تعطى الفرصة كاملة لليهود، وحتى الصهاينة منهم، لإبداء وجهات نظرهم فى الشؤون التى تخص الصهيونية والوطن القومى اليهودى.

وهاجمت الكاتبة جريدة المصرى و وصفتها بأنها سلبية فالبرغم من أنها كانت تعطى مساحة للفكر الصهيونى, إلا أنها لم تؤيد الحق الفلسطيني. أما جريدة (السياسة) لمحمد حسين هيكل فكانت متعاطفة مع الصهيونية، وتدعو إلى تكوين لجنة عربية لحل النزاع بما يرضى اليهود، عموماً كانت هذه وجهة النظر التى تبناها المثقفون المصريون فى أحزاب المعارضة و الأتجاه اليمينى. وكانت صحيفة (الاتحاد) تشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين لرفع مستوى فلسطين اقتصادياً، وهو ما يدل على قصر النظر، أما (الأهرام) فكانت معتدلة كالعادة, إذ لم تؤيد الصهيونية، ولكنها لم تبدى حماساً لتأييد الفلسطينيين. أما الصحف التى كانت واضحة فى معاداتها للصهيونية فهى: البلاغ، وكوكب الشرق، والمصرى ذات الاتجاه الوفدي، والصرخة، ومصر الفتاة، وصوت الأمة، وكانت كلها معادية بوضوح للصهيونية.

و قد نشرت الدكتورة سهام نصار دراستها عن موقف الصحافة المصرية من قضية الصهيونية وفلسطين ١٨٩٧ - ١٩١٧. وتقول فيها إن الأهرام كانت جريدة مستقلة يرسم سياسة التحرير فيها عائلة تقلا ومعهم خليل جبران و داود بركات, وكلهم من

الشوام، وتقول إن هناك مقالة واحدة فى موضوع فلسطين كتبها بشارة تقلا على أثر زيارة إلى فلسطين فى ١٨ أكتوبر ١٨٩٧ لم يتعرض فيها للمسألة الصهيونية، وإن أشار إلى تعاظم هجرة اليهود إلى القدس، حتى أصبحوا يمثلون السواد الأعظم من سكانها، وأنه لو لم تقف الدولة العثمانية فى وجوههم لاستولوا على بقية القدس. لكن الأهرام نشرت ما أرسلته وكالات الأنباء عن النشاط الصهيونى فى أوروبا وفلسطين. وكانت أهم المقالات هى التى أرسلها مراسل الأهرام فى إستانبول إبراهيم سليم نجار، الذى شرح موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيونى، وزار فلسطين زيارة طويلة، وزار كل المستعمرات اليهودية، وأجرى أحاديث مع سكانها، وأرسل وثائق وأرقاما عن الوضع، وأشار إلى أن سوريا ومصر لا تدريان شيئاً عن الواقع فى فلسطين.

أما (المقطم) لصاحبها فارس نمر فكانت علاقتها ممتازة مع الإنجليز، وكان فارس نمر صديقاً للسلطان حسين والملك فؤاد والأمير محمد على، كما كان من شركاء نمر: شاهين مكاريوس ويعقوب صروف من زعماء المحفل الماسونى، وكانت لهم علاقة واسعة مع اليهود فى مصر، وقد سمحت (المقطم) بنشر رسائل تؤيد وجهة النظر الصهيونية، وأخرى تؤيد وجهة النظر العربية. أما صحيفة المؤيد لصاحبها على يوسف، وصحيفة (اللواء) التى رأس تحريرها مصطفى كامل، وكذلك جريدة الأهالى، فكانت تنشر أخباراً ومقالات قليلة للغاية عن مشكلة فلسطين، إذ كان اهتمامها الأساسى الاستقلال عن الإنجليز.

وقد نشرت مقالات مرسلة من القراء تؤيد الفلسطينيين ومقالات أخرى أكثر مؤيدة للصهاينة، ويرجع ذلك إلى النشاط الصهيونى الكبير فى الرد على أى مقالة تظهر وجهة النظر العربية، وكان من كبار المدافعين عن الحق الفلسطينى شكيب أرسلان و رفيق العظم، وكان من كبار المؤيدين لوجهة النظر الصهيونية سليم قبعين الكاتب الفلسطينى من الناصرة، والدكتور شبلى شميل. وكان من الكتاب اليهود الذين دافعوا كثيراً عن الصهيونية الكاتب التونسى الأصل المقيم فى مصر نسيم ملول، وجاك ليفى طنطاوى.

وتلاحظ سهام نصار أن (الأهرام) عام ١٨٩٧ لم تذكر شيئاً- ولا حتى خبراً- عن المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل، لكن أنطون الجميل كتب مقالاً عن المؤتمر الثانى عام ١٨٩٨. وقال إن الصهيانة يمكن أن يتخذوا إلى غرضهم إحدى طرق ثلاث، هى

الشراء كما هم طالبون, والقهر وهم عنه عاجزون, والاستيلاء الأدبى يليه الفعلى كما هم صانعون، ويقصد بذلك أنه عندما زار القدس يوم السبت كانت خاوية, فقال إن هذا هو الاستيلاء الأدبى.

وفى الفترة التالية كانت كتابات الأهرام واضحة ضد الصهيونية، و في الفترة بين عامي١٩٠٥ و ١٩٠٨، كتبت (الأهرام) صراحة أن غرض الصهيونية إنشاء دولة إسرائيل المستقلة فى فلسطين. ومنذ عام ١٩٠٩ ظهر الصوت الصهيونى فى كتابات (الأهرام) للدعاية للصهيونية والرد على المقالات التى تؤيد وجهة النظر العربية، وقد استطا ع اليهود النفوذ إلى الصحف المصرية، والكتابة لتأييد حق اليهود التاريخى فى فلسطين وإنشاء دولة إسرائيل. وتحدثت بعض المقالات عن المساعدات اليهودية للإمبراطورية العثمانية، وأن اليهود سوف يساعدونها على منع العرب من الانفصال عنها. لكن (الأهرام) و(المقطم) و(المؤيد) نشرت ردوداً كثيرة للدفا ع عن الفلسطينيين، وشرح مدى الضرر الذى يحدث للفلسطينيين اقتصاديا و اجتماعيا و سياسيا، ويبدو واضحاً أن الصحافة المصرية نشرت بوضوح ما يحدث فى فلسطين, وتنبأت بما سوف يحدث منذ العقد الأول من القرن العشرين. وفى عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ نشرت (الأهرام) ثم المقطم مشروعات للصلح والتفاهم بين الفلسطينيين واليهود، لكن اليهود راوغوا، خاصة أنه فى ذلك الوقت كانت الحكومة فى الأستانة قد أصبحت موالية للصهاينة، كما كان حزب اللامركزية العربى مؤيداً للصهيونية، ولم تصل تلك المفاوضات إلي شيء. وقد نشرت الصحف المصرية وعد بلفور والضجة التى صاحبته فى لندن والعالم، لكنها لم تعلق عليه ولم تستطلع آراء الفلسطينيين والعرب فيه.

اليهود المصريون داخل إسرائيل

عاش اليهود المصريون فى إسرائيل منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٦٠ فى حالة عزلة وإهمال شديدين من مؤسسى الدولة من اليهود الأشكيناز, الذين قادوا الحركة الصهيونية و كونوا حزبى المبام والماباى اللذين اتحدا فى مرحلة تالية لتكوين حزب العمل الإسرائيلى، ولم يكن لليهود المصريين أى تاريخ ذي قيمة أو أهمية فى إنشاء الحركة الصهيونية، لذا لم يشاركوا فى هذه الأحزاب العمالية، وكان اليهود الأشكيناز يتندرون على المصريين بأنهم بدائيون، وكانت الوظائف الموكلة إليهم كلها فى الطبقة

العاملة السفلى التى حلت محل العمال الفلسطينيين الذين تم طردهم من يافا وعكا، وبالرغم من المجهود الكبير الذى قام به المصريون, إلا أن دورهم كان دائماً هامشياً من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وكان هذا الدور الهامشى لليهود العرب من الأسباب المهمة لأول نجاح لليكود فى انتخابات ١٩٧٧، وقد جاهدت حكومة الليكود في تنظيم أنصارها فى المجتمع من اليهود العرب، وبدأت الكتابة المكثفة عن دور يهود الشرق الأوسط، خاصة المصريين، فى إحياء إسرائيل, وتم تخفيف الحديث المحورى والمستمر عن الأشكيناز الذين كانوا قبل ذلك كل شيء فى إسرائيل.

وكان اليهود المصريون مختلفين عن بقية اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل، وذلك لأنهم لم يكونوا مجموعة ذات تقاليد وأفكار وخلفية ثقافية واحدة. فاليهود القراءون كانوا يمثلون أولاد البلد من المصريين فى لغتهم ولهجتهم وطريقة حياتهم. أما اليهود السفارديم فكانوا من مختلف الطبقات ومستويات التعليم المتفاوتة, وكان أغلبهم يجيد على الأقل الفرنسية، وفى أحيان كثيرة أكثر من لغة أجنبية، بالأضافة إلى العربية, وقد كان اختلاف أفكارهم وثقافتهم وخلفيتهم سبباً فى عدم ظهور قومية مصرية يهودية تجمعهم فى إسرائيل، كما حدث مع بعض الجنسيات التى هاجرت إليها.

يقول بنيين إن راشيل مكابى– وهى يهودية مصرية من الإسكندرية – كان قد سبق لأمها أن إنضمت إلى الحركة الصهيونية عام ١٩٠٤، وهاجرت إلى فلسطين عام ١٩٣٥ واشتركت فى عصابة الهاجاناة، ثم الجيش الإسرائيلي بعد ذلك، و كانت أمها أصلاً من بغداد ثم هاجرت إلى الهند، أما أبوها فهو مصرى كان يعمل مع قطاوى باشا. و كتاب راشيل مكابى يقطر احتقاراً وكراهية للمصريين ولغتهم, ولم تحاول حتى أن تتعلم العامية، ولم تعجبها القاهرة التي كان يعمل فيها أبوها مع المصريين, وفضلت الحياة فى الإسكندرية، و كانت تكره مصر وشعبها, ولا تشعر بأى حنان نحوها.

وهذا المثال معاكس لكتابة كهانون التى اعترفت بعلاقتها الوثيقة بمصر وكذلك تعاطفت مع الشعور القومى المصرى. وحيث إنها لم تستطع أن تشارك فى الحركة الوطنية المصرية، فقد شاركت مع بعض الشبان في إنشاء عيادة فى حارة اليهود، إلا أن الحاخام أغلق العيادة، واتهمهم بتشجيع منع الحمل، قالت إن الإحباط الذى تلا

منعها من الاشتراك فى الحركة الوطنية المصرية و الخدمة اليهودية أجبرها على مغادرة مصر عام ١٩٤٠. وقالت فى كتابها: أحب مصر، لكننى لم أستطع أن أكون جزءاً منها, وبعد أربعة عشر عاماً فى فرنسا هاجرت إلى إسرائيل، كما يقول بنيين.

وقبل زيارة السادات لإسرائيل لم يكن يجرؤ أى مصرى على أن يذكر شيئاً إيجابياً عن مصر و عن حياته فيها وبعد تلك الزيارة تكلم وكتب الكثيرون من اليهود المصريين فى إسرائيل عن نواح إيجابية فى حياتهم السابقة فى مصر.

حياة اليهود فى إسرائيل بعد معاهدة السلام

كانت أولى المحاولات التى تبحث عن موقف بطولي لليهود المصريين فى إسرائيل ما كتبه كوهين تزيدون عما حدث للبطلين – كما يدعى–عزرا وموسى مرزوق اللذين أدينا فى عملية التفجيرات فى القاهرة والإسكندرية، وقد كتب مقالاً في جريدة "الجيش الإسرائيلى" يحكى عن العذاب و السجن والاضطهاد الذى لاقاه اليهود المصريون فى مصر، ويحاول أن يعقد مقارنة بين ذلك و ما حدث في ألمانيا النازية، ويقول إن جمال عبد الناصر أقام هولوكوست لليهود المصريين. وبالطبع فإن هذا الكلام هراء, فمن المعروف فى جميع المراجع المحايدة – والكثير منها يهودية – أن هذه المقارنة غير صحيحة وأن هذا النوع من الكتابات فيه أكاذيب ومبالغات كثيرة, وكما يقول الباحث اليهودى المدقق بنيين فإن بعضاً من اليهود لاقوا عنتاً بعد عام ١٩٤٨، لكن الأغلبية استمرت حياتها وأعمالها كالمعتاد, وقد تم اعتقال البعض فى فترات الأزمات (١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) لكن الجميع أفرج عنهم بعد فتره قصيرة نسبياً. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه خلال تلك السنوات لم يتم اعتقال اليهود فقط، ففى عام ١٩٤٨ اعتقل معهم الشيوعيون والإخوان المسلمون وأعضاء في مصر الفتاة من المصريين. وفى عام ١٩٥٦ اعتقل الوفديون القدامى وبعض أفراد الجاليات الفرنسية والإنجليزية. وفى عام١٩٦٧ اعتقلت أعداد كبيرة من الشعب المصرى، منهم أعضاء في الإخوان المسلمين وبعض الشعراء و السياسيين، وأعتقد أن الإخوان المسلمين والشيوعيين المصريين لاقوا من العنت والإهانة والتعذيب الكثير والكثير, على حين كان اليهود المحبوسون رهن الاعتقال يعاملون معاملة حسنة، وحبسوا مدة قصيرة لا تقارن بعشرات السنين التى قضاها المصريون من مختلف الاتجاهات فى السجن.

وكما قال كوهين فإن الاضطهاد أقنع يهود العالم بالانضمام إلى الصهيونية ولم يفسر لنا كما يقول بنيين لماذا كانت نسبة الصهاينة فى اليهود المصريين قليلة للغاية؟, ولماذا لم يغادروا مصر بعد عام ١٩٤٨ ولم يمنعهم أو يعارض ذلك. ويقول أيضاً إن كوهين حاول أن يقول إن وضع المصريين من اليهود كان مماثلاً لوضع اليهود فى المانيا وأوروبا، وهو ما تنفيه كل الحوادث التاريخية. لكنه يعترف أيضاً بأنه لا يمكن مقارنة ما حدث لليهود فى أوروبا الشرقية وألمانيا- وهى البلاد المسيحية المتحضرة - بما حدث لهم فى مصر. وتكلم عن أن مشروع تحرير مصر من الاستعمار يعد عملاً مشروعاً لكنه يتعارض مع تحرير اليهود لذا لم يكن هناك مجال للتفاهم بين مصر وإسرائيل, وقد رأى أن الإرهابيين موسى و مرزوق لم يخونا القضية اليهودية، وكذلك لم يخونا أيضاً مصر , وهذا بالطبع كلام غير مفهوم وغير منطقي. وكان لسامى عطية رجل الأعمال السكندرى- الذى كان يمتلك مصانع نسيج كبيرة فى الإسكندرية - علاقات واسعة مع الحكومة وكان صديقاً لشقيق جمال عبد الناصر، واستمر يعمل بنشاط ونجاح كبيرين حتى أول نوفمبر ١٩٥٦ ، لكن بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ قبض عليه ثم رحل إلى خارج البلاد, ووصل إلى اسرائيل عام ١٩٥٧, وقام بتأسيس جمعية للمطالبة بالحقوق الاقتصادية لليهود المصريين الذين غادروا مصر, وأممت أو صودرت أملاكهم أواضطروا إلى بيعها بأثمان بخسة, وتلقى طلبات ٣ آلاف يهودى إسرائيلى من أصل مصري وألف يهودى مصرى من كافة بلاد العالم, وقدروا مطالبهم بمبلغ ١٩٧ مليون دولار عام ١٩٥٩، لكن الحكومة الإسرائيلية رفضت الدفاع عن مطالبهم حتى بعد عقد معاهدة السلام، و بدء التمثيل الدبلوماسى. ويقال إن ذلك كان خشية مطالبة مصر بثمن بترول سيناء الذى ضخته اسرائيل بطرق غير قانونية طيلة ست سنوات. وقد انضم كوهين وسامى عطية إلى الحزب الليبرالى الذى أصبح جزءاً من الليكود, وبعد نجاح الليكود للمرة الأولى عام ١٩٧٧ تم تشجيع اليهود العرب (المزراحى) على كتابة تاريخهم فى بلادهم وحكاياتهم وهجرتهم إلى إسرائيل, وبادر حزب العمل اليسارى إلى القيام بالمحاوله نفسها، وقد قام شلومو براد بتنظيم مائدة مستديرة لمناقشة موضوع اليهود فى مصر, وقد أفاد الموجودون فيها بأنهم كانوا أعضاء فى تنظيمات صهيونية، وأن الصهيونية تجرى فى دمائهم، ولم تكن مستوردة من اليهود الأوروبيين، وأنهم لم يشعروا أبداً بالانتماء إلى مصر ويقول بنيين إن ذلك

قيل في جو عام من محاولة إرضاء الرأى العام الأشكينازى, ولم يحاول أحد من المنظمين للحلقة مناقشة المتحدثين في ادعائهم بأنهم يمثلون كل اليهود.

اليهود المصريون فى إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية

عبر عدة سنوات تم تشكيل طريقة ونمط التفكير السياسى و الحياتى اليومى للإسرائيليين على كراهية العرب عموماً و المصريين خاصة, لأنهم كان يقودون العرب فى الحملة ضد إسرائيل ، وقد أدى هذا التيار القوى من التفكير فى الشارع الإسرائيلى إلى أن يخفى المصريون تاريخهم وحياتهم وثقافتهم التى اكتسبوها من مصر، ومن تكلم منهم كان يحكي وجهة النظر شديدة السلبية التى لا تمثل بأى حال التيار العام ليهود إسرائيل من المصريين. وبعد حرب ١٩٧٣ وتوقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عاد المصريون الإسرائيليون إلى التحدث عن حضارتهم وتاريخهم وثقافتهم فى مصر, ورأوا أن عليهم دوراً يجب أن يلعبوه فى تقريب العلاقة و الثقافة بين وطنهم القديم و وطنهم الجديد، وفجأة شعروا بأن لهم وزناً فى المجتمع الإسرائيلي بعد أن كانوا محرومين من أى تقدير, أو الوصول لمنصب مهم فى الدولة التى يتحكم فيها اليهود الأشكيناز من شرق أوروبا. وأعلن سامى عطية عن تنازله عما سبق أن طالب به من تعويضات ضد اليهود فى مصر مقابل السلام مع مصر, وقد كان هذا القرار مهماً، لأنه كان رئيس الجمعية التى تطالب بالتعويضات وطالب بدعم العلاقات مع مصر.

وأرسل عطية وموريس شماس برقيتين إلى السادات عشية ذهابه إلى إسرائيل, يرحبان فيها ويثنيان على شجاعته، وختما برقيتهما العربية بكلمة "والله ولى التوفيق". ووقع تحتها زعماء الجالية المصرية فى إسرائيل.

وبعد توقيع معاهدة السلام حدث نشاط هائل لليهود المصريين الذين لم يسمع عنهم أحد فى خضم اليهود الأشكيناز، وتكونت جمعيات ومشاريع وهيئات حكومية وشعبية لتسجيل تاريخ المصريين اليهود وثقافتهم، وكتب الكثيرون منهم المذكرات, وسجلت ذكريات المصريين, وتكونت جمعية الصداقة الإسرائيلية المصرية, ونشرت الكتب عن المطبخ المصري، وبدأ اليهود المصريين يتكلمون لأول مرة عن طفولتهم السعيدة فى

مصر والحنين لهذا البلد. وتأسس عام ١٩٨٤ اتحاد اليهود المصريين, الذى يجمع المصريين للحديث عن ذكرياتهم فى مصر وتاريخهم, وكان تنشر أخبارهم وتقاليدهم بالفرنسية والعربية، وكان لهم فروع فى أماكن مختلفة فى إسرائيل، وقد كانت هذه المنظمة موجودة أيضاً خارج إسرائيل، خاصة في فرنسا, وكانت تجتمع بانتظام، وأنشأت صحيفة اسمها (نهر النيل).

وقد قدمت عضوة هذا الاتحاد بولا جاك (عبادى سابقاً) التى ولدت فى القاهرة وهاجرت عام ١٩٥٦ برنامجا مشهورا ومهما باللغة الفرنسية عن زيارتها لموطنها الأصلى مصر, وكتبت عدة روايات كل أبطالها من اليهود المصريين، واعترض الكثيرون من اليهود المصريين على روايتها التى كانت مليئة بشخصيات الشحاذين والنصابين, وهو ما لا يمثل حقيقة حياة اليهود فى مصر كما رأوها وعايشوها بأنفسهم.

وقد اشترك من باريس فى هذا الاتحاد مجموعة من الشيوعيين المصريين السابقين من تلاميذ كورييل و أعوانه, مثل جاك حسون وريمون استمبوللى وإبراهيم جابى، وكان حسون رئيس تحرير جريدة (نهر النيل) قد زار مصر, وكانت للجريدة صبغة يسارية، وكانت هذه المجموعة غير صهيونية, لكنها كانت تؤيد بقاء دولة إسرائيل, وتدافع عن حق الشعب الفلسطينى. واشترك أعضاؤها أيضاً فى مشروع المحافظة على مقابر اليهود فى البساتين بوصفها أثرا يهوديا على وجود طائفة يهودية ناشطة عاشت فى مصر.

وقد أسس اليهود الربانيون المصريون معبداً يهودياً فى بروكلين في نيويورك, وفى عام ١٩٩٥ أنشاوا الجمعية التاريخية لليهود المصريين لكتابة تاريخ هذه المجموعة وحمايته وقد أخرجت مارى حلوانى فيلماً قصيراً اسمه (أفتقد الشمس) عن حياة يهود نيويورك المصريين فى وطنهم الأصلى. لكن يبدو أن هذه الجمعيات لن تكبر, لأن معظم المصريين أصبحوا كباراً فى السن، والكثيرون منهم ماتوا, ولا توجد جالية يهودية مصرية، ولاينتظر فى المستقبل أن يوجد, لكن الحقيقة أن اليهود المصريين بعد معاهدة السلام تغير موقفهم تماماً, وبدأوا يهتمون ويحكون لأولادهم عن مصر الجميلة والأيام الحلوة التى عاشوها فيها.

وقد زار روبير داسا الإسكندرية مع مناحم بيجين عام ١٩٧٩ بوصفه مذيعا ومعلقا

للإذاعة العربية الإسرائيلية بعد اثنى عشر عاماً من الإفراج عنه فى قضية سوزانا ، ونشر كتاباً من الواضح فيه أنه الوحيد الذى كان يؤمن بالصهيونية بين كل معارفه، وأن أخته تزوجت مصريا مسلما، وتعيش فى الإسكندرية، و قال إنه شعر بالحنين للمشى فى شوارع القاهرة.

استرجاع الشخصية اليهودية المصرية

يقول بنيين: لقد اشترك اليهود المصريون فى إسرائيل في بعض الخصائص التي يتصف بها اليهود العرب مثل التكلم بالعربية، و كذلك بعض التقاليد و العادات العربية. وكانت الأغلبية العظمى من اليهود المصريين من السفارديم، بالإضافة إلى طائفة القرائين ذات التقاليد و التعاليم الخاصة جداً وقلة من اليهود الأشكيناز. وكان كثير من اليهود المصريين يتكلمون الإنجليزية و متأثرين بالحضارة والتقاليد الأوروبية، وكان من أسباب ضعف تأثير اليهود المصريين فى إسرائيل، أنهم لم يكونوا وحدة متجانسة، بل كانوا من مختلف الثقافات والاتجاهات، مما جعل وحدتهم وصوتهم بوصفهم مجموعة واحدة ضعيفاً، بالإضافة إلى قلة عددهم مقارنة ببقية اليهود العرب.

ولم يلاق المتعلمون والمثقفون والمهنيون من اليهود المصريين ذوى الخبرة والثقافة الواسعة أى صعوبة فى الاندماج و الحصول على وظائف جيدة في مجتمع المدن الإسرائيلية، والكثيرون منهم عمل فى البنوك وشركات التأمين، والبعض عمل فى البوليس، لأن إجادة العربية كانت ميزة للعمل في الشرطة، وانتشر المصريون بين بئر سبع وحيفا، لكن تجمعهم الأكبر كان فى الضواحى الجنوبية لتل أبيب. وحسب التعداد الإسرائيلى فإن عدد اليهود المصريين الذين استقروا فى إسرائيل من مصر والسودان كان ٣٥٥٨٠ نسمة ومعظمهم عاش فى المدن، كما كانوا يعيشون فى القاهرة، ولم يحققوا الحلم الصهيونى بالارتباط بالزراعة والأرض، وأغلبهم وصل إلى إسرائيل بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، ويعنى ذلك أن أقل من نصف اليهود المصريين قد هاجر إلى إسرائيل.

بعد توقيع اتفاقية أوسلو وإعلان المبادئ التى تحرر غزة و الضفة الغربية من الاحتلال، شعر الكثيرون من الاسرائيليين بالارتياح، لأن الاحتلال الذى يؤرقهم قد بدأ يولى، وجاء ذلك مع ظهور موجة المؤرخين الجدد الذين أرادوا كتابة التاريخ الإسرائيلى

كما حدث, وليس كما صورته الدعاية الإسرائيلية، ويعني ذلك الكتابة عن المذابح والإهانات التى حدثت للفلسطينيين. وأمامنا رواية ماتالون التى كانت تبحث فى كل الأيديولوجيات المختلفة فى إسرائيل, وتذكر الكثير من الصفات الإيجابية للمصريين، وقالت إننى بوصفي إسرائيلية مولودة فى مصر، وجدت نفسى أفكر فى الكثير من الأمور الثقافية و السياسية التى لا تتفق مع الصهيونية، وإنجذبت كثيراً إلى الثقافة المصرية لليهود و المثل الأخلاقية العالية لهم، فلماذا لا نعيش وندعهم يعيشون أيضاً؟! وفى التسعينات عمل عمانويل ماركت مديراً للمركز الأكاديمى الإسرائيلى فى القاهرة, و هو المركز الذى يعده الكثيرون من المصريين الوطنيين مركزاً للتجسس ، وبعد عودته إلى جامعته فى حيفا كتب قائلاً: لو لم تقرر الحكومة الإسرائيلية بدء الأعمال القذرة مثل عملية سوزانا, لما حدثت كارثة لليهود المصريين لأسباب واهية وغير مهمة، وقد سبب هذا الحادث الدمار لعلاقة اليهود ببلدهم مصر، وقد علق قائلاً إنه حتى الآن من الممكن البدء فى تكوين جالية يهودية مصرية فى مصر, وانتقد بشدة السفارة الإسرائيلية لمعارضة مشروعه.

ويعترض بنيين على الطريقة العدائية لكتابة التاريخ عند اليهود بدون وجه حق. ويعتقد أن الاتجاه الإسلامى يقود العداوة ضد اليهود بصفة عامة, ويكتب عن اليهود المصريين بطريقة سلبية. ويعتقد بنيين أن نظرة أوروبا السلبية نحو اليهود طوال عقود طويلة ظهرت فى كتابات المصريين الذين رأوا أن اليهود كانوا رأسماليين, يمصون دم الاقتصاد المصرى. تقول سهام نصار فى كتابها (اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية) إنه كان للحروب الإسرائيلية العربية تأثير كبير على اضمحلال الفروق بين الديانة اليهودية و الحركة الصهيونية، بالرغم من أن الحكومة المصرية كانت واضحة فى التفرقة بينهما. لكن بعد عملية سوزانا قال جمال عبد الناصر إنه بالرغم من أن اليهود المصريين تمتعوا بجميع حقوق المصريين, حسب دستور ١٩٢٣. إلا أنهم أصبحوا يدينون بالصهيونية.

وفى عام ١٩٧٤ ظهرت مدرسة جديدة فى تفسير التاريخ الإسرائيلى الحديث و تدعو إلى تغيير الفكرة التى سادت منذ قيام الدولة العبرية, والتى أدت إلى تهميش دور اليهود المصريين الذين نظر إليهم الأشكيناز على أنهم مصريون شرقيون بدائيون، وأن على اليهود المصريين أن يلتحموا مع تيار الأشكيناز القادم من شرقي أوروبا الذى أقام

بالفعل دولة إسرائيلية. وبعد ظهور المدرسة التاريخية الجديدة بدأت الكتابات الحقيقية عن الثقافة والحضارة المصرية واليهود المصريين تأخذ مكانها.

ويقول بنيين إنه على حين كانت هذه الموجة العدائية لمصر بغير حق مستمرة في إسرائيل حتى منتصف السبعينات، فإنه في العالم العربي كانت الكتابات العربية تقول إن اليهود كانوا يعاملون جيداً في البلاد العربية. ويعرف المثقفون المصريون الدور المهم الذي لعبه اليهود في الدولة الفاطمية، ولجوء ابن ميمون إلى القاهرة بصفتها مكانا آمنا، وأن اليهود الذين هاجروا إلى مصر نزوحاً من أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر، والذين هاجروا أيضاً من روسيا وأوروبا وحوض الأبيض المتوسط في منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان يهاجرون إلى بلد آمن، وأصبح الكثيرون منهم من الأغنياء, وكانت – مصر بحق– ملجأ لليهود النازحين و الهاربين من الاضطهاد في أوروبا.

وفي السنوات الأخيرة كان خطاب القوميين والإسلاميين في البلاد العربية ملخصه أن اليهود خانوا مصر, فبالرغم من أن مصر كانت ملجأ لهم, ووصلوا فيها إلى النفوذ والثروة إلا أنهم تحالفوا مع الإمبريالية العالمية و الصهيونية ضد مصالح مصر.

ولا يوجد في التاريخ العربي القديم أو الحديث شيء مماثل, أو حتى قريب مما حدث لليهود في أسبانيا, فجميع الباحثين الغربيين يعترفون بأن اليهود كانوا يعاملون بطريقة أفضل بكثير في المشرق المسلم عن الغرب المسيحي, ولا يوجد اضطهاد يمكن مقارنته من قريب أو بعيد بما فعله النازيون في اليهود. يقول بنيين إن اليهود لم يتعرضوا للاضطهاد إلا في حالات قليلة كانت مرتبطة بالشعور الوطني العارم، أو الكفاح ضد الإنجليز المستعمرين، أو كجزء من النزاع العربي الصهيوني.

وفي أثناء ثورة ١٩١٩ ضد الاستعمار الإنجليزي انضم اليهود إلى الأقباط و المسلمين في وحدة واحدة تحت زعامة سعد زغلول, وكان زعماء الجالية اليهودية مثل يوسف قطاوي باشا ويوسف شيكوريل بك, من كبار المؤيدين للثورة بصفتهم وطنيين مصريين.

وحتى قبل ثورة يوليو وفي عصر الملك فاروق, كانت هناك مؤشرات ودلالات على انحسار نفوذ الأجانب المتمصرين من اليونانيين و الإيطاليين والأرمن و الروس، واليهود.

وبقيام الثورة أصبح دور غير المصريين ونفوذهم أقل بالتدريج، حتى كان العدوان الثلاثي من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، فصودرت أملاك رعاياهم عام ١٩٥٦. وفي عام ١٩٦١ تم تأميم معظم الشركات الكبيرة التي كان يملكها المصريون والمتمصرون من مختلف الاتجاهات. ولم يكن تصرف الثورة ضد الأجانب المتمصرين موجهاً بالتحديد لهم، بدليل أنه في عام ١٩٥٦ تمت مصادرة أموال مواطني الدول التي اشتركت في العدوان، و رأت الثورة أن أغنياء اليهود الأجانب والمتمصرين هم ممثلو إسرائيل. وفي عام ١٩٦٠ تم تمصير الممتلكات البلجيكية تعاطفاً مع العدوان على الكونجو، ولم تتأثر الشركات الإيطالية و اليونانية وغيرها من الجنسيات الأخرى، إلا عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢، حين طال التأميم جميع الشركات التي كان معظمها في ذلك الوقت مملوكا للمصريين. لذا يمكن النظر إلى أن تأميم الشركات كان سياسة حكومة الثورة التي بدأتها عام ١٩٥٦ بالمشتركين في العدوان الثلاثي، وانتهت في ٦١-٦٢ بتأميم جميع الشركات، ويعني هذا أن الأجانب و اليهود لم يكونوا معنيين بالدرجة الأولى، لكن السياسة كانت تأميم جميع رؤوس الأموال، أياً كان أصحابها.

الكتابات الإسرائيلية لليهود المصريين

لخص بنيين عددا كبيراً من الكتابات التي نشرها اليهود المصريون، و منها رواية أدا أهاروني، التي كانت تسمى في مصر قبل هجرتها أندريه ياديد، و قد ولدت في مصر عام ١٩٣٣، وهي شاعرة وابنة عائلة يهودية غنية ، و كانت تسكن في وسط القاهرة، وتعلمت في المدرسة الإنجليزية بالزمالك، وقد غادرت مصر عام ١٩٤٩ إلى فرنسا مع عائلتها وفي عام ١٩٥٠ تركت عائلتها في فرنسا وغادرت بمفردها إلى إسرائيل، وتزوجت حاييم أهاروني الذي اكتسبت اسمها الجديد منه، وحصلت بعد ذلك على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة لندن عام ١٩٧٥. وفي العام نفسه أسست جمعية السلام للمرأة العربية والإسرائيلية، وكانت تريد أن تحمل رسالة ثقافية سياسية ، تقول فيها إن اليهود المصريين في إسرائيل من الممكن أن يكونوا جسرا يعبر عليه السلام بين الدول العربية و إسرائيل. وقد أجرت هاروني استطلاع رأي بين اليهود المصريين، فوافق ٨٠٪ منهم على الجلاء عن معظم الأراضي التي احتلت بعد ١٩٦٧، وكذلك إنشاء دولة فلسطينية منفصلة أو اتحاد فيدرالي مع الأردن، وعند مقارنة ذلك باستطلاع مماثل بين كل الإسرائيليين، نجد أنه قد وافق ٣٥٪ فقط على هذا

الرأي. وكانت الأشعار الأولى لأهاروني لا تعبر عن خلفيتها المصرية، لكن بعد حرب ١٩٧٣ حدث تحول في كتاباتها، وأصبح تاريخ العائلة في مصر جزءاً أساسياً في أدبها. وفي روايتها الأولى التي أسمتها "خطاب إلى صديقتي قدرية" حكت عن طفولتها وكيف كان البقال يشير إلى خادمتها حسنية بالبنت الإفرنجية وكانت تستغرب من ذلك، لكن بنين كان حريصاً على القول إن الكاتبة لم تسأل نفسها: لماذا قال البقال ذلك؟ هل لأنها كانت تعيش وتفكر بطريقه مختلفة وتتكلم بلهجة مختلفة أم لأنها لم ترتبط بأى آمال أو أحلام مشتركة مع المصريين؟ ويتحدث بنيين عن روايتها الثانية "الخروج الثاني من مصر" التي انتقدها على شلش أيضاً بشدة في كتابه (الماسون ى اليهود في مصر) وليس من الصعب تفهم أن آراء أدا أهاروني تأتي من خلفية اليهود الأشكيناز القادمين من شرقي أوروبا، والتي طالت جذورها أنواع الاضطهاد المختلفة في أوروبا وهي تحكي في روايتها عن انضمامها - عندما كانت في طور المراهقة- إلى منظمة صهيونية، وانتقدت بشدة الحكومة المصرية لإغلاقها قاعة الاجتماعات المخصصة لهذه المنظمة عام ١٩٤٨. وهو ما حدث مع كل الجمعيات الصهيونية بعد إنشاء دولة إسرائيل.

وينقد على شلش رواية أخرى لأدا أهاروني ، تبدأ في القاهرة عام ١٩٤٨. بقصة حب بين فتاة من اليهود السفارديم الأغنياء -الذين عاشوا أجيالاً في مصر- و فتى من اليهود الأشكيناز القادمين من شرقي أوروبا حديثاً بعد سجنه في معسكر نازى. تحكي حكايتها في مصر, وأشارت إلى أن اليهود لم يحصلوا على الجنسية المصرية، وأنها عندما كانت طفلة كانت تعامل بوصفها أجنبية في سوق باب اللوق، وتحكي قصة اغتصابها من شقيق خادمتها، إنتقاماً لاغتصاب فتاة مصرية من شقيقها اليهودى, ويعلق على شلش على المحاضرة التى ألقتها البطلة ضمن نسيج الرواية، ويعدها نقطة ضعف في الرواية, بالإضافة إلى الأخطاء التاريخية المتكررة والتحامل على المصريين بدون سبب واضح, ويعتقد شلش أن الروائية أهاروني محدودة الموهبة والفكر. وقد قرأت الرواية في مرحلة تالية لقراءة النقد, وأعتقد أننى أوافق شلش على ما كتبه.

المثال الآخر هو الشاعرة الإسرائيلية أندا هاريل داجان, وهى أخت الصهيوني المصرى المعروف داود وهبة وقد كانت تسمى في مصر أندريه وهبة، وهى من عائلة يهودية شهيرة فى مصر, وقد ولدت عام ١٩٣٤. وغادرت مصر إلى إسرائيل عن طريق

مارسيليا هى وأمها حتى يتركا الفرصة لأخيها ليعمل فى الحركة الصهيونية فى مصر بحرية أكبر, وقد تخلت العائلة عن اسمها المصرى "وهبة" نهائياً، وقد نشرت فى أوائل السبعينات كتابين من أشعارها, لم يحتويا على أى شيء عن مصر سوى قصيدة واحدة تنعي فيها أباها إبراهيم وهبة الذى توفى فى القاهرة عام ١٩٤٤و تتذكره, وفى هذه القصيدة تذكر لأول مرة أصلها المصرى وأن أباها هو الوحيد الذى كانت تتكلم معه بالعربية, وأشارت فى قصيدتها إلى عرائس المولد, وهى تمشى بينها مع أبيها يوم مولد النبى صلى الله عليه و سلم.

وقد زارت أندريه (سابقاً) مصر عام ١٩٨٠ فى رحلة منظمة من إسرائيل, إلا إنها تركت المجموعة وانطلقت وحدها إلى العباسية وزارت المكان الذى ولدت فيه, ومشت في كل شوارع المنطقة، وتذكرت طفولتها السعيدة في مصر, واكتشفت أن العامية المصرية لديها لم تتأثر، وقيل لها إنك بنت بلد ، وبعد عودتها إلى إسرائيل كتبت ديوانا شعريا عن القاهرة تصف فيه طفولتها وشوارعها وناسها ، ونشرت فى هذا الديوان قصيدة عن سيد البواب وعن عبد الله زميلها فى المدرسة, وكيف تصرفا أثناء المظاهرات التى اندلعت فى الأربعينات ضد الصهيونية، احتجاجاً على ما يحدث فى فلسطين. ولم تقابل أشعار أندريه الجديدة بالاستحسان فى إسرائيل، ورأي الاسرائيليون أن فى قصائدها الكثير من الحنين إلى مصر ، ولا يعنى ذلك أن كل ما كتب عن مصر لم يقابل بالاستحسان، لكن يبدو أن الطريقة الحميمة التى كتبت بها عن طفولتها السعيدة وعن أبيها المصرى الصميم, كانت السبب فى عدم تقبلها من الشعب الإسرائيلى.

موريس شماس صحفى مصرى يهودى من القرائين كان يقطن فى حارة اليهود ، ولد فى القاهرة عام ١٩٣٠ . وكان يكتب فى (جريدة الشمس) اليهودية الأسبوعية, وفى جريدة (الكليم) التى كانت تصدر مرتين فى الأسبوع، وعمل أيضاً في مسارح القاهرة ممثلا في أدوار صغيرة، وهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥١ . واهتم فى القدس بالثقافة العربية، وعمل فى الإذاعة العربية فى القدس, وكان يكتب مسلسلات وبرامج عربية للإذاعة، وعند عقد معاهدة الصلح مع مصر نشر شماس مجموعة قصص قصيرة اسمها شايخ خبتى (حكايات من حارة اليهود), ويتحدث فى كل الحكايات عن طفولته و شبابه فى الحار التى كانت موجودة واستمرت بصفة دائمة فى ذاكرته, و الحكايات كلها بالرغم من أن أسماء أبطالها يهودية، إلا أنها حكايات مصرية صميمة تصلح لأن

تكون حكايات لعائلات مسلمة أو قبطية بعد تغيير أسماء أبطالها. ومنها مثلاً حكاية عن عم محمود المسلم الذى كان يعيش فى الحارة وحضر تخرج ابنه، وحصل على الزمالة فى الطب من لندن, وفتح عيادته فى الحارة.

وتختلف حكايات موريس شماس اليهودى المصرى عن اليهود من سكان الزمالك والعباسية الذين كانوا يعدون من الإفرنج أو الخواجات، ولم يكونوا يتقنون اللغة العربية، شتان بين يهود عاشوا قروناً فى مصر بين أهلها – بنفس أسمائهم وأشكالهم وتصرفاتهم– وبين اليهود القادمين من أوروبا ليعيشوا أسياداً مع بقية الأجانب فى مصر. ويختلف شماس عن أدا هاروني وأندا حاجان في أنه كان يحكى دائماً عن أشياء إيجابية وعلاقات حميمة بين اليهود و المسلمين.

ويؤكد كتاب جاكلين كاهانوف من شرق الشمس أن اليهود المصريين طوروا وحدّثوا ثقافة شرقي البحر الأبيض المتوسط، لكن الثقافة الصهيونية عارضت بشدة هذه الآراء والأفكار التى تعد مضادة للثقافة اليهودية المعاصرة. ومما لا شك فيه أن الثقافة فى إسرائيل امتصت الكثير من ثقافة الشرق الأوسط, كالأكل و الموسيقى و الرقص واللغة و التصميمات المعمارية، لكن الثقافة الصهيونية ترفض ذلك, وتؤكد دائماً أن العرب ليس لديهم شىء من الأفكار يمكن الاستفادة منه, وأن طرق الحياة الاجتماعية و العادات و التقاليد كلها سيئة, ربما باستثناء عادة الجود وحسن الاستقبال.

لكن النقاد و القراء فى إسرائيل لم يحسنوا استقبال كتابات شماس, ولم يعجبوا بالنظرة الإيجابية لتصوير الحياة المصرية, مثلما رفضوا كتابات أدا أهارونى بعد زيارتها لمصر، و قد بنى هذا الرفض على أن المصريين عموماً يحملون حضارة شرقي البحر الأبيض المتوسط المتخلفة ، وعموماً كانت هذه الأعمال هى الأولى التى صورت مصر و ثقافتها بنظرة إيجابية، و حدث ذلك بعد زيارة السادات للقدس.

وقد قال كثير من النقاد الإسرائيليين إن كل ما كتبه المؤلفون الإسرائيليون عن مصر فيه الكثير من النوستالجيا و الحنين إلى الماضى المتخلف الذى غيرته إيجابياً الصهيونية. ومما لاشك فيه أن هذه النظرة شديدة العنصرية تجاه المصريين فى كتابات النقاد تعكس حجم الكراهية والاحتقار الذى يكنه هؤلاء النقاد لمصر, وتشعل الغضب والكراهية أيضاً تجاه إسرائيل لهذه الأسباب، حتى لو نحينا القضية

الفلسطينية جانباً, وهذا بالطبع مستحيل.

يقول بنيين إنه قد مر عقدان قبل أن تكتب الفتاة الإسرائيلية رونيه ماتالوفى المولودة فى إسرائيل من أبوين مصريين تاريخ عائلتها فى مصر, ثم تنقلهم بين الكاميرون وإسرائيل ثم الولايات المتحدة، وكانت كتاباتها إيجابية عن مصر وحضارة البحر الأبيض المتوسط المشتركة.

يقول بنيين إن نشر رواية فيها الكثير من السيرة الذاتية عن تاريخ عائلة الكاتبة ماتلون بمثابة تحقيق للذات المصرية لليهود المصريين فى إسرائيل، والإعلان عن ثقافتهم الخاصة التى دفنتها الأغلبية الصهيونية من الأشكيناز ، ففى الكتاب الكثير من روح البحر الأبيض المتوسط وثقافته, وفى الرواية يلعب ألبوم صور العائلة دورا رئيسيا ، حيث توجد حكاية عن كل صورة. وتم نسج القصة بحيث تجمع بين شخصيات يهودية مصرية وجنسيات أوروبية، بالإضافة إلى المصريين, وتتناثر الكلمات العربية والإنجليزية و الفرنسية فى رواية بالعبرية تحكى عن مجتمع من البحر الأبيض المتوسط، عاشت فيه ثقافات مختلفة متجانسة إلى حد كبير, وحكت عن الحياة الاجتماعية و العلاقات العائلية وعلاقات الجيران. وكان رأى أبطال الرواية من اليهود المصريين فى وطنهم الأول مختلفاً عن الرأى الصهيونى, وتفادت الكاتبة فى الرواية اتخاذ مواقف محددة وآراء نهائية حول حياة اليهود فى مصر, وتركت الأمر للقارئ لاتخاذ ما يراه, وربما يتغير حسب وضعه ومكانته وعلاقته بمصر وذكرياته هناك. وفى الحكاية يظهر العم شيكوريل وجدة المؤلفة إستر، وهما يكرهان الصهيونية بشدة، و يعتقدان أنها حطمت روح العائلة و مشاعرها, و لم يزر العم إسرائيل إلا مرة واحدة لمدة ٤٨ ساعه فى الخمسينات . ويعلق بنيين على هذا النص قائلاً إن هذه الشخصية لا تمثل فى الواقع الإسرائيلى تياراً غالباً, لكنها أعطت الفرصة للكاتبة لتقول عن إسرائيل أشياء لم يقلها كاتب إسرائيلى من قبل بوضوح شديد. وكان واضحاً من أفكار كل من البطل وبنت أخيه أنه لا يوجد تبرير لديهما لقيام دولة إسرائيل، ولم يكن حلم الوطن اليهودى يخطر بباليهما, لكنها أصبحت فقط مأوى للعم عندما أصبحت الحياة مستحيلة أمامه فى مصر.

وقد صدر كتاب اسمه (بنت النيل) عام ١٩٥٦ للكاتبة اليهودية المصرية الأصل التى

هاجرت إلى سويسرا جيزيل ليتمان, و الكتاب يحكى عن اضطهاد اليهود المستمر فى البلاد الإسلامية ابتداء من عصر النبى محمد صلى الله عليه و سلم حتى التاريخ المعاصر، ونتج عن ذلك هجرة اليهود العرب من بلادهم, وقد أعيد طبع الكتاب مرة أخرى بعد إضافة أجزاء إليه. وكما يقول بنيين فإن الدعاية الصهيونية و المؤسسات اليهودية الدولية ووزارة التعليم الإسرائيلية، قد ساعدت فى نشر هذا الكتاب الذى يسىء إلى للعرب الذين أضطهدوا اليهود.

ويعتقد بنيين أن القيادات و المؤسسات اليهودية تبنت وجهة نظر الكاتبة التى أثرت على وجهة النظر الغربية، وأصبح ذلك هو التفكير السائد فى الغرب, وقد ساعد ذلك الأمر على انتشار وجهة نظر شديدة العدائية لمصر, بعد السكوت والصمت المطبق من أجيال طويلة لليهود المصريين الذين عاشوا أجمل أيام حياتهم فى مصر, إلى أن اضطرتهم الظروف إلى الهجرة. وقد استمر هذا الصمت المخجل بين اليهود المصريين حتى نهاية السبعينات, حين كان هؤلاء اليهود قبل ١٩٤٨ يعتزون اعتزازاً كبيراً بمصريتهم وبتاريخ اليهود الآمن والمزدهر فى مصر, وقد ساعد على استمرار الصمت أن اليهود المصريين الذين هاجروا إلى إسرائيل حاولوا أن يكسبوا تعاطف الإسرائيليين معهم، وذلك بإعطاء الإيحاء بأنهم قد هاجروا من مصر بعد اضطهاد طويل الأمد فيها.

وقد ساعدت الكتابات الصهيونية المتعصبة – كما يقول بنيين – فى تحويل الاتجاه من الحق الفلسطيني الواضح إلى اتجاه معاكس، يتحدث عن ظروف الاضطهاد لليهود فى البلاد العربية، وساعدت الصهيونية العالمية على نشر هذا النوع من الكتب التى كتبت تاريخ المصريين بطريقة مغايرة للواقع وحقائق التاريخ بعد قيام دولة إسرائيل. وقد وصل الأمر إلى أن يتبنى البعض – مثل جلبرت- فكرة أن أعداد اليهود الذين غادروا البلاد العربية مساوية لأعداد الفلسطينيين الذين طردوا من أراضيهم، وبذلك لا يكون هناك مجال لمناقشة حقهم فى الأرض.

وقد قام بعض اليهود الإسرائيليين من أصل مصرى – الذين يطلق عليهم مصراييم – بتضخيم واختراع حكايات عن الاضطهاد الذى حدث لليهود فى مصر, وذلك حتى يمكن مقارنته بالاضطهاد و المذابح التى حدثت لليهود الأشكيناز فى أوروبا, وبالتالى

يجب أن يحصل اليهود العرب على نصيب مساو من السلطة و المميزات، لأنهم قد أصابهم حجم مماثل من العنت والاضطهاد ، ويعنى ذلك أيضاً أن يتباعد اليهود المصريون عن أصولهم وثقافتهم المصرية والعربية، حتى يمكنهم الانصهار فى المجتمع الإسرائيلى.

وقد ساعد على تشجيع هذا الاتجاه من اليهود المصريين فى إسرائيل, أن اليهود الأشكيناز أصحاب الدعوة الصهيونية رأوا أنهم أصحاب الفضل فى إقامة الدولة الإسرائيلية.

وتعبر بعض الروايات الإسرائيلية لكتاب مصريين عن انفصال تام عن مشاعر الناس وآمالهم وأحلامهم, وعن التعاطف مع الفقراء منهم, فمثلاً فى رواية اترخاق حيوبين "صيف الإسكندرية " تحكى عن عائلة غنية تلبس ملابس فاخرة, وكل شكواها من الخدم المصريين الكسالى, وحين قام الضباط الأحرار بحركتهم- التى لم تكن قد ظهرت ملامحها بعد- أحسوا بأن الرياح الجميلة قد توقفت, ولم تحاول هذه المجموعة - ولو لفترة - التفكير فى حياة المصرين من مسلمين و أقباط, الكلام نفسه يمكن قوله عن كتاب (الخروج من مصر) لمؤلفه أندريه اسمان، حيث تشير إلى العدوان الثلاثى وضرب مصر بالطائرات الإنجليزية و الفرنسية والإسرائيلية واحتلال بورسعيد, وكان شعور العائلة اليهودية كلها مع العدوان و الغزو و الفرحة بوجود الإنجليز فى بورسعيد وانتظار وصولهم إلى الإسكندرية.

ونشرت فى تلك الفترة الكاتبة جورن رواية عن آخر صيف قضته فى الإسكندرية عام ١٩٥١، وقد علق النقاد عليها بأنها رواية ضعيفة، وقد نشرت رواية أخرى نقدت فيها بشدة الحركة الصهيونية وتأثير اليهود الأشكيناز عليها, مما أثار عليها الكثيرين. توضح الرواية شيئين ، أولهما أن اليهود فى مصر لم يصبهم أذى، وثانيهما أن الحركة الصهيونية فى مصر كانت ضعيفة، و أن لهجرة اليهود إلى خارج مصر عوامل أخرى، وأنه لم يكن هناك مستقبل لشباب اليهود وطموحاته فى مصر, كرد فعل لوضع اليهود الشرقيين الذين لهم فقط دور ثانوى فى السلطة والحكم و النفوذ، مما أدى إلى أن يحاول اليهود المصريون الادعاء - بغير حق- بأنهم أيضاً كانوا من دعاة الحركة الصهيونية, وأنهم عانوا من الاضطهاد فى بلادهم.

والكاتب الآخر فى هذا الاتجاه هو هاركابى, الذى نشر كتابه عام ١٩٦٧ . و فيه يقول إن العرب بطبعهم معادون للسامية واضطهدوا اليهود, وأن المعركة ليست سياسية، وإنما دينية بين الإسلام و اليهودية.

وعموماً فإن الكتابات الأدبية للكتاب المصريين فى إسرائيل – فى مجموعها– لم تشكل تياراً أدبياً مهما، أو حتى له تأثير فى المجتمع الإسرائيلي, أما المجتمع المصرى فلم يعلم منه بهذه الكتابات إلا المتخصصون فى الدراسات الإسرائيلية.

اليهود المصريون علي شبكة الإنترنت

الجمعية التاريخية لليهود من مصر

غيرت الجمعية اسمها من جمعية اليهود المصريين, أو يهود مصر إلى اليهود من مصر, ربما لتنفى فى العنوان أنهم كانوا مواطنين مصريين. وتضع داخل مربع واضح فى أول صفحة على موقعها على الإنترنت ما يلى :

نود أن يعرف الجميع أننا جادون ومصممون على استعادة جميع الأوراق والسجلات التاريخية والدينية, وكذلك كل ما كان له ارتباط ثقافى بنا فى مصر, ولا مساومة فى ذلك, ولابد من استرجاعه.

وقد وجهت الجمعية – التى أسسها ويرأسها ليون صقال ونائبه فكتور صنوع وبسكرتارية يوسف موصيرى وأمانة صندوق مناحم مزراحى– خطاباً إلى قادة الكونجرس الأمريكى, تطالب فيه بإيقاف المعونات عن مصر فى حالة عدم تسليم كل ما يختص بيهود مصر إلى إحدى المؤسسات اليهودية فى الولايات المتحدة. وترفض مبدأ أن تنضم أى متعلقات باليهود إلى هيئة الآثار, وهو ما قررته الحكومة المصرية, لتصبح الآثار اليهودية والقبطية والإسلامية واليونانية والرومانية والفرعونية كلها أثارا مصرية ترعاها الدولة والمهتمون بالآثار من المجتمع المدنى. ويقولون فى خطابهم: إننا لا نتوقع من دولة طردت اليهود لسبب واحد ، هو أنهم يهود, أن يكون لديها الرغبة فى حماية ما يتعلق بالتاريخ اليهودى فى مصر. ويقولون إن الأذى قد أصابهم منذ عام ١٩٤٨ ، و لم يتركوا مصر برغبتهم, وإنما تحرش بهم المصريون, ورفضوا إعطاءهم الجنسية المصرية, وسجنوا أعداداً منهم, وفى النهاية طردنا من مصر بدون حق العودة. وحتى الآن:

١, مصر لم تعوض اليهود عن ممتلكاتهم.

٢, مصر لم تعتذر عن إساءتها لليهود.

٣, مصر لم تعترف بفضل اليهود على مصر.

٤, مصر تحاول الاستيلاء على ما تبقى من متعلقات يهودية, وبالرغم من احترامنا لمصر, فإننا لا يمكننا السكوت بعد الآن.

وتتصدر الصفحة الأولى من الموقع صورتان للإرهابيين موسى مرزوق وسامى عازر, اللذين قاما بتفجير أماكن عامة ودور السينما بالاتفاق مع الموساد, وحكم عليهما بالإعدام فى قضية سوزانا, وسميت فضيحة لافون, وبالطبع كانت الصور تعنى أنهما بطلان عندما قاما بهذا العمل .

مقالة منشورة على موقع الجمعية التاريخية ليهود من مصر

بقلم دينيس دويك تيليو

هذه المقالة ملخص لمحاضرة ألقيت فى المعبد اليهودى منذ عامين، حيث اجتمع خمسة عشر من الأصدقاء من أيام الدراسة الثانوية – بعد أربعين عاماً من الصمت– فى مطعم فى باريس, وبالطبع كانت الإنترنت هي الوسيلة التى جمعتهم، وكلنا أكملنا تعليمنا, وعملنا وتزوجنا, وانتقلنا من مكان إلى آخر, وحضرنا من أستراليا – البرازيل – إسرائيل – أمريكا، و البلاد الأوروبية، وكان عنوان اللقاء (مصر أم الدنيا), وهو ما يحب أن يردده المصريون, نظراً لموقعها الجغرافى وأهميتها التاريخية.

والسؤال لماذا هاجر كل هؤلاء اليهود إلى مصر؟ والسبب الأول هو أنها بلد يمكن أن تعيش وتكسب فيه, ونحن نعلم أن هناك يهودا يعيشون فى مصر طوال الوقت، وجاءت موجة الهجرة الأخيرة من دول البحر الأبيض المتوسط بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وقد ساند ملوك مصر فى العصر الحديث اليهود وأنشطتهم الصهيونية والرياضية والثقافية، وانتعش المجتمع اليهودى حتى وصل إلى مائة ألف يهودي فى منتصف الأربعينيات، وكانت حياتنا وبيوتنا وسط بقية المصريين فى كل مكان, وقام اليهود بأعمال كثيرة مفيدة, وأنشأوا المستشفيات ودور المسنين والمدارس، وكانت المدارس العربية المصرية متاحة لليهود, لكن الأغلبية فضلت المدارس الفرنسية

اليهودية, أوالمدارس الكاثوليكية، وكان أصدقائى فى المدرسة من مسلمين وأقباط و بنات وبنين، وكنا نتزاور, وكثير من الأولاد تعلموا فى الجامعة الأمريكية, أو سافروا إلي الخارج للتعليم, أما البنات فتزوجن فى سن صغيرة، وكانت الصلاة فى المعبد اليهودى تقليدية ، السيدات فى الدور العلوى والرجال فى القاعة الأصلية. وفى الأغلب لم تعمل السيدات خارج المنزل، ولم توجد مدارس لتعليم العبرية، وكانت حياتنا الاجتماعية غنية, كنا نذهب إلى المطاعم والمسارح والسينمات والنوادى, وكنا فى فترة الشباب نذهب إلى المراقص، ونلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية, وكانت عائلاتنا تكسب الكثير من الأموال, والحياة كانت سعيدة, والشمس ساطعة دائماً, والحق يقال إن مصر كانت فعلاً أم الدنيا. لكن كان هناك جانب أسود في هذه الجنة, حيث لم يحصل اليهود المولودون فى مصر على الجنسية المصرية, وإنما حصلوا على جنسيات آبائهم, وفي حالة عدم وجود جنسية للأب، كان الابن لا يحمل الجنسية المصرية, وكانوا يجددون الإقامة فى مصر كل عام, ولم يكن لهم حق التصويت, ولا حق الحصول على وظائف معينة، وللخروج من مصر كانوا يحصلون على جوازات مؤقتة مع فيزا للخروج والعودة. وقد حصل اليهود المهمون على الجنسية المصرية، لكن ثبت أنه لم يكن لها فائدة بعد ذلك. وكانت مصر دولة غير ديمقراطية, حيث لم تسمح بوجود حزب معارض, وكانت الصحف والتليفونات مراقبة، والشعب مراقبا بالبوليس السرى. وكنا نستمع إلى نشرة الأخبار فى الإذاعة البريطانية ، ولم نكن نظهر العلامات الدينية اليهودية ، وبعد قيام دولة إسرائيل ألغيت كل المنظمات اليهودية والصهيونية, وتم القبض على البعض بتهمة الصهيونية، وتم شنق البعض بتهمة الجاسوسية, وكان الناس يقولون عنا (يهودى صهيونى كلب ابن كلب).

وبدأ تيار الوطنية المصرية وجماعة الإخوان المسلمين فى الصعود, وكان الوطنيون يريدون الخلاص من الاستعمار البريطانى ، أما الإخوان فكانوا يريدون دولة الخلافة الإسلامية. وفى عام ١٩٥٢ حدث حريق القاهرة, وبعد ستة أشهر حدث انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وزار قائد النظام الجديد اللواء محمد نجيب المعبد اليهودى فى القاهرة, وزار مندوب عنه معبد النبى دانيال فى الإسكندرية، وفى عام ١٩٥٦ بعد تأميم القنال حدث الهجوم من الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين. وبعد انسحاب القوات الغازية كان ذلك بداية النهاية لحياة اليهود فى مصر. وصدر الأمر بطرد الإنجليز والفرنسيين

خلال أسبوعين, وكان منهم الكثير من اليهود. وصودرت أملاكهم, وكان منهم والد زوجتي وحماتى اللذان أغلقا شقتهما وسافرا من المطار. وقد قبض على بعض اليهود, وتم ترحيل البعض بتهمة الانضمام إلى التنظيمات الصهيونية، وقد وضعت الحكومة مكتب أبى تحت إدارتها, وبدأت هجرة اليهود، فمثلاً عائلتى موجودة فى ثلاث قارات وست دول. وقال المجتمعون على العشاء فى المطعم إننا لم نشعر بأننا لاجئون، وإنما يهود طردوا من مصر. وبدأ اليهود العمل بقوة فى بلادهم الجديدة, ونجح البعض، وعاش البعض الآخر حياة بسيطة، وعندما غادرنا مصر كان تعداد مصر اثنين وعشرين، والآن التعداد ٧٠ مليونا, وإنه لمن المحزن أن يوجد جيل كامل من المصريين لم يشاهدوا أو يتعاملوا مع أى يهودى, وصورة اليهودى التى يشاهدونها هى الموجودة فى صور الكاريكاتير التى تحمل دعاية موجهة ضد اليهود.

موقع الجمعية التاريخية لليهود من مصر مقال يوسف حكيم

يوسف حكيم الذى يعيش فى إسرائيل, ولد فى الإسكندرية عام ,١٩٣١ يقول إن اليهود مروا بأوقات مختلفة, بعضها ممتاز, وبعضها فيه صعوبة، والبعض الآخر قد يصل إلى درجة قريبة من الاضطهاد, وذلك فى نهاية أكتوبر ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثى على مصر. و يقول إنه أثناء هجوم الألمان فى العلمين كان الإخوان المسلمون وحزب مصر الفتاة يريدون النصر للألمان. ويقول إن نحو ٨٠ ألف يهودى كان يعيشون فى مصر فى ذلك الوقت, ويقول أيضاً إن معظم اليهود كان يحملون جنسيات أوروبية، وكان البعض يحمل الجنسية المصرية, و نحو ٢٠ ألفا بدون جنسية، وكانت الجالية اليهودية تجمع بين الأغنياء والفقراء والمتعلمين والأميين, وكانوا ذوي أصول من مختلف البلاد، هاجروا إلى مصر فى أزمنة مختلفة حتى يستفيدوا من الرخاء الذى سوف تحققه قناة السويس. وبالفعلً حدثت حالة رخاء شديدة لهم ولمصر, بمساهماتهم فى عدة مجالات صناعية ومصرفية واجتماعية ورياضية. و كان حاخام الإسكندرية د. فينتورا لا يخفى صهيونيته, لذا طلب منه مغادرة مصر عام ١٩٤٨، وأثناء حرب ١٩٤٨- التى أسماها الكاتب حملة الملك فاروق- قبض على أعداد من اليهود لعدة أشهر قد تصل إلى سنة. وفى القاهرة قام الإخوان المسلمون بتفجيرات فى حارة

اليهود, أسفرت عن مقتل من ٤٠إلى ٥٠ شخصا. وكانت الصحافة مقيدة في ذلك الوقت, وقد غادر مصر نحو ١٠ آلاف يهودى عام ١٩٤٩، ثم حدث هدوء نسبى بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢، إلى أن حدث حريق القاهرة, وقتل فيه بعض الأجانب واليهود, ثم إلي أن قامت الثورة, وزار الجنرال نجيب قائد الانقلاب المعبد اليهودى فى القاهرة, و كان يرغب في التعاون مع الغرب, على عكس عبد الناصر الذى أراد أن يكون بطل القومية العربية ويتحكم فى بترول الخليج.

وفى عام ١٩٥٦ حدث تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى على مصر، الذى كان من تبعاته رعب شديد حل بالجالية اليهودية وقبض على آلاف اليهود, حتى تم ترحيلهم والاستيلاء على أموالهم. ويقول إنه فى عام ١٩٦٧ وضع الرجال من اليهود فى السجن, وبعضهم مات هناك. ويقول إنه ليست لديه معلومات عن الفترة بين عامى ١٩٥٧ و,١٩٦٧

ويقول حكيم إنه يعد نفسه محظوظاً, لأنه ولد فى الإسكندرية لسببين, أولهما: أنه لو كان قد ولد فى بولندا أو ألمانيا أو النمسا أو اليونان أو فرنسا ، لعرفتهم ماذا كان سوف يحدث لى. وثانيا لأننى تركت مصر لأعيش حياة جديدة فى إسرائيل التى فيها كل مميزات الدولة العصرية, وأدعوكم إذا كانت لديكم أية أسئلة, أو تريدون تصويب أى شيء الاتصال بى على العنوان التالى:

Joseph Hakim P06 3089 - Jerusalem 91130 - Israel - E-net.Mail : goseph@internet-zahav

والأمثلة التى اخترتها من موقع الجمعية التاريخية ليهود من مصر, تجمع بين حقائق تاريخية موثقة و انفعالات شخصية لأحداث غير موثقة وفيها وجهات نظر مختلفة، مثل موضوع الجنسية المصرية واليهود وخروجهم من مصر, وأسبابه، وهناك بعض المقالات الموضوعية إلى حد كبير, والبعض الآخر فيه تحامل غير طبيعى بدون أسباب موضوعية، وكل هذه الموضوعات نوقشت بالتفصيل فى متن الكتاب.

موقع بساتين علي الإنترنت

هذا الموقع يتخذ اسمه من المكان الذى توجد فيه مقابر اليهود فى القاهرة, ويصدر الموقع خطابات دورية فيها معلومات عن بعض اليهود المصريين داخل مصر وخارجها,

وكذلك يصدر موجزا عن حياة بعض اليهود المصريين البارزين عند وفاتهم, مثل جاك حسون وريمون استمبوللى وليلى مراد.

وترعى هذا الموقع الذى يبث من القاهرة الآنسة كارمن وينشتين رئيسة الجالية اليهودية فى مصر, ويوجد بالموقع مقالات عن تاريخ اليهود المصريين، وتوجد فيه صور وذكريات كثيرة عن أماكن تواجد اليهود ومعابدهم فى مصر, وكذلك بعض الصور عن زيارات حديثة نظمتها الآنسة كارمن لبعض المعابد اليهودية التى استضافت زواراً و بعض تلاميذ المدارس الأجنبية فى القاهرة. والموقع بصفة عامة محترم, فيه معلومات موثقة, ويبتعد عن الإثارة، ويحافظ على تقاليد النشر.

أمثلة من المنشور علي موقع بساتين

تأبين السيد ريمون استمبوللى

توفى ريمون استمبوللى فى باريس, وهاجر من مصر فى الخمسينات لأسباب عائلية (وهذا غير صحيح لأنه سافر بأمر التنظيم الشيوعى (حمتو) ليكون ضابط اتصال للتنظيم من فرنسا) وبقى مصرياً بقلبه طوال حياته, وقد تخرج في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وكان قد بدأ دراسة الدكتوراه فىْ مصر قبل هجرته, وحافظ على علاقة وثيقة بأصدقائه المصريين طوال الوقت, وزار مصر مرات عديدة بدءاً من السبعينات, وفى آخر زيارة صحبته الآنسة وينشتين. - بناء على طلبه- فى جولة سياحية للآثار المصرية، التى قال استمبوللى إنه لم يكن لديه وقت لزيارتها أثناء حياته فى مصر. وطاف بالقاهرة الفاطمية، وزار بيت بختيا ومسجد قلاوون. وكتبت كارمن قائلة إن استمبوللى كان مثالاً للحكمة والتفهم, وكان عضواً فى جمعية حماية الآثار اليهودية فى مصرٍ, وكان قد أسسها مع جاك حسون, وكلاهما استمر يشعر خلال خمسين عاماً فى فرنسا بأنه مصري حتى النخاع.

رسالة من موريس سكينازى إلى

موقع بساتين مرسلة من شيكاجو

لقد ولدت عام ١٩٥١, وهاجرت من مصر وكان عمرى ستة عشر عاماً, أذكر المعبد اليهودى " الأستاذ " فى المحلة الكبرى, حيث كان عمى جابر أشكينازيا، وهو حانوتى اليهود فى المحلة حتى حرب عام ١٩٦٧, ثم غادر إلى أمريكا بولاية نيويورك, لكننى لم

أتصل به أبداً. وكان عمي يحضر إلى القاهرة ليصحبنا بسيارته كل عام لحضور رحلة الحج إلى معبد الأستاذ في المحلة الكبرى, وكانت عائلتي تؤجر شقة بجوار معبد الأستاذ في المحلة لإقامتها التي تستمر بضعة أيام, وكانت فرصة لزيارة أخي الأكبر جابريل, الذي كان طبيباً للأسنان في المحلة حتى عام ,١٩٦٧ وكانت منطقة المعبد تسمى الخوخة، وكان عمي يستأجر فرقة موسيقيه للآلات النحاسية لتحيي احتفال المعبد السنوي, وكانوا يذبحون الخراف في ساحة المعبد, وكانت اللحوم تشوى ثم نأكلها، وكانت توجد فسقية جميلة في ساحة المعبد. وداخل المعبد بجوار الهيكل كان هناك اثنان من الشمعدانات الكبيرة المصنوعة من الفضة الخالصة, وكانت توجد أوان مملوءة بماء الورد يرش بها المصلون، ومازلت أذكر عدد مجلة (المصور) الأسبوعية الذي كان يحمل على صدره عنوان (اليهود في مصر), وكان ذلك بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٥. وكانت المقالة الطويلة تتحدث عن الحج إلى معبد الأستاذ وتاريخ المعبد, وكان والدي وكثير من الأقارب موجودين في صورة الغلاف وهم يحملون أسفار التوراة. وزرت في المحلة عائلة ساروسكي اليهودية, وهي تعيش الآن في فرنسا.

وفي القاهرة يقول موريس: كنا نسكن في شارع قنطرة غمرة بالظاهر, ثم انتقلنا إلى شارع ابن خلدون في السكاكيني بجوار معبد حنان, الذي كان والدي يصلي فيه لعقود طويلة، وكان والدي جراح أسنان مشهور, وأجرى العمليات الجراحية للكثير من كبار رجالات الدولة في مصر, وكنت أصغر إخوتي الخمسة، وكنا ندرس في كلية دي لاسال بالظاهر، ولا أذكر الكثير من مقابر البساتين بالقاهرة. وفي الصيف كنا نذهب إلى أبو قير في الإسكندرية، وقد قبض على والدي وعمي في أول يوم أيام حرب ١٩٦٧. وطردا إلى إيطاليا في خامس أيام الحرب، و استفادت العائلة من كونها تحمل الجنسية الإيطالية، وتركت مصر في مايو ,١٩٦٨ وقد سجن زوج أختي مدة أطول، لأنه كان بدون جنسية.

وقد زرت القاهرة والإسكندرية بعد عشرين عاماً من هجرتي, لكنني لم أستطع العثور على أصدقاء طفولتي, وأتمنى أن أعرف مكان شريف سعد نجم الذي كان يسكن في المعادي وياسر كمال كشيلا من مصر الجديدة، وشريف محمد الشريف الحسن من عائلة غنيم بالهرم. وكانت عائلة غنيم سوسو ، توتو ، ثريا زوبا من أعز أصدقائنا.

تعليق: هذا خطاب جميل من يهودى مصرى يذكر مصر بالخير، ولا يحمل ضغينة، ويذكر حتى ظروف القبض على عائلته بموضوعية وحياد.

كنيس الأستاذ
المحلة الكبرى

نشرت البساتين موضوعا عن تاريخ المعبد وأهميته، وكان قد بنى عام ١٨٨٤. مع صور من المعبد.

مقالة بعنوان اليهود المصريون فى موقع بساتين

بقلم رالف بنيت

هى مقالة طويلة ألخص منها أجزاء، يتحدث فيها عن تاريخ اليهود المصريين، يقول الكاتب إنه مهتم بالبحث عن أصول عائلته، ومساعدة بقية اليهود على الوصول إلى جذور عائلاتهم، وقد توصل إلى أن عائلة جده كانت من أوكرانيا.

ويقول عرفت القصة الآتية من ابن خالى أولى ناشنيتز الذى ولد عام ١٩٣٩. ويعيش فى شيكاجو. يقول إن جدى كان لديه ابن اسمه هوسكل، و قد أصبح رجل أعمال غنيا، وقد ذهب هوسكل فى رحلة سياحية على مركب فاخر من ميناء أوديسا لزيارة موانئ البحر الأسود ثم البحر الأبيض المتوسط، وقامت الحرب العالمية الأولى، وانتقلت المركب من ميناء إلى آخر، والجميع يرفض استقبال الركاب بسبب الحرب، حتى قبلت مصر استضافة السيد هوسكل، وقد علموا بعد وصولهم إلى مصر أن الحكومة الروسية أممت ممتلكاتهم وأصبحوا من الفقراء. واستقرت العائلة لثلاثة أجيال حتى هاجرت بعد ١٩٥٦ و قد شجعت هذه القصة السيد بنت على عمل دراسة عامة عن تاريخ اليهود فى مصر نشرها على موقع بساتين.

الجالية اليهودية بالإسكندرية

الحفاظ على التاريخ الدينى والثقافى

بقلم إيف فيديدا

منشور على موقع بساتين

هى مقالة عن تاريخ اليهود في الإسكندرية اعتباراً من القرن السادس عشر، وفيها أعداد اليهود المقيمين فى الفترات المختلفة وهجرة يهود الإسكندرية, وأين ذهبوا, والمواقع الثقافية والدينية، وفى النهاية تحدثت عن مستقبل الإسكندرية.

حوارات مع يهود مصريين

حوار : يوسف حزان وريمون استمبوللى

تمت مقابلة يوسف (سوسو) حزان فى منزله فى باريس, وقد قام د. رفعت السعيد بتقديمى إليه, واتصلت به وحددت الميعاد, وقام سوسو بالاتصال بريمون استمبوللى للحضور، وقد حضر معى الدكتور سعيد سلامة والأستاذ فيكتور سلامة صديقاي المقيمان فى باريس.

وكان اللقاء حميمياً وعاطفياً للغاية، فيه حرارة الشوق للقاء يتميز عن كل اللقاءات الأخرى. وعند الحديث مع سوسو حزان وجدت أنه يتمتع بذاكرة حديدية, بالرغم من أنه تخطى التسعين من عمره وضعف نظره. ولد حزان فى شارع الخليج المصرى (بورسعيد حالياً) بالقاهرة، وأصل العائلة من دمشق, وهاجرت إلى مصر عام ١٨٦٠ . وكان يعمل مهندساً زراعياً فى الريف المصرى. وعن طفولته قال إنه لم يشعر بأى غربة فى الوطن وكان جيرانه هم عائلة إسماعيل على أصحاب مصانع السجاد الشهيرة, وكانوا قريبين منه جداً, وكان الاختلاف الوحيد بين العائلتين أنهم كانوا يربون الحمام فوق السطح، وهو ما رآه حزان غريباً. وقال إن والده كان يقرأ (الأهرام) صباحاً و(البورصة الفرنسية) بعد الظهر، ويقول: كنا دائماً نتكلم لغتين بالجودة نفسها: العربية والفرنسية.

وفى البيت يتكلمون العربية وأحياناً بعض الفرنسية، وقال سوسو: دخلت مدرسة فرنسية فى الظاهر, لأنها كان تدرس المنهج المصرى بالرغم من أنها فرنسية, ودرست منهج اللغة العربية كاملاً, وحفظت أجزاء من القرآن خاصة بامتحان اللغة العربية.

ورداً على سؤال بخصوص شعوره بوصفه يهوديا فى المدرسة الثانوية، قال إن زملاءه كانوا منه وهو منهم. وكان من المفروض أن يعمل فى البنك الأهلى, لأن والده كان يعمل فيه، لكنه سافر إلى فرنسا. وتعليقاً على فترة دراسته فى فرنسا, يقول إنه فى مصر لم يشعر بأى تفرقة مع أي مصرى, لكن فى فرنسا شعر بالتفرقة لأنه

يهودى, ففى انتخابات اتحاد الطلبة فى الجامعة الفرنسية انتخب سوسو أمينا لصندوق اتحاد الطلبة, وصاح الطلبة الفرنسيون قائلين: هذا هو المنصب المناسب ليهودى, ويقول سوسو إنه لم يسمع هذه الكلمة قط فى مصر.

ويقول سوسو إنه إحقاقاً للحق، فإنه ذات يوم عندما كان يستقل الترام, قال أحد الركاب إن العملة سوف تنقص في مصر, لأن اليهود سوف يجمعونها، و ذات يوم آخر قال له طبيب أسنان مصرى أثناء لعبهما البلياردو سوياً إن القوات الألمانية على أبواب الإسكندرية، وحين يصلون إلي القاهرة سوف أسلمك, واندهش حزان لأنه لم يسمع كلمة مشابهة قبل ذلك طوال حياته.

وقال إن أصدقاءه كانوا مسلمين و يهودا وأقباطا. ويقول إنه كان عضواً فى نادى المكابى اليهودى – فرع الظاهر, وطلب منهم الانضمام إلى الكشافة المصرية, على حين كانت نوادى المكابى منضمة إلى الكشافة الدولية، وبعد انضمامهم إلى الكشافة المصرية فتحوا النادى اليهودى لانضمام مسلمي الظاهر وأقباطه، ودخلت عائلة إسماعيل نادى المكابى, وكذلك عائلة سميكة.

وسألته: هل كان يذهب إلى المعبد اليهودى فأجاب، إن أباه لم يكن يؤمن بالأديان, لكن عمه كان شديد التدين ويصلى عدة مرات فى المعبد يومياً, أما حزان فقد درس الدين حتى سن الثالثة عشرة، وأقيم له احتفال البلوغ المهم لليهود لكنه لم يكن مقتنعاً, وقال لعمه إننى لن ألبس هذه الملابس مرة أخرى, ويقول يوسف حزان إنه كان يشعر دائماً بالفلاحين والعمال المصريين, وعندما كان مديراً لمصنع فى الإسكندرية كانت علاقته بالعمال ممتازة, وكان يختلط بهم ويتحدث معهم, ولما ذهب للعمل فى الفيوم شعر بالشقاء والبؤس على حد قوله. ولما كان فى المدرسة كانت هناك أنشطة وطنية, وحين حاول أحد رؤساء الكشافة العالميين الزائرين لمصر إقناعه بترك الكشافة المصرية والانضمام مرة أخرى إليهم رفض حزان.

وقال إنه لم يبدأ القراءة إلا عام ١٩٤٦ ، و كان السبب في دخوله عالم السياسة شعوره بالفقر المدقع والبؤس الشديد للفلاحين فى الفيوم. وانضم إلى الحزب الشيوعى عام ١٩٤٦، حين انخرط في تنظيم اسكرا. وقال إن الحكومة السعدية اعتقلته عام ١٩٤٩. وكان فى نفس المعتقل مع الإخوان المسلمين، وقال إنه علم الإخوان المسلمين

كيف يدافعون عن حقوقهم, وعندما استغرب الإخوان من ذلك، قال حزان أنتم مضطهدون مثلي تماماً، ويجب أن أدافع عنكم حتى لو اختلفت أفكاركم عن أفكارى, وكانت النتيجة أنه بعد ثلاثة نقاشات انضم ثلاثة من شباب الإخوان إلى الحزب الشيوعي. وبعد ذلك طلب زعماء الإخوان المسلمين مقابلتي, وتقابلنا, وطلبوا مني المساعدة في الاتصال بعائلاتهم في الخارج, ووافقت على تهريب الخطابات إلى الخارج لكن على أن تكون كل الخطابات مفتوحة لأقرأها أولاً, وكل خطابات الإخوان خرجت سرياً على يدى من السجن.

وقال يوسف حزان إن ابن عم والده كان في الحزب الشيوعي المصرى الأول الذي تأسس في أوائل القرن العشرين و ذهب مع حسني العرابى إلى مؤتمر الأحزاب الشيوعية في موسكو, وكان موجوداً عندما وقف العرابى زعيم الحزب الشيوعي المصرى، وقال سوف أحضر لكم مصر على صينية, فسأله ستالين: كيف؟ فأجاب: أعطني خمسة قروش لكل ناخب وسوف أجعلهم ينتخبون الشيوعيين، فقال له ستالين : أنت لا تفهم شيئا عن الشيوعية فقال له عرابى : يجوز ألا أفهم شيئا عن الشيوعية، لكنك لاتفهم شيئا عن مصر. ونتيجة لذلك أخرجوهم من المؤتمر، وكان وفد من الشيوعيين الإيطاليين في انتظارهم على الباب, وأعطوهم تذاكر للسفر إلى مصر عن طريق بولندا، وقالوا لهم: لو بقيتم في موسكو حتى الغد، سوف تنقلون إلى المعتقل في سيبيريا. وقد سألت حزان عما إذا كان ابن عم والده- رفيق العرابى في الحزب الشيوعي المصرى- هو الذى أقنعه بالشيوعية، فقال: لا أبداً ، فلاحو الفيوم الفقراء قطعوا قلبى, وبعد عودتى من الفيوم قرأت الكتب الماركسية بالفرنسية والإنجليزية.

وسألته عن سبب انضمام نسبة كبيرة من اليهود المصريين إلى الحركه الماركسية فقال حزان إن ذلك تولد بعد حادثة كوبرى عباس عام ١٩٤٦. لكن ريمون استمبوللى قاطعه قائلاً: السر هو معرفة اليهود باللغات الأجنبية, لأنه لم تكن في ذلك الوقت كتب اشتراكية باللغة العربية. وقد قيل إن السبب في عدم انتشار الماركسية بين المسلمين هو تعارضها مع العقيدة الإسلامية، لكن ريمون استمبوللى اعترض على ذلك, وقال إن الشيوعية كانت الطريقة التى تجعلنا جميعا متساوين في قارب واحد.

وأصر ريمون استمبوللى على رأيه قائلاً: أنا أعرف مصر جيداً، وأكلمك عن تجارب

شخصية ، لقد كان مستحيلاً على أى شاب لا يعرف إلا العربية التعرف على الماركسية. فقد كانت كلمة الاشتراكية ممنوعة فى كل الحكومات, ولا يسمح بترجمة أو تداول كتب عنها إلا فى حدود ضيقة جداً, وقال استمبوللى إن شيخ الأزهر اجتمع مع بعض الشباب، وقال إن الشريعة الإسلامية تحبذ أن يكون الأمر شورى وتشجع المناقشة والأجتهاد بين الناس، ونشرنا الكتب الخضراء عن هذا الموضوع. وقال ريمون استمبوللى أيضاً إن ميزة اليهود معرفتهم بالغات الأجنبية، ودورهم الأساسى كان همزة الوصل بين الأجانب والمصريين, وقال إنه طرد من مصر لأنه تخرج في جامعة القاهرة وأنه شيوعى, وكانت المباحث تسميه الشيوعى الصهيونى, لأن الشيوعيين قبلوا تقسيم فلسطين، وقال حزانإنه وريمون كانا عضوين فى حمتو, حتى أمر التنظيم بسفرهم إلى الخارج.

وقال إن أول كتاب ماركسى ترجم إلي العربية كان عام ١٩٤٥. حين ترجم البندارى باشا سفير مصر فى موسكو كتاب لينين (الاستعمار: المرحلة النهائية لتطور الرأسمالية) وقد نشر فى طبعة ممتازة فى مصر.

وقال يوسف حزان إن عائلته كان لديها جنسية فرنسية، لأن أباه ولد فى دمشق, وكانت تخضع للحماية الفرنسية .

وقال حزان إنه فى عام ١٩٣٧ بعد ألغيت الامتيازات الأجنبية مع إعطاء فترة سماح اثنى عشر عاماً، قال والد يوسف لابنه الشاب الصغير: من الممكن أن تعمل باللغات الأجنبية التى تعلمتها, لكن المصريين بعد ١٢ سنة سوف يملكون البلد بالكامل, وإذا كنت تريد أن تعيش فى مصرلابد أن تتعلم العربية كأهلها, وإذا كنت تريد أن تعيش فى أوروبا يجب أن تجهز نفسك لمغادرة البلد عام ١٩٤٨. عند انتهاء قانون الامتيازات الأجنبية. فاختار يوسف حزان البقاء فى مصر، والتحق بالبكالوريا المصرية، ودرس كل المواد بالعربية، وكان في ذلك صعوبةً له، وقال لأبيه: إننى سوف أتعذب بهذا الاختيار, فقال أبوه: إذا كان اختيارك البقاء فى مصر, يجب أن تدخل الامتحان العربى, وفعلاً حصلت علي البكالوريا المصرية، والتحقت بكلية الحقوق، وأختار أخى التعليم الفرنسى، وغادر مصر إلى أوروبا.

وقال يوسف حزان إنه تقدم للحصول على الجنسية عام ١٩٣٨. ولم تكن هناك

مشكلة فى حصولنا عليها, لكن كان هناك من اليهود المصريين الفقراء من لم يتقدموا للحصول عليها, أذكر أنه فى عام ١٩٥٧ ذهب وفد لاستقبال اليهود الخارجين من مصر أثناء النزوح الكبير في تلك الفترة، فسألت السيدة اليهودية المصرية: أين الجنوب؟, فأشاروا عليها بالاتجاه إلي الجنوب, فتوجهت ناحيته وقالت : نفسى أعض عضة من لحمك ياجمال (تقصد عبدالناصر) لأنها رأت أن خروجهم من مصر فيه ظلم فظيع.

وعندما سألت يوسف حزان عن تأثير إسرائيل وعملية سوزانا على علاقة اليهود المصريين بوطنهم, قام ريمون استمبوللى بالرد على سؤالى قائلاً: يهود مصر كانوا فى حالة قلق، وكان هناك شعور بأن شيئاً سوف يطيح بهم, وعندما حدثت فضيحة لافون وقنبلة سينما مترو, شعروا بأن هناك شيئا انكسر فى مصر، وثقة المصريين فى اليهود ضاعت، وقال الخطأ كان من إسرائيل, وقد فعلت ذلك لكسر الثقة وإشاعة القلق بين اليهود حتى يهاجروا إلىَ إسرائيل.

وقال حزان إنه سجن –هو وريمون استمبوللى– فى ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى سبتمبر ١٩٤٩ ثم سافر إلى فرنسا بعد ذلك بأمر التنظيم الشيوعى المصرى, وحضر إلى مصر ست مرات, من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٩. ودائماً كان يقابل رفعت السعيد عند حضوره إلى باريس. وأضاف حزان لقد سجنت، ليس لأننى يهودى, وإنما لأننى شيوعى, وقالوا لى: يهودى معلش إنما ملحد لأ.

وقال ريمون إن سبب دخوله –هو ويوسف حزان– فى التنظيم الشيوعى عام ١٩٤٥. وجود أسئلة فى المجتمع المصرى لم يستطع أهلونا أن يجيبوا عنها، لأنه كان هناك شعور عام بين اليهود المصريين بأنهم لابد أن يبقوا خارج السياسة، وأن السياسة ليست لليهود. وبالرغم من أن والد يوسف حزان كان تقدمياً, إلا أنه لم يكن يريد لأولاده الدخول فى عالم السياسة. لكن ريمون ويوسف حزان قاوما هذا التفكير وقالا: إننا مثل باقى الشبان المصريين لنا آراء يجب أن ندافع عنها, ومن الممكن أن نخطئ، ومن الممكن أن نكون على حق. وقال يوسف حزان: كيف أرى الفلاحين المصريين يموتون من الجوع ويضربون ويهانون, ويتم بهدلتهم, وأقف دون أن أقاوم ذلك؟ لقد كان ذلك غير ممكن, لأننى رأيت هذا الأشياء بعينى عندما كنت فى الفيوم, ورأيت العمال الفقراء ينهبون ولايتقاضون أجورهم ، كيف نتركهم؟ ، هذا غير معقول.

ورد استمبوللى قائلاً: لقد كنت من مثقفى جامعة القاهرة, وقابلت أنا سالدهيم أفكار أكثر تقدماً, وأصبحنا أصدقاء، منهم: على الشلقانى ، ظريف عبد الله ، أحمد الجندى الأخ الأكبر لمحمد الجندى ، نبيل الهلالى ، لطفى الخولى ووكيل النيابة الذي تزوج إنجى أفلاطون، وكل هؤلاء كانوا يشعرون بأن المجتمع المصرى مريض, لكن المرض غير مفهوم, وإذا كان مفهوماً فلا نستطيع الكلام عن أشياء - مثل الاقطاع والباشوات- لم يكن مسموحاً بالتكلم عنها، وأشار إلى أنهم أنشأوا دار الأبحاث العلمية مع شهدى عطية وجمال غالى وعبد المعبود الجبيلى وأنور عبد الملك, وقال إنه عمل مع أنور عبد الملك لمدة خمس سنوات, وقال إنه كان مثل أخي. وقال نظمنا محاضرات ومناقشات فى دارالأبحاث العلمية وحاولنا أن نفهم معني الفاشية، لأن المصريين فى تلك الفترة الأولى كانوا يعتقدون أن الفاشيين هم الثوار, لكن هل هى ثورة فى الاتجاه الصحيح أم الخطأ، ولقد حاولنا شرح ما حدث فى أسبانيا, وقد كنا فعلاً على هامش العالم.

وأجاب على سؤال عن أهمية الشيوعيين المصريين فى فرنسا (مجموعة روما). قال يوسف حزان لقد كان تأثيراً مهماً جداً, ثم قال: وسوف أضايق صديقى رفعت السعيد قليلا، حين أقول إن اليهود لعبوا دوراً أساسياً حيث كانوا همزة الوصل بين الثقافة الأوروبية والثقافة الوطنية العربية, بمعنى أنهم نقلوا التفكير الاشتراكى الأوروبى إلى مصر التى لم تكن فيها تقاليد اشتراكية، وكانت معرفة اليهود باللغات - وكذلك الثقافة العربية- هى التى أدت إلي إنشاء دار الأبحاث العلمية وقد وضعنا بؤرة الأشتراكيهة فى الأرض المصرية، وحين بدأ النبات يكبر أخذونا من زُورْنَا وطَلَـعُونا خارج مصر، وقالوا لنا اخرجوا، لكن عموماً البذرة بقيت فى مصر. وقال يوسف حزان: لقد كنا نمثل مصر أثناء كفاحنا لتحرير الجزائر, وقال استمبوللى: حين تقرأ مذكرات حمروش تعرف أنه تأثر بالمناقشات فى دار الأبحاث العلمية, وحين تعرفت عليه هناك لم أكن أعرف أنه ضابط.

وقال يوسف حزان: لقد اتصلنا بأنصار السلام فى إسرائيل فى مؤتمر حضرته مجموعة من الشيوعيين من بولونيا وفينسيا وفلورنسا، وحضره أعضاء من (ركاح) الحزب الشيوعى الإسرائيلى. ثم حضر خالد محيى الدين، وكان هناك مشروع يتمثل في أن يقابل عبدالناصر شاريت فى قبرص, لكن بن جوريون أفسد المشروع, وأرسل

شاريت إلى نيوزلندا. وقال استمبوللي إن مجموعة اليهود المصريين فى فرنسا كانت حلقة ربط مع الحركة الشيوعية العالمية، وقال حزان عندما حضرنا أنا وريمون مؤتمر المحامين فى بلجيكا كنا مرميين زى الكلاب, مثل كل العرب, وكنا نمثل الشيوعيين المصريين, وساعدنا شيوعيو مصر على الأنضمام إلى الحركة العمالية وقال إنه هو الذى أدخل السودانيين FSM، وكنت أعرف المحجوب وكنا ننام فى سرير واحد, وكان عبده دهب أعز صديق لي وعندى صور كثيرة التقطت لنا معا.

وقال سوسو حزان إنه كتب رسالة من داخل السجن، وقال: ارتباطنا بمصر ارتباط مستديم, ولابد أن نذهب إلى آخر خطوة فيه، وقال سوسو إنهم استطاعوا أن يتصلوا بالشيوعيين المصريين, رغم أنف القيود الصارمة من الحكومة المصرية.

وعن المستقبل قال ريمون استمبوللى إن الأصل في وجود الاستعمار فى الشرق الأوسط هو وجود احتياطيات كبيرة من البترول فى الخليج ، ويقول إن وجود إسرائيل ليس له معنى بدون كلمة بترول, والشيء الذي يغيظني هو سكوتكم عن موضوع البترول, وهو أساس كل الحروب والانقلابات والثورات والظروف الصعبة.

وقال إن أصحاب البترول لا يكافحون وإنما يقبضون، ولا يمكن أن تفهم صعود التيار الإسلامى بدون فهم لدور البترول ، والتيار الإسلامى سوف يكبر ثم ينهار ، وقال حزان إن ذلك ضد مصالح شعب مصر, ولا يحمل روح مصر. وسبب صعود التيار الإسلامى هو أن الحكومة ضعيفة جداً, و التيار الإسلامى ضعيف.

وعندما سألت يوسف حزان: ماذا تريد أن تقول للمصريين؟ قال : اصح من النوم, شعب مصر يضعف وينهار، أما نحن فبدون مساعدة عالمية كونا حزبا وتيارا ، وعن سبب خلافهم مع مجموعة إسماعيل صبرى عبد الله وفؤاد مرسى, قال: لقد طلبوا منا ألا نساعد الشيوعيين فى مصر, وصوتوا ضدنا أنا واستمبوللى, و قام الحزب الشيوعى الفرنسى بحل المشكلة، ولقد كنت أجمع أموالا لمساعدة جميع المجموعات الماركسية المصرية. وحين طردونا من المجموعة كان ذلك لأننا يهود موجودون خارج مصر, ورأى حزان ذلك فضيحة، وقال إن القرار وقعه رفعت السعيد وزملاؤه، وقال إنهم فى آخر الخطاب طلبوا منهم الاستمرار في مساعدة الشيوعيين المصريين، يعنى أنتم مطرودن، لكن أرسلوا إلينا أموالا.

وقد حضر حزان إلى مصر مرتين أيام السادات، وأرجعوه على الطائرة نفسها إلى باريس، وفى المرة الثانية طلب له الضابط نصف كيلو كباب ليأكله حتى قيام الطائرة مرة أخرى إلى باريس.

الحوار الثاني: ألبير أوديز

ألبير أوديز يهودى مصرى ولد عام ١٩٢٥ فى شارع الخليج المصرى بالقاهرة, قابلته فى باريس، وقال إنه دخل مدرسة ابتدائية يهودية كان يمولها قطاوى باشا, وبعد ذلك قال له أبوه إنه سوف يدخل مدرسة ثانوية فرنسية تدرس المواد العربية، وفرح بذلك بالرغم من أن دراسة العربية كانت تعد صعبة, لكنه وقع فى غرام هذه اللغة ، ويقول عنها إنها لغة جميلة لدرجة أننى كتبت كتابا عن الأمثال العربية ودرس الإيجاز والإطناب, وقال إنه لم يهتم بالسياسة المصرية إلا فى مرحلة متأخرة، وقال إنه كان يسكن فى الظاهر والسكاكينى, وقد كتب كتاباً عن حى الظاهر، ولم يكن عنده توجه سياسى إلا حين بلغ من العمر نحو عشرين عاما، وقال كنت أرى الفلاح المظلوم فى أفلام يوسف وهبى, وشاهدنا فيها من يملك آلاف الأفدنة في الوقت الذي كان فيه هناك الملايين من المعدمين، وأثناء فترة الحرب بدأنا نسمع عن الجدلية والماركسية، ويقول: كل منا كون فكرة، وبدأ اهتمامنا بالشيوعية، لكن الشيوعية فى مصر كانت خطرة لأنها كانت تؤدي إلى دخول السجن المصري، وكنا خائفين من مجرد التحقيق معنا بواسطة شاويش مصرى. وفى الأربعينات حاولنا أن نساعد المصريين, وكان من المهم وجود مصريين غير يهود معنا, حتى يستطيعوا مساعدة المصريين أكثر.

وقال أوديز إنه قبل حرب ١٩٤٨ وضعت قنبلة فى سينما مترو, وقد قامت الحكومة بالقبض على كل الشيوعيين, بالرغم من علمهم بأن الشيوعيين ليس لهم دخل بالموضوع, وعند ذهابى إلى المنزل مساء قابلت شخصا أخبرنى بأنه رأى أحد الأصدقاء مقبوضا عليه عن طريق اثنين من رجال البوليس، و حين كنت أصعد السلم فى المنزل صاحت فى والدتى قائلة سلم نفسك للبوليس, وفعلاً قبض على. واستطرد أوديز: إننا ندين بالحب والولاء والفضل لمصر، ولدينا تراث كبير فى مصر, نحبه ونريد لأبنائنا أن يعرفوه. وسألته عن أى مضايقة حدثت له فى شبابه فى مصر, فقال كنت أنفخ فى الترومبيت (إحدى آلات النفخ الموسيقية) مع فريق الكشافة فى الشارع, وكنا

نحمل الراية اليهودية, وكان المصريون فى الشارع يصفقون لنا، وقال إنه اشمأز مع صعود حسن البنا, ورأى شباب الإخوان المسلمين فى مسيرتهم، وكان أحدهم فى المقدمة يحمل المصحف وشعرت بأن في هذا تعسفا، وكان ذلك قبل عام ١٩٤٨ ,

وقال إنه كان يقرأ الكتب الفرنسية، و يستمع إلى أم كلثوم، ويحضر مسرحيات نجيب الريحانى، وقال: كنت أقرأ جريدة البروجريه الفرنسية ولغتى العربية تحسنت فى فرنسا.

وقال إن عائلتي لم تكن قلقة على المستقبل فى الثلاثينات، ولم تكن عندى مشكلة.

وقال: ولد جدي فى الجزائر وهاجر إلى القدس عام ١٨٩٦. وأنجب تسعة أطفال، وجاء والدى من القدس إلى مصر عام ١٩١٢. واشتغل وتثقف وأنجب خمسة أطفال أنا واحد منهم، و خلال أربعة أجيال انتقلت عائلتى إلى ثلاث قارات وأربع مدن, أي أنها مثال للعائلة اليهودية. وقال إنه لم يشاهد تدمير أى ممتلكات يهودية، لكنه سمع عن ذلك, وقد زار مصر أربع مرات، آخرها عام ٢٠٠٠، وزار إسرائيل مرتين, آخر مرة عام ١٩٨٥ ,

الحوار الثالث: أندريه كوهين

قابلته فى باريس. وقد ولد أندريه فى طنطا عام ١٩٣١. وعاش فيها إلى أن ذهب عام ١٩٤٢ إلى الإسكندرية للدراسة، و قد حضر أهله إلى مصر عام ١٧٠٠. وكان لديهم طاحونة للحبوب فى طنطا. وفى الإسكندرية ذهب إلى مدرسة يهودية غير دينية وكانت مدرسة تقدمية, ولدى المدرسين توجه سياسى, وكان معه فى المدرسة جاك حسون.

وقد قبض على أندريه عام ١٩٥٣. وأودع فى السجن الحربى, وتمت محاكمته أمام محكمة عسكرية، لكن محمد نجيب أفرج عنهم, ولم تكن معه جنسية مصرية ويقول إنه لا يعلم لماذا لم يذهب والده لطلب الجنسية المصرية، وعندما ذهب كان الوقت متأخراً، وذلك عام ١٩٤٤، حيث طلبوا منه أوراقاً كثيرة, وشجعه البوليس المصرى على الهجرة إلى الخارج، بل وطلب منه الذهاب إلى فرنسا.

وانتقلت العائلة إلى الإسكندرية عام ١٩٤٢ ، وكان يقرأ الصحف والكتب الفرنسية،

وكان مستواه فى اللغة العربية أضعف بكثير من الفرنسية، وكان يستمع إلى أم كلثوم وعبد الوهاب بجوار الموسيقى الفرنسية وبرامج الراديو المصرى الفرنسى, وكان المسئول عنه راشيل حزان، وكان اسمها فى الإذاعة نيكول دراس. ولم تكن عائلته تخشى المستقبل, وكانت المشكلة الوحيدة أنه كان شيوعيا، لذا كان معرضاً للاعتقال, وقد ترك أبوه مصر فجأة مع إخوته عام ,١٩٥٧ وقال إنه ارتبط بالماركسية بسبب المدرسين الفرنسيين فى مدرسته. وكان هناك أمل فى السلام فى الشرق الأوسط. وقد تزوج فى الإسكندرية، ورفض الذهاب إلى إسرائيل, ولم تكن لديه تأشيرة دخول إلى فرنسا, لكنه استطاع أن يحصل عليها, وسافر ليعيش هناك. وقال إنه زار مصر خمس مرات, وإسرائيل ثلاث أو أربع مرات، وقابل البواب والبقال فى مصر.

وعندما وصل إلى المطار فى أول زيارة إلى مصر عام . ١٩٨٠ قال له ضابط البوليس– وكان من طنطا – هل أنت من عائلة كوهين فى طنطا؟ وذلك عندما قرأ أننى ولدت هناك, فقال له: اذهب إلى طنطا, بيتكم مازال قائماً هناك.

الحوار الرابع : السيدة مادا ماير (جنيف)

عرفنى عليها الدكتور هانى سكر رئيس شركة سيرونو للأدوية فى الشرق الأوسط, عن طريق إحدى موظفات الشركة فى جنيف، وقابلتها فى مطعم فى مدينة جنيف فى سويسرا.

وقد ولدت فى مايو . ١٩٤١ وكان اسمها قبل الزواج مادلينا تويتا, وكانت تعيش فى الزمالك فى ١٧ شارع شجرة الدر, فى بيت جميل بحديقة، وقد ولدت فى مصر, وأصول والدها ترجع إلى خمسة أو ستة أجيال فى مصر, وبعد أن طردت العائلة من أسبانيا عاشت فى تركيا، ثم هاجرت إلى الإسكندرية. والتحقت بالمدرسة الكاثوليكية بالزمالك, لأنها بجوار منزلها، ثم منها إلى مدرسة الكورموران الفرنسية، ثم إلى المدرسة الإنجليزية للبنات، ثم إلى الليسيه فرانسيه فى باب اللوق. وكانت جنسية العائلة أسبانية، بالرغم من أن جديها كانا مصريين مائة بالمائة ويتكلمان العربية فقط.

وعن طفولتها قالت إنها كانت سعيدة جداً, ولم تشعر بأى مضايقة لكونها يهودية، ولم تشعر بالغربة قط فى مصر، وقالت: ولن أنسى أننى مصرية وأحب مصر, وأفكر فيها بصفة دائمة، ولا يزال قلبى فى مصر, ولا يزال هذا الجزء من حياتى هو الهدية

الجميلة التى أحملها.

وقال أبوها لأمها إنهم نسوا مصر بعد أن غادروها, ولم يتكلموا عنها بعد ذلك, لكننى – تقول – أشعر أن جزءاً مهما من حياتى قد توقف و فقد منى ومن طفولتى. أنا لا أشعر أننى أسبانية ولا أعرف اللغة الأسبانية ولم أر أسبانيا, وأنا أفضل أن أبقى مصرية مائة بالمائة.

وكان لنا أصدقاء من المصريين واليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين, وكان المجتمع غنيا جداً بالثقافة والتنوع. وكان والدى يكره فكرة الجيتو, وكان صديقاً للقسيس الذى كان مندوباً عن الكنيسة التى كانت تملك المنزل الذى كنا نسكن فيه، وكنت أذهب إلى الكنيسة مع أصدقائى. ولم أكن أبداً يهودية متدينة. وكنت ألعب الجولف فى نادى الجزيرة، وكان مدربى اسمه حسنين, وكان أيضاً لاعباً ممتازاً. وعندنا بيت فى العجمى, ولا يزال أصدقاؤنا هناك يرعون منزلنا. لا أريد العودة إلى مصر للزيارة لأننى لن أجد أبى و لا أمى، وهذا شيء صعب على.

وكان أبوها يعمل فى تجارة الخردة فى وكالة البلح, ولها أصدقاء من أيام المدرسة موجودون فى أستراليا وأمريكا وأوروبا, ويلتقون كل ثلاث سنوات. ولم تتذكر أية جريدة كانوا يقرأونها فى المنزل، وأكدت أنهم كانوا يتكلمون فى المنزل الفرنسية, لكنهم كانوا يتكلمون العربية مع محمد الخادم، وقالت إنه بعد وفاة والدى الذى كنت أتحدث معه بالعربية ضاعت اللغة العربية بالتدريج. وفى العام الماضى ذهبت لزيارة المغرب, وعندما سألوها: ما جنسيتك؟ أجابت بأنها مصرية ، وبالتدريج عادت اللغة العربية إليها, وكانت تستمع إلى برنامج (ما يطلبه المستمعون) فى البرنامج الأوروبى, أما أبوها فكان يستمع إلى الأغانى المصرية، وكان يحب أم كلثوم. وقالت إن أباها عام ١٩٤٨ شعر بالخوف, وقررت العائلة الهجرة من مصر إلى باريس, ومعها المربية ومحمد السفرجى الذى تربى بين العائلة منذ كان طفلاً عمره أربع سنوات, وقد علموه القراءة والكتابة، وبعد أقل من عام طلبت الأم العودة إلى مصر وكان الأبناء فى منتهى التعاسة فى باريس, وعادت العائلة إلى مصر بدون مشاكل، وهكذا تركنا مصر بدون سبب، وعدنا إليها أيضاً بدون سبب. وفى ديسمبر عام ١٩٥٦ قررت العائلة بدون سبب أيضاً مغادرة مصر نهائياً, وقالت أمها إنها شعرت بالخوف فجأة, وذلك بدون أن يضايقنا

أحد.

وسألتها عن وجود أخطاء ارتكبها عبد الناصر, فقالت إنه أثناء حكم فاروق كان لابد أن يحدث شيء، وتمنت لو أن محمد نجيب استمر فى الحكم. وفى تصورها أن ذلك ربما أدى إلى نظام ديمقراطى.

وتعتقد أن قيام إسرائيل هى السبب المباشر لكل المشاكل, وقالت إنه لم يسئ أحد معاملتهم أثناء مغادرة مصر, وكان محمد وزوجته بيكيان بحرقة بسبب مغادرة العائلة.

وتعتقد أن السلام لابد أن يحل فى الشرق الأوسط، لكنها لا تعتقد أن ذلك سوف يحدث فى المستقبل القريب. وتقول إنه مادام شارون فى الحكم فلا أمل فيالسلام وتقول إنه بعد أن يذهب شارون لابد أن يذهب عرفات. وتعتقد أن الصعود الإسلامى فى مصر ليس له علاقة بمشكلة الشرق الأوسط, لأنه يحدث فى كل العالم. وتقول إنها تأكل الملوخية، وافتتحت محلاً للمنتجات المغربية والمصرية فى جنيف مع بعض الشركاء المغاربة.

وقد ذهبت مرة إلى إسرائيل, ومرة إلى مصر, لكنها أخذت تبكى طوال فترة الرحلة فى مصر, وقد كانت تقرأ كل شيء عن مصر, وفى النهاية قالت إن مصر أجمل شيء فى الدنيا, وأجمل شيء فى حياتها. وعقب زوجها المحامى السويسرى المسيحى على ذلك قائلاً إنه منذ زواجهما منذ أكثر من ثلاثين عاماً, وهي تقول له كل يوم إن مصر أحسن وأجمل شيء فى الدنيا.

الحوار الخامس: ســام حكـيم (جينيف)

عرفنى على الأستاذ سام حكيم صديقه الأستاذ طلعت بدراوى الذى اتصل به ووافق على مقابلتى ، وقابلته فى بوفيه محطة القطار فى جنيف, وكان اسمه فى مصر سامى مراد حكيم, وقد ولد فى القاهرة فى حي السكاكينى عام ١٩٣١ من أب من القاهرة وأم من الإسكندرية، وعائلتا الأب والأم من اليهود السفارديم, وأصل عائلة الأم من تسالونيكى باليونان حين كانت جزءاً من الدولة العثمانية، و كان جده لأبيه من أصول عثمانية أيضاً. وله أختان ولدتا عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٨ ، وغادر مصر فى فبراير ١٩٥٧. وتزوج فتاة غير يهودية تعرف عليها فى زيارة إلى إسرائيل, وكان يسكن فى شارع يوسف الجندى فى القاهرة, والتحق بمدرسة الليسيه فرانسيه, ثم كلية فيكتوريا

عـام ١٩٣٠ . وكـان لهـا فـرع في شبرا, وكـان أبوه رئيسـاً لقسم الإحصـاء فـي بنك التسليف الزراعي بالقاهرة. وكان اصدقاؤه من مدرسة فيكتوريا حتى أنهى دراسته عام ١٩٤٨, المرة الوحيدة التى أحس فيـها بالاضطهاد كـانت عندما طلبت السلطات الأمنية من اليـهود الانتقال من مسـاكنهم فى منطقه باب اللوق, لأنها كـانت تطل على المبنى القديم لجامعة الدول العربية، وبالفعل أستأجروا شقه فى مصرالجديدة، وفى آخر لحظه ألغى الأمـر الصـادر لليـهود بمغادرة المنطقة. وتزوجت أختـه يهوديا مصريا عام ١٩٥٢, ووضـعت طفلهـا الأول عـام ١٩٥٦. وهـاجـرت إلى سـويسـرا, على حين هاجرشقيق زوجها إلى إسرائيل، والشقيق الآخر إلى البرازيل.

وبعد حصوله على الثانوية العامـة عام ١٩٤٨ أراد دراسة الطب, لكنه فكر في أن هذا الوقت ليس مناسبا للالتحاق بالجامعة فى مصر, ولم يكن فى مقدور أبيه إرساله لدراسة الطب فى الخارج, وعمل فى توكيل وستنجـهاوس - وكان عمره سبعة عشر عاماً- حتى عام ١٩٥٦. واشترك فى نادى اليخت, وكان له نشاط اجتماعى، وبالرغم من أنه لم يكن عضواً فى نادى الجزيرة, إلا أنه كان يذهب مع الأصدقاء لركوب الخيل هناك فى الصباح. ولم يكن لسام أى نشاط ثقافى, ويرى أن أعز أصدقائه فى مصر الأستاذ يوسف مظهر, نجل الدكتور خليل مظهر رئيس قسم الولادة بقصر العينى فى ذلك الوقت. و كان يقرأ من الصحف المصرية الجازيت الإنجليزية والبروجريه الفرنسية.

ويقول إنه لم يشعر بأى مضايقة لكونه يهوديا, وعندما سـألته ألم يشعر بقلق؟ فقال :لا، وسـألته: حتى من الإخوان المسلمين؟ فـأجاب ربما فى عام ١٩٤٨. وقال إنه حتى أيام العلمين لم نكن قلقين، ولم يكن عندى تفكير سياسى، ولم أفهم احتمال التداعيات. وكان والده يحمل الجنسية المصرية، وكذلك سام، ويقول إن والده لم يشعر بأى قلق طوال حياته فى مصر, وعندما غادر مصر أعطى وثيقة سفر للخارج, مع حرمانه من العـودة، وبدأ سـام اهتـمامـه بالتـاريخ الفـرعونى فى باريس, وتعرف على الدارسين المصريين هناك, وقال إنه لم يشاهد أى اعتداء على الممتلكات اليـهودية فى مصر فى شبابه.

وعن أخطاء عبد الناصر قال إنه كان ينوى طرد كل الأجانب, وليس بالضرورة اليـهود، ويقول سام إنه لم يطرد من مصر, وإنما قرر الهجرة لأنه رأى الكثيرين من

اليهود يتركون مصر، ولم تكن هناك مضايقات له. وقال إن ما حدث لليهود حدث فى مرحلة لاحقة لبعض الأقباط والمسلمين الذين قرروا الهجرة. ويقول إن أقل نسبة من اليهود.فى البلاد العربية هاجرت إلى إسرائيل إنما كانت من مصر, وفضل معظم اليهود المصريين الهجرة إلى أوروبا أوالعالم الجديد. ولا يعتقد سام أنه كان لإسرائيل دور فى طرد اليهود من مصر. ويعتقد أن المستقبل القريب للشرق الأوسط مظلم, لكن فى يوم ما سوف تولد دولة فلسطينية، وهذا هو الحل الوحيد لمشكلة الشرق الأوسط. ويعتقد أن التطرف الإسلامى سببه اليأس من أى حل لمشاكل أفراده.

ويقول إنه يحب مصر ويتذكر شبابه فيها, ويرى أن المصريين شعب عظيم. وعندما سألته: هل تفكر فى مصر؟, أجاب: دائماً, وأنا عضو فى الجمعية الفرنسية المصرية, وأذهب إلى ناديها الثقافى كل أسبوع, وتعرفت على صلاح النجار هناك, وقد غادر والد سام مصر فى نهاية ١٩٥٧ عن سبعة وخمسين عاماً, وبدأ يعمل فى فرنسا. وقال إنهم لم يكونوا يملكون شيئاً يستحق البيع قبل سفرهم, وعن إسرائيل قال إنه زارها مرتين, وهى بلد عظيم ، لقد حولوا الصحراء إلى جنة ولى أصدقاء إسرائيليون ، كانوا أصدقاء عمل, ثم تحولوا إلى أصدقاء شخصيين, وهناك بعض الأقارب الذين هاجروا إلى إسرائيل, وأنوى الحضور إلى القاهرة لمدة ثلاث أسابيع قريباً.

الحوار السادس: حوار مع ميشيل (باريس)

عرفنى على السيدة ميشيل (طلبت عدم كتابة اسم العائلة) الأستاذ زهير الفار. وقد ولدت ميشيل عام ١٩٢٨ في شارع فؤاد بالإسكندرية، والعائلة كانت موجودة في الإسكندرية لثلاثة أجيال, وكان أبوها من رجال الأعمال, وتزوجت فى القنصلية الفرنسية عام ١٩٥٥ فرنسيا كاثوليكيا، تعرفت عليه أثناء دراستها للديكور والمجوهرات فى فرنسا. وكانت طفولتها- كما تقول - رائعة، تذكر نادى سبورتنج، وقد التحقت بالمدرسة الإيطالية فى فيكتوريا، ثم المدرسة الفرنسية فى رشدى بعد إغلاق المدرسة الإيطالية بسبب الحرب, وكان جيرانها من اليونانيين والشوام. ولم تشعر بالغربة طوال فترة طفولتها وشبابها، ولم تكن متدينة وكانوا يقرأون الجازيت وصحيفة إيطالية وكانت لغتها العربية ضعيفة جداً, وأحضر والدها مدرساً للغة العربية لأخيها, وكان الأب والأخ يجيدان العربية، ولم يحدث أبداً ما يضايقنى لكوني يهودية فى أى فترة من

حياتي. ولم يترك أبى وأمى مصر إلا عام ١٩٦٢. وربما يعرف أخى الأكبر أكثر منى عن الأوضاع السياسية.

وتعتقد أن اليهود هاجروا من مصر, مثل جميع الجاليات الأخرى الأجنبية، وهى تذكر مصر دائماً, وذهبت عدة مرات إلى مصر والإسكندرية وأسوان وشرم الشيخ, وذهبت إلى إسرائيل مرة واحدة، تقصد فلسطين عام ١٩٤٢. حين هاجرت العائلة مؤقتاً خوفاً من هجوم روميل فى العلمين.

الحوار السابع: آنــى كـرم (فلوريدا – القاهرة)

عرفنى عليها د. فؤاد عبد الستار, وهى تعيش فى ولاية فلوريدا بالولايات المتحدة، كان اسمها قبل الزواج آنى كرياس عبادى, وقد ولدت وعاشت فى كليوباترا بالإسكندرية، وعائلة الأب عاشت لأربعة أجيال فى مصر, و قد حضروا من المغرب, وكانوا يتكلمون العربية، والتحقوا بالمدارس المصرية, وكانوا مصريين مائة بالمائة، و كانت عائلة الأم تحمل جواز سفر يونانيا, ويتكلمون اللادينو، وكانت آنى تتكلم اللادينو مع جدتها عندما كانت صغيرة، ولاتزال تتذكر اللغة، والتحقت بمدرسة فرنسية، ثم مدرسة إنجليزية، وصارت تجيد اللغتين.

وعندما سألتها عن طفولتها وشبابها ، هل شعرت بأى معاملة غير عادية؟ أجابت: أثناء وجودي فى نادى المكابى اليهودى كنت أسمع بعض الحكايات، لكننى لم أرى شيئاً، بإستثناء جارى– وهو مسيحى كاثوليكى– الذى ألقى عَلىَ سلة فارغة, لأننى يهودية، وكان متديناً جداً. وتقول إنها لم تشعر أبداً بأنها غريبة فى مصر, وقالت إن العائلة شعرت بالخوف عام ١٩٤٢، حين اقترب روميل من الإسكندرية، لكنهم لم يفكروا فى الهروب.

وبعد المدرسة الثانوية بدأت تعمل، وقابلت زوجها الحالى كرم, وهو قبطى مصرى, وكانت هناك صعوبة بسبب الاختلاف الديني، وعند طلب يدها قال خالها إنه شاب لطيف, لكن فيه عيب كبير, هو أنه قبطى. وتوقفت آنى عن العمل بأمر العائلة, حتى لا تقابل كرم, وبعد سنة من الانفصال عادا لبعضهما مرة أخرى, وبالرغم من أن العائلة لم تكن متدينة إلا أنها غضبت من الزواج من غير اليهود. وكان والدها يعمل فى شركة فيات فى الإسكندرية، وقالت: لم أحس بأى قلق أو خوف فى مصر.ولم أر أى تخريب

لمتلكات اليهود, ولم يتصور أحد من عائلتها أنه من الممكن أن يتركوا مصر, ولم يتم تجديد عقد أخيها فى الشركة التى يعمل فيها عام ١٩٥٦. ووضع زوج أختها فى المعتقل ثلاثة أشهر بعد عدوان ١٩٥٦. ثم سافرا إلى فرنسا.

وقالت إنها لا تحب عبد الناصر, لأنه شتت العائلة، فهم خمسون فرداً, وكل واحد فى مكان، وقد انفصلت عن عائلتها خمسة عشر عاماً, وكانت أمها وأخوها قد هاجرا إلى إسرائيل، وماتت أمها هناك أثناء وجود آن فى أمريكا. وقالت إنها تحب مصر, و زارتها أربع مرات, وكذلك زارت إسرائيل أربع مرات.

الحوارالثامن: هنرى كوهين (باريس – شرم الشيخ)

عرفنى عليه الدكتور رفعت السعيد. ولد هنرى فى العباسية، ويقول إن الكثيرين من اليهود القرائين كانوا يسكنون في العباسية، ويعتقد أن جذوره ضاربة الأعماق فى مصر منذ أجيال طويلة، وكان يتعجب من أن عائلته تحمل الجنسية الفرنسية ، وقال له والده إن اثنين من أخواله تطوعا فى الجيش الفرنسى وتوفى أحدهما, فكافأوا الخال الآخر بإعطائه الجنسية الفرنسية للعائلة. وقد عاش هنرى فى الظاهر والسكاكينى والعباسية، ثم فى شارع الفلكى فى باب اللوق. وكان يعمل رساماً فى جريدة (الأهرام) فى مقرها القديم فى شارع مظلوم بمنطقة باب اللوق, وقد قبض عليه ضمن مجموعة التحرير الوطنى عام ١٩٥٤. وخرج من السجن عام ١٩٦٢ ليرحل إلى فرنسا. ويقول إنه لم تكن هناك مشكلة فى طفولته بسبب ديانته اليهودية، وكانت علاقته ممتازة بالمسلمين والأقباط واليهود القادمين من حوض البحر الأبيض المتوسط ليستوطنوا في مصر.

والتحق بمدرسة الإسرائيليين القرائين فى السكاكينى, وعندما انتقلت العائلة إلى حارة اليهود القرائين انتقل إلى مدرسة موسى قطاوى باشا القريبة من البيت ، تعلم هناك الفرنسية وقليلا من العربية والإنجليزية، وقال إنه بعد سنوات اضطرتنى الظروف الاقتصادية إلى ترك المدرسة والعمل فى الشركة المصرية للمبات النيون, وكنت أعمل رساماً ومصمماً للافتات النيون, وعند بدء الحرب العالمية عام ١٩٣٩ منعت الأضواء بسبب الغارات الجوية، فأغلقت الشركة وكافأوه بإعطائه توصية إلى جريدة (الأهرام) فعمل فيها منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٥٤ فى قسم الإعلانات. ويقول إن علاقته

بزملائه كانت ممتازة، وكان مختلفاً عن معظم اليهود الذين كانوا يعدون أجانب, ولم يرغبوا فى التحدث بالعربية، لكنه يقول إنه كان عربياً مائة بالمائة، كما يقول إنه أثناء هيجان الإخوان المسلمين لم يحدث له أى شيء. والتحق بالحركة الشيوعية عام ١٩٤٦ فى مجموعة رفعت السعيد، وكان مع المتظاهرين ضد وعد بلفور, وضد إسرائيل, وكان البوليس ضد هؤلاء المتظاهرين, واعتقل البعض منهم, وسافر البعض الآخر وكان ذلك أيام حكومة النقراشي. وكان يقرأ (الأهرام) لأنه كان يعمل هناك، وكان مهتماً بالسياسة والحرب العالمية, وكان متخصصاً فى رسم الخرائط التى تبين تقدم الألمان فى أوروبا ، بالإضافة إلى عمله فى الإعلانات, وقليلاً ما كان يقرأ الصحف الفرنسية. وقد التحق بمدرسة ليوناردو دافنشى لمدة ثلاث سنوات لتعلم الرسم واللغة الإيطالية .

ويقول إنه لم يشعر أبداً بالغربة ولم يكن متديناً ، و فى طفولته كان يذهب إلى المعبد اليهودى مع أبيه، وكان هناك حاخام حضر من بولندا، اسمه سمحا توبى ليفى, وحين خرج من المعبد ذهب الأطفال ليحيوه ويقبلون يده, وكان يمد يده حتى يقبلها الناس, وحين مد يده إلي رفضت أن أقبلها، وشكانى الحاخام لوالدى الذى كان يعرفه، وكدرنى والدى قائلاً: كيف ترفض أن تقبل يد الحاخام؟ فقلت له: أنا لا أُقبل يد أى مخلوق، يمكن فقط أقبل يد والدي، ومنذ ذلك الوقت قطع علاقته بالمعبدإلى أن أصبح ماركسياً. وعن إخوته قال إن أخاه ليون الصيدلى هاجر إلى فرنسا، وأخاه زكى كان يعمل مطبعجيا فى حارة القرائين, وقام الإخوان المسلمون بالاعتداء على الحارة وخربوا مطبعته, ولم يتمكن من إنشاء مطبعة مرة أخرى, فهاجر إلى إسرائيل فى بداية تكوين الدولة، وعاش هناك. وكانت له أخت متزوجة، وحدث خلاف مع زوجها, فأخذ طفلتيها, وهرب بهما إلى إسرائيل، وعاش هناك. وتزوجت إحدى الطفلتين بعد أن كبرت من شاب فلسطينى, وتسبب هذا الزواج فى ضجة كبيرة فى إسرائيل, و سافرت الأخت الأخرى إلى إسرائيل بعد حرب السويس مع زوجها الذى كان يعمل صائغاً. ويقول: زرت ابنتي أختى مرة واحدة فى إسرائيل بعد صعوبة، لأننى كنت دائماً أرفض الذهاب إلى إسرائيل، وكانت بنت أختى وزوجها سعيدين بموقفى المؤيد للفلسطينيين. وفى شبابى لم أر بعينى عنفا ضد اليهود, ما أعلمه أنه كانت هناك اعتداءات فى حارة اليهود.

وعن تجنيده فى الحركة الشيوعية قال إن أصدقاءه اليهود هم الذى جندوه, وأولهم

كان دافيد شورى المهندس المعمارى, ثم كونوا مجموعة أوروبية يهودية ضمن حركة التجمع الوطنى، ومن أصدقائه الماركسيين المصريين ذكر د.شريف حتاتة قبل السجن, وأحمد الرفاعى داخل السجن. وفى السجن كان مختصاً بقسم اتصال مصر بفرنسا بالحبر السرى وتغليف مستندات ترسل إلى أوروبا بطرق سرية، وكان يصور أوراق القضايا ويرسل الفيلم إلى أوروبا. ولم يكن يعرف هنرى كورييل معرفة شخصية لكنه كان يذهب إلى المكتبة التى كان يملكها، ويقول إن اليهود كانوا مثقفين، لذلك انخرطوا فى الماركسية بسهولة واهتموا بتجنيد المصريين.

ولا يعتقد أنه كان في إمكان عبد الناصر أن يتفادى خروج اليهود من مصر، وقال إن عبدالناصر كان يسكن فى شبابه عند عائلة يهودية من القرائين فى حارة القرائين ويعدهم أهله. وبعد القبض على هنرى كوهين ذهب أهله إلى العائلة اليهودية التى تعرف عبدالناصر للتوسط له لكن لم يحدث شىء. ولا يعتقد هنرى كوهين أن إسرائيل سببت مشاكل لليهود المصريين، ويقول إن بعض الشباب الصهاينة كان يعملون مع إسرائيل، وقال إن اليهود المصريين فى فرنسا كانوا يهتمون بالماركسيين المصريين, ويساعدونهم مادياً وثقافياً, ويرسلون لهم كتبا ومستندات وأموالا.

أما عن المستقبل، فيقول: مادام شارون فى الحكم, فإنه لا يوجد أمل فى حل, وإسرائيل تؤجل الحل لأنها تستفيد من الوضع الحالي, بسبب سياسة أمريكا.

وعن مصر يقول إنه دائماً يستمع إلى أخبارها, وحاول مراراً السفر إلى مصر, لكن القنصلية المصرية – بناء على أوامر من القاهرة– كانت ترفض إعطاءه تأشيرة دخول، ومنذ ثماني سنوات قابل بالمصادفه رفعت السعيد فى حفل أقامته جريدة "هيومانتيه" فى باريس, وسأله رفعت لماذا لا يزور القاهرة؟ فأجاب بأنه ممنوع وجواز سفره مختوم (خروج بلا عودة) وأخذ منى المعلومات الكافية, وبعد أسبوع اتصل بى قائلاً: إن الباب مفتوح، ويمكنك الحضور إلى مصر. وأضاف إن هذه هى الزيارة الخامسة له إلى مصر فى السنوات الأخيرة.

الحوار التاسع: ديدار فوزى (جنيف)

تم لقائى مع ديدار فى مقهى صغيرة قريب من محطة قطار مدينة جنيف بسويسرا, وقد عرفنى عليها وأعطانى تليفونها الناشر والمناضل القديم الأستاذ محمد الجندى.

وأمضيت مع ديدار قرابة ساعتين في هذا المقهى في فبراير ٢٠٠٤ . ثم مشينا سوياً قرابة ثلاثة كيلومترات, حتى وصلنا إلى المطعم, الذى كان محددا لي فيه لقاء آخر مع إحدى اليهوديات المصريات. وقبل نشر حوارى معها أود أن أقول إننى تعرفت عليها بطريقه غير مباشرة من جيل بيرو, الذى ألف كتاباً عن حياة المناضل المصرى اليهودى هنرى كوريبل, الذى اغتيل عام ١٩٧٨ وقد انبهرت بوصف المؤرخ و الصحفى المصرى الأصل جيل بيرو للفتاة الرشيقة الجميلة ديدار, التى لم تكن تحمل هذا الاسم عند ولادتها كما عرفت منها عند مقابلتى إياها، وقد قال بيرو إن هذه الفتاة قابلت شاباً مصرياً رشيقاً جذاباً أمه إنجليزية واسمه عثمان فوزى عام ١٩٥٠ . أى قبل الثورة بعامين, وكان ذلك فى حفلة راقصة, وبالطبع لم يكن الشعب المصرى يذهب إلى الحفلات الراقصة فى ذلك الوقت, أو حتى بعد ذلك الوقت, وإنما كان الشاب ضابطاً في الجيش المصرى, ينتمى إلى الضباط الأحرار, وينتمى أيضاً للأفكارالماركسية، وتواجده فى حفل راقص ربما يرجع إلى أنه نصف إنجليزى, أما الفتاة الجميلة الصغيرة الرشيقة ديدار فكانت مصرية يهودية من أسرة متوسطة, لكن اليهود من المصريين– حتى من الأسر المتوسطة – قد كانوا أكثر تحرراً بمراحل من بقية الطبقة المتوسطة المصرية, سواء كانت قبطية أو مسلمة, حيث كانت التقاليد لكليهما متشابهة و شديدة المحافظة.

أحب عثمان فوزى الفتاة ديدار وتزوجا فى القاهرة, وبعد فترة لم تتعد العامين قامت الثورة، ولعب فيها عثمان فوزي دوراً. وبعد نجاح الثورة نقل إلى موسكو ملحقاً بالسفارة المصرية ومعه الفتاة الصغيرة ديدار, وأنجبا بنتين, كلتاهما تزوجت أجنبيا، أحدهما هولندى والآخر فرنسي, وتعيشان فى بلدي الزوجين.

ربما كان انتداب عثمان فوزي فى موسكو له أسباب. وأنا هنا أستنتج, وليست لدي معلومات أو أدلة منشورة. وقد يكون السبب الأول فى تقديرى, هو التخلص منه بوصفه شيوعيا، فأنا أعتقد أن الثورة بقيادة عبد الناصر– فى مرحلة مبكرة– قررت التخلص من كل المنتمين لأيديولوجيات معينة، وكان الشيوعيون والإخوان المسلمون هما الأيديولوجيتان اللتان اعتنقهما بعض المصريين . وربما كان السبب الثانى فى نقله إلى موسكو, أن عثمان فوزى الضابط الشيوعى قد يكون ممثلا للنظام المصرى الجديد فى روسيا بوصفه مصريا شيوعيا. عموماً استقر عثمان فوزى فى روسيا وانفصل عن

زوجته بعد بفترة.

وقد أكملت ديدار - كما ستحكى لنا- المسيرة فى مصر, ثم انتقلت إلى لكفاح ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر, حيث قامت بأدوار مهمة، وسجنت وهربت من السجن, ونشرت قصة حياتها عن ثورة الجزائر بالفرنسية, وترجمت إلى العربية, وكان الناشر هو الأستاذ محمد الجندى فى دار العالم الثالث, بعنوان (فلسطين و الجزائر.. أهلاً يا حبايبى), وقد كانت مصادفة حين ذهبت لأشترى كتابا يهوديا فى القاهرة, للمحامى و المناضل الراحل شحاتة هارون, وقد حدثنى محمد الجندى عن ديدار, وأعطانى رقم تليفونها فى سويسرا, واتصلت بها فى جنيف, وأتفقنا على أن نتقابل أمام البوسطة العمومية وقد عرفتها بسهولة من صورتها المنشورة على غلاف الكتاب, وذهبنا إلى مقهى قريب, وأجابت عن أسئلتي وأصبحنا صديقين.

ولدت ديدار فى ٢٠ أغسطس عام ١٩٢١ فى وسط القاهرة، وترجع أصول العائلة إلى اليهود الإيطاليين، وجدها لأبيها ولد فى القاهرة, و كان أبوها يعمل مديراً فى البنك الأهلى, وكان لها شقيق يكبرها بعامين, ودرست فى الليسيه فرانسيه فى باب اللوق، ولم يكن لها أصدقاء من المصريين فى طفولتها, وكان اليهود مميزين فى المجتمع المصرى, وكانت العائلة تتكلم الإيطالية فى المنزل، لكن فى مرحلة لاحقة تحولت إلى الفرنسية فى المنزل, وسألتها عن لغتها الإيطالية الآن، فقالت إنها لا تستطيع الكلام بها, لكنها تفهمها، إخوتها يجيدونها. وسألتها: هل كنت تشعرين بالغربة فى مصر عندما كنت طفلة؟ فأجابت بالنفى, وقالت إنها لم تشعر بالغربة إلا بعد أن تحولت إلى الشيوعية، وبالرغم من أننى كنت أعيش فى مصر, إلا أننى لم أكن مصرية تحمل جواز سفر مصريا.

وحول فترة الشباب، فقد كانت تخرج إلى جروبي, وقالت كنت أعمل دليلا للبنات وكنا نرقص رقصة يهودية اسمها (الهورا) مشابهة للرقص الفلسطينى, وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمري كنت أذهب للرقص فى فندق سميراميس. وبعد دراستها الثانوية عملت في البنك الأهلى, وكان والدها قد أحيل إلى المعاش, وكان معظم زملائها من اليونانيين, ولم يكن هناك زملاء أو أصدقاء من المسلمين أو الأقباط, وفى المدرسة كان هناك بعض المسلمين من أبناء العائلات الغنية ، وفى البنك الأهلى نظم الموظفون

إضراباً، ولاحظنى هناك ريمون استمبوللى، ولاحظ أنني جميلة، لكنى لم ألاحظه أبداً.

ولم تكن ديدار متدينة مثل أمها، لكن أباها كان متديناً، وعندما سألته ديدار: ماذا تقول عندما تدعو أثناء الصلاة؟ قال لها إنه يريد أن يموت وهو يسير على قدميه و ألا يموت على فراش الموت. ولم تكن تعرف العبرية، لكن أخاها كان يعرفها، وتوفى والدها عندما كان فى منتصف الخمسينات من عمره عام ١٩٣٩. وتوفيت والدتها عام ١٩٥٤، وقالت إن الأمور لم تكن سيئة لليهود، لكنها ساءت بعد عام ١٩٥٦.

وقالت: بدأت أحس بالشعور الوطنى بعد أن أصبحت شيوعية، حينئذ بدأت أتفهم المطالب الوطنية المصرية، ورأيت الفقر الذى لم أكن ألاحظه، فالشيوعية فى مصر غير الشيوعية فى فرنسا، لأننا يجب أنْ نحرر الوطن أولاً، ثم نعدل الأوضاع الاجتماعية ثانيا، والأمر مختلف فى فرنسا بالطبع. وكانت تقرأ صحيفة (البروجريه) الفرنسية بعد أن أصبحت شيوعية، أما عن الكتب، فكانت تقرأ الروايات الفرنسية، و كانت تحب موسيقى الجاز، وتذهب مع أمها التى تعشق الأوبرا لمشاهدتها، وتقول: كنت أخجل من قول أنني أحب هذه الأنواع من الموسيقى لكونى شيوعية. وعندما سألتها: عندما كنت شابة هل ضايقك أحد فى مصر؟ فأجابت بالنفى، باستثناء معاكسات الشباب للشابات فى الشارع. ولأول مرة شعرت بأن هناك مشكلة لكونى يهودية كان عام ١٩٤٢ حينما كان الألمان فى العلمين، فرقص بعض العرب فى الشوارع، وقال بائع الصحف لها (هتشوفوا أنتم اليهود) وسألت ديدار نفسها: لماذا ؟ ، وفى ذلك الوقت بدأ البوليس السياسى يراقبها بسبب النشاط السرى فى الجبهة الديمقراطية. لكنها لم تشعر بعداء نحوها بوصفها يهودية فى أى فترة، حتى عندما حضرت إلى مصر عام ١٩٥٦، وسألتها: هل أثارت عائلتها أى أسئلة عن مستقبل العائلة فى مصر؟، فأجابت بالنفى، والشيء الوحيد الذى أذكره أن أباها كان يستمع فى الثلاثينات إلى الأخبار فى الراديو طوال الوقت، وكانت تنتابة نوبة عصبية عندما يسمع هتلر، بالرغم عن عدم معرفته بالألمانية.

وتقول: القلق الوحيد كان فى فترة العلمين، حين جهزنا أنفسنا للرحيل فى حالة انتصار الألمان.

وحين كان عمرها تسعة عشرة عاماً قابلت عثمان فوزى الضابط المصري المندرج

من عائلة غنية.

وعن أصل العائلة تقول ديدار إنها انتقلت إلى مصر من الجزائر, وعندما ذهبت إلى المقابر لزيارة قبر والدها, وجدت أن اسم جدها الأكبر سعد، على حين أن اسم أبيها أنجلو روسانو, فبدأت تحسب متى بدأت العائلة فى تسمية الأبناء بأسماء أوروبية بعد أن كانت الأسماء مصرية. وقالت إنها لم تشعر بأى اضطهاد أو هجوم على اليهود, ولم تر شيئاً من ذلك, وقد غادرت مصر عام ١٩٥٧. ولم تشعر بأى شيء فى الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٤٨. وتقول: قبل دخولى التنظيمات الشيوعية كنت تقدمية بسبب قراءاتى الاشتراكية الفرنسية، وبالنسبة للغة العربية فإننى لم أتعلمها إلا بعد أن هاجرت من مصر إلى فرنسا نهائياً, وقد حصلت على الدكتوراه من باريس عن السودان.

وعندما سألتها عن علاقة العائلة بالصهيونية أجابت بأن العائلة لم يكن لها أى علاقة بالصهيونية, وأحد أبناء العم ذهب للعمل فى الكيبوتز فى فلسطين, لكنه عاد إلى مصر مرة أخرى, و انضمت أختها الكبيرة إلى الشبيبة اليهودية فى الحرب العالمية الثانية، لكن جميع العائلة انتقلت إلى أوروبا، ولا يوجد لها معارف ولا أقارب فى إسرائيل.

وفسرت وجود نسبة مرتفعة من اليهود فى التنظيمات الشيوعية المصرية, بأنهم كانوا ضد النازية، وكانت لديهم فرصة الاطلاع علي الكتب الماركسية لمعرفتهم باللغات الأجنبية.

وقالت إن الشيوعيين هم الذين اهتموا بها, ربما لأنها زوجة ضابط مصرى, ولم يكن ممنوعاً أن يتزوج ضابط مصرى فتاة يهودية. لكنهم بدأوا يضعونها تحت المراقبة منذ عام ١٩٤٨.

وعن جمال عبد الناصر قالت إن مشكلته أنه كان بورجوازياً صغيراً, بالرغم من أن الضباط الأحرار كان بينهم المتعلمون تعليماً جامعياً. وقالت إن أختها كانت متزوجة من المليونير عدس صاحب المحلات الكبيرة وتم تأميم أملاكه, وغادر عام ١٩٥٦. وكان يحمل الجنسية الإنجليزية, وصودرت أمواله, لأنه إنجليزى, وليس لكونه يهوديا. وتعتقد ديدار أن إسرائيل لعبت دوراً مهما فى هجرة اليهود العراقيين إلى إسرائيل, لكن لم يكن لها دور مهم فى هجرة اليهود المصريين إلى إسرائيل.

ولم تتذكر ديدار عملية سوزانا, أو هجوم إسرائيل على غزة, وطلبت منى أن أسأل

سوسو حزان عن ذلك. وقالت إنه فى عام ١٩٥٦ لم يطرد عبد الناصر اليهود, وإنما طرد اليهود من حاملى الجنسيات الفرنسية والإنجليزية والصهاينة المعروفين فقط, وسألتها هل سجنت فى مصر؟ فأجابت بالنفى, وقالت إنها سجنت فى الجزائر بواسطة الفرنسيين, حين ذهبت لمناصرة الثورة الجزائرية. وقالت عن الشيوعيين المصريين فى فرنسا إنهم قاموا بأعمال مهمة وساعدوا المعتقلين الشيوعيين فى مصر.

قلت: وماذا تعرفين عن خطة الهجوم على مصر عام ١٩٥٦، أجابت بأنها فى ذلك الوقت كانت فى مصر تبحث عن منزل حتى تخبئ فيه سوسو حزان عندما يحضر من فرنسا ومعه آلة طباعة، لكن الفكرة ألغيت، وكان هنرى كورييل هو قائد مجموعتنا, وساعدت فى تهريبه من سويسرا إلى فرنسا, لأن فرنسا رفضت منحه إقامة، وعن تصورها لمستقبل الشرق الأوسط قالت سوف تكون هناك دولتان فلسطينية وإسرائيلية.

وعن مصر قالت إن الصعود الإسلامى سببه المشكلة الفلسطينية. وقالت إنها تفكر دائماً فى مصر, وعند سؤالها عن بلدها تقول دائماً إنها مصرية، حتى حين عملت فى حركات التحرير فى أمريكا اللاتينية وحركة تحرير المرأة, لكنها تقول إن سوسو حزان أكثرنا مصرية, لأنه يشعر ويفكر بالطريقة المصرية فقط ولا يهتم بأى شىء إلا مصر. وقالت إنها زارت إسرائيل عدة مرات، وتشاهد جميع أفلام يوسف شاهين.

الحوارالعاشر: يوسف درويش (القاهرة)

قابلته فى شقته فى شارع يوسف الجندى بحى باب اللوق, وساعدنى فى تنظيم اللقاء معه الدكتور رفعت السعيد.

ذهبت إلى الأستاذ يوسف درويش فى الثانية عشرة ظهراً, وهو يسكن فى عمارة تؤجر الجامعة الأمريكية عدة أدوار منها, وكان فى انتظارى جالساً فى الصالة بجوار النافذة يقرأ جريدة (الأهرام), ورحب بى بشدة ووعد بمساعدتى قدر إمكانه. وكان الحوار معه ممتعاً, تحس بالصدق والحماس يفيضان منه, ولا جدال أن وطنيته وحبه لمصر واضحان جليان. وتحدثت معه طويلاً وسجلت كل شىء. والأستاذ يوسف ولد فى حى الوايلى بالقاهرة عام ١٩١٠ . وانتقل مع أبويه إلى مصرالجديدة, ثم انتقل إلى بولاق, ثم إلى شارع شمبليون, واستقر فى شقته الحالية منذ خمسين عاماً.

وسألته عن عمر جذور عائلته فى مصر, فأجاب بأنه عثر على عقد بيع من المحكمة

الشرعية لجده عام ١٨٢٨. ويعنى ذلك أن العائلة أقامت فى مصر على الأقل خمسين عاماً قبل ذلك التاريخ، وربما أكثر من ذلك، لكن لاتوجد عنده وثائق تحدد تاريخ العائلة..

وقال إن زوج خالته هو مراد فرج ليشع المحامى والشاعر اليهودى الشهير، ووالدته قريبة للملحن الشهير داود حسنى، وكان صديقاً لابنيه إبراهيم وكمال، وقال إن ابنة داود حسنى تزوجت شاباً مسلماً.

وقد التحق يوسف درويش بمدرسة السكاكينى الحكومية الابتدائية، ثم انتقل إلى العزيز بالظاهر، ثم الخرنفش الثانوية، ثم سافر إلى فرنسا وحصل على ليسانس الحقوق، وبعد عودته حصل عام ١٩٤٤ على ليسانس الحقوق المصرية من جامعة الإسكندرية. وقال إن عائلته كلها كانت تحمل الجنسية الفرنسية، وسألته: هل حدثت له مضايقات بسبب دينه أثناء دراسته فى مصر؟ فأنكر حدوث أية مضايقات، وقال: كل أصحابى القريبين منى كانوا مسلمين، فأعز أصدقائى كان حامد سلطان أستاذ القانون الشهير، ويحيى حسن الذى أصبح سفيراً، وأحمد بدرخان المخرج. وقال إنه لم يشعر أبداً بالغربة فى مصر، وقال أيضاً إنه لم يكن متديناً طوال حياته ، وكان والده يذهب إلى المعبد مرة كل أسبوع و لم يكن متديناً.

وسألته عن الخلفية الثقافية، فأفاد بأن أباه كان أمياً، ومع ذلك كان مهتماً بتعليم وتثقيف أبنائه، وكان والده يعمل صائغا، وكان يوسف – فى شبابه– يحضر محاضرات الجمعية الجغرافية الملكية باللغة العربية والفرنسية، ويقرأ الصحف بنهم شديد، ومنها جريدة فلامبديجيبت، ويعتقد أنها كانت مجلة مهمة جداً، وكذلك كان يقرأ الكشكول والأهرام، ويحضر المحاضرات الثقافية فى مدرسة الفرير، وألقى محاضرة فيها عن الثورة الفرنسية، وكان يستمع أحياناً إلى الموسيقي المصرية. وقال إن أم كلثوم حضرت إلى بيتهم عام ١٩٢٧ وأحيت فرح أخيه، ولم تشعر العائلة بأى قلق فى مصر قبل عام ١٩٤٨.

ويقول درويش إنه كان وفدياً ملتزماً، وكان ينظم بعض المظاهرات الوفدية، ونظم – هو وحامد سلطان – مظاهرة ضد الملك خارج البرلمان، احتجاجاً على إقالة النحاس عام ١٩٣٠.

وقد تغيرت أفكار يوسف درويش من الليبرالية الوفدية إلى الماركسية, عندما بدأ يتأثر بكلاسيكيات الثورة الفرنسية، وقرأ تروتسكى عام ١٩٣٢. واشترك فى المظاهرات ضد النازية فى فرنسا أثناء دراسته للحقوق فى تلك الفترة, وتعرف على شيوعى ألمانى هارب من النازية. وتعلم منه الماركسية. ويقول يوسف درويش إنه كان نشيطا اجتماعياً طوال عمره, من أيام مدرسة الفرير, وأنشأ جمعية الطلبة العرب من أجل الاستقلال أثناء دراسته فى فرنسا, كما أنشأ جمعية ضد الفاشية والحرب.

وعند عودته إلى مصر عام ١٩٣٤ أرسل إلى صديقة شيوعية فى فرنسا يطلب المشورة عما يجب أن يفعله فى مصر, فأشارت عليه بالاتصال بالحركة العمالية, وكذلك الوفد, ثم حركة السلام, واتصل بها جميعاً حسب النصيحة, ومنذ ذلك الوقت أصبح شيوعيا مصرياً, وفى حركة السلام اشترك مع بول جاكوب وصادق سعد وإيلى حزان وجورج بيريدس، ويفسر درويش النسبة المرتفعة لليهود بين الماركسيين, بكونهم أقلية لذا كانوا يشعرون بالاندماج الكلى مع الشعب فى الشيوعية, ويبعدون عنهم الشعور بالخوف بالإضافة إلى قوله إن اليهود كانوا أكثر ثقافة وأحسن تعليماً من بقية المصريين لذا كانت لديهم فرصة أكبر لكى يتعلموا الماركسية.

وعن الصهيونية يقول درويش إنه لم توجد ظاهرة صهيونية فى مصر, وإنما كان هناك ناد صغير فى شارع مراد بمصرالجديدة اسمه (نادى الصهاينة), وكان هناك اتجاه ضعيف فى (المكابى)، لكن الحكومة المصرية – فى تقدير درويش– هى التى أعطت القوة للحركة الصهيونية, فمثلاً حين كون بعض اليهود المصريين (جمعية اليهود ضد الصهيونية)، قام النقراشى باشا بإغلاق الجمعية بدون سبب, وعطل ذلك نمو حركة مناهضة الصهيونية عام ١٩٤٨. حين اعتقل الشيوعيون اليهود, وعرض علينا الخروج من المعتقل والسفر إلى إسرائيل لمن يرغب. وكانت هناك ثلاثة عنابر فى معتقل الهاكستب، و منها عنبر الإدارة وعنبر السنكردية، وكان درويش معتقلاً فيه، والعنبر الثالث لليهود الصهاينة، وهؤلاء كانت لهم معاملة خاصة, فكانت هناك ثلاجات وفرن وكل شىء, وبعضهم كان يحصل على أجازة من المعتقل يوم الخميس للذهاب إلى المنزل والعودة يوم الجمعة، فلم يكن هناك مشكلة بين الحكومة المصرية والصهاينة، وإنما كانت المشكله بين الحكومة والشيوعية.

وبعد الثورة – يعتقد درويش – أنه كان هناك ذعر عند اليهود, ويجب تقسيم اليهود المصريين إلى طبقات ، طبقة غنية هربت إلى الخارج بأموالها وطبقة متوسطة خافت بدرجة أقل, وسافر أفرادها إلى أمريكا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا, والفقراء هم الوحيدون الذين سافروا إلى إسرائيل, لأنه لم يكن لديهم مأوى آخر.

وكان هناك نوع من سوء المعاملة فى ذلك الوقت. يقول درويش إن أحد أقربائه – اسمه توفيق عبد الواحد– قال له أنا مسافر غداً ، لأنهم استدعونى فى قسم البوليس, وضربونى على وجهى قلمين، وسأله درويش: هل ضربوك قلمين لأنك يهودى، أم لأن كل المصريين الذين يدخلوا قسم البوليس يضربون قلمين؟ فأجاب لأنني يهودى. وكانت الفترة فيها حساسية شديدة من اليهود.

و سألت درويش: هل كان من الممكن للثورة أن تتفادى خروج اليهود؟ فأجاب بأن ذلك كان ممكناً لكون اليهود مصريين، وليسوا أعداء. وقال إن وجود إسرائيل كان السبب الأساسى فى خروج اليهود من مصر, وبخصوص عملية سوزانا، قال إنه كان يعرفها شخصياً, لأنها كانت تسكن قريباً منه، لكنه لم تكن له علاقة بها.

وحول الاعتقال والسجن, فقد اعتقل يوسف درويش أعوام ١٩٤١ و ١٩٤٩و١٩٥٠ لعدة أشهر كل عام بتهمة الشيوعية, وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات عام ١٩٥٣, لكن النقض ألغى الحكم, وفى عام ١٩٥٩ اعتقل مع جميع الشيوعيين المصريين لسنوات طوال, وفى عام ١٩٧٣ اعتقله السادات ثلاثة أشهر فى القلعة، وكانت تهمته الوحيدة فى جميع المرات هى الشيوعية, وكانت هناك مجموعات مختلفة من الشيوعيين, وكان درويش فى حزب العمال الشيوعى مع أبو سيف يوسف وصادق سعد وريمون دويك.

وعندما سألته عن تخيله لما سوف يحدث فى الشرق الأوسط بعد خمسين عاماً, قال: لقد كنت ضد الصهيونية قبل قيام إسرائيل بسنوات طوال، لأننى كنت من أنصار السلام, وهى أول هيئة عالمية تقرر أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية، وهناك كتاب أثر تأثيراً كبيراً في أفكارى ومعتقداتى كتبه المؤلف الألمانى أوتو هيلير, عنوانه "نهاية اليهودية" يشرح فيه أخطاء الصهيونية، وأنا ضد دولة إسرائيل ومع إقامة دولة علمانية.

وينتقد درويش بشدة نظام الامتيازات الأجنبية، ويحكى كيف قام الشباب الإيطاليون الفاشيون بضربه ضرباً مبرحاً عام ١٩٣٢. لأنه رفض الوقوف تحية لنشيد الشباب الفاشيين، وعندما ذهب لتحرير محضر في قسم البوليس, حُوِّلَ المحضر إلى القنصل الإيطالى للتصرف, وحين قام مدير شركة البواخر الإنجليزى بفصل النقابى المصرى محمد مدبولى, حُوِّلت شكوى مدبولى إلى القنصل الإنجليزى.

وفى عام ١٩٣٦ قابل درويش مع زملائه وفداً من هيئة الأمم المتحدة، جاء لتقصى الحقائق, وقال درويش إن رأيه أن فلسطين للفلسطينيين موحدة, واشترك مع جمعية أنصار السلام فى تأييد الثورة الأسبانية ضد الفاشية, وقد ساهموا فى جمع مصطفى النحاس ونهرو فى لقاء فى مطعم الكورسال فى شارع الألفى عام ١٩٣٧,

وساهم درويش فى إنشاء جمعية نشر الثقافة الشعبية، و قال: كنا ندرس للعمال اللغة العربية والثقافة، وأشار إلى أنهم أنشأوا مدرسة لمحو الأمية, والتقى درويش بطه حسين وطرح تصوره لمحو أمية الشعب المصرى. وفى عام ١٩٤٢ عقد لقاء درويش بالقيادات العمالية فى شبرا الخيمة, واختارته نقابة العمال محامياً لقضاياها, وبلغ عدد النقابات التى كان درويش محامياً عنها خمسين نقابة. وطالب برفع مرتبات العمال المتدنية وساهم فى إصدار مجلة "الفجر الجديد" عام ١٩٤٤. وساهم مساهمة فعالة فى إنشاء اتحاد العمال المصرى.

وفى عام ١٩٥٦ أغلقت الحكومة مكتب يوسف درويش, إلا أنه فتح مرة أخرى بعد أن وقع عشرة آلاف عامل ومائتان وسبعون محاميا على عريضة موجهة إلى جمال عبدالناصر, يطالبونه بفتح مكتب يوسف درويش.

الحوار الحادى عشر: ألبير أربيه (القاهرة)

عرفنى عليه الدكتور رفعت السعيد. تقابلنا فى جروبى سليمان باشا, وكان الحديث كله بالعامية المصرية، لذا قررت أن أتركه كما هو العامية. قال ألبير: أبويا من أصل تركى، عيلتنا أصلا انطردت من أسبانيا سنة ١٤٩٢. ووصلوا بلغاريا, معرفش التاريخ, بس واحد من العيلة عمل كتاب بيتكلم عن العيلة, و بعدين عيلتنا انتقلت من بلغاريا لتركيا معرفش إزاى. كان الكلام ده فى الخمسينات. السفير البلغارى قال أنا كنت أعرف واحد من عيلتك فى صوفيا. انتقلوا لتركيا ما أعرفش إزاى, لأن أبويا عمره

ما كان بيتكلم عن أبوه.

جم مصر إمتى؟ أبويا جاء مصر في بداية القرن العشرين, جه و عمره ١٥ سنة, وأبوه مات و هو صغير, و الأحوال تدهورت, و كان فيه أقارب فى مصر فراحلهم, وما كانش خد الإعدادية سحبوه من المدرسة, و ده كان عامل عقده, وأخوه التوأم راح مارسيليا لوحده, فالنتيجة جزء من العيلة فرنسية ١٠٠٪ لدرجة ان ابن عمى كان ضابط فى سلاح الطيران الفرنسى ، معرفش هل هم يهود؟ مسيحيين؟ معرفش. عمتى حلت مشكلتها وجوزوها واحد أكبر منها فى ميلان.

أنا ساكن فى عابدين بقالى ٧٤ سنة فى نفس الحى, و ما انتقلتش عن شارع البستان جنب معهد جوته من سنة ٣٥ . واتولدت فى شارع الفلكى, العمارة زى ما هية.

دخلت مدرسة الليسيه. أبويا اشتغل فى الأول فى حسابات محل كبير فى الموسكى. و أيام الحرب الأولى دخل في التجارة, وتجارة الأدوات الرياضية, وأبويا أول واحد كان retailerفى الأدوات الرياضية وحاجات الكشافة, يعنى ده خلى إن أبويا كان بيبيع للمدارس, فكان له ارتباط أكثر مع الشعب المصرى. أصدقاؤه كلهم بتوع مدارس. عندى صورة أبويا لابس طربوش, و قاعد وراء سعد زغلول, و معاه إسماعيل صدقى فى حفلة عامة. سنة ٢٣ أو ٢٤ كان عنده الجنسية التركية، فكان مفروض يختار الجنسية فاختار المصرية. و فى الوقت ده كانت الجنسية المصرية مصدر سخرية من الناس, يعنى كان ممكن يستفيد من الحماية, بس كان أبويا مرتبط جدا بالمصريين, خصوصا إن كان عنده محل فى ميدان مصطفى كامل اسمه نيولندن هاوس, كان فيه ناس كتير تفصل عنده لغاية لما مات. حتى عبد الناصر كان بيبعت يفصل الجلاليب بتاعته, و السادات شرحه وصلاح سالم و خالد محيى الدين, و كان له أصحاب ضباط و ده اللى نافعنى ، حتى فى سنين السجن ، كان بيعرف كويس محيى الدين أبو العز فساعدنى و خفف عنى شوية.

كنت فى مدرسة ليسيه باب اللوق, و كان جو طبعا علمانى لا دينى ، الثقافة الفرنسية لعبت دور فى تكوينا اليسارى ، كان عندنا أساتذة ، واحد من المدرسين كان فى الحركة الديمقراطية ، كثير من زملائى مسيحيين أو مسلمين دخلوا فى الحركة

الشيوعية. يعنى سنين الطفولة و الدراسة كلها ١١ سنة. كذا واحد، فؤاد حداد كان زميل، كنا شلة, أصبحنا شيوعيين، اللى لعب دور لانتمائى لمصر بصراحة الحركة الشيوعية، علمتنى حب الوطن ، الأممية بتعلمك حب الوطن.

و أنت صغير حسيت إنك غريب؟ و أنا صغير كنت بعيد جدا. الحته بتاعتنا اللى أنا ساكن فيها كانت جزيرة ، مرة سألت واحد كان زميلى رجع مصر بعد غياب طويل انت شايف إيه اللى اتغير هنا فى مصر ، قال أولاً مافيش حد حافى ماشى فى الشوارع. ثانياً القاهرة بقت للمصريين ، صدقنى كان أمين فى وصفه ، ما المنطقة دى كان فيها نوع معين من المصريين مثقفين أغنياء ، صاحب العمارة كان مظلوم باشا و ما كانش يسكن مصريين. خواجات بس. و ابنه في الدور الثالث. اللى خلانى أكتشف مصر هو الحركة الشيوعية و فترة ٤٦ و الجامعة. دخلت جامعة القاهرة سنة واحدة في كلية الآداب فرنسي. لويس عوض كان بيدرس لنا إنجليزى ، كان سنة ٤٧ و لقيت الجو صعب فى ٤٨ ، معظم زملائى دخلوا المعتقلات و الباقى يا هربانين يا مشيو. أنا رحت الجامعة عام ١٩٤٦. وحضرت اجتماع كبير, وكان فيه لطيفة الزيات, وكمان معظم الناس زعماء الحركة الشيوعية كنت أعرفهم ، اشتغلت معاهم فى الكفاح العلنى و السرى ، مع الأجيال القديمة, و طبعا بعد كده لعبت دور كبير فى ٤٨. و الأحكام العرفية أدت إلى اندماجنا فى العمل السرى.

حضرتك اتحبست أيام الملك؟ لأ كنت حاتحبس بس وسايط أبويا سابونى. مين كانوا أصحابك فى الوقت ده فى الأربعينات بعد المدرسة؟ الشيوعيين. أنا انعزلت عن وسطى. أنا مش مقياس, أولا فى تكوينى أنا مش متدين, يعنى عيلتى ما كانتش متدينة. اللى لعب دور كمان إن أبويا من اليهود الشرقيين السفاراد, و أمى كانت من اليهود الأشكيناز فمحدش انبسط من الجوازة, دول كانوا بيعتبروا دول حاجة واطية و ما ينفعوش.

مين أصحابك القريبين قوي في الأربعينات؟ حزان كنت صديق حميم لأخته ، أخته اتجوزت أخو فؤاد حداد ، بس كان فيه إلى حد ما انتماء دينى عند سوسو حزان شوية يعنى أبوه و أمه. حتى في طنطا كانوا بيصلوا, لما بتقرأ مثلا كتب جاك حسون كانت عيلته مصرية صميمة متوطنة ، حتى بيحكى إن أبوه عايز يصلي, ومافيش معبد جنبه

كان يصلى فى الجامع ، يعنى بيت الله ، دى حاجات أنا ما كنتش عارفها.

فيه أى نشاط سياسى أو ثقافى غير الحركة الشيوعية اشتركت فيه؟ أنا لا بتديت صغير ١٥ سنة، سنة ٤٥ ما كانش فيه فرصة. حتى لما كنت عيل ، أنا من الجيل اللى بيسموه أصبح على حس المدافع, لأن جو عيلتى كان جو الحرب. لما كان عمرى ١٠ سنوات كنت ما أنمش و أسمع إذاعة لندن و أنا من أقدم مستمعى لندن. أنا عشت كمان الحرب العالمية الثانية, يعنى هى فى جسمى مش فى عقلى. أنا عندى مكتبة فيها يمكن ٣٠٠٠ كتاب وزيادة شايلها من سنة ٤٥ .

و انت صغير كنت بتقرأ أى جورنال؟ الأهرام و أنا ١٧ أو ١٨ سنة. و قبل كده البروجريه لكن بعد ٤٦ أو ٤٧ مش ممكن. كنت بأقرأ جرائد فرنسية كثيرة. سافرت فرنسا أول مرة سنة ٤٦. و رجعت بشنط كتب, و لما أسافر بالبحر كان سهل.

المزيكا؟ ما كنتش بأسمع مزيكا. كنت سياسة فى سياسة, يمكن بس أغانى ثورية. بأجيب أسطوانات فرنساوى. بعد كده كنت بحب نمط معين من الأغانى, و بأسمع إيف مونتان, كان قريب جدا من الحزب الشيوعى فى الفترة دى. يعنى دى فترة غنية. والدى توفى وأنا فى السجن سنة ٥٩ .

هوه حصل له إيه؟ أبويا محله اتحرق يوم ٢٦ يناير ٥٢. فكان الناس بيقولوله قاعد هنا ليه. الغريب إنه كان عنده حس تجارى جامد, بس عمره ما اغتنى, و لما مات ما كانش فيه فى البنك غير ٥٠٠ جنيه, و أمى استلفت فلوس علشان الدفن, بس ما كانش من النوع اللى يغتنى. فى فترة هو تعب, يعنى أنا حضرت الأزمة الاقتصادية العالمية, وكل طفولتى مشاكل ، الأزمة جت إلى مصر بعد أوروبا متأخرة, و حتى فى الريف, وكان فيه أزمة فى القطن. فكنت أسمع أبويا و أمى يقولوا حندفع إزاى الكمبيالات و التأمين؟, عشان كدة لغاية دلوقت أنا بأكره التأمين, و لما ييجى واحد بتاع تأمين أطرده. فأبويا اضطر يأجر المحل سنة ٣٦ أو ٣٧. و كان يستلف من مرابين فيضطر يشتغل موظف عند عمر أفندى, و رجع محله سنة ٤٠، و بعد كده أخدوه فى شملا, و استمر سنة واحدة, و برضه عنده محله, و سابهم بعد سنة. بعد ما انحرق المحل بدأ من جديد مكانش فيه تأمين. أخد مبلغ من الحكومة, يدوب عرف يبتدى من جديد.

يوم ٢٦ يناير كنت فين؟ في الشارع. و اتفرجت على محلي بيتحرق و شفت كل المحلات بتتحرق, محل أبويا اتحرق في الآخر, و كان فيه شركة سياحة تركية, و النار مسكت في الباركيه فمشيت. و وقفت بعيد, و شفت أبويا واقف جنب الكباريه في ميدان مصطفى كامل بتاع صفية حلمي و بيبص على المحل و هو بيتحرق, و لما شفته حزنت لأن كل حياته فيه.

اللي كانوا بيحرقوا كانوا كام واحد؟ كتير. يعني آلاف و لا مئات؟ ميات بس كانوا منظمين. كانوا عارفين بيعملوا إيه. كان فيه طبعا حرامية بيسرقوا, بس كان فيه تنظيم. ناس يكسروا الأقفال, و ناس معاهم جراكن بنزين و يلا إحرق. شفت العربيات بتتحرق كمان. كنت في شارع البستان و كل الشارع كان جنسيات عربيات. شفت ناس منظمين. أنا قرفت لما شفت المنظر ده ، كان منظر وسخ. و أنا فاكر لما أبويا أخد تعويض و عمل حفلة افتتاح وجاء محافظ القاهرة ، اصطدمت مع أبويا وقلت له حاطط صورة فاروق ، صورة الراجل إللي حرق محلك. و أنا فاكر هوه زعل جدا بس طنش و سكت.

إمتى أبوك ابتدى يحس بالقلق؟

في ٤٢ أصحابه قالوله لو عندك حاجة ثمينة هاتها عندنا و لو عايز تروح الريف تعالى عندنا نخبيك, فرفض, ما أعرفش كان عندنا ثقة جامدة إن رومل مش حيكمل, و إن الانتصار حيكون. فيه ناس راحوا الصعيد, و ناس كتير مشيوا, و في ٤٨ برضه ما اتحركناش. كنا قلقانين بس, كان عنده أصدقاء كتار مصريين فماتأثرش. بعد ما المحل اتحرق كان عنده انتماء ما يسيبش البلد. أبويا أول واحد باع جينز في مصر, أنا ابتديت أشتغل معاه سنة ٤٨, فمرة سافر فرنسا و قاللي فيه حاجة جديدة جاية من أمريكا, و ابتدوا ينتجوها بتوع الملابس, و فيه قماش مخصوص و جاب جينز, و في الوقت ده كان سالوبيت, فقلت إيه القرف ده؟ ، قاللي ده المستقبل, و أنا كنت حمار.

لما قامت الثورة كان إيه شعوره؟

في بداية الثورة كان محمد نجيب بيحب اليهود, وحتى الباقوري خلاه يعتذر للحاخام. كان فيه اتجاهين في الجالية اليهودية اتجاه انتماء لمصر, و اتجاه يسيب البلد. بس لازم نقول إن معظم اليهود المصريين معظمهم ما سافروش إسرائيل. يا

أمريكا يا فرنسا أو أستراليا. الهجرة بدأت مع اليهود, وبعدين مع الأقباط، و بعدين مع المسلمين. و أنا قاعد في مصر ٤٠ واحد من قرية واحدة غرقوا في البحر الأبيض كانوا رايحين إيطاليا. شوف إحنا وصلنا فين من عدم الانتماء للبلد.

غير ٥٢ شفت بعينك مظاهر عنف ضد اليهود؟

في ٤٨ كان فيه جو عدائي من الإخوان المسلمين. أنا كنت بأبيع أدوات رياضية للإخوان المسلمين, والمرشد الجديد صاحبي ، طبعا عاكف أعرفه كويس قوي هو مدرس تربية رياضية في مدرسة فؤاد الأول الثانوية, و أعرفه كويس جدا, و اتحبست معاه ١١ سنة و كان زميلي في السجن, حتى رفعت السعيد بيتريق عليا لأني صاحب المرشد.

العيلة بتاعتكم هل أفكارها انقسمت لما كل واحد راح له مكان؟.

أنا ليه أخت واحدة سافرت فرنسا سنة ٤٦. بقت أستاذة في الجامعة ، هي من أحسن الخبراء في تاريخ الأندلس ، هي في الأكاديمية الملكية الأسبانية, عاشت في تونس سنين طويلة, كانت تدرس اللغة العربية, وكانت زميلة حسين مؤنس. هي تعرف كويس حسن حنفي و أخوه و الدكتور مكي.

مين جندك للفكر الماركسي؟

في سنة ٤٢ كان فيه محاولات يجندوا أختي. و كان عندي واحدة قريبة أبويا كانت بتشتغل في مكتبة الميدان, كانت في الحركة المصرية, بس دي ما كانش لها تأثير. أختي هي كانت بتروح في النوادي الأولى ، الاتحاد الديمقراطي قدام القنصلية الفرنسية. كان عمري ١٢ سنة لما قريت مكسيم جوركي ،الجيل بتاعنا كانت السياسة في دمه, مش ممكن دلوقتي تلاقي كده. كان فيه واحد يعرف أختي, و كان ساعات يشوفني في الشارع ومرة سنة ٤٥ شفته, كنت ماشي في شارع ثروت ، كان طالع من عمارة كان فيها جريدة الأهالي زمان. أما اصطدته و قلتله عايزين نقعد ، عايز أسمع عن الماركسية ، هوه كان في الحركة الشيوعية ، بعد كده هوه سافر سنة ٤٨. و مات من كام سنة, كان من زعماء حزب الخضر ، ساب الماركسية و بقى أخضر.

اليهود المصريين نسبة الماركسية فيهم كانت أعلى؟

أنا مختلف, يعني مازادوش عن الميات أنا رأيي ولا الشيوعيين ولا الصهاينة، أنا

رأيى كانوا هامشيين. كانت طبعا أرض خصبة, كان طبيعى المنافسة على مين حيسيطر. بس ولا همه و لا احنا سيطرنا.

إيه رأى حضرتك المشكلة اللى وقع فيها جمال عبد الناصر مع اليهود؟

تكوين عبد الناصر تكوين بورجوازى صغير ضيق الأفق. التناقض إنه فى السياسة الخارجية كان very broad minded كان سياسي بس تكوينه داخليا بتاع very narrow minded تكوينه الطبقى كده, و ده أثر على سياسته. أنا رأيى هو لعب دور كبير ، الضباط كانوا مش ضد اليهود بس ، ماكانش عندهم ثقافة, كان فيه واحد بس مثقف حطوه فى مؤسسة الأسماك, يعنى كان دوره هامشى.

إيه رأى حضرتك فى دور إسرائيل فى خروج اليهود من مصر؟

هم حاولوا كتير, بس أنا رأيى أساسا ٥٦ كانت سبب أساسى و العدوان الثلاثى الناس خافت ، أنا قعدت ١١ سنة فى السجن ، من ٥٣ طلعت ٦٤ مع رفعت السعيد, فى الشهر اللى جاى حكون اتعرفت على رفعت من ٥٠ سنة.

طبعا السجن ما كانش له علاقة بالدين, كان عشان الشيوعية؟

طبعا. الحاجة الوحيدة, كنا مستغلين الدين فى السجن و دى النكتة ، فى أوسخ الفترات كانوا بيحترموا صيام اليهود إن ما يأكلوش عيش ، و كنا فى ليمان طرة كذا واحد يهودى فقلنا لأ لازم يجيلنا أكل مخصوص بتاع اليهود، فكانوا بيحترموا جدا، كان الضباط عايزين يموتونا ، واحد كانت مراته يهودية كان بطل كرة سلة اسمه ألبير تادرس كان راجل كويس.

الشيوعيين اللى راحوا فرنسا و انتوا فى السجن ايه كانت علاقتكم بيهم؟

كان فيه يهود قليلين فى مصر.

و اللى سافروا على حسب، كان الناس اللى فى الحركة الديمقراطية, كان فيه علاقة, لما سافرت فرنسا كان يوسف حزان بقابله, بس علاقتى باللى سافروا العاديين ما كانتش كده، بس بعد كده لما سافرت فى ٦٨ قابلت ناس كانوا معايا فى المدرسة.

إيه تقديرك لمستقبل الشرق الأوسط.؟

Long termحيكون فيه سلام ده حاجة تكسف, يعنى بعد ٥٠ سنة مش ممكن أرض واحدة لشعبين, و مش ممكن شعب يطرد التاني, و فى نفس الوقت اللى بتعمله عصابة شارون بيعقدوا المشكلة أكتر, و عمليا بيقضوا على الدولة اليهودية. العرب حيبقوا أغلبية فى إسرائيل ده مؤكد. آجلا أو عاجلا حيكون فيه سلام يوم ما، الإسرائيليين و الفلسطينيين حيتفقوا مع بعض، حيكونوا قوة يكتسحوا العرب لأن الفلسطينيين أكثر العرب ثقافة وشطارة فى التجارة و كل حاجة.

هل فيه علاقة بين اللى حاصل فى الصراع ده و النمو الفظيع للتيار الدينى فى مصر؟

طبعا الإسرائيليين لعبوا دور كبير، لولا إسرائيل، حماس ما كانش لها وجود، ما ساعدوا فى الأول خالص الإسلاميين, و رابين قال لمبارك إن من الأخطاء الفظيعة إننا ساعدنا الإسلاميين. آه هما الليكود هما اللى عملوا حماس فى الأول. و العمل كمان, كلهم ولاد كلب. بس أنا حاقولك حاجة, آجلا أو عاجلا إسرائيل مش ممكن تعيش بالطريقة دى، سيبك من كل حاجة, الإسرائيليين بيدمروا نفسهم, و الفلسطينيين بيدمروا نفسهم بالهجمات الانتحارية.

شحاتة هارون (القاهرة)

مع جزء من حوار صحفى سبق نشره مع السيدة ماجدة هارون

شحاتة هارون يهودى مصرى ماركسى الفكر, التصق بوطنه وعاش فيه, ورفض الهجرة إلى الخارج تحت أى ظرف من الظروف, وكان يعلن دائماً أن إسرائيل دولة عنصرية، وهو شيوعى قديم قبض عليه عدة مرات, و كان عضواً فى اللجنة المركزية لحزب التجمع حتى وفاته, ودفن فى القاهرة, ورفض فى وصيته أن يأتى حاخام من إسرائيل للصلاة عليه. ونشر شحاتة هارون كتاباً صغيراً فيه خطاب أرسله إلى عبد الناصر فى فبراير عام ١٩٦٧، يطالبه فيه بإعطاء اليهود المصريين حقوقاً مساوية لبقية المصريين, وفى نفس الوقت كان يؤيد عبد الناصر فى سياسته. ويعتقد هارون أن القبض عليه بعد يونيو ١٩٦٧ كان بسبب هذا الخطاب. ونشر أيضا فى الكتاب نفسه مقالة كتبها فى مجلة (الطليعة) فى أكتوبر . ١٩٧٤ ويعتقد أن لها علاقة بالقبض عليه فى يناير . ١٩٧٥ تحدثت المقالة عن السياسة الخارجية الأمريكية والاحتكارات العالمية ومخاطرها.

وعند التحقيق معه قال شحاتة أنا يهودى يسارى, لكن الأهم أنه قال: أنا مصرى, وقال إنه لا يؤمن بتفوق الجيش اليهودى, ومصر لا تعرف ما يسمى بمعاداة السامية, وأى شعور عدائى لليهود هو رد فعل للعدوان الإسرائيلى، وقال إنه لن يترك مصر ولو قطعوا رقبته. وقد قال شحاتة هارون فى حديث صحفى: أنا دائماً منذ عام ١٩٤٧ من المنادين بقبول التقسيم.

ويجيب شحاتة هارون عن سؤال: كيف يكون يهودياً ومعادياً للصهيونية؟ فيقول: أليس الأغرب أن تكون مسلماً وترفض الإخوان المسلمين, أو أمريكياً أبيض وترفض التفرقة العنصرية؟ أنا أرفض الصهيونية لأنها حركة عنصرية عدوانية. ويقول هارون إن الأفكار اليسارية أنقذته من أى تعصب دينى أو طائفى.

وتؤكد نادية شحاته هارون المحامية التى تدير مكتب والدها أن يوم جنازة والدها يلخص شخصيته وحياته ونضاله. وكانت (الأهرام) قد رفضت نشر النعى الذى كان أشبه ببيان سياسى, يقول: أنا مصرى حين يضطهد المصريون, ويهودى حين يضطهد اليهود, وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون, وأسود حين يضطهد السود, لكن نادية قابلت إبراهيم نافع ووافق على نشر النعى.

وقد حضرحاخام من فرنسا لأداء الشعائر فى الجنازة التى حضرها عدد كبير من الأصدقاء, معظمهم من المسلمين, منهم أسامة الباز وراوية ابنة أنور السادات من زوجته الأولى, وكانت جارة العائلة، وتحدثت نادية شحاتة هارون عن العائلة، فقالت إن جدها كان متديناً, ولم تشعر بأى شىء فى المدرسة, إلا أثناء حصة الدين, حين كانت تذهب أحياناً مع الأقباط وأحياناً مع المسلمين, وأحياناً تلعب وحدها فى الحوش.

وتقول ماجدة هارون إن دعوات التفرقة بين الصهيونية بوصفها مذهبا سياسيا استعماريا استيطانيا، واليهودية بوصفها دينا سماويا، ضاعت وسط الخطاب المتداخل من جانب صحفيين وإعلاميين.

وتقول عن أسرتها الصغيرة إن أباها وأمها من اليهود, لذا فهى يهودية، ثم تزوجت مسلما وأنجبت طفلة عمرها الآن ١٨ سنة، وحدث الطلاق وتزوجت مسيحيا وأنجبت طفلة أخرى, وأصبح لديها بنتان إحداهما مسلمة والأخرى مسيحية والأم الآن يهودية.

وتقول أومن بقاعدة أن الدين لله والوطن للجميع, ونحن فى حالة تعايش جميلة

وتقول ماجدة إنها تشعر أحياناً بإحساس روحي ورغبة في الصلاة والتواصل مع الله, فتذهب إلى المعبد، وعليها أن تثبت أنها يهودية حتى يمكنها الدخول, وتجد المعبد فارغاً, وتمكث بضع دقائق, وتشعر بالحزن, لأنه كان في هذا البلد الآلاف من اليهود مثل بقية المصريين بدون تفرقة، لكن السياسة حطمت كل شيء. وعندما سألهما الصحفي: هل ذهبتما إلى إسرائيل صاحتا في صوت واحد – ماجدة ونادية هارون– طبعاً لا.

الخاتمة

اليهود المصريون ليسوا طائفة واحدة, و لا مجموعة متجانسة, وإنما هم مجموعة من البشر, بعضهم عاش في مصر منذ زمن سحيق, والبعض هاجر إليها في القرن الخامس عشر هرباً من الاضطهاد في أسبانيا, والبعض الآخر هاجر إليها في القرن الثامن عشر أوالتاسع عشر و أوائل القرن العشرين من حوض البحر الأبيض المتوسط, ومن أوروبا الشرقية, هرباً من الاضطهاد وسعياً وراء الرزق.

هؤلاء اليهود المصريون كانوا يتكلمون عدة لغات, فالمصريون الأصليون كانوا يتكلمون العربية فقط, والمهاجرون القدامى كانوا يتكلمون العربية والفرنسية و اللادينو, والمهاجرون من أوروبا الشرقية كانوا يتكلمون الييديش, وبعضهم كان يتكلم أكثر من لغة، ولم تكن العبرية بين اللغات التي يعرفها اليهود المصريون، وقبل مغادرة مصر كانت اللغة التي تجمع اليهود المصريين هي الفرنسية.

وكان معظم اليهود المصريين من الربانيين، والأقلية كانت من القرائين. وكانت الفوارق الاجتماعية كبيرة جدا بين كبار الأغنياء من ملاك المصانع والمتاجر الكبرى والأراضي, وبين يهود يأكلون لقمة العيش بالكاد. ولم يجمع بينهم شيء غير الديانة اليهودية، ومما لاشك فيه وأجمعت عليه جميع المصادر أن مصر استقبلت اليهود الهاربين والنازحين من كل مكان بصدر رحب, ورعتهم وساعدتهم, وأصبح لهم وضع متميز في المجتمع المصري. والسؤال الكبير لماذا خرج اليهود من مصر؟.

هل إنشاء دولة إسرائيل هو السبب الأساسي في خروج اليهود ؟ أعتقد أن هذا بالطبع سبب مهم، لكنه ليس السبب الرئيسي, فقد قامت إسرائيل عام ١٩٤٨. وكانت بوادر قيامها واضحة للجميع قبل ذلك بعدة سنوات, ومع ذلك هاجر إلى الخارج

عشرون بالمائة فقط من اليهود المصريين خلال السنوات العشر منذ عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٦ وذهب أقل من نصفهم إلى إسرائيل, عاشت الأغلبية العظمى من اليهود ثماني سنوات كاملة بعد إقامة إسرائيل حتى عام .١٩٥٦ حين خرج معظمهم بعد العدوان العسكرى الإنجليزى الفرنسى الذى اشتركت فيه إسرائيل.

والسؤال: لماذا خرج اليهود بعد ١٩٥٦ ولم يخرجوا بعد ١٩٤٨؟ والإجابه سهلة ، خلال الفترة منذ عام ١٩٤٩ بدأ تطبيق قانون إلغاء الامتيازات الأجنبية, وكذلك أعطى قانون العمل الجديد حقوقاً وأفضلية للمصريين, وحيث إن اليهود المصريين كان معظمهم يحمل جنسية أجنبية, أو بدون أية جنسية و أصبح اليهود فى الظروف الجديدة فى وضع غير مميز, ومن لم يحمل الجنسية المصرية وجد صعوبة فى الحصول على وظيفة, وتأثر بذلك محدودو ومتوسطو الدخل . أما الأغنياء وكبار الرأسماليين فقد شاهدوا بأعينهم رياحاً جديدة تهب فى محاولة للحد من سلطة رأس المال الخاص وتوسيع ملكية الدولة وسلطتها، ولم يكن هذا الأمر موجهاً ضد اليهود, بل كان ضد كل الرأسماليين الأجانب والمصريين, بغض النظر عن ديانتهم. فى مثل هذه الظروف بدأت الجالية اليهودية – فقراؤها وأغنياؤها – فى التفكير فى الهجرة, لكنهم لم يتخذوا هذا القرار الصعب, لأنه كان لديهم أمل في أن يحدث شيء ما فى نظام الحكم المصرى, وفى هذه الحالة تعود الأمور كما كانت بالنسبة لهم.

وخلال تلك السنوات ضغطت إسرائيل على اليهود المصريين، ليهاجروا من وطنهم عن طريق القوة الهائلة للصهيونية العالمية، وعن طريق إثارة الفتنة والكراهية ضدهم من الشعب المصرى, بأحداث مثل فضيحة لافون التى حرضت فيها الموساد بعض اليهود المصريين على القيام بتفجيرات وعمليات إرهابية على أهداف مدنية فى مصر, وتلا ذلك الهجوم على غزة, وفى النهاية كان عدوان ,١٩٥٦ ومما لاشك فيه أن كل هذا خلق جواً غير ودى تجاه اليهود المصريين، مما سهل اتخاذهم قرار الهجرة.

بقيت نقطتان, الأولى : هل طرد اليهود من مصر عام ١٩٥٦؟ والإجابة نجدها بأقلام كبار الدارسين، مثل بنيين الذى يوضح أن قلة من اليهود ذوى الارتباطات الصهيونية قبض عليهم لفترات قصيرة, وذلك فى نفس الوقت الذى قبض فيه على عشرات الآلاف من المسلمين والأقباط، الذين ذاقوا الأهوال فى السجن, مقارنة بما

حدث لليهود، مما يعنى أن الأمر لم يكن ضد اليهود، لكن له أسباب سياسية وأيديولوجية واقتصادية.

إذن ماذا حدث ولماذا خرج اليهود؟ فى تقديرى أنه قد مرت على اليهود المصريين نحو عشر سنوات شعروا فيها بأن الظروف السياسية والاقتصادية تغيرت فى غير صالحهم، ولم يصبحوا هم المميزين بين أفراد الشعب المصرى، وكان اشتراك إسرائيل فى العدوان العسكرى على مصر ضربة نفسية قاصمة لليهود المصريين، حيث شعروا بأن هذا العدوان فك أواصر علاقتهم بالوطن، لذا قرروا الهجرة، وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الغالبية العظمى من اليهود لم يطردوا ولم تصادر أملاكهم عام ١٩٥٦، و قد صودرت أموال الإنجليز و الفرنسيين الذين كان بينهم بعض اليهود، بالإضافة إلى أعداد قليلة من الصهاينة الناشطين. وقلة قليلة من اليهود الذين كان لهم نشاط صهيونى هم الذين قبض عليهم، أو صدرت الأوامر برحيلهم، ورحلوا بالفعل إلى خارج مصر، أما الباقون فقد غادروا برغبتهم، وباع معظمهم ممتلكاتهم فى مصر، وتسببت الرغبة – غير المبررة في الهجرة فورا– في تسرع البعض فى بيع ممتلكاتهم بأسعار أقل من سعر السوق. وأعتقد أننى بعد أن قابلت عدداً من اليهود الذين غادروا مصر فى تلك الفترة وسجلت أحاديثهم فى هذا الكتاب، عرفت أن الخوف هو السبب الأساسى فى الهجرة، وذلك بالرغم من عدم تعرض اليهود لأى أذى أو ضغط، ويبدو أن حالة من الرعب العام انتابت الجميع، وكان من أسبابها التاريخ اليهودى القريب للأحداث فى أوروبا، وما ترسب من التاريخ اليهودى القديم فى أعماق اليهود، وساعد على ذلك ما قامت به الصهيونية العالمية من تشجيع وتخويف اليهود المصريين، بالإضافة إلى كل التسهيلات التى قامت بها لتهجيرهم. وخلاصة الأمر أنه كانت هناك حالة من الهيستريا ساعدت على انتشارها الشخصية اليهودية والدعاية الصهيونية وطبيعة الحكم العسكرى فى مصر. وكل ذلك لم يكن من الممكن أن يعطى الأمان لليهود المصريين.

والسؤال المهم الثانى: أين ذهب اليهود المصريون؟ لقد ذهب أكثر من نصفهم إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الجنوبية وأستراليا، والأقلية ذهبت إلى إسرائيل، وكان من ذهب إلى إسرائيل هم الفقراء والأقل تعليماً والذين كانوا بدون جنسية.

والسؤال الأخير: لو لم تكن هناك دولة إسرائيل ولا الصهيونية العالمية ولا النزاع العربي- الإسرائيلي كيف كان سيصبح مستقبل اليهود المصريين و مصيرهم؟ في تقديري أن ما حدث كان شيئا لابد من حدوثه, فمعظم اليهود المصريين حضروا إلى مصر سعياً وراء الرزق والمستوى الأعلى من المعيشة، وهو ما أعطته مصر بسخاء, لكن بعد الحرب العالمية الثانية وتنفيذ مشروع مارشال في أوروبا, كان واضحاً أن الموقف الاقتصادي والسياسي سوف يكون أفضل في أوروبا من الموقف في مصر. و كان الخوف والهلع من أوروبا قد ولى بنهاية النازية والفاشية، لذا قرر معظم اليهود أن مصلحتهم في الهجرة إلى أوروبا, وقد هاجروا إلى هناك. أما الذين لم يكونوا يملكون أموالاً ولا جنسية و لا تعليماً متقدماً, فكانت إسرائيل هي الوجهة الطبيعية لهم, وهكذا ترك اليهود المصريون بلدهم الذي عاشوا فيها معززين مكرمين سنين طوالا، باستثناء قلة من اليهود الشيوعيين الذين فضلوا البقاء في وطنهم مصر. واتضح لي من الأحاديث الشخصية مع يهود مصريين هاجروا إلى أوروبا وأمريكا أنهم يعتزون بمصر وأيامهم الجميلة فيها ويذكرونها بكل خير, ولا يحملون أي ضغينة لمصر والمصريين, وهو ما يختلف تماماً عن الصورة القاتمة الموجودة في موقع الجمعية التاريخية لليهود المصريين وبعض الكتب. أما من ذهبوا إلى إسرائيل فقد تكلموا لأول مرة بوضوح عن وطنهم الأول بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر, وتذكروا أيامهم الجميلة فيها. بقيت قلة من اليهود المصريين النشطاء في نيويورك ممن لهم مواقع على الإنترنت ينشرون من خلالها أحداثاً غير حقيقية, ويحملون مشاعر عدائية تجاه مصر والمصريين لكن في المقابل هناك مواقع دولية لليهود المصريين الذين يحملون ذكريات طيبة عن مصر, ويتكلمون عن تاريخهم من وجهة نظر معقولة، و أخص بالذكر اليهود الشيوعيين المقيمين في فرنسا الذين يتميزون بالحب الشديد و الإخلاص لمصر التي يعدونها وطنهم الأول. والحقيقة أن اليهود استمروا في العيش في مصر بوصفهم قومية منفصلة، ولم ينصهر معظمهم في الشعب المصري ، مثلهم في ذلك مثل الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية, التي عاشت أجيالاً في مصر محتفظة بلغاتها ومدارسها وكنائسها, وفي النهاية حين تغيرت ظروفهم في مصر إلى الأسوأ, أو تحسن الوضع في أوروبا، قرروا الهجرة من مصر, وهاجروا بالفعل, وما حدث لهذه الجاليات مشابه لما حدث لليهود المصريين. وأعتقد أن ما ذكره إحسان عبدالقدوس في إحدى رواياته يمثل الحقيقة

والصـدق، حـيث قـال :إن اليـهـود هـم الذين طردوا أنفسـهـم، وإن يهـود مـصـر لم يُخْتَطَفُوا، لقد اختاروا، ومن حق كل إنسان أن يختار وطنه.

المراجع الأجنبية :

Culture, politics .The dispersion of Egyptian Jewery ١,
Universi- .Joel Beinin .and formation of a modern Diaspora
ty of California Press 1998.

2. The Jews in modern Egypt 1914-1952. Gudrun Kram-
publication on ٤, .No .London .Ltd .Tauris and Co .B.I .er
١٩٨٩, .Near East University of Washington

A Mediterranean Society in mod- .The Jews of Egypt ٣,
West View Press, .Edited by Shimon Shamir .ern times
Boulder and London 1987.

Gabasso, E Carasso .G .Images et texts .4. Juifs d'Egypte
A Cohen, M Deloro-Q?eré, E Gabby, E Harari, J Hassoun,
M Lehman, L, Mizrahi, A Morabia, M Sofer, I Stambouli, R
Second Edition 1984 .Stambouli, A Zivie

Riverhead .André Aciman .5. Out of Egypt: A memoir
USA 1994 .Y.N .books

André Aci- .6. False papers: essays on exile and money
, USA 2001..Y.N .Farrar, Strausaud Girou .man

7. The Jews of Egypt, 1920-1970: In the midst of Zion-
Michael .ism, anti-Semitism and the middle east conflict
New York University Press 1992. .Laskeir

8. The Kariate Jews of Egypt 1882-1986. Mourad El-
, USA 1987..Y.N .WilPrint Inc .Kodsi

The history of Cam- .9. A Jewish archive from old Cairo Cur- .Reif .Stefan C .bridge University's Genizah Collection Richmond Surrey 2000. .zon Press

10. Alexandria 1860 - 1960. The life of a cosmopolitan Bafra .Edited by Robert Ilbert and Illio Yannakakis .society Aléxandria, Egypt 1992. .Graphics

11. Maadi 1902 - 1962 society and history in Cairo sub- Cairo Palm Press 1994. .Samir Raafat .urb

Manchester Uni- .Row Ley .12. Israel's sojourn in Egypt versity Press UK 1938

.Ada Aharoni .13. The second Exodus, A historical Novel Dorrance and Company USA 1983.

Albert Oudiz 2004. .14. Je viens d'un pays qui n'existe plu

المراجع العربية :

١- اليهود و الحركة الصهيونية في مصر، أحمد غنيم و أحمد أبو كف، كتاب الهلال عدد ٢١٩ يونيو ,١٩٦٩

٢- اليهود و الماسون في مصر، علي شلش، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ,١٩٨٦

٣- اليهود في مصر (١٨٨٢-١٩٤٨)، سعيدة محمد حسني، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ,١٩٩٣

٤- يعقوب داود الإسكندراني في الصهيونية و رعايا من اليهود الشرقيين في رافائيل شابيرو، دار الحمراء، بيروت، ,١٩٩١

٥- اليهود في مصر، قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة، ,١٩٩٣

٦- الجنيزا و المعابد اليهودية في مصر، محمد خليفة حسن و النبوي جبر سراج،

مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة. سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية ١٩٩٩,

٧- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية ١٥١٧ - ,١٩١٤ تحرير يعقوب لانداو. ترجمة جمال الرفاعي و أحمد حماد و تقديم و مراجعة محمد خليفة حسن. المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومي للترجمة ,٢٠٠٠

٨- يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ,٢٠٠٠ عرفة عبده علي. الهيئة المصرية للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين. ,٢٠٠٠

٩- الحياة الاقتصادية و الاجتماعية لليهود في مصر ١٩٤٧ - ١٩٥٦، نبيل عبد الحميد السيد. القاهرة. مكتبة مدبولي ١٩٩١.

١٠- ملف اليهود في مصر الحديثة. عرفة عبده علي. على نفقة المؤلف. القاهرة ١٩٩٣.

١١- اليهود في مصر بين قيام إسرائيل و العدوان الثلاثي: ١٩٤٨ - ١٩٥٦. نبيل عبد الحميد سيد أحمد. الهيئة المصرية للكتاب. مركز وثائق و تاريخ مصر المعاصر ١٩٩١.

١٢- يهود مصر: دراسة في الموقف السياسي ١٨٩٧ - ١٩٤٨ و محمود سعيد عبد الظاهر. مركز الدراسات الشرقية. جامعة القاهرة. سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية. القاهرة ٢٠٠٠.

١٣- نحو فهم طريق مصر الاقتصادي الاجتماعي. عاصم دسوقي. دار الكتاب الجامعي ١٩٨١.

١٤- اليهود المصريون - صحفهم و مجلاتهم ١٨٧٧- ١٩٥٠. سهام نصار. العربي للنشر و التوزيع. القاهرة ١٩٨٠.

١٥- الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ - ١٩٥٤. عواطف عبد الرحمن. دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠.

١٦- موقف الصحافة المصرية من الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩١٧. سهام نصار. الهيئة المصرية للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩١.

١٧- الصحافة الإسرائيلية و الدعاية الصهيونية في مصر. سهام نصار، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩١.

١٨- تاريخ المسألة المصرية، تيودور روثشتين، ترجمة عبد الحميد و محمد بدران ١٩٢٣.

١٩- الأجانب في مصر: دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي. محمود محمد سليمان. عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ١٩٩٦ القاهرة.

٢٠- اليهود. جمال حمدان، كتاب الهلال، القاهرة، فبراير ١٩٩٦.

٢١- من أرشيف اليسار- المجموعة الكاملة، رفعت السعيد، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٩.

٢٢- تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، د. رفعت السعيد، مجموعة مجلدات صدرت منذ ١٩٧٢. دار الفرابي، بيروت و أعيد طبعها عدة مرات.

٢٣- وثائق و مواقف من تاريخ اليسار المصري ١٩٤١- ١٩٥٧. أبو يوسف يوسف، على نفقة المؤلف، شركة الأمل للطباعة و النشر، يناير ٢٠٠٠.

٢٥- أوراق هنري كورييل و الحركة الشيوعية المصرية، دراسة رؤوف عباس و ترجمة عزة رياض، سينا للنشر، القاهرة ١٩٨٨.

٢٦- هنري كورييل: رجل من طراز فريد، جيل بيرو، ترجمة كميل داغر، دار النضال، بيروت، ١٩٨٦.

٢٧- من أجل سلام عادل في الشرق الأوسط، هنري كورييل، دار الثقافة الجديدة ١٩٩٩.

٢٨- الكاتب المصري ١٩٤٥ - ١٩٤٨. المجموعة الكاملة، رئيس التحرير طه حسين، دراسة و تقديم عبد العزيز شرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨.

٢٩- القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس و عبد الناصر. عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣.

٣٠- مذكرات مناضلة: رسائل إلى حبايبي الجزائر و فلسطين، ديدار فوزي

روسانو. ترجمة مراد خلاف. دار العالم الثالث. القاهرة ٢٠٠٤.

٣١- سبع سنوات في بلاد المصريين. موشيه ساسون. دار الكتاب العربي. دمشق القاهرة ١٩٩٤.

٣٢- يهودي في القاهرة. شحاتة هارون. على نفقة المؤلف ١٩٨٧.

٣٣- مصر في قلبي. اسحاق بار موشيه. وزارة التعليم و الثقافة في إسرائيل - دائرة الثقافة العربية الناصرية. إسرائيل ١٩٩٤

٣٤- ليلى مراد. صالح مرسي. كتاب الهلال. القاهرة ١٩٩٥.

٣٥- الرجل الذي ولد مرتين: قصة يهودي مصري هاجر إلى إسرائيل. فيكتور نحمياس. طبعة على نفقة المؤلف في مطبعة المعارف. إسرائيل ٢٠٠٤.

٣٦- العودة للإسكندرية: روبير داسا. مركز الراية، القاهرة ٢٠٠٣.

٣٧- يهود لكن مصريون. سليمان الحكيم. دار الأمين القاهرة ١٩٩٩.

٣٧- الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس.د. رشاد عبد الله الشامي. كتاب الهلال. القاهرة ١٩٩٢.

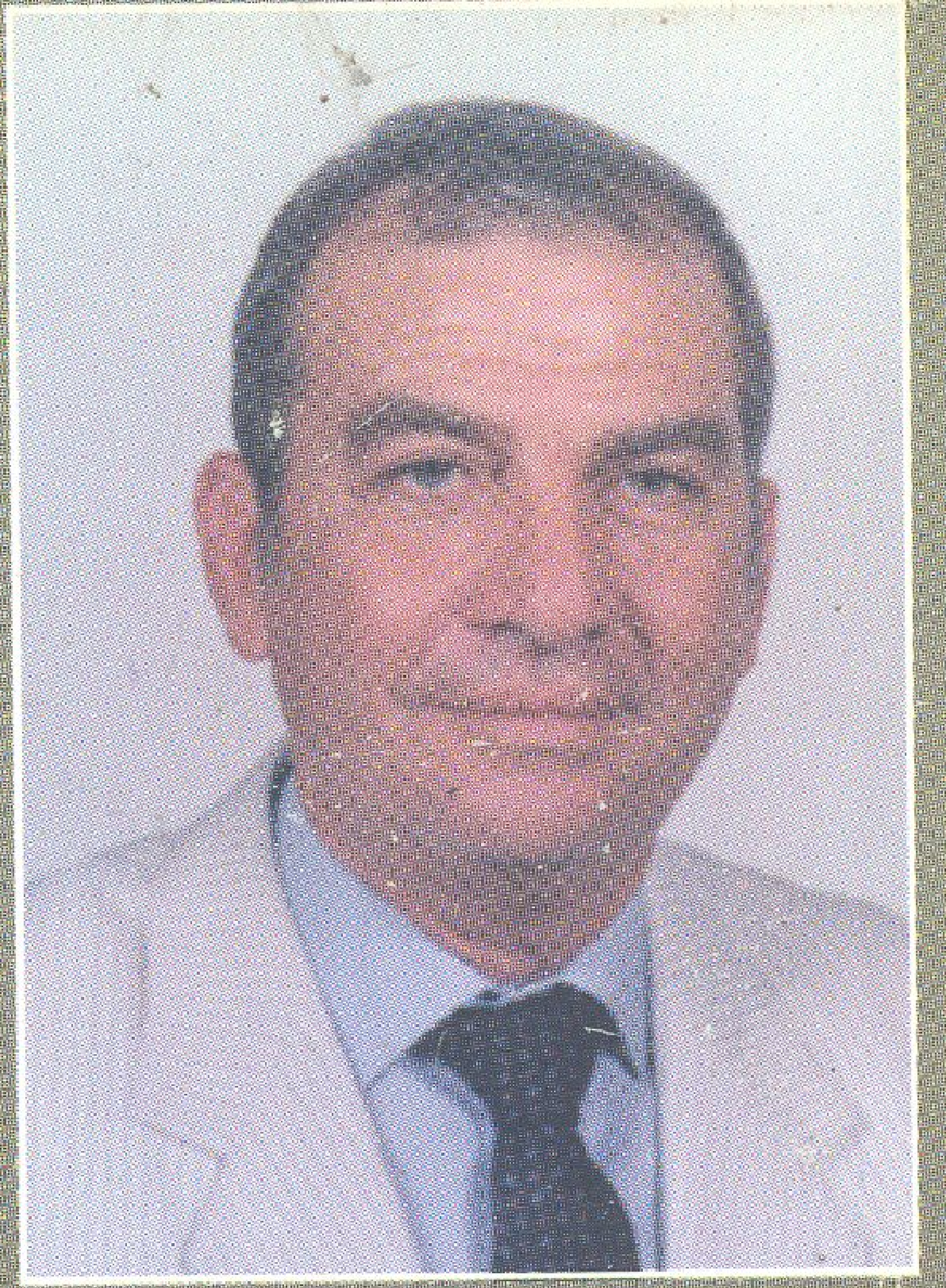
الفهرس

رقم الايداع

١٩٧٠٨ / ٢٠٠٤

I.S.B.N.

977-07-1101-2



المؤلف

تخرج من جامعة القاهرة في عام ١٩٦٢ و التحق بهيئة التدريس بها منذ تخرجه، ثم حصل علي الدكتوراه عام ١٩٦٩ .

و أصبح أستاذا بها منذ عام ١٩٧٩ و له أكثر من مائة بحث أكاديمى منشور فى كبري الدوريات العالمية فى تخصصه. و له أيضا كتابان خارج تخصصه احدهما إهدار استقلال الجامعات و الآخر علي هامش الرحلة، بالإضافة إلي عدد كبير من المقالات التى نشرت فى الصحف و المجلات المصرية وكتاب يهود مصر هو الكتاب الثالث.

هذا الكتاب

يروى في هذا الكتاب حكاية اليهود المصريين فى القرن العشرين، ويشرح أصولهم و مذاهبهم المختلفة و نشاطهم الاقتصادى بجوانبه المختلفة ونشاطهم السياسى الذى تركز فى الانتماء إلي الشيوعية أو الصهيونية، ودورهم الثقافى وعلاقتهم بالفن والصحافة. ويلقى الضوء علي علاقة يهود مصر بالصهيونية فى فترات مختلفة خلال هذا القرن، وكذلك علاقة بقية الشعب المصرى بيهود مصر وتطورها المثير خلال نصف قرن. ويصور الكتاب الحياة الاجتماعية ليهود مصر ومدارسهم ومستشفياتهم ومعابدهم ويبين التطور الهائل فى الشخصية اليهودية المصرية خلال عقود قليلة، ويشرح كيف أدي التطور فى القضية الفلسطينية إلي إحداث شرخ فى علاقة مصر بيهودها. يحكى الكتاب ما حدث لليهود المصريين خلال عقود من الازدهار أثناء حياتهم فى مصر، ويشرح أسباب هجرتهم النهائية، وأين ذهبوا ؟ وماذا قالوا عن مصر وأهلها، فالكثير منهم لم يفقدوا اهتماماتهم بمصر بعد الرحيل. هذه الصفحات [illegible] تتبع حياة يهود مصر طوال القرن العشر[illegible]هاراتها وانتكاساتها.

الثمن ١٥ جنيهاً